«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الثالث

تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد إبراهيم

محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الانصاري
الرقم العام : ٣٥٥
رقم التصنيف : ٢١٢٫٢ ٥٣٤

« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

٢١٢
ع م

الجزء الثالث

تحقيق وتعليق

٨٧

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري   السيد عبد العال السيد ابراهيم

محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

الطبعـــة الأولى

الدوحـــــة : رجـــب ١٤٠٢ هـ
آيار – مايو ١٩٨٢ م

« تفسيرُ ابن عطيةِ خير من تفسير الزمخشري ، وأَصح نقلا وبحثاً ، وأَبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أَرجح هذه التفاسير » .

(ابن تيمية)

« لمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أبو محمد عبدالحق ابن عطية من المتأَخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أَقرب إلى الصحة منها »

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجُزءُ الثالِثُ

وَيَبدأُ بِقَولِهِ عزّ وَجَل :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ
عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ
ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

آل عمـــران

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

تفسير سورة آل عمران

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت[١] ، وذكر النقاش أن اسم هذه السورة في التوراة : طيبة[٢] .

قوله عز وجل :

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

قد تقدم ذكر اختلاف العلماء في الحروف التي في أوائل السور في أول سورة البقرة ، ومن حيث جاء في هذه السورة [اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم] جملة قائمة بنفسها فتتصور تلك الأقوال كلها في : [ألَمّ] في هذه السورة ، وذهب الجرجاني في النظم إلى أن أحسن الأقوال هنا

(١) صدر هذه السورة إلى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران، وقد وفدوا على النبيّ وهو في المدينة.

(٢) تسمى أيضاً: الزهراء، والأمان، والكنز، والمعينة، وسورة الاستغفار.

أن يكون [أَلَمّ] إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول : هذه الحروف كتابك أو نحو هذا ، ويدل قوله [الله لا إله إلاَّ هُوَ الحيُّ القيومُ نزَّلَ عليكَ الكتابَ] على ما ترك ذكره مما هو خبر عن الحروف ، قال : وذلك في نظمه مثل قوله تعالى : [أَفَمنْ شَرحَ اللَّهُ صدْرَهُ لِلإسْلام فَهُوَ على نور من ربه ﴾ وترك الجواب لدلالة قوله : [فويلٌ لِلْقاسِيةِ قُلوبُهم مِنْ ذكْرِ اللَّه](1) تقديره : كمن قسا قلبه ، ومنه قول الشاعر(2) :

فلا تدفنوني إنَّ دَفْني مُحَرّمٌ عليكُمْ ، ولكن : خامري أمَّ عامر

التقدير : ولكن اتركوني للتي يقال لها : « خامري أُمَّ عامر » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يحسن في هذا القول أن يكون [نزَّلَ] خبرَ قوله [اَللَّه] حتى يرتبطَ الكلام إلى هذا المعنى . وهذا الذي ذكره القاضي الجرجانيّ فيه نظر، لأن مثله ليست صحيحة الشبه بالمعنى الذي نحا إليه ، وما قاله في الآية محتمل ، ولكن الأبرع في نظم الآية أن تكون [أَلَمّ] لا تضم ما بعدها إلى نفسها في المعنى ، وأن يكون [الله لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّوم] كلاماً مبتدأ جزماً جملة رادّةً على نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله عليه السلام فحاجّوه في عيسى بن مريم وقالوا : إنه

(1) من الآية: ٢٢ من سورة الزُّمَر.

(2) هو الشنفرى، وأم عامر كنية الضبع؛ وخامري: استتري، وقوله: «خامري أم عامر» يجري مجرى المثل، وهو يضرب للذي يرتاع من كل شيء جبناً. انظر الميداني ١ : ١٦٠، وجمهرة الأمثال للعسكري ١ : ٤١٦، والمستقصي : ٢٠٧، وفصل المقال: ١٨٧، وبيت الشنفرى في الحيوان ٦ : ٤٥٠ (منسوباً لتأبط شرا)، والعقد ١ : ٥٣، والأزمنة والأمكنة ١ : ٢٩٣، والمخصص ١٣ : ٢٥٨.

الله ، وذلك أن ابن إسحٰق والربيع وغيرهما[١] ممن ذكر السير رووا[٢] أن وفد نجران قدم على رسول الله ﷺ نصارى ستون راكباً ، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً ، في الأربعة عشر[٣] ثلاثة نَفَر إليه يرجع أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم[٤] وصاحب مجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم ؛ فدخلوا على رسول الله ﷺ المسجدَ إثرَ صلاةِ العصر ، عليهم الحَبِرَاتُ[٥] جببٌ وأردية ، فقال أصحاب رسول الله عليه السلام : ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة ، وحانت صلاتهم فقاموا فصلَّوا في مسجد رسول الله ﷺ إلى المشرق فقال النبي ﷺ : (دعوهم) ؛ ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه الله ، إلى غير ذلك من أقوال بشعة مضطربة ، ورسولُ الله ﷺ يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون ، ونزل فيهم صدرُ هذه السورة إلى نيف وثمانين آية إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهال[٦] ، وسيأتي تفسير ذلك .

(١) في بعض النسخ: وغيرهم

(٢) انظر ابن هشام ١ : ٥٧٣ (ط ١٣٧٥)

(٣) زاد في بعض النسخ: رجلاً، وهي ساقطة في نص سيرة ابن هشام.

(٤) ثمال القوم: من يقوم بأمرهم أو هو أصلهم الذي يقصدون إليه.

(٥) الحبرة بفتح الباء وكسرها: ثوب من قطن أو كتان مخطط، كان يصنع باليمن، وجمعه حبرات بالفتح والكسر أيضاً.

(٦) انظر الحديث عن الابتهال أو المباهلة في السيرة ١ : ٥٨٣، وفتح القدير ١ : ٢٨٣، وعيون الأثر ١ : ١٢٩ : والابتهال هو: اجتماع القوم المختلفين في أمر للدعاء على الجائر منهم بنزول اللعنة عليه، ومثله: التباهل والمباهلة؛

وقرأ السبعة [أَلَـمَ الله] بفتح الميم والألف ساقطة ، وروي عن عاصم أنه سكَّنَ الميم ثم قَطَعَ الألف ، وروى الأولى التي هي كالجماعة حفص ، وروى الثانية أبو بكر ، وذكرها الفراء عن عاصم ، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي[(١)] وأبو حيوة [ألـم] بكسر الميم للالتقاء[(٢)] وذلك رديء لأن الياء تمنع من ذلك ، والصواب الفتح قراءة جمهور الناس . قال أبو علي : حروف التهجّي مبنيةٌ على الوقف فالميم ساكنة واللام ساكنة فحركت الميم بالفتح كما حركت النون في قولك : منَ الله ومنَ المسلمين إلى غير ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن قال بأن حركة الهمزة ألقيت على الميم فذلك ضعيف لإجماعهم على أن الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل فما يسقط فلا تلقى حركته ، قاله أبو علي[(٣)] .

---

(١) اسمه محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي الكوفي النحوي، له اختيار في القراءة واختيار في الوقوف، روى عنه الكسائي والفراء (غاية النهاية ٢ : ١١٦، وبغية الوعاة ٢ : ٨٢، وطبقات الزبيدي: ١٣٥).

(٢) في بعض النسخ: لالتقاء الساكنين.

(٣) جاء في تفسير الزمخشري: «وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف، فإن قلت: كيف جاز إلقاءُ حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها لأن إثبات حركتها كإثباتها؟ قلت: هذا ليس بدرج، لأن (ميم) في حكم الوقف، والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حذفت تخفيفا، وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: (واحد اثنان) بإلقاء حركة الهمزة على «الدال» .

وقد تقدم تفسير قوله : [الحيُّ القَيُّوم] في آية الكرسيّ ، والآية هنالك إخبار لجميع الناس ، وكررت هنا إخباراً بحجج[1] هؤلاء النصارى ، ويرد عليهم أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى عليه السلام لأنهم إذ يقولون إنه صلب فذلك موت في معتقدهم لا محالة، إذ من البين أنه ليس بقيوم .

وقرأ جمهور القراء [القيُّومُ] وزنه فيعول ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلقمة بن قيس [القيَّامُ] وزنه ـ فيعال ـ وروي عن علقمة أيضاً أنه قرأ [القيّم] وزنه فيعل ، وهذا كله من : قام بالأمر يقوم به إذا اضطلع بحفظه وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده ، والله تعالى القيّام على كل شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه .

وتنزيل الله الكتاب هو بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، و [الكتاب] في هذا الموضع القرآن باتفاق من المفسرين .

وقرأ جمهور الناس [نزَّل عليك] بتشديد الزاي [الكتابَ] بنصب الباء ، وقرأ إبراهيم النخعي [نَزَلَ عليك الكتابُ] بتخفيف الزاي ورفع الباء ، وهذه الآية تقتضي أن قوله : [الله لا إله إلا هو الحي القيوم] جملة مستقلة منحازة .

---

(١) هكذا جاءت في كل النسخ، إلا في نسخة واحدة فقد جاءت (يحجُّ) وهو المقبول والمناسب للمعنى.

وقوله ﴿بالْحَقِّ﴾ يحتمل(١) معنيين: أحدهما أن يكون المعنى ضمن الحقائق من خبره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباءُ على حدِّها في قوله: جاءني كتابٌ بخبر كذا وكذا، أي ذلك الخبر مقتصّ فيه، والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن ينزل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله، بل له بالحقِّ أن يفعله، فالباءُ في هذا المعنى على حدها في قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليْسَ لي بحَقٍّ﴾(٢). وقال محمد بن جعفر بن الزبير(٣): معنى قوله ﴿بالحق﴾: أي فيما اختلف فيه أهلُ الكتاب واضطرب فيه هؤلاء النصارى الوافدون، وهذا داخل في المعنى الأول.

و ﴿مُصَدِّقاً﴾ حالٌ مؤكدة وهي راتبةٌ غير منتقلة لأنه لا يمكن أن يكونَ غيرَ مصدّق لما بين يديه من كتب(٤) الله، فهو كقول ابن دارة(٥):

أنا ابنُ دارةَ معروفاً بها نسبي وهل بدارةَ يا لَلناس من عار؟

---

(١) في بعض النسخ: يقتضي.

(٢) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٣) من فقهاء أهل المدينة وقرائهم، روى عنه ابن إسحق وابن جريج وغيرهما، توفي بين ١١٠- ١٢٠ هـ (تهذيب التهذيب ٩: ٩٣).

(٤) في بعض النسخ: كتاب.

(٥) دارة اسم أمه، قال ابن قتيبة: سميت بذلك لأنها شبهت بدارة القمر لجمالها، واسم أبيه مسافع، شاعر مخضرم هجاء وبسبب الهجاء قتل (انظر الشعر والشعراء: ٣١٥ والخزانة ١: ٣٨٩، ٥٥٧، والأغاني ٢١: ٤٩، ، والسمط ٦٨٨، ٨٦٢، وشرح التبريزي على الحماسة ١: ٢٠٥).

و﴿ ما بينْ يدَيْهِ ﴾ التوراة والإنجيل وسائر كتب الله التي تلقيت من شرعنا كالزبور والصحف ؛ وما بين اليد في هذه الحوادث هو المتقدم في الزمن .

و﴿ التَّوراةَ والإنْجيلَ ﴾ اسمان أصلهما عبراني لكن النحاةَ وأهلَ اللسان حملوهما على الاشتقاق العربي ، فقالوا في التوراة : إنها من ورى الزند[١] يَرِي[٢] إذا قدح وظهرت ناره ، يقال : أوريته فوري ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فالموريات ﴾[٣] وقوله : ﴿ أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتي تُورون ﴾[٤] . قال أبو علي : فأَما قولهم : وَرِيَتْ بك زنادي على وزن فَعِلَتْ فزعم أبو عثمان أنه استعمل في هذا الكلام فقط ولم يجاوَزْ به غيره .

وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين فوعلة كحوقلة ، أصلها وَوْرَية قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في « تولج » وأصله « وولج » من : ولجت . وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين : ان توراة أصلها تَفْعَلة بفتح العين ، من : وَرِيَتْ بكَ زنادي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

(١) في بعض النسخ : الزناد.
(٢) يري : سقطت من بعض النسخ.
(٣) من الآية ٢ من سورة العاديات.
(٤) الآية ٧١ من سورة الواقعة.

وإنما ينبغي أن تكون من : أوريت ، قال : فهي تَوْرِية . وقال بعضهم : يصلح أن تكون تفعِلة بكسر العين مثل توصية [ثم ردَّت إلى تفعَلة بفتح العين . قال الزجاج وكأنه يجيز في توصية][(١)] توصاة وذلك غير مسموع ، وعلى كلّ قولٍ فالياءُ لما انفتح ما قبلها وتحركت هي انقلبت ألفاً فقيل:توراة ، ورجَّح أبو علي قولَ البصريين وضعَّفَ غيرَه .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : (التوراة) مفتوحة الراء، وكان حمزة ونافع يلفظان بالراء بين اللفظين بين الفتح والكسر، وكذلك فعلا في قوله: ﴿مَعَ الأبرار﴾ و﴿من الأشرار﴾ و﴿من قرار﴾[(٢)] إذا كان الحرف مخفوضاً . وروى المسيبي[(٣)] عن نافع فتح الراء من التوراة ، وروى ورش عنه كسرها ، وكان أبو عمرو والكسائي يكسران الراء من التوراة ويميلان ﴿ من الأبرار ﴾ وغيرها أشدَّ من إمالة حمزة ونافع .

وقالوا في الإنجيل : إنه إفعيل من النجْل ، وهو الماءُ الذي ينز[(٤)] من الأرض ؛ قال الخليل : استنجلت الأرض وبها نجالٌ إذا خرج

---

(١) ما بين معقفين سقط في بعض النسخ.

(٢) (مع الأبرار) من الآية ١٩٣ من سورة آل عمران- و (من الأشرار) من الآية ٦٢ من سورة (ص)، و (من قرار) من الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٣) هو إسحق بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي، روى عن أبي الزناد ومالك ونافع، توفي سنة ٢٠٦ هـ (تهذيب التهذيب ١: ٢٤٩).

(٤) ينز من الأرض: يتحلب منها وهذا هو النز- بفتح النون وكسرها-.

منها الماء . والنجْلُ أيضاً الولد والنسل قاله الخليل وغيره ، ونجله أبوه أي ولده ، ومن ذلك قول الأعشى[١] :

أنجب أيامَ والداه به إذ نَجَلاه فنعم ما نجلا

قال ابن سيدة عن أبي علي : معنى قوله : «أيام والداه به» كما تقول : أنا بالله وبك ، وقال أبو الفتح : معنى البيت : أنجب والداه به أيام إذ نجلاه، فهو كقولك : حينئذ ويومئذ لكنه حال بالفاعل بين المضاف الذي هو « أيام » وبين المضاف إليه الذي هو « إذ » . ويروى هذا البيت : «أنجب أيامَ والديه» . والنجْلُ:الرمي بالشيء وذلك أيضاً من معنى الظهور وفراق شيء شيئاً ، وحكى أبو القاسم الزجاجي[٢] في نوادره : ان الوالد يقال له : نجْل ، وأن اللفظة من الأضداد ، وأما بيت زهير فالرواية الصحيحة فيه :

. . . . وكلُّ فحلٍ له نَجْلُ[٣]

أي ولد كريم ونسل . وروى الأصمعي فيما حكي [عنه][٤] «وكلُّ فرعٍ له نجل » ، وهذا لا يتجه إلا على تسمية الوالد نجلا . وقال الزجاج :

---

(١) بيت الأعشى في ديوانه: ١٣٥، وانظر اللسان والتاج في مادة (نجل).

(٢) اسمه عبد الرحمن بن إسحق، نسب إلى شيخه إبراهيم الزجاج، وهو مصنف «الجمل» وغيره من المصنفات؛ توفي بطبرية سنة ٣٩٣ هـ (انظر انباه الرواة ٢ : ١٦٠ وفي الحاشية ثبت بمصادر ترجمته).

(٣) بيت زهير:

إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم أصاغرهم ، وكلّ فحلٍ له نجل

(٤) عنه: سقطت من بعض النسخ.

الإنجيل مأخوذٌ من النجل وهو الأصل، فهذا ينحو إلى ما حكى أبو القاسم .

قال أبو الفتح : فالتوراة من وَرَى الزناد[١] إذا ظهرت ناره ، والإنجيل من نَجَلَ إذا ظهر ولده ، أو من ظهور الماء من الأرض ، فهو مستخرَجٌ إما من اللوح المحفوظ وإما من التوراة .

و ﴿ الفُرْقان ﴾ من الفرق بين الحق والباطل ، فحروفها مختلفة والمعنى قريبٌ بعضه من بعض ، إذ كلها معناه : ظهور الحق وبيان الشرع وفصله من غيره من الأباطيل .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿الأَنجيل﴾ ـ بفتح الهمزة ـ وذلك لا يتجه في كلام العرب ، ولكن تحميه مكانة الحسن من الفصاحة ، وأنه لا يقرأ إلا بما روى ، وأراه نحا به نحو الأسماء الأعجمية .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني من قبل القرآن[٢] .

وقوله : ﴿هدًى لِلنَّاس﴾ معناه : دعاء ، والناس : بنو إسرائيل في هذا الموضع ، لأنهم المدعوون بهما لا غير ، وإن أراد أنهما هدى في ذاتهما مدعو إليه فرعون وغيره ، منصوب[٣] لمن اهتدى به ، فالناس عامٌّ في كلِّ من شاء حينئذٍ أن يستبصر .

---

(١) في بعض النسخ : الزند.
(٢) في بعض النسخ : الفرقان.
(٣) في بعض النسخ : مقصور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال هنا : ﴿لِلنَّاس﴾ ، وقال في القرآن : ﴿هدى للمتقين﴾ وذلك[١] عندي لأن هذا خبر مجرد ، وقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ خبرٌ مقترنٌ به الاستدعاء والصرفُ إلى الإيمان ، فحسنت الصفة ، ليقع من السامع النشاطُ والبِدار ، وذكر الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب ، وهنا إنما ذكر الهدى الذي هو الدعاء ، والهدى الذي هو في نفسه معدّ أن يهتدي به الناس ، فسمي هدى لذلك ، وقال ابن فورك[٢] : التقدير هنا : هدىً للناس المتقين ، ويردّ هذا العام إلى ذلك الخاص ، وفي هذا نظر .

والفرقان : القرآن ، سمّي بذلك لأنه فَرَقَ بين الحقّ والباطل ، قال محمد بن جعفر : فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام ، الذي جادل فيه الوفد ، وقال قتادة والربيع وغيرهما : فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع ، وفي الحلال والحرام ونحوه ، والفرقان يعم هذا كله . وقال بعض المفسرين : الفرقان هنا : كلُّ أمر فرق بين الحق والباطل ، فيما قَدُمَ وحَدُثَ ، فيدخل في هذا التأويل

---

(١) في بعض النسخ: وهذا.

(٢) ابن فورك: هو أبو بكر محمد بن الحسن، وهو بضم الفاء وفتح الراء، متكلم أصولي أديب نحوي، أصبهاني الأصل، أقام بالعراق مدة يدرس العلم وغادرها إلى الريّ ثم إلى نيسابور ثم إلى غزنة، وبلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة، توفي سنة ٤٠٦ هـ، (ابن خلكان ٤: ٢٧٢، والوافي للصفدي ٢: ٣٤٤، وطبقات السبكي ٣: ٥٢، وتبيين كذب المفتري ٢٣٢).

طوفانُ نوح ، وفرق البحر لغرق فرعون ، ويوم بدر ، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل ، فكأنه تعالى ذكر الكتاب العزيز ، ثم التوراة والإنجيل ، ثم كلَّ أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل ، كما فعلت هذه الكتب(١) ثم توعد تعالى الكفار عموماً بالعذاب الشديد ، وذلك يعم عذاب الدنيا بالسيف والغلبة ، وعذاب الآخرة بالنار ، والإشارة بهذا الوعيد إلى نصارى نجران ، وقال النقاش : إلى اليهود، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وابني أخطب(٢) وغيرهم .

و ﴿ عَزِيزٌ ﴾ معناه : غالب ، وقد ذلَّ له كلُّ شيء ؛ والنقمة

---

(١) أشار الزمخشري في تفسيره إلى السرّ في التعبير عن تنزيل القرآن بقوله: [نَزَّل] على صيغة (فعَّل)ـ والتعبير في تنزيل التوراة والإنجيل بقوله: [أنزل] على صيغة (أفْعل) فقال: «لأن القرآن نزل منجما، ونزل الكتابان جملة ـ ونزول القرآن منجما جعله أكثر تنزيلاً لتفرقه في مرات عدة فعبّر عنه بصيغة المبالغة والتكثير وهي (فعَّل)»ـ لكن يَرِدُ على ذلك أنَّ الزمخشري حمل [الفرقان] في أحد تأويلاته على أنه [القرآن]ـ وقد عبَّر الله سبحانه عنه بصيغة (أفْعَل) كغيره حين قال: [وَأَنْزَل الْفُرْقَانَ]ـ وأجاب بعض المحققين عن ذلك فقال: إنه لما عبَّر أولاً عن نزوله الخاص به أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً ليُنْعَت بصفة زائدةٍ على اسم الجنس عبَّر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاءً بتميُّزه أولاً ، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده ـ ومن العبارات السائدة عن هذا المعنى: (الكلام يُجْمَل في غير مقصوده، ويُفَصَّل في مقصوده)ـ ١ هـ ـ «الكشاف ٤١١/١».

(٢) في خبر كعب بن الأشرف وهجائه للرسول ثم مقتله، انظر ابن هشام ٢ : ٥١ ؛ فأما كعبُ بن أسد فكان من يهود بني قريظة الذين نصبوا العداوة لرسول الله ﷺ بغيا وحسدا وضغنا، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب ـ قدم لقومه النصائح يوم أن حاصرهم الرسول ﷺ وأصحابه: وهو من جملة من نفذ فيهم حكم سعد بن معاذ (ـ ابن هشام ٢٧ : ٢٢٠).

وأما أبناءُ أخطب فهم : حُيَيٌّ ، وأبو ياسر ، وجدي ، وكلهم من يهود بني النضير، والمراد بقوله : (وابني أخطب) حيي وأبو ياسر.

والانتقام : معاقبة المذنب بمبالغةٍ في ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ ﴾

هذه الآية خبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل ، وهذه صفةٌ لم تكن لعيسى ولا لأحد من المخلوقين ، ثم أخبر عن تصويره[١] البشرَ في أرحام الأمهات ، وهذا أمرٌ لا ينكره عاقل ، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه ، ولا ينكر أن عيسى عليه السلام من المصوَّرين في الأرحام ، فهذه الآية تعظيمٌ لله تعالى في ضمنها الرد على نصارى نجران .

وفي قوله : ﴿إن الله لا يَخْفَى عليه شيءٌ﴾ وعيد ما لهم ؛ فَسرَّ بنحو هذا محمد بن جعفر بن الزبير والربيع ، وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّركم ﴾ ردٌّ على أهل الطبيعة ، إذ يجعلونها فاعلة مستبدة ، وشرح النبي ﷺ كيفية التصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره : (إن النطفة إذا وَقَعَتْ في الرَّحِمِ مكثتْ نطفةً أربعين يوماً ثم تكون[٢]

(١) في بعض النسخ: تصوير.
(٢) تكون: سقطت من بعض النسخ.

عَلَقةً أربعين يوماً ، ثم مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليها ملكاً فيقول: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعيد؟). الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه[١] . وفي مسند ابن سنجر[٢] حديث : (إن الله يخلق عظام الجنين وغضاريفه من منيِّ الرجل ، ولحمَهُ وشحمَهُ وسائرَ ذلك من منيّ المرأة) . و (صوَّر) بناء مبالغة من : صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما ، فلما كان التصوير إمالةً إلى حال وإثباتاً فيها ، جاء بناؤه على المبالغة . والرحم : موضع نشأة الجنين .

و ﴿ كيفَ يَشاءُ ﴾ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات[٣] .

و ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ : الغالب ، و ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ : ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته ، وهذا أخص بما ذكر من التصوير .

و ﴿ الْكِتابَ ﴾ في هذه الآية : القرآن بإجماع من المتأولين ، والمُحكَمـاَت : المفصلات المبينـات الثابتـات الأحكام ، والمتشابِهَات : هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويـل

(١) وردت في ذلك أحاديث كثيرة (انظر مثلاً مسند أحمد ١ : ٣٧٤، ٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠، والبخاري (بدء الخلق: ٦).

(٢) هو محمد بن سنجر أبو عبد الله الجرجاني، الإمام الحافظ الكبير، صاحب المسند، سكن قرية قضابة من أعمال مصر، وسمع يزيد بن هارون، وأبا النعيم، وخالد بن مخلد، وغيرهم، وأخذ عنه عيسى بن مسكين، وأحمد بن عمرو بن منصور، ومحمد بن المسيَّب، وخلْق كثير، وثّقه ابن أبي حاتم- توفي سنة ٢٨٥ هـ - (تذكرة الحفاظ ٢ : ٥٧٨) .

(٣) في بعض النسخ: الاختلاف.

ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل ، إلى غير ذلك من أنواع التشابه ، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بمتشابهات إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهلُ الزيغ ومن لم يُمْعِن[١] النظر ، وهذا نحو الحديث الصحيح ، عن النبي عليه السلام : (الحلالُ بيّنٌ والحرام بين ، وبينهما أمور متشابهات)[٢] أي يكون الشيء حراماً في نفسه فيشبه عند من لم يمعن النظر شيئاً حلالاً ، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معْنىً صحيح فتشبه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معْنىً آخرَ فاسداً ، فربما أراد الاعتراض به على كتاب الله ، هذا عندي معنى الإحكام والتشابه في هذه الآية ، ألا ترى أن نصارى نجران قالوا للنبي عليه السلام : أليس عندك في كتابك أن عيسى كلمة الله وروحٌ منه ؟ قال نعم[٣] ، قالوا : فحسبنا إذاً[٤] ، فهذا هو التشابه .

واختلفت عبارة المفسرين في تعيين المحكم والمتشابه المراد بهذه الآية ، فقال ابن عباس : المحكمات : هي قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكمُ ﴾[٥] إلى ثلاث آيات ، وقوله في

---

(١) في بعض النسخ : ينعم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن النعمان بن بشير (الجامع الصغير ١ : ٥٢٢).

(٣) في تفسير الطبري : بلى، في موضع نعم.

(٤) انظر تفسير الطبري ٣ : ١٧٧ ، والبغوي (بهامش الخازن ١ : ٢٧٠)، وكلاهما عن الربيع.

(٥) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

بني اسرائيل: ﴿وقضى ربُّكَ ألّا تعبدوا إلَّا إيَّاه﴾[١]، وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات. وقال ابن عباس أيضاً: المحكمات: ناسخُه وحلالُهُ وحرامه وما يؤمن به ويعمل به[٢]؛ والمتشابهات: منسوخه ومقدَّمه ومؤخَّره وأمثاله وأقسامه وما يُؤْمَنُ به ولا يُعْمَلُ به. وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات وهذا عندي على جهة التمثيل أي يوجد الإحكام في هذا والتشابه في هذا، لا أنه وقف على هذا النوع من الآيات. وقال بهذا القول قتادة والربيع والضحاك. وقال مجاهد وعكرمة: المحكمات: ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه يصدّق بعضه بعضاً، وذلك مثل قوله: ﴿ وما يُضِلُّ به إلَّا الفاسقين ﴾[٣] وقوله: ﴿ كذلك يجْعَلُ الله الرِّجْسَ علَى الَّذين لا يُؤْمنون ﴾[٤]. وهذه الأقوال وما ضارعها يُضعفها أن أهلَ الزيغ لا تعلُّقَ لهم بنوع مما ذكر دون سواه.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات: هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وُضعن عليه، والمتشابهات: لهن تصريفٌ وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية. وقال ابن

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء.
(٢) «ويعمل به»، سقط من بعض النسخ.
(٣) من الآية ٢٦ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

زيد:[١] المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، وبيّن لمحمد وأمته، والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور بعضه باتفاق الألفاظ[٢] واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك نحو قوله: ﴿ حَيَّةٌ تَسْعى ﴾[٣] و﴿ ثُعْبانٌ مُبينٌ ﴾[٤] ونحو: ﴿ اسلُكْ يدَكَ ﴾[٥] و ﴿ أَدْخِلْ يدَكَ ﴾[٦].

وقالت جماعة من العلماء منهم جابر بن عبد الله بن رئاب[٧] وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكماتُ من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه:

أما الغيوب التي تأتي فهي من المحكمات لأن ما يعلم[٨] البشر

---

(١) أبو عبدالله محمد بن زيد، مولى عبد الرحمن بن الحكم، كان عالماً بالعربية وراوية للشعر.

(٢) في بعض النسخ: اللفظ.

(٣) من الآية ٢٠ من سورة طه.

(٤) من الآية ٣٢ من سورة القصص.

(٥) من الآية ٣٢ من سورة القصص.

(٦) من الآية ١٢ من سورة النمل.

(٧) هو جابر بن عبدالله بن رئاب بن النعمان الأنصاري السلمي أحد الستة الذين شهدوا العقبة الأولى- شهد بدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو أول من أسلم من الأنصار قبل البعثة الأولى بعام. (الاستيعاب. والإصابة: ١: ٢٢١).

(٨) في: بعض النسخ: يعلمه.

منها محدود ، وما لا يعلمونه وهو تحديد الوقت محدودٌ أيضاً . وأما أوائل السور فمن المتشابه لأنها مُعَرَّضةٌ للتأويل[١] ، ولذلك اتبعته اليهود وأرادوا أن يفهموا منه مدَّة أمةِ محمدٍ عليه السلام .

وفي بعض هذه العبارات التي ذكرنا للعلماء اعتراضات ، وذلك أن التشابه الذي في هذه الآية مقيّدٌ بأنه مما لأهل الزيغ به تعلق ، وفي بعض عبارات المفسرين تشابه لا يقتضي لأهل الزيغ تعلّقاً .

وقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فمعناه الإعلامُ بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه ، إذ المحكم في آيات الله كثير قد فُصِّلَ ولم يُفَرَّطْ في شيء منه[٢] .

قال يحيى بن يعمر[٣] : هذا كما يقال لمكة : أم القرى ، ولمرو : أمّ خراسان ، وكما يقال : أم الرأس لمجتَمَعِ الشؤون إذ هو أخطر مكان . قال المهدويّ والنقاش : كل آية محكمةٍ في كتاب الله يقال لها أمّ الكتاب ؛ وهذا مردود بل جميعُ المحكم هو أم الكتاب ، وقال النقاش : وهذا كما تقول : كلكم عليَّ أسدٌ ضار ؛ وهذا المثال غير محكم. وقال ابن زيد: ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ معناه: جماع الكتاب. وحكى

(١) في بعض النسخ: للتأويلات؛ وفي بعضها: معرض للتأويلات.

(٢) في بعض النسخ: ولم يفرط فيه شيء.

(٣) هو يحيى بن يَعْمَر (بفتح الياء والميم بينهما عين ساكنة)، من العلماء المشهورين، روى عن ابن عباس، وابن عمر. وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، توفي سنة ١٢٩ هـ.

الطبري عن أبي فاختة[١] أنه قال : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتاب ﴾ يراد به فواتح السور إذ منها يستخرج القرآن ﴿ آلَمٓ ذلِكَ الْكِتابُ ﴾ منه استخرجت سورة البقرة ، ﴿ آلَمٓ اللهُ لاَّ إله إلا هُوَ الحيُّ القَيُّوم ﴾ منه استخرجت سورة آل عمران . وهذا قول متداعٍ للسقوط مضطرب لم ينظر قائله أول الآية وآخرها ومقصدها ، وإنما معنى الآيةِ الإنحاءُ على أهل الزيغ والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين[٢] لمحمد عليه السلام ، فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن ، ثم تعم بعد ذلك كل زائغ ، فذكر الله تعالى أنه نزل الكتاب على محمد إفضالاً منه ونعمة ، وأنّ مُحْكَمَهُ وبيِّنَهُ الذي لا اعتراضَ فيه هو معظمُهُ والغالبُ عليه ، وأَن متشابهه الذي يحتملُ التأويلَ ويحتاجُ إلى التفهّم هو أقلُّهُ . ثم إن أهل الزيغ يتركون المحكمَ الذي فيه غُنْيَتُهُم ويتبعون المتشابهَ ابتغاءَ الفتنةِ وأَن يفسدوا ذات البين[٣] ويردّوا الناسَ إلى زَيْغهم ، فهكذا تتوجه المذمّةُ عليهم .

﴿ وَأُخَرُ ﴾ جمع أُخرى ولا ينصرف لأنه صفة ، وعدل عن الألف

(١) هو سعيد بن علاقة ـ أبو فاختة الهاشمي الكوفي، مولى أم هانيء ـ قدم الشام، روى عن علي، وأم هانيء، وعائشة أم المؤمنين، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم من التابعين. وروى عنه ابنه نوير، وعمرو بن عبدالله بن عتبة، وسعيد المقبري، وعمرو بن دينار، وغيرهم. وثّقه الدارقطني، والعجلي، شهد مع عليٍّ مشاهده، وتوفي في ولاية عبد الملك، أو الوليد بن عبد الملك؛ وهو بكنيته مشهور أكثر من اسمه. (الإصابة ٧٥٧/٤ وتهذيب التهذيب ٧٠/٤).

(٢) في بعض النسخ: معاصري محمد.

(٣) في بعض النسخ: الدين.

واللام في أنه يثنى ويجمع ، وصفاتُ التفضيل كلّها إذا عريت عن الألف واللام لم تثنَّ ولم تجمع ، كأفضل وما جرى مجراه ، ولا يفاضل بهذه الصفات بين شيئين إلا وهي منكَّرة ، ومتى دخلت عليه الألفُ واللام زال معنى التفضيل بين أمرين ، وليس عَدْلُ (أُخَر) عن الألفِ واللام مؤثراً في التعريف كما هو عَدْلُ (سحر) بل أُخر نكرة، وأما سحر فعدل لأنه[١] زالت الألف واللام وبقي معرفة في قوله « جئت يوم الجمعة سحر » . وخلط المهدوي في هذه المسألة وأفسد كلام سيبويه[٢] فتأمله .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذينَ في قلوبهم زَيْغٌ ﴾ يعمُّ كلَّ طائفةٍ من كافر وزنديق وجاهلٍ صاحب بدعة . والزيغُ : الميل ، ومنه زاغت الشمس ، وزاغتِ الأبصار . والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت

(١) بين النسخ اختلاف في هذه العبارة، وفي بعضها: «فإنه عدل في أنه» وفي بعضها الآخر: «فعدل في أنه».

(٢) نص كلام سيبويه: «لا يجوز أن يكون (أُخر) معدولةً عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة ألا ترى أن (سَحَر) معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة». (فتح القدير- للشوكاني).

إلى نصارى نجران لتعرّضهم للقرآن في أمر عيسى عليه السلام ، قاله الربيع ، وإلى اليهود ، ثم تنسحبُ على كلِّ ذي بدعة أو كفر ، وبالميلِ عن الهدى فَسّر الزيغَ محمدُ بن جعفر بن الزبير وابنُ مسعود وجماعةٌ من الصحابة ومجاهدٌ وغيرهم .

و ﴿ما تَشَابه مِنْهُ﴾ هو الموصوف آنفاً «بمتشابهات» . وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذين في قُلوبهم زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. وقالت عائشة: (إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم)[1] وقال الطبري: الأشبه أن تكون الآية في الذين جادلوا رسول الله ﷺ في مدته ومدة أمته بسبب حروف أوائل السور، وهؤلاء هم اليهود.

و (ابتغاء) نُصِبَ على المفعول من أجله، ومعناه طلب الفتنة[2]. وقال الربيع: الفتنة هنا: الشِّرك، وقال مجاهد: الفتنة: الشبهات واللبس على المؤمنين.

---

(١) في مسند الإمام أحمد ـ من رواية ابن أبي مُلَيْكة عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: قرأ رسول الله ﷺ : [هُوَ الَّذي أَنْزَلَ علَيْكَ اْلكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكماتٌ هُنَّ أُمُّ اْلكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ] إلى قوله: [أُولُوا الأَلْبَابِ] فقال: (إذا رأَيْتُم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم). وهكذا رواه ابن ماجة، ورواية البخاري: (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم). ورواية ابن أبي حاتم تتفق مع لفظ البخاري، فالآية كما يدلُّ الحديث تدمغ كل من يقصد إلى المتشابه من القرآن يبتغي التحريف والتأويل، ويبتغي الفتنة للأمة في أي زمان وفي أي مكان.

(٢) أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، وطلب أن يؤولوه التأويل الذي يشتهونه.

ثم قال: ﴿وابْتِغاءَ تأْويلِهِ﴾ والتأويل هو مَرَدُّ الكلام ومرجعُهُ والشيء الذي يقف عليه من المعاني، وهو من آل يؤول، إذا رجع، فالمعنى: وطلبَ تأويله على منازعهم الفاسدة. هذا فيما له تأويل حسن، وإن كان مما لا يتأول بل يوقف فيه كالكلام في معنى الروح ونحوه فنفسُ طَلَبِ تأويله هو اتّباعُ ما تشابه. وقال ابن عباس: ابتغوا معرفة مدة محمد ﷺ وأمته.

ثم قال تعالى: ﴿وما يَعْلمُ تأويلَهُ إلا الله﴾ فهذا على الكمال والتَّوْفيةِ فيما لا يُتأوّل ولا سبيلَ لأحدٍ عليه(١)ـ كأمرِ الروح، وتعرّف وقتِ قيام الساعة وسائر الأحداثِ التي أنذر بها الشرع، وفيما يمكن أن يتأوله العلماء ويصح التطرق إليه، فمعنى الآية: وما يعلم تأويلَهُ على الكمال إلا الله.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿والراسِخُونَ في العلمِ﴾ ـ فرأت(٢) فرقة أن رفع (والراسخون) هو بالعطف على اسم الله عز وجل، وأَنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله، وأَنهم مع علمهم به ﴿يقولون آمنَّا بِهِ﴾ . . . الآية، قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون

(١) في بعض النسخ: إليه.
(٢) في بعض النسخ: فقالت.

تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال.

وقالت طائفة أخرى: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول، وخبره ﴿يقولون﴾. والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية، وفعل الراسخين قولهم: ﴿آمنَّا بِهِ﴾، قالته عائشة وابن عباس أيضاً. وقال عروة بن الزبير: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون: ﴿آمنَّا بِهِ﴾. وقال أبو نهيك الأسدي(١): إنكم تَصِلُونَ هذه الآية وإنها مقطوعة، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم: ﴿آمنّا به كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا﴾. وقال مثلَ هذا عمرُ ابن عبد العزيز، وحكى نحوه الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المسألة إذا تؤملت قَرُبَ الخلافُ فيها من الاتفاق، وذلك أن الله تعالى قَسَمَ آيَ الكتابِ قسمين: محكماً ومتشابهاً، فالمحكم هو المتّضحُ المعنى لكلٍّ من يفهم كلامَ العرب لا يحتاج فيه إلى نظر ولا يتعلق به شيءٌ يُلْبِسُ، ويستوى في علمه الراسخُ وغيره، والمتشابه

(١) اسمه القاسم بن محمد، روى عن زياد بن حدير، وعنه قرة بن خالد، ومنصور بن المعتمر، ذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ١٢: ٢٥٩).

يتنوع، فمنه ما لا يُعْلَمُ البتةَ، كأمرِ الروح، وآمادِ المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها إلى سائر ذلك، ومنه ما يحمل على وجوه في اللغة ومناحٍ في كلام العرب، فيتأول ويُعْلَمُ تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يُتَعَلَّقَ به من تأويلٍ غير مستقيم كقوله في عيسى: ﴿وروح مِنْه﴾[1] إلى غير ذلك، ولا يسمى أحدٌ راسخاً إلا بأنْ يعلمَ من هذا النوع كثيراً بحسب ما قُدِّرَ له، وإلا فمن لا يعلمُ سوى المحكمِ فليس يُسَمَّى راسخاً.

وقوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تأْويلَهُ﴾ الضمير عائد على جميع[2] متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقوله: ﴿إلَّا اللهُ﴾ مقتضٍ ببديهة العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلمُ نوعيه جميعاً. فإن جعلنا قوله: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ عطفاً على اسم الله تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبديهة العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيمٌ على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأنْ حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل،فالمعنى:﴿وما يَعْلَمُ﴾تأويلَ المتشابه إلا الله والراسخون كلٌّ بقدره ومايصلح له، والراسخون بحال قول في جميعه: ﴿آمنّا بهِ﴾، وإذا

(١) من الآية ١٧١ من سورة النساء.
(٢) جميع: سقطت من بعض النسخ.

تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييزه من غيره فذلك قدرٌ من العلم بتأويله، وإن جعلنا قوله: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ رفعاً بالابتداء مقطوعاً مما قبله، فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيءهو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفةُ بتصاريف الكلام، وموارِدِ الأحكام، ومواقع المواعظ، وذلك كله بقريحة مُعَدَّة، فالمعنى: وما يعلم تأويلَهُ على الاستيفاء إلا الله، والقومُ الذين يعلمون منه ما يمكن أن يُعْلَمَ يقولون في جميعه: ﴿آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى[1] ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يُتأَوَّلُ عليه أنه علم وقت الساعة وأَمْر الروحِ وما شاكله. فإعراب ﴿الرَّاسِخونَ﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه.

فأمّا من يقول: إن المتشابه إنما هو ما لا سبيل لأحدٍ إلى علمه فيستقيم على قوله إخراج الراسخين من علم تأويله، لكنَّ تخصيصَهُ المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، بل الصحيحُ في ذلك قولُ مَنْ قال: المحكمُ ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً. وهذا هو مُتَّبَعُ أهلِ الزيغ، وعلى ذلك يترتب النظر

---

(١) في بعض النسخ: يتعاطى.

الذي ذكرته. ومن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه فإنما أرادوا[١] هذا النوع وخافوا أن يظنَّ أحدٌ أن الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال، وكذلك ذهب الزجاج إلى أن الإشارة بما تشابه منه إنما هي إلى وقت البعث الذي أنكره[٢]، وفسر باقي الآية على ذلك، فهذا أيضاً تخصيصٌ لا دليلَ عليه. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل، ولكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح. ورجَّح ابنُ فُورك أن الراسخين يعلمون التأويل وأطنب في ذلك.

وقرأ أبيّ بن كعب وابن عباس: (إلَّا الله ويقولُ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ آمنَّا بِه). وقرأ ابن مسعود: (وابْتِغاءَ تأويلِه إنْ تأويلُهُ إلَّا عندَ اللهِ، والراسخون في العِلْم يقولون آمنَّا بِهِ). والرسوخ: الثبوت في الشيء، وأصله في الأَجرام أن يرسخَ الجبلُ أو الشجرُ في الأرض. وسئل النبيّ عليه السلام عن الراسخين في العلم فقال: (هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه)[٣].

وقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنا﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله، محكمِهِ

(١) في بعض النسخ: أراد.
(٢) لعلّ الصواب: أنكروه، كما في بعض النسخ.
(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة ووائلة بن الأسقع وأبي الدرداء، كما خرجه ابن عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعاً. (فتح القدير ١: ٢٨٩).

ومتشابهه، والتقديرُ: كلُّهُ من عند ربنا، وحذفَ الضمير لدلالةِ لفظ «كلّ» عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال تعالى: ﴿وما يذَّكَّرُ إلَّا أُولوا الأَلباب﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن به ويقفُ حيث وقف ويدعُ اتباعَ المتشابه إلا ذو لبّ، وهو العقل، وأولو: جمع ذو.

قوله عز وجل:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم أنهم يقولون هذا مع قولهم: ﴿آمنا به﴾، ويحتملُ أن يكونَ المعنى منقطعاً من الأول، لمّا ذَكَرَ أهلَ الزيغ وذكر نقيضهم وظهر[١] ما بين الحالتين عقَّبَ ذلك بأنْ علَّم عبادَهُ الدعاءَ إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذُكِرَتْ، وهي أهل الزيغ. وهذه الآية حجةٌ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يُضِلُّ العباد، ولو لم تكن الإزاغةُ من قِبَله لما جاز أن يُدْعَى في دفع ما لا يجوز عليه فعله[٢].

(١) في بعض النسخ: وذكر.

(٢) أول الزمخشري الآية فقال في معنى قوله تعالى: ﴿لا تُزغ قلوبنا﴾: أي لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا؛ أما أهل السنة فيرون أن كل هدى وزيغ مخلوق لله تعالى. وتفسير ابن عطية للآية يدل على أنه بعيد كل البعد عن الاعتزال.

و (تُزِغْ) معناه: تُمِلْ قلوبنا عن الهدى والحق. وقرأ أبو واقد والجراح(١): (لا تزغ قلوبنا) بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه أيضاً الرغبة إلى الله تعالى. وقال أبو الفتح(٢): ظاهر هذا ونحوه الرغبة إلى القلوب وإنما المسؤول الله تعالى، [وقوله: «الرغبة إلى القلوب» غير متمكن](٣). ومعنى الآية على القراءتين: أي لا يكنْ منك خَلْقُ الزيغ فيها فتزيغَ هي؛ قال الزجاج: وقيل: إن معنى الآية: لا تكلّفنا عبادةً ثقيلةً تزيغ منها قلوبنا؛ وهذا قول فيه التحفُّظُ من خَلْقِ الله تعالى الزيغَ والضلالةَ في قلب أحد من العباد.

و ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ معناه: من عندك ومن قِبَلك، أي يكون تفضّلاً لا عن سبب منا ولا عن عمل. وفي هذا استسلام وتطارح. والمراد: هبْ لنا نعيماً صادراً عن الرحمة، لأن الرحمة راجعةٌ إلى صفات الذات فلا تُتَصَوَّرُ فيها الهبة.

وقوله تعالى: ﴿ربَّنا إنَّكَ جامعُ النّاسِ﴾ إقرارٌ بالبعث ليوم القيامة. قال الزجاج: هذا هو التأويل الذي عَلِمَهُ الراسخون وأقرّوا به، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حين

(١) لعله ابن واقد أبو مسلم (عبد الرحمن بن عبيد الله بن واقد)مقرىء معروف، أخذ القراءة عن حمزة بن القاسم الأحول والصباح بن دينار. (انظر ابن الجزري، غاية النهاية ١ : ٣٨١)؛ أما الجراح فلم أعثر عليه فيما لدي من مراجع؛ وفي تفسير القرطبي: وقرأ واقد الجراح (دون واو عطف).

(٢) هو عثمان بن جني اللغوي المشهور.

(٣) ما بين معقفين سقط من أكثر النسخ.

أنكروه، والريب: الشك، والمعنى: إنه في نفسه حقّ لا ريب فيه، وإن وقع فيه ريب عند المكذبين به فذلك لا يعتدُّ به، إذ هو خطأٌ منهم.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعاد﴾ يحتمل أن يكونَ إخباراً منه لمحمدٍ ﷺ وأمته، ويحتمل أن يكونَ حكايةً من قول الداعين[1]، ففي ذلك إقرار بصفة ذات الله تعالى؛ والميعاد: مِفْعالٌ من الوعد.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

هِمَمُ الكفارِ الذين لا يُقرّونَ ببعثٍ إنما هي ـ على وجه الدهر وإلى يوم القيامة ـ في زينة الدنيا وهي المال والبنون، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن ذلك المَتهمَّم فيه لا يغني عن صاحبه شيئاً، ولا يمنعه من عذاب الله وعقابه؛ و(مِنْ) في قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ لابتداء الغاية، والإشارة بالآية إلى معاصري النبي ﷺ، وكانوا يفخرون بأموالهم وأبنائهم، وهي ـ بعد ـ متناولةٌ كل كافر.

---

(١) في بعض النسخ: من قول الراسخين.

وقرأ أبو عبد الرحمن[١] : ﴿لَنْ يُغْنِيَ﴾ بالياء، على تذكير العلامة.

والوَقود بفتح الواو: ما يحترق في النار من حطب ونحوه، وكذلك هي قراءة جمهور الناس، وقرأ الحسن ومجاهد وجماعة غيرهما: ﴿وُقود﴾ بضمّ الواو، وهذا على حذف مضاف تقديره: «حطب وقود النار» والوُقود بضمّ الواو:المصدر، وَقَدَتِ النار تَقِدُ إذا اشتعلت. والدأْب والدأَب- بسكون الهمزة وفتحها- مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه،ويقال للعادة: «دأب»، فالمعنى في الآية: تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفرَ ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيدَ بأن يصيبَ هؤلاء مثلُ ما أصاب أولئك من العقاب.

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَدَأْب﴾ في موضع رفع، التقدير: دأْبُهُمْ كدأبِ، ويصحُّ أن يكون الكاف في موضع نصب؛ قال الفراء: هو نعتٌ لمصدر محذوف تقديره: كفراً كدأب، فالعامل فيه ﴿كَفَرُوا﴾، وردَّ هذا القولَ الزجاجُ بأنَّ الكاف خارجةٌ من الصلة فلا يعمل فيه ما في الصلة.

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري الصوفي الأزدي السلمي- أبو عبد الرحمن. أخذ عن أبي العباس الأصم، وأحمد بن محمد بن عبدوس، وأحمد بن المؤمل وخلق كثير، وعنه أخذ القشيري، والبيهقي، وأبو صالح المؤذن، وغيرهم، صنَّف للصوفية سُنناً وتفسيراً وتاريخاً، وبلغ فهرست تصانيفه المائة أو أكثر، وكتب الحديث. ولد سنة: ٣٣٠ هـ، وتوفي سنة: ٤١٢ هـ. «تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/١٠٤٦»، قال الخطيب: محله كبير، وكان مع ذاك صاحب حديث مجوِّداً. (نفس المصدر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أن يعملَ فيه فعلٌ مقدَّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الاحتراق، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذابِ، ٱلنَّارُ يُعْرَضونَ عَلَيها غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾[1] والقول الأول أرجح الأقوال أن تكون الكاف في موضع رفع، والهاء في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ عائدة على آل فرعون، ويحتمل أن تعود على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار.

وقوله: ﴿بآياتِنَا﴾ يحتمل أن يكون يريد بالآيات: المتلوة، ويحتمل أن يريد: العلامات المنصوبة. واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الدأب، وذلك كله راجع إلى المعنى الذي ذكرناه.

قوله عز وجل:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿سَتُغْلبونَ وتُحْشَرونَ﴾ بالتاء من فوق، و﴿يَرَوْنَهم﴾ بالياء من تحت، وحكى أبان

---

(١) من الآيتين ٤٥و ٤٦ من سورة غافر- والأصل المثبت في النسخ هو: (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، النار)، وهو من اضطراب النساخ فيما يبدو.

عن عاصم ﴿تَرَوْنَهم﴾ بالتاء من فوق، وقرأ نافع ثلاثتهن بالتاء من فوق، وقرأ حمزة ثلاثتهن بالياء من تحت، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿يُرَوْنَهم﴾ بالياء المضمومة، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء من فوق مضمومة. واختُلِفَ من الذين أُمِرَ بالقول لهم من الكفّار؟ فقيل: هم جميع معاصريه من الكفار، أُمر بأن يقولَ لهم هذا الذي فيه إعلامٌ بغيب ووعيد قد صدق بحمد الله، غلب الكفر وصار من مات عليه إلى جهنم. ونحا إلى هذا أبو علي في «الحجة»، وتظاهرت روايات بأن المراد يهود المدينة، قال ابن عباس وغيره: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: (يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً)، فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أَن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أَنا نحن الناس، فأنزل الله في قولهم هذه الآية». (١) وروي حديث آخر ذكره النقاش، وهو (أَن النبي عليه السلام لما غلب قريشاً ببدر قالت اليهود: هذا هو النبي المبعوث الذي في كتابنا وهو الذي لا تُهْزَمُ له راية، وكثرتْ فتنتهم بالأمر، فقال لهم رؤساؤهم وشياطينهم: لا تَعْجَلوا وأمهلوا

(١) أخرجه محمد بن إسحق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، كما أخرجه ابن جرير، وابن إسحق وابن أبي حاتم عن عاصم بن عمرو عن قتادة، وأخرجه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة. (فتح القدير للشوكاني. ١/٢٩٢).

حتى نرى أمره في وقعة أخرى، فلما وقعت أحد كفر جميعهم وبقوا على أولهم، وقالوا: ليس محمد بالنبيِّ المنصور فنزلت الآية في ذلك[١])، أي قل لهؤلاء اليهود: سيغلبون [يعني قريشاً][٢] وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة ﴿سَيُغْلَبونَ وَيُحْشَرونَ﴾ بالياء من تحت، ومن قرأ بالتاء فمعنى الآية: قل للكفار جميعاً هذه الألفاظ. ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى: قل لهم كلاماً هذا معناه، وتحتمل قراءة التاء التأويل الذي ذكرناه آنفاً، أي قل لليهود: ستغلب قريش. ورجَّح أبو علي قراءة التاء على المواجهة، وأن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود، وكل قد غُلِبَ بالسيف والجزية والذلة. والحشر: الجمع والإحضار.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ يعني جهنم، هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأنَّ المعنى: وبئس فعلهم الذي أداهم إلى جهنم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَيْنِ﴾... الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم، فمن رأى أن الخطاب بها

---

(١) أخرجه البغوي عن ابن عباس، ونقله عنه الخازن، كما نقله الألوسي في تفسيره. (تفسير الخازن. ١/٢٧٢)، ورواه الواحدي في (أسباب النزول) عن الكلبي مع اختلاف يسير.
(٢) ما بين القوسين زيادة عن بعض النسخ.

للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها، لأنه لما قال للكفار ما أُمِرَ به أمكن أن يستبعدَ ذلك المنافقون وبعضُ ضَعَفَةَ المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: «يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب»، وكما قال عدي بن حاتم حين أخبره النبي عليه السلام بالأَمَنة التي تأتي، فقلت في نفسي: «وأين دُعَّار طيء الذين سعَّروا البلاد»؟ . . . الحديث بكماله[١]، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

فمن قرأ ﴿تَرَوْنَهُم﴾ بالتاء من فوق فهي مخاطبة لجميع المؤمنين [إذ قد رأى ذلك جمهور منهم، والهاء والميم في ﴿تَرَوْنَهُم﴾ لجميع المشركين، وفي ﴿مِثْلَيْهِم﴾ لجميع المؤمنين][٢]، ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلَيْ جمع المؤمنين، ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخلة فيما أُمر محمد عليه السلام أن يقوله لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيغلبون. فمن قرأ ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بالياء من تحت فالمعنى: يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلَيْ جمع المؤمنين، ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فلو حضرتم أو إن كنتم حضرتم، وساغت العبارة لوضوح الأمر في نفسه ووقوع اليقين به لكل إنسان في

(١) الحديث المشار إليه ذكره ابن الأثير في النهاية (٢: ٣٤١) لغرابته، وورد في مادة (دعر) من لسان العرب أنه لعلي بن أبي طالب، وأنه أراد بهم قطاع الطرق، والأمنة بفتحات هي: سكون النفس وطمأنينتها.

(٢) ما بين معقفين سقط في بعض النسخ.

ذلك العصر، ومن قرأ بضم التاء أو الياء فكأنَّ المعنى: إن اعتقاد التضعيف في جمع الكفار إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، فلذلك ترك في العبارة ضربٌ من الشك وذلك أن أُرى- بضم الهمزة- تقولها فيما بقي عندك فيه نظر، وأَرى- بفتح الهمزة- تقولها فيما قد صح نظرك فيه. ونحا هذا المنحى أبو الفتح وهو صحيح. قال أبو علي: والرؤية في هذه الآية رؤية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، و ﴿مِثْلَيْهِم﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾، وأجمع الناس على أن الفاعل بتَرَوْنَ هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار، إلا ما حكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم، وضعف الطبري هذا القول، وكذلك هو مردود من جهات، بل قلل الله كل طائفة في عين الأخرى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقلل الكفارَ في عيون المؤمنين ليقع التجاسر ويحتقر العدو، وهذا مع اعتقاد النبي وقوله واعتقاد أولي الفهم من أصحابه أَنهم من التسعمائة إلى الألف[1]، لكن أذهب الله عنهم البهاء وانتشار العساكر وفخامة الترتيب، حتى قال ابن مسعود في بعض ما روي عنه: لقد قلتُ

(١) يشير بهذا إلى ما رواه محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير: أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال: كثير، قال ﷺ: كم ينحرون كلَّ يوم؟ قال: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، قال النبي ﷺ: القوم ما بين تسعمائة إلى ألف. (ابن كثير- ١/٣٥٠).

لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أظنهم مائة، فلما أخذنا الأسرى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً. وقلل الله المؤمنين في عيون الكفار ليغتروا ولا يحزموا، وتظاهرت الروايات أن جمع الكفار ببدر كان نحو الألف فوق التسعمائة، وأن جمع المؤمنين كان ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وقيل: وثلاثة عشر، فكان الكفار ثلاثة أثلاث من المؤمنين، لكن رجع بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، ورجع طالب بن أبي طالب[1] وأتباع وناس كثير حتى بقي للقتال من يقرب من المثلين، وقد ذكر النقاش نحواً من هذا. فذكر الله تعالى المثلين إذ أمرهما متيقن لم يدفعه قط أحد، وقد حكى الطبري عن ابن عباس: أن المشركين في قتال بدر كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وقد ذهب الزجاج وبعض المفسرين إلى أنهم كانوا نحو الألف وأراهم الله المؤمنين مثليْهم فقط، قال: فهذا هو التقليل في الآية الأخرى، ثم نصرهم عليهم مع علمهم بأنهم مثلاهم في العدد، لأنه قد كان أعلم المسلمين أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وروى علي بن

---

(١) هو من أولاد أبي طالب وأكبر سنّاً من أخيه عقيل بعشر سنين، أتى غزوة بدر فوقعت بينه وبين بعض القرشيين محاورة فرجع إلى مكة مع من رجع فأنشأ يقول:

لا هُمَّ إما يغزُوَنَّ طالِب ... في عصبة مخالف محارب

في مِقْنبٍ من هذه المَقَانِب ... فليكن المسلوبُ غيرَ السالب

وليكن المغلوبُ غيرَ الغالب

«سيرة ابن هشام ٢/٤٥١».

والمِقْنَبُ: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة، وجمعه: مقانب.

أبي طالب رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال يوم بدر: (القوم ألف)(١). وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ آية﴾ يريد علامةً وأمارة ومعتبراً، والفئة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة، وقال الزجاج: الفئة: الفرقة، مأخوذة من فأوتُ رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقته، ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بدر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ﴾ برفع فئة على خبر ابتداء تقديره: إحداهما فئة، وقرأ مجاهد والحسن والزهري وحميد: ﴿فِئَةٍ﴾ بالخفض على البدل، ومنهم من رفع (كافرةٌ) ومنهم من خفضها على العطف، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿فِئَةً﴾ بالنصب وكذلك ﴿كافرةً﴾. قال الزجاج: يتجه ذلك على الحال كأنه قال: التقتا مؤمنةً وكافرةً، ويتجه أن يضمر فعل أعني ونحوه. و﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ نصب على المصدر. و﴿يُؤَيِّدُ﴾: معناه: يقوي من الأيد وهو القوة.

قوله عز وجل:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود (مجمع الزوائد ٦ : ٧٥)، وروى أبو إسحق السبيعي عن جارية عن علي قال: كانوا ألفاً، وكذلك قال ابن مسعود، ولكن المشهور أنهم كانوا بين التسعمائة إلى الألف، وهو ما يؤيده الحديث الذي رواه ابن إسحق عن ابن رومان عن عروة.

قرأ جمهور الناس: ﴿زُيِّن﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ورفع ﴿حُبُّ﴾ على أنه مفعول لم يسمَّ فاعله، وقرأ الضحاك ومجاهد: ﴿زَيَّنَ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب ﴿حُبَّ﴾ على أنه المفعول، واختلف الناس من المزيِّن؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قال: لما نزلت هذه الآية قلت: الآن يا ربِّ حين زينتها لنا فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم﴾، وقالت فرقة: المزين هو الشيطان، وهذا ظاهر قول الحسن بن أبي الحسن، فإنه قال: من زينها؟ ما أحدٌ أشدَّ لها ذمًّا من خالقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا قيل: زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على الميل إلى هذه الأشياء[١]. وإذا قيل: زَيَّنَ الشيطان فمعناه: بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. و ﴿الشَّهَوَات﴾ ذميمة واتباعها مُرْدٍ[٢] وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: (حُفَّتِ

---

(١) قال الزمخشري: الله سبحانه وتعالى هو المزين للابتلاء، كقوله تعالى: (إنَّا جعَلْنَا ما على الأَرْضِ زينةً لها)، وقراءة: (زيَّن) على البناء للفاعل تؤيد هذا المعنى لأن نسق الكلام قبلها ينسب الأفعال إلى الله في قوله: (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ..).

(٢) مردٍ: مهلك.

النارُ بالشهواتِ وحفت الجنة بالمكاره)[١] فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار.

و ﴿ٱلْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو العقدة الكبيرة من المال. واختلف الناس في تحريرِ حدِّه كم هو؟ فروى أبيّ بن كعب، عن النبي عليه السلام أنه قال: (القنطار ألف ومائتا أوقية)[٢]، وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وعاصم بن أبي النجود وجماعة من العلماء، وهو أصحُّ الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية. وقال ابن عباس والضحاك بن مزاحم والحسن بن أبي الحسن: القنطار ألف ومائتا مثقال[٣]، وروى الحسن ذلك مرفوعاً عن النبي عليه السلام. قال الضحاك: وهو من الفضة ألف ومائتا مثقال، وروي عن ابن عباس أنه قال: القنطار من الفضة اثنا عشر ألف درهم، ومن الذهب ألف دينار، ورُويَ ذلك عن الحسن والضحاك. وقال سعيد بن المسيب: القنطار ثمانون ألفاً. وقال قتادة: القنطار مائة رطل من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي (عن أنس)، وأخرجه مسلم (عن أبي هريرة)، كما أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفاً، (الجامع الصغير ١: ٥٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (عن أبي بن كعب)، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي (عن معاذ بن جبل)، وأخرجه ابن جرير (عن ابن عمر)، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي (عن أبي هريرة)، وأخرجه ابن جرير والبيهقي (عن ابن عباس)، (فتح القدير ١: ٢٩٤)، وذكره ابن كثير ثم قال: «وهذا حديث منكر أيضاً».

(٣) انظر تفسير الطبري ٣: ٢٠٠، والبغوي على هامش الخازن ١: ٣٧٤.

الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة. وقال السديّ: القنطار ثمانية آلاف مثقال وهي[١] مائة رطل. وقال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار؛ وروي ذلك عن ابن عمر. وقال أبو نضرة[٢]: القنطار ملءمَسْكِ ثَوْرٍ ذهباً[٣]. قال ابن سيدة: هكذا هو بالسريانية. وقال الربيع بن أَنَس: القنطارُ المال الكثيرُ بعضُهُ على بعض. وحكى النقاش عن ابن الكلبي أنَّ القنطارَ بلغةِ الروم ملءُمَسْكِ ثور ذهبا. وقال النقاش: القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة لأنه جمع الجمع، وهذا ضعفُ نظرٍ وكلامٌ غير صحيح، وقد حكى مكيّ نحوه عن ابن كيسان أنه قال: لا تكون المقنطرة أقلَّ من تسعة، وحكى المهدوي عنه وعن الفراء: لا تكون المقنطرة أكثرَ من تسعة، وهذا كلُّه تحكم. وقال أبو هريرة: القنطار اثنا عشر ألف أوقية. وحكى مكي قولاً أن القنطار أربعون أوقية ذهباً أو فضة، وقاله ابن سيدة في المحكم، وقال: القنطار بلغة بربر ألف مثقال. وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وآتَيْتُمْ إحْداهُنَّ

---

(١) في بعض النسخ: وهو

(٢) هو المنذر بن مالك بن قطعة العبدي البصري، روى عن علي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وأنس، وجابر، وغيرهم، وروى عنه سليمان التيمي، وحميد الطويل، وعاصم الأحول، وقتادة، وآخرون، ثقة، كثير الحديث، توفي سنة: ١٠٨ هـ (تهذيب التهذيب. ١٠ : ٣٠٢).

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري. (فتح القدير للشوكاني. ١ : ٢٩٤) والمَسْك (بفتح الميم وسكون السين) هو: الجلد ـ وجمعه: مسوك ومُسُك.

قنْطاراً﴾[١] قال: ألف دينار[٢]، ذكره الطبري، وحكى الزجاج أنه قيل: إن القنطار هو رطل ذهباً أو فضة، وأظنها وهماً، وأن القول مائةُ رطلٍ فسقطت «مائة» للناقل. والقنطار إنما هو اسم المعيار الذي يوزَنُ به، كما هو الرطلُ والربع، ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار أي يعدلُ القنطار. والعرب تقول: قَنْطَرَ الرجلُ إذا بلغ ماله أن يوزنَ بالقنطار. وقال الزجاج: القنطارُ مأخوذٌ من عَقْدِ الشيءِ وإحكامه، والقنطرة المعقودةُ نحوه، فكأنَّ القنطارَ عقدة مال.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿الْمُقَنْطَرة﴾ـ فقال الطبري: معناه: المضعَّفَة، وكأنَّ القناطير ثلاثةٌ والمقنطرةَ تسع، وقد تقدم ذكر هذا النظر، وقال الربيع: معناه: المالُ الكثير بعضه فوق بعض. وقال السدي: معنى المقنطرة: المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم. وقال مكي: المقنطرة المكملة[٣]، والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً، فذلك أشهى[٤] في أمره، وذلك أنك

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة النساء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس (فتح القدير ١ : ٢٩٤)، وفي ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم عن أنس بلفظ «قنطار يعني ألف دينار» قال: وهكذا رواه الطبراني (تفسير ابن كثير ١ : ٣٥٢).

(٣) هو كما تقول: بدرة مبدّرة وألف مؤلفة، وهذا أيضاً قول ابن قتيبة.

(٤) في بعض النسخ: أشهر.

تقولُ في رجل غنيّ من الحيوان والأَملاك: فلان صاحبُ قناطير مالٍ، أي لو قُوِّمَتْ أملاكُهُ لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقولُ في صاحب المال الحاضر العتيد: هو صاحب قناطيرَ مقنطرةٍ، أي قد حَصَلتْ كذلك بالفعل بها، أي قُنْطِرَتْ فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقربُ للانتفاع وبلوغ الآمال. وقد قال مروان بن الحكم: ما المال إلا ما حازته العياب[1]، وإذا كان هذا فسواء كان المال مسكوكاً أو غير مسكوك، أما إن المسكوك أشهى لما ذكرناه، ولكن لا يُعطى ذلك لفظة (المقنطرة).

﴿وَالْخَيْلِ﴾ جمع خائل عند أبي عبيدة، سمى بذلك الفرس لأنه يختال في مشيه[2] فهو كطائر وطير، وقال غيره: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه[3].

واختلف المفسرون في معنى ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ـ فقال سعيد بن جبير وابن عباس وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى[4] والحسن والربيع ومجاهد: معناه: الراعية في المروج والمسارح، تقول: سامت الدابةُ والشاة إذا

---

(١) العياب: جمع عيبة وهي وعاء تحفظ فيه الثياب والمتاع، وقد قال الشاعر:
يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

(٢) في بعض النسخ: مشيته.

(٣) ذهب ابن كثير إلى أن حبّ الخيل يكون إما استعداداً للغزو، أو رغبة في الفخر والتباهي، أو للتعفف واقتناء النسل.

(٤) كوفي مولى خزاعة، روى عن أبيه، وروى عنه الأجلح الكندي وأسلم المنقري وسلمة بن كهيل ومنصور بن المعتمر وغيرهم، وثقه ابن حبان. (تهذيب التهذيب ٥: ٢٩٠).

سرحت وأخذت سَوْمَها من الرعي، أي غايةَ جهدها، ولم تقصِّرْ عن حالٍ دون حال، وأَسَمْتُها أنا إذا تركتها لذلك، ومنه قول النبي ﷺ: (في سائِمَةِ الغنمِ الزَّكاةُ)(١)، ومنه قوله عز وجل: ﴿فيه تُسِيمُونَ﴾(٢)، وروي عن مجاهد أنه قال: المسوّمة معناه: المطهّمةُ الحسانُ، وقاله عكرمة: سَومها الحُسْنُ. وروي عن ابن عباس أنه قال: المسوّمة معناه: المُعْلَمَةُ، شِياتُ(٣) الخيلِ في وجوهها، [وقاله قتادة](٤) ويشهد لهذا القول بيت لبيد(٥):

وغداةَ قاعِ القرنتينِ أَتَيْنَهُمْ زُجَلًا يلوحُ خلالهَا التسويمُ(٦)

* * *

وأما قول النابغة(٧):

بسمرٍ كالقداحِ مُسوَّماتٍ عليها مَعْشرٌ أَشباهُ جِنِّ(٨)

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الزكاة، صدقة الماشية ٢: ١١٢.

(٢) من الآية (١٠) من سورة النحل.

(٣) شيات: جمع شية، وهي العلامة، سواد في بياض أو بياض في سواد، وكل ما خالف اللون في جميع الجسد في الدواب، وشية الفرس: لونه.

(٤) زيادة من بعض النسخ.

(٥) البيت في ديوانه: ١٣٣.

(٦) القاع: الأرض المستوية؛ قاع القرنتين: موضع كانت فيه وقعة بين كنانة وغطفان، والنون في (أتينهم) ضمير الخيل، وزجلًا: جماعات، والتسويم: الإعلام بعلامة تعرف بها في الحرب.

(٧) البيت في ديوانه: ١٢٨ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٨) سمر: صفة للخيل، ويروى: بضمر، أي خيل ضامرة، شبهها في ضمورها بقداح الميسر، وشبه الفرسان بالجن لشدة صولتهم وخفتهم في الحرب على الخيل.

فيحتمل أن يريد المطهمةَ الحسان، ويحتمل أن يريد المعلمةَ بالشيات، ويحتمل أن يريد المعدَّة. وقد فسَّر الناسُ قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عندَ ربِّكَ﴾[١] بمعنى مُعَدَّة، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ المسَوَّمَةِ﴾ معناه: المعدة للجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله: "للجهاد" ليس من تفسير اللفظة.

﴿وَٱلأَنْعَامِ﴾ الأصناف الأربعة: الإبلُ والبقرُ والضأنُ والمعز. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ هنا اسمٌ لكل ما يحرث، وهو مصدر سمِّيَ به، تقول: حَرَثَ الرجل حرثاً إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة، فيقع اسمُ الحرثِ على زرْع الحبوب وعلى الجنَّات وغير ذلك من أنواع الفلاحة. وقوله تعالى: ﴿إذْ يَحْكُمانِ في الْحَرْثِ﴾[٢] قال جمهور المفسرين: كان كَرْماً.

والمتاعُ: ما يستمتع به وينتفع مدة ما منحصرة؛ و﴿المآب﴾: المرجع، تقول: آب الرجل يؤوب، ومنه قول الشاعر[٣]:

. . . . رضيتُ منَ الغنيمةِ بالإيابِ

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة الذاريات.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة الأنبياء.

(٣) هو امرؤ القيس، وهذا الذي أورده هو عجز البيت، وصدره.

وقد طوفت في الآفاق حتى . . . .

وقد جرى قوله: رضيت... الخ» مجرى المثل، يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى في شيء ولم يبلغه، أو لمن يشقى في طلب الحاجة ثم يرضى بالخلاص سالماً.

وقول الآخر:

. . . . إذا ما القارظُ العنزيُّ آبا[1]

وقول عبيد:

. . . . وغائِبُ الموتِ لا يئُوبُ[2]

وأصل مآب مأْوَب، نُقِلَتْ حركةُ الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مَقَال، فمعنى الآية: تقليل أمر الدنيا وتحقيرها، والترغيبُ في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

وفي قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ . . . الآية، تحسّرٌ ما على نحو ما في قول النبي عليه السلام: (تتزَوَّجُ المرأةُ لأَرْبَع) . . . الحديث؛[3]. وقوله تعالى: ﴿قلْ أَؤُنبئُكُم﴾ الآية بمثابة قول النبي ﷺ: (فاظفر بذات الدين).

قوله عز وجل:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) هذا عجز بيت لبشر بن أبي حازم، وصدره: فَرَجِّي الخَير وانتظري إيابي. والقارظ: الذي يجمع ورق السلم للدباغ، وفي أوبة القارظين يضرب المثل، وهما رجلان خرجا يجمعان القرظ ولم يعودا، (انظر فصل المقال: ٣٧٤، والميداني ١ : ١٤٢، وجمهرة العسكري ١ : ١٢٣).

(٢) هذا عجز بيت لعدي بن الأبرص الشاعر الجاهلي، وصدره: وكلُّ ذي غيبةٍ يئوبُ

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة، عن أبي هريرة (الجامع الصغير ١ : ١٣٢ ط. دار الكتب العلمية، بيروت).

في هذه الآية تسليةٌ عن الدنيا وتقويةٌ لنفوس تاركيها، وذكر تعالى حالَ الدنيا وكيف استقرَّ تزيين شهواتها، ثم جاء الإنباء بخيرٍ من ذلك هازّاً للنفوسِ وجامعاً لها، لتسمع هذا النبأ المستغرب النافع لمن عقل. وأُنبىء: معناه أخبر.

وذهبت فرقةٌ من الناس إلى أن الكلام الذي أُمِرَ النبي ﷺ بقوله تمَّ في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِهِّمْ﴾، و﴿جَنَّاتٌ﴾ على هذا مرتفعٌ بالابتداء المضمرِ تقديره: ذلك جناتٌ؛ وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿من ذلكم﴾، وأن قوله: ﴿لِلَّذينَ﴾ خبر متقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾ رفع بالابتداء، وعلى التأويلِ الأولِ يجوز في ﴿جَنّات﴾ الخفض بدلاً من ﴿خيرٍ﴾، ولا يجوز ذلك على التأويل الثاني، والتأويلان محتملان.

وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ يعني من تحت أشجارها وعلوها من الغرف ونحوها.

و﴿خالِدينَ﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿وأزواجٌ﴾ عطف على الجنات، وهو جمع زوج وهي امرأة الإنسان، وقد يقال زوجة، ولم يأت في القرآن.

و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، معناه من المعهود في الدنيا من الأقذار والريب وكل ما يصم في الخَلْقِ والخُلُق. ويحتمل أن يكون الأزواج: الأنواعَ والأشباه.

والرضوانُ: مصدر من الرضى، وفي الحديث عن النبي عليه

السلام: (إنَّ أهلَ الجنّةِ إذا استقروا فيها وحَصَلَ لكلِّ واحدٍ منهم ما لا عينٌ رأت ولا أُذُن سمعَت ولا خَطَر على قلب بشر. قال الله لهم: أتريدون أن أعطيكم ما هو أفضل من هذا؟ قالوا: يا ربنا وأيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ فيقول الله تعالى: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسْخَطُ عليكم أبداً)(١) هذا سياق الحديث، وقد يجيء مختلفَ الألفاظ، والمعنى قريبٌ بعضُهُ من بعض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ﴾ وعدٌ ووعيدٌ.

وقوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿الَّذينَ﴾ بدل من ﴿الَّذين اتَّقَوْا﴾، فَسَّرَ في هذه الآية أحوالَ المتقين الموعودين بالجنات. ويحتملُ أن يكونَ إعرابُ قوله ﴿الَّذينَ﴾ في هذه الآية رفعاً على القطع وإضمارِ الابتداء، ويحتاجُ إلى القطع وإضمار فعل في قوله ﴿الصَّابرينَ﴾، والخفض في ذلك كله على البدل أَوْجَهُ. ويجوزُ في ﴿الَّذينَ﴾ وما بعده النصبُ على المدح.

والصبر في هذه الآية معناه: على الطاعات وعلى المعاصي

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، (الجامع الصغير ١: ٣٥٩).

والشهوات؛ والصدق معناه: في الأقوال والأفعال. والقنوت: الطاعة والدعاء أيضاً وبكل ذلك يتصف المتقي. والإنفاق: معناه: في سبيل الله ومظانّ الأجر كالصلة للرحم وغيرها، ولا يختص هذا الإنفاقُ بالزكاةِ المفروضة. والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، وخص تعالى السَّحَرَ لما فسَّر النبي ﷺ في قوله: (ينزلُ ربُّنا عزَّ وجل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ فلا يزال كذلك حتى يطلعَ الفجر)[١].

وروي في تفسير قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أنه أخر الأمر إلى السحر[٢]، وروى إبراهيم بن حاطب[٣] عن أبيه قال: سمعتُ رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: ربِّ أمرتني فأطعتك، وهذا سَحَرٌ فاغفر لي، فنظرت فإذا ابن مسعود[٤]. وقال أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارةً[٥]. وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي الليلَ صلاةً ثم يقول:

(١) أخرجه الصحيحان وغيرهما من أصحاب المسانيد والسنن بروايات مختلفة، (فتح القدير، وابن كثير، ومجمع الزوائد. ١: ١٥٣).

(٢) أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود. (فتح القدير ٣: ٥٢). والآية هي رقم (٩٨) من سورة يوسف.

(٣) لعله إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب الجمحي، روى عن عبد الله بن دينار وعطاء بن أبي رباح والثقات، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله. (تهذيب التهذيب ١: ١٣٣).

(٤) انظر تفسير الطبري ٣: ٢٠٨، وابن كثير ٢: ٢٠.

(٥) أخرجه عنه ابن جرير وابن مردويه. (فتح القدير ١: ٢٩٤).

يا نافع أَسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاةَ ثم يسأل، فإذا قلتُ نعم قعد يستغفر(١). فلفظ الآية إنما يعطي طلبَ المغفرة، وهكذا تأوَّلَهُ مَنْ ذكرناه من الصحابة. وقال قتادة: المراد بالآية المصلون بالسحر. وقال زيد بن أسلم: المراد بها الذين يصلون صلاةَ الصبح في جماعةٍ، وهذا كله يقترن به الاستغفار.

والسَّحَر ـ بفتح الحاء وسكونها ـ: آخر الليل. قال الزجاج وغيره: هو قبل طلوع الفجر، وهذا صحيح لأنَّ ما بعد الفجر هو من اليوم لا من الليلة. وقال بعضُ اللغويين: السحر من ثلث الليل الآخر إلى الفجر. والحديثُ في التنزل وهذه الآيةُ في الاستغفار يؤيّدان هذا. وقد يجيء في أشعار العرب ما يقتضي أنَّ حكم السحر يستمرُّ فيما بعد الفجر نحو قول امرىء القيس:

يُعَلُّ به بَرْدُ أَنْيابها … إذا غَرَّدَ الطائرُ المستحر(٢)

يقال: أَسحر واستحر إذا دخل في السحر، وكذلك قولهم: نسيم السحر، يقع لما بعد الفجر، وكذلك قول الشاعر(٣):

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وفيه: هل جاء السحر؟ بدل «أسحرنا». (تفسير ابن كثير ٢: ٢٠).

(٢) العلّ: السقي أو الشرب ثانية، والبرد: الرقيق، واستحر الطائر: غرَّد بسحر، والطائر المستحر هو الديك هنا؛ والضمير في «به» يعود إلى الشراب.

(٣) هو الربيع بن زياد العبسي يقوله في رثاء مالك بن زهير، (الأغاني ١٧: ١٣٠ ط. دار الثقافة، بيروت)، وقد روى صاحب الأغاني بيتاً آخر في القصيدة نفسها مشبهاً لهذا المثبت هنا، وهو:

من مثله تمسي النساء حواسراً … وتقوم معولة مع الأسحار

وقبل البيت الذي ذكره ابن عطية بيت آخر هو:

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ … فليأتِ نسوتَنا بوجه نهار

يَجِدِ النساءَ حواسراً ينْدُبْنَهُ قد قُمْنَ قبلَ تبلُّجِ الأَسحارِ

فقد قضى أن السحر يتبلج بطلوع الفجر، ولكنّ حقيقةَ السحر في هذه الأحكام الشرعية من الاستغفار المحمود، ومن سحور الصائم، ومن يمينٍ لو وقعت ـ إنما هي من ثلث الليل الباقي إلى السحر.

قوله عز وجل:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

أصل ﴿شَهِدَ﴾ في كلام العرب: حضر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١] ثم صُرِّفت الكلمة حتى قيل في أداء ما تقرر علمه في النفس بأيِّ وجهٍ تقرر من حُضورٍ أو غيره: شهد يشهد؛ فمعنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: أعلمَ عبادَهُ بهذا الأمرِ الحقِّ وبيَّنه. وقال أبو عبيدة: شهد الله معناه: قضى الله، وهذا مردود من جهات.

وقرأ جميع القراء: ﴿أَنَّه لا إِلَهَ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنَّه﴾ وبكسرها من قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ واستئناف الكلام. وقرأ الكسائي وحده: ﴿أَنَّ الدِّين﴾ بفتح الألف. قال أبو علي: (أَنَّ) بدل من (أنه) الأولى، وإن شئتَ جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأن الإسلام هو

(١) من الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

التوحيدُ والعدلُ، وإن شئت جعلته من بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتملُ على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلت ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ بدلاً من ﴿القِسْطِ﴾ لأنه هو في المعنى. ووجَّه الطبريُّ هذه القراءة بأنْ قدَّر في الكلام واوَ عطفٍ ثم حذفت وهي مرادة، كأنه قال: (وإن الدِّين) وهذا ضعيف. وقرأ عبدالله بن العباس: ﴿إِنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بكسر الألف من إنه، وقرأ: ﴿أَنَّ الدِّين﴾ بفتح الألف، فأَعملَ ﴿شهد﴾ في ﴿أَنَّ الدِّينَ﴾ وجاء قوله: ﴿إِنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ اعتراضاً جميلاً في نفس الكلام المتصل. وتأول السّديّ الآيةَ على نحو قراءة ابن عباس فقال: الله وملائكته والعلماء يشهدون ﴿أن الدِّين عند الله الإسلام﴾. وقرأ أبو المهلب[1] عمُّ مُحارِبِ بن دثار[2]: ﴿شهداءَ اللَّهِ﴾ على وزن فُعَلاء وبالإضافة إلى المكتوبة- قال أبو الفتح[3]: هو نصبٌ على الحالِ من الضمير في ﴿الْمُسْتَغْفِرينَ﴾، وهو جمع شهيد أو جمع شاهد كعالم وعلماء، وروي عن أبي الملهب هذا أنه قرأ: ﴿شهداءُ الله﴾ برفع الشهداء، وروي عنه أنه قرأ: ﴿شُهُد اللَّهْ﴾ على وزن فُعُل- بضم الفاء والعين ونصب شهداء على الحال، وحكى النقاش أنه قُرِئَ:

---

(١) لم أجد في من يكنون بهذه الكنية من يعد عماً لمحارب، وسقطت لفظة «عم» من المحتسب ١: ١٥٥ فأصبح: «أبو المهلب محارب بن دثار».

(٢) محارب بن دثار السدوسي الكوفي، كان قاضيا بالكوفة، روى عن ابن عمر وعبد الله بن يزيد النخعي وغيرهما، وعنه عطاء بن السائب، وأبو إسحق الشيباني والأعمش وغيرهم، تابعي ثقة (تهذيب التهذيب ١: ٤٩).

(٣) انظر المحتسب ١: ١٥٥- ١٥٦، وقوله قبل ذلك (إلى المكتوبة) يريد بالمكتوبة لفظ الجلالة.

﴿شُهُد اللَّهِ﴾ بضم الشين والهاء والإضافة إلى المكتوبة، قال: فمنهم من نصب الدال ومنهم من رفعها. وأصوب هذه القراءات قراءة الجمهور، وإيقاع الشهادة على التوحيد. ﴿وَالملائِكَةُ وَأُولوا آلْعِلْمِ﴾ عطفٌ على اسم الله تعالى، وعلى بعض ما ذكرناه من القراءات يجيء قوله: ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ ابتداءً وخبره مقدر، كأنه قال: ﴿وَالملائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ﴾ يشهدون و ﴿قائِماً﴾ نصب على الحال من اسمه تعالى في قوله: ﴿شهد الله﴾ أو من قوله: ﴿إلَّا هُوَ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿القائِمُ بِالقِسْطِ﴾ والقسط: العدل.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

قد تقدم ذكر اختلاف القراء في كسر الألف من ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ وفتحها، والدِّينُ في هذه الآية: الطاعةُ والمِلّة، والمعنى: إن الدينَ المقبول أو النافع أو المقرر.

و﴿الإسْلامُ﴾ في هذه الآية هو الإيمان والطاعة، قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين، وعبر عنه قتادة ومحمد بن جعفربن الزبير بالإيمان، ومرادهما أنه مع الأعمال. والإسلامُ هو الذي سأل عنه جبريل النبيَّ عليه السلام حين جاء يعلِّمُ الناسَ دينهم...

الحديث[١]، وجواب النبي له في الإيمان والإسلام يفسِّرُ ذلك، وكذلك تفسيره قوله عليه السلام: (بني الإسْلامُ على خَمْس)... الحديث[٢]. وكلُّ مؤمنٍ بنبيه ملتزمٍ لطاعات شرعه فهو داخلٌ تحت هذه الصفة. وفي قراءة ابن مسعود (إِن الدِّين عند الله لَلْإسلام) باللام[٣].

ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على[٤] علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا، قاله ابن عمر وغيره.

و ﴿الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ﴾ لفظٌ يعمُّ اليهودَ [والنصارى، لكن الربيع بن أنس قال: المراد بهذه الآية اليهود][٥] وذلك أن موسى عليه

---

(١) الحديث مشهور- أخرجه البخاري، ومسلم، والإمام أحمد، والبزار، والطبراني في الكبير بروايات مختلفة. «مجمع الزوائد ٣٨/١»- والحديث مروي عن عمر بن الخطاب- وقد جاء فيه عن الإسلام والإيمان بلفظ مسلم: «وقال: يا محمد. أخبرني عن الإسلام، قال: «الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتؤْتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويُصدقه! قال: «فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤْمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» (مشكاة المصابيح ١/ ٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي- عن ابن عمر- حديث صحيح. الجامع الصغير ٤٢٨/١- ونصه كما نقله في مشكاة المصابيح: (وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، والحج، وصوم رمضان». ثم قال: متفق عليه.

(٣) أي: المفتوحة.

(٤) في بعض الروايات: عن.

(٥) ما بين القوسين سقط في كثير من النسخ.

السلام، لما حضرته الوفاة دعا سبعين حبراً من أحبار[1] بني إسرائيل فاستودعهم التوراة، عند كلِّ حبر جزء، واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى ثلاثةُ قرونٍ وقعت الفرقة بينهم. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نجران.

و﴿بَغْياً﴾ نصب على المفعول من أجله أو على الحال من ﴿الّذين﴾.

ثم توعد عز وجل الكفار.

وسرعة الحساب يحتملُ أن يرادَ بها سرعة مجيء القيامة والحساب، إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب، ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى بإحاطته بكلِّ شيء علماً لا يحتاج إلى عدٍّ ولا فكرة، قاله مجاهد.

قوله عز وجل:

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) جاء في الصحاح: والحِبْر والحَبْر: واحد أحبار اليهود. قال أبو عبيد: والذي عندي أنه الحَبْرُ. ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه.

﴿حاجُّوكَ﴾ فاعلوك من الحجة، والضميرُ في حاجوك لليهود ولنصارى نجران، والمعنى: إن جادلوك وتعنّتوا بالأقاويلِ المزوّرة، والمغالطاتِ فأَسْنِدْ[1] إلى ما كُلِّفْتَ من الإيمان والتبليغِ، وعلى الله نصرك.

وقوله ﴿وجهي﴾ يحتمل أن يراد به المقصد كما تقول: خرج فلان في وجه كذا، فيكون معنى الآية: جعلت مقصدي لله، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: أسلمتُ شخصي وذاتي وكلّيتي وجعلتُ ذلك لله. وعبَّر بالوجه إذ الوجه أشرفُ أعضاءِ الشخص وأجمعُها للحواس. وقد قال حذّاقُ المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[2] إنها عبارة عن الذات.

و ﴿أَسْلَمْتُ﴾ في هذا الموضع بمعنى دفعتُ وأَمضيتُ، وليست بمعنى دخلت في السَّلم لأن تلك لا تتعدَّى. وقوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعن﴾ في موضع رفع، عطف على الضمير في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ويجوز أن يكون مبتدأ، أي: ومن اتبعن أسلمَ وجهه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على اسم الله تعالى كأنه يقول: جعلت مقصدي لله بالإيمان به والطاعة له، ولمن اتبعني بالحفظِ له والتحفي[3] بتعليمه وصحبته. ولك في ﴿اتَّبَعَن﴾ حذفُ الياء وإثباتها، وحذفها

(١) سندت إلى الشيء أسند سنوداً واستندت بمعنى.
(٢) من الآية (٢٧) من سورة الرحمن.
(٣) التحفي: الاهتمام والاحتفال، والحفاوة: المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية بأمره.

أحسنُ اتباعاً لخطِّ المصحف. وهذه النون إنما هي لتسلَمَ فتحةُ لام الفعل فهي مع الكسرة تغني عن الياء لا سيما إذا كانت رأسَ آية، فإنها تشبه قوافيَ الشعر، كما قال الأعشى:

وهل يمنعنَّ ارتيادي البلا دَ من حَذَرِ الموتِ أن يأتِينْ(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾(٢)، فإذا لم تكن نون فإثبات الياء أحسن، لكنهم قد قالوا: هذا غلامِ قد جاء، فاكتفوا بالكسرة دلالة على الياء(٣).

و﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ في هذا الموضع يجمع اليهود والنصارى باتفاق، والأميون: هم الذين لا يكتبون، وهم العرب في هذه الآية، وهذه النسبة هي إلى الأمّ أو إلى الأمة،أي كما هي الأم، أو على حال خروج الإنسان عن الأم، أو على حال الأمة الساذجة قبل التعلم والتحذق.

وقوله: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تقريرٌ في ضمنه الأمر، كذا قال الطبري

---

(١) البيت من قصيدة قالها يمدح بها قيس بن معدي كرب الكندي؛ وارتياد البلاد: كثرة التجول في أنحائها، وطلب الحاجات وتلمسها فيها، يقول: هل يمنعني ارتيادي البلاد من أن أحذر الموت أن يأتيني؟ وهو من قصيدة مطلعها:

لعمرُك ما طولُ هذا الزمن على المرءِ إلَّا عناءٌ معن

(٢) من الآية (١٥) من سورة الفجر.

(٣) أي: إثبات الياء كما جاء في بعض النسخ. قال الزمخشري: [وَمَن اتَّبَعَنِ] عطف على=

وغيره، [وذلك بيّن][١]، وقال الزجاج: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهدد، وهذا حسن، لأن المعنى: أأسلمتم أم لا؟

وقوله: ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ جاءت العبارة بالماضي مبالغةً في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصله.

وقوله: ﴿فإنما علَيْكَ ٱلْبَلاغُ﴾، ذكر بعض الناس أنها آية موادعة وأنها مما نسخته آية السيف؛ وهذا يحتاج أن يقترن به معرفةُ تاريخِ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى: ﴿فإنَّما عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ﴾ بما فيه قتالٌ وغيره، والبلاغ مصدر بلَغ بتخفيف عين الفعل، وفي قوله تعالى: ﴿واللَّهُ بصيرٌ بِالْعبادِ﴾ وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين[٢].

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

= التاءِ في [أَسْلَمْتُ]، وحسن للفاصل.

وقال ابن كثير: [ومنِ اتَّبَعَنِ] أي على ديني يقول مقالتي، كما قال تعالى: [قُلْ هَذِهِ سَبيلي أَدْعو إلىَ الله عَلَىَ بَصيرَةٍ أنا وَمَن ٱتَّبَعَني].

(١) ما بين القوسين زيادة عن بعض النسخ.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره بعد أن انتهى من تفسير هذه الآية: «وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق».

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتعمُّ كل من كان بهذه الحال. والآيةُ توبيخٌ للمعاصرين لرسول الله ﷺ بمساوئ أسلافهم وببقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوئ؛ لأنهم كانوا حَرْصَى[١] على قتل محمد عليه السلام. وروي أن بني إسرائيلَ قتلوا في يوم واحدٍ سبعين نبياً وقامت سوق البقل بعد ذلك[٢]. وروى أبو عبيدة بن الجراح عن النبي عليه السلام أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً، فاجتمع من خيارهم وأحبارهم مائة وعشرون ليغيّروا وينكروا فقتلوا أجمعين، وكلُّ ذلك في يوم واحد[٣]؛ وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقْتلونَ الَّذين يأْمُرونَ بِالْقِسْطِ﴾. وقوله تعالى: ﴿بِغَير حَقٍّ﴾ مبالغة في [التحرير للذنب إذ في

(١) هكذا بالأصل مع أن (حَرْصى) ليست جمعاً قياسياً.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره عند قوله تعالى: [ويقْتُلونَ النَّبيينَ بغَيْر الحَقِّ] في سورة البقرة (تفسير الخازن ١/ ٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح. «فتح القدير» للشوكاني ٢٩٨/١، ولفظه كما ذكره ابن كثير في تفسيره، والزمخشري في الكشاف: عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يومَ القيامة؟ قال: «رجل قتل نبيًّا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: [إنَّ الَّذين يَكْفُرونَ بآياتِ الله وَيَقْتُلونَ النَّبيِّينَ بِغَيْرِ حقٍّ وَيَقْتُلونَ الَّذين يأْمرونَ بالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ]. الآية، ثم قال: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا من أول النهار في ساعةٍ واحدة، فقام مائةٌ وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عزَّ وجلَّ». وهكذا رواه ابن جرير عن مكحول.

الإمكان][١] أن يقتضي ذلك أمر الله تعالى بوجه ما من تكرمة النبي أو غير ذلك. وعلى هذا المعنى تجيء أفعل من كذا إذا كان فيها شياع[٢] مثل: أحبّ وخير وأفضل ونحوه مقولةً بين شيئين ظاهرهما الاشتراك[٣] بينهما.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَقْتُلونَ الَّذينَ﴾، وقرأ حمزة وجماعة من غير السبعة: ﴿ويُقاتِلونَ الَّذينَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَقاتِلُوا الَّذينَ﴾، وقرأها الأعمش، وكلها متوجهةٌ وأَبينُهَا قراءةُ الجمهور.

والقسط: العدل، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث نصَّ عليه، وإذا جاءت البشارة مطلقة فمجملها فيما يستحسن.

ودخلت الفاء في قوله:﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ لما في (الذي) من معنى الشرط في هذا الموضع، فذلك بمنزلة قولك: الذي يفعل كذا فله كذا، إذا أردت أن ذلك إنما يكون له بسبب فعله الشيء الآخر، فيكون الفعل في صلتها، وتكون بحيث لم يدخل عليها عاملٌ يغيّر معناها كليتَ ولعلَّ، وهذا المعنى نَصَّ في كتاب سيبويه في باب ترجمته «هذا باب الحروف

(١) اختلفت النسخ في العبارة التي وضعناها بين القوسين فجاءت العبارة في بعضها: (في التحرير من الطريق)، وفي بعض آخر: (في التحذير من طريق)، وفي بعضها: (في التحذير للذنب) ولعلَّ الصواب فيها هو: (في التحذير من الذنب إذ في الإمكان).

(٢) في اللسان: «شاع الشَّيْبُ شيْعاً وَشِياعاً وَشُيوعاً وشَيْعوعَةً ومشيعاً: ظَهَرَ وتفَرَّق، وشاع فيه الشيب. والمصدر ما تقدم. وشاع الخبر في الناس يَشيع شَيعاً وشَيَعاناً ومَشاعاً وشَيْعوعةً فهو شائعٌ: انتشر وافترق وذاع وظهر.

(٣) في بعض النسخ: (ظاهرهما أن لا اشتراك بينهما).

التي تتنزل منزلة الأمر والنهي لأن فيها معنى الأمر والنهي»[١].

و﴿حَبِطَتْ﴾ معناه: بطلت وسقط حكمها، وحبطها في الدنيا: بقاءُ الذمّ واللعنة عليهم، وحبطها في الآخرة: كونها هباءً منبثاً وتعذيبهم عليها. وقرأ ابن عباس وأبو السمال العدوي: ﴿حَبَطَتْ﴾ بفتح الباء وهي لغة، ثم نفى النصر عنهم في كلا الحالين.

قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بسببِ أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل بيتَ المدراس[٢] على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد:[٣] على أيّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال رسول

(١) انظر كتاب سيبويه ١ : ٤٥٢.

(٢) المدراس: الموضع يدرس فيه كتاب الله، ومنه: مدراس اليهود ـ دارس كتب اليهود، وفي حديث اليهودي الزاني: «فوضع مدْراسُها كفَّه على آية الرَّجم» (ج) مداريسُ (المعجم الوسيط ١ : ٢٨٠).

(٣) الذي في سيرة ابن هشام: النعمان بن زيد، وزيد بن الحارث، وهما يهوديان من يهود بني قينقاع، «سيرة ابن هشام ٢ /٣٥٩».

لكن الزمخشري يتفق مع ابن عطية في الاسمين المذكورين وهما: «نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد». «الكشاف ١ /٤٢٠».

الله ﷺ : (أنا على ملّةِ إبراهيم) فقالا : فإن إبراهيمَ كان يهودياً ، فقال لهما النبي عليه السلام : (فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم) فأبيا عليه فنزلت . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعةً من اليهود أنكروا نبوةَ محمد ﷺ فقال لهم النبي عليه السلام : (هلموا إلى التوراة ففيها صفتي)[1] فأبوا .

فالكتاب في قوله : ﴿مِنَ الْكِتابِ﴾[2] هو اسم الجنس، والكتابُ في قوله :﴿ إلى كتاب الله ﴾ هو التوراة . وقال قتادة وابن جريج: الكتاب في قوله : ﴿ إلى كتاب الله ﴾ هو القرآن ، كان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه فكانوا يعرضون ، ورجح الطبري القول الأول ، وقال مكي : الكتابُ الأول اللوحُ المحفوظُ والثاني التوراة .

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ بفتح الياء أي ليحكم الكتابُ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وعاصم الجحدري:﴿لِيُحْكَمَ﴾ بضم الياء وبناء الفعل للمفعول . وخص الله تعالى بالتولي فريقاً دون الكلِّ لأن منهم من لم يتولَّ كابن سلام وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم﴾ الإشارةُ فيه إلى التولي والإعراض، أي إنما تولوا وأعرضوا لاغترارهم بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم في

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس ـ « فتح القدير » للشوكاني ١ /٢٩٨ .

(٢) من هنا للتبعيض أو للبيان .

قولهم : ﴿ نَحْنُ أبناءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤُه ﴾[١] إلى غيرذلك من هذا المعنى . وكان من قول بني إسرائيل : إنهم لن تمسهم النارُ إلا أربعين يوماً عددَ الأيام التي عبدوا فيها العجل ، قاله الربيع وقتادة . وحكى الطبري أنهم قالوا : إن الله وعد أباهم يعقوبَ أَلَّا يُدْخِلَ أحداً من ولده النار إلا تحلة القسم[٢] ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لليهود : (مَن أولُ مَنْ يدخلُ النار ؟ فقالوا : نحن ، فترةً يسيرة ثم تخلفوننا فيها ، فقال : كذبتم) . . . الحديث بطوله[٣] .

و ﴿ يَفْتَرونَ ﴾ معناه : يشقّقون ويختلقون من الأحاديث في مدح دينهم وأنفسهم وادعاءِ الفضائل لها .

ثم قال تعالى خطاباً لمحمد وأمته على جهة التوقيف والتعجيب : فكيف حال هؤلاء المغترين بالأباطيل إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا وَجُوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأعمالهم القبيحة ؟ قال النقاش : واليومُ : الوقت . وكذلك قوله : ﴿في سِتَّةِ أَيَّام﴾ و﴿في يَوْمينْ﴾ و «أَربَعَة أيَّامٍ ﴾[٤] إنما هي عبارة

---

(١) من الآية (١٨) من سورة المائدة .

(٢) تفسير الطبري عن قتادة ٣ : ٢١٩ .

(٣) أخرجه ابن مردويه (عن أبي هريرة) ، والبخاري وأحمد والنسائي (عن الليث بن سعد) ، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (عن عكرمة) ؛ انظر ابن كثير ١ : ١١٨ وفتح القدير ١ : ٨٩ .

(٤) في ستة أيام (الفرقان : ٥٩) ؛ في يومين (فصلت : ٩ و١٢) ؛ في أربعة أيام (فصلت : ١٠) .

عن أوقات،فإنما الأيام والليالي عندنا،والصحيحُ في يوم القيامة أنه يومٌ لأن قبله ليلة وفيه شمس ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ طالبةٌ لمحذوفٍ ، قال الطبري : تقديره : لما يحدثُ في يوم .

قوله عز وجل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال بعض العلماء : إن هذه الآية دافعةٌ لباطل نصارى نجران في قولهم : إن عيسى هو الله ، وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكلِّ صحيح الفطرة أن عيسى عليه السلام ليس في شيء منها ، وقال قتادة : « ذكر لنا أن النبي عليه السلام سأل ربه أن يجعل في أمته ملك فارس والروم »فنزلت الآية في ذلك[1] . وقال مجاهد : الملك في هذه الآية : النبوة . والصحيح أنه مالك الملك كله مطلقاً في جميع أنواعه ، وأشرف ملك يؤتيه سعادة الآخرة ؛ وروي أنَّ الآية نزلت بسبب أن النبي عليه السلام بشر أمته بفتح ملك فارس وغيره[2] فقالت اليهود والمنافقون : هيهات وكذَّبوا ذلك .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ، (فتح القدير ١ : ٢٩٩) .

(٢) رواه الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك . روح المعاني للألوسي ٣ /١١٢ ، وذكره البغوي في تفسيره نقلا عن ابن عباس وأنس . ١ /٢٨٠ .

واختلف النحويون في تركيب لفظة ﴿اللهم﴾ بعد إجماعهم على أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة وأنها منادى ، ودليلُ ذلك أنها لا تأتي مستعملةً في معنى خبر ، فمذهب الخليل وسيبويه والبصريين أن الأصل : يا الله ، فلما استعملت الكلمةُ دون حرف النداء الذي هو « يا » جعلوا بدل حرف النداءِ هذه الميمَ المشددة ، والضمة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد ، وذهب حرفان فعوض بحرفين . ومذهب الفراء والكوفيين أن أصل (اللهم) يا الله أُم : أي أُم بخير ، وأن ضمة الهاء هي ضمة الهمزة التي كانت في (أم) نقلت . وردَّ الزجاجُ على هذا القول وقال : محالٌ أن يترك الضم الذي هو دليل على نداء المفرد وأن تجعل في اسم الله ضمة (أم)، هذا إلحادٌ في اسم الله تعالى . وهذا غلو من الزجاج . وقال أيضاً : إن هذا الهمز الذي يُطْرَحُ من الكلام فشأنه أن يؤ تى به أحياناً كما قالوا : وَيْلُمِّهِ في ويلُ أُمّه ، والأكثر إثبات الهمزة ، وما سمع قط يالله أُم في هذا اللفظ . وقال أيضاً : ولا تقول العرب يا اللهم . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على (اللهم) وأنشدوا على ذلك :

وما عليكِ أَن تقولي كلَّما سبَّحْتِ أو هللت يا اللهمَّ ما
اردد علينا شيخنا مسلَّما(١)

قالوا : فلو كانت الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعا . قال

---

(١) هذا الرجز مما لم يعرف قائله ، والشاعر يخاطب أنثى لعلها زوجه أو ابنته ويطالبها أن تدعو له إذا سافر وغاب في أوقات الدعوات ومكان القبول ، وتمام البيت الثاني :
.... فإننا من خيره أن نعدما

الزجاج : وهذا شاذ لا يعرف قائله ولا يترك له ما في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب . قال الكوفيون : إنما تزاد الميم مخففة في فم وابنم ونحوه ، فأما ميم مشددة فلا تزاد . قال البصريون : لما ذهب حرفان عوض بحرفين[١] . و ﴿ مالِكَ ﴾ نصب على النداء ، نص سيبويه [على] ذلك في قوله تعالى : ﴿قلِ اللَّهُمَّ فاطرَ السَّمٰواتِ والأرض﴾[٢] وقال : إن ﴿اللهم﴾ لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم ، قال الزجاج : و ﴿ مالِك ﴾ عندي في الإعراب صفة لاسم الله تعالى وكذلك ﴿فاطر السموات﴾، قال أبو علي : وهو مذهب أبي العباس ، وما قال سيبويه أصوب ، وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد (اللهم) لأنه اسمٌ مفردٌ ضُمَّ إليه صوت ، والأصوات لا توصف ، نحو (غاق » وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد أَلَّا يوصف ، وإن كانوا قد وصفوه في مواضع ، فلما ضُمَّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه أَلَّا يوصف صار بمنزلة صوتٍ ضمَّ إليه صوت نحو « حَيْهَل » فلم يوصف . قال النضر بن شُمَيل[٣] ، من قال : اللهم ، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها ، وقال الحسن : اللهم مَجْمَعُ الدعاء .

---

(١) قال الزمخشري : « الميم » في « اللهم » عوض من « يا » ، ولذلك لا يجتمعان ، وهذا بعض خصائص هذا الاسم ، كما اختص بالتاءِ في القسم ، وبدخول حرف النداءِ عليه ، وفيه لام التعريف ، وبقطع همزته في يا ألله . وبغير ذلك » ـ الكشاف ١ / ٤٢١ .

(٢) من الآية (٤٦) من سورة الزُّمر . وكلمة (نصَّ) تتعدى بنفسها ، ولهذا سقط حرف الجر (على) في بعض النسخ .

(٣) النضر بن شميل بن خرشة المازني التميمي (١٢٢ ـ ٢٠٣ هـ / ٧٤٠ ـ ٨١٩ م) من كبار النحويين اللغويين ، (انظر انباه الرواة ٣ : ٣٤٨ ، وثبتاً بمصادر أخرى في الحاشية) .

وخص الله تعالى ﴿ الخَيْر ﴾ بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء ، إذ الآية في معنى دعاءٍ ورغبة ، فكأن المعنى:بيدك الخير فأجْزِلْ حظّي منه . وقيل : المراد بيدك الخير والشر فحذف لدلالةِ أحدهما على الآخر ، كما قال:﴿ تقيكم الحر ﴾(١). قال النقاش : بيدك الخير أي: النصر والغنيمة ، فحذف لدلالة أحدهما .

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن زيد في معنى قوله تعالى : ﴿ تُولجُ اللَّيلَ في النَّهار ﴾ . . . الآية : إنه ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل ، وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار ، دأباً كلّ فصل من السنة ، وتحتملُ ألفاظُ الآية أن يدخل فيها تعاقبُ الليل والنهار كأنّ زوالَ أحدهما ولوجٌ في الآخر .

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وتُخْرجُ الحيَّ من الميِّتِ ﴾ . . . الآية ، فقال الحسن : معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، وروي نحوه عن سلمان الفارسي . وروى الزهري أن النبي ﷺ دخل على بعض أزواجه فإذا بامرأةٍ حسنة النغمة فقال : (من هذه ؟ قالت : إحدى خالاتك ، فقال : إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب ، أيّ خالاتي هي ؟ قالت :خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث(٢) ، فقال النبي ﷺ : سبحانَ الذي يخرجُ الحي من

---

(١) من الآية (٨١) من سورة النحل .

(٢) هي خالدة بنت الأسود القرشية الزهرية ، كانت امرأة صالحةً من المهاجرات ، وإنما كانت خالة رسول الله ﷺ لأن الأسود والد خالدة هذه هو ابن أخ بنت وهب أم النبي ﷺ . « الإصابة والاستيعاب » ٤ / ٢٧٩ .

الميت)[١] وكانت امرأةً صالحة ، وكان أبوها كافراً ، وهو أحد المستهزئين الذين كُفِيَهُمُ النبيّ ﷺ . فالمراد على هذا القول موتُ قلبِ الكافر وحياةُ قلب المؤمن ، والحياة والموت مستعاران .

وذهب جمهور كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية إنما هما الحياةُ حقيقةً والموتُ حقيقة لا باستعارة ، ثم اختلفوا في المثل التي فسروا بها ، فقال عكرمة : هو إخراجُ الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة ، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية ، ولفظ الإخراج في هذا المثال وما ناسبه لفظ متمكّن على عرف استعماله .

وقال عبدالله بن مسعود في تفسير الآية : هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حيّ ، ويخرج الرجل منها وهي ميتة . ولفظ الإخراج في تنقل النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو عبارة عن تغير الحال ، كما تقول في صبي جيد البنية : يخرجُ من هذا رجلٌ قويّ ، وهذا المعنى يسميه ابن جني : التجريد ، أي تجرّدُ الشيءِ من حالٍ إلى حال هو خروج . وقد يحتمل قوله تعالى : ﴿وَيُخْرِجُ الميّتَ من الحيّ﴾ أن يراد به أن الحيوان كله يميته فهذا هو معنى التجريد بعينه ، وأنشد ابن جني على ذلك :

أفاءت بنو مروانَ ظلماً دماءَنا وفي الله ـ إنْ لم يُنصفوا ـ حَكَمٌ عَدْلُ[٢]

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي . « فتح القدير للشوكاني» . ١ / ٣٠٠ . كما رواه ابن نجيب في جزئه ، وابن أبي عاصم . «الإصابة» .

(٢) يرد البيت في معظم المصادر منسوباً لأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، (انظر أنساب الأشراف ٥ : ١٤٢ ، وتهذيب ابن عساكر ٤ : ١٤٧) ، ونسب في الحماسة البصرية ١ : ٨١ لأبي =

وروى السدي عن أبي مالك(١) قال في تفسير الآية: هي الحبة تخرج من السنبلة ، والسنبلةُ تخرجُ من الحبة ، والنواةُ تخرج من النخلة ، والنخلة تخرج من النواة، والحياة في النخلة والسنبلة تشبيه.

وقوله تعالى: ﴿ بغَيْرِ حِساب﴾ قيل معناه: بغير حساب منك، لأنه تعالى لا يخاف أن تنتقص خزائنه ، هذا قول الربيع وغيره . وقيل: معنى بغيرحساب : أي من أحد لك ، لأنه تعالى لا معقّب لأمره . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ الميْتَ ﴾ بسكون الياء في جميع القرآن . وروى حفص عن عاصم ﴿ من الميّت﴾ بتشديد الياء ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ الميّت ﴾ بتشديد الياء في هذه الآية ، وفي قَوله : « إلى ﴿ بلد ميّت ﴾ و﴿ لبلد ميّت﴾(٢)، وخفَّفَ حمزة والكسائيُّ غير هذه الحروف. قال أبو علي: الميّتُ هو الأصل ، والواو التي هي عين منه انقلبت ياءً لإدغام الياء فيها ، وميْت بالتخفيف محذوفٌ منه عينه أُعِلَّتْ بالحذف كما أُعِلَّتْ بالقلب ، والحذف حَسَنٌ والإتمام حسن ، وما مات وما لم يمت في هذا الباب يستويان في الاستعمال .

= الخطار بن صفوان الكلابي ، وانظره في المحتسب ١ : ٤٢ ، ١٠٦ ، وحماسة ابن الشجري : ٤ ، والخصائص ٢ : ٤٧٥ .

(١) الظاهر أن المراد به « غزوان الكوفي الغفاري » لأن صاحب التهذيب (٨ : ٢٤٥) ذكر أن البخاري أخرج له في التفسير، وأن السديّ روى عنه ، (الإصابة ٤ : ١٩١) .

(٢) الأولى من سورة فاطر : من الآية (٩) ، والثانية من سورة الأعراف : من الآية (٥٧) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهب قوم إلى أن الميْت بالتخفيف إنما يستعمل فيما قد مات ، وأما الميّت بالتشديد فيستعمل فيما مات وفيما لم يمت بعد .

قوله عز وجل :

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما يُظهره المرءُ ، فأما أن يتخذه بقلبه ونيته فلا يفعلُ ذلك مؤمن ، والمنهيّون هنا قد قرر لهم الإيمان ، فالنهيُ إنما هو عبارةٌ عن إظهارِ اللطفِ للكفّار والميل إليهم ، ولفظ الآية عامٌّ في جميع الأعصار .

واختلف الناس في سبب هذه الآية ، فقال ابن عباس : كان كعب ابن الأشرف وابن أبي الحقيق[١] وقيس بن زيد[٢] قد بطنوا[٣] بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر بن زَبير[٤] وعبد

(١) المقصود سلام بن أبي الحقيق ، وكان شديد الكيد للإسلام وأهله ، وهو ممن اشترك في تحريض الأحزاب على غزو المدينة ، انظر خبر مقتله في السيرة ٢ : ٢٧٤ .

(٢) لم يذكر ابن اسحق في السيرة شيئاً عنه .

(٣) بطنوا بهم : صاروا من بطانتهم .

(٤) هو رفاعة بن عبدالمنذر بن رفاعة بن زَنْبر بن زَبير الأنصاري الأوسي ، اختلف في اسمه ، من أهل العقبة ، وعدَّه ابن اسحق في البدريين ، (الإصابة ٤ /٥١٨) .

الله بن جبير[١] وسعد بن خيثمة[٢] لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مباطنتهم ، فأبى أولئك النفر إلا موالاةَ اليهود ، فنزلت الآية في ذلك . وقال قوم : نزلت الآية في قصة حاطب بن أبي بلتعة[٣] وكتابه إلى أهل مكة ، والآية عامةٌ في جميع هذا ، ويدخل فيها فعلُ أبي لبابة[٤] في إشارته إلى حلقه حين بعثه النبيُّ عليه السلام في استنزال بني قريظة . وأما تعذيبُ بني المغيرة لعمار فنزل فيها أباح النبيّ عليه السلام لعمار ﴿إلا من أُكْرِهَ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ دُونِ﴾ عبارة عن كون الشيء الذي تضاف إليه (دون) غائباً متنحياً ليس من الأمر الأول في شيء، وفي المثل:

(١) هو عبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري ، أخو خوات بن جبير ، شهد العقبة وبدراً واستشهد بأحد ، وهو أمير الرماة يومئذ . (الإصابة ٢ /٢٨٦) .

(٢) هو سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك الأنصاري الأوسي ، يكنى أبا خيثمة أحد النقباءِ بالعقبة ، شهد بدراً واستشهد بها (الإصابة ٢ /٢٥) .

(٣) حاطب بن أبي بلتعة : حليف بني أسد بن عبد العزى ، شهد بدراً ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوّي وعدوَّكم أوْلياء ﴾، وذلك أنه كاتب بنيه وإخوته بمكة يعلمهم بما عزم عليه الرسول ؛ توفي سنة ٣٠ ، (انظر ترجمته في الإصابة ١ : ٣٠٠ وقصة مكاتبته أهل مكة في السيرة : ٣٩٨ - ٣٩٩) .

(٤) حين حاصر الرسول بني قريظة طلبوا إليه أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاري أخا بني عمرو بن عوف ليستشيروه في أمرهم ، فلما وصل إليهم قالوا له : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم وأشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » ، فنزل فيه : ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

(٥) من الآية (١٠٦) من سورة النحل .

«وأمِرَّ دونَ عُبَيْدةَ الوَذَمُ»(١) كأنه من غير أن ينتهي إلى الشيء الذي تضاف إليه، ورتبها الزّجاج: المضادةَ للشَّرَفِ من الشيء الدون، وفيما قاله نظر.

قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ معناه: في شيء مرضيّ على الكمال والصواب، وهذا كما قال النبي عليه السلام: (من غشنا فليس منا)(٢) وفي الكلام حذفُ مضافٍ، تقديره: فليس من التقرب إلى الله أو التزلف ونحو هذا.

وقوله:﴿في شيء﴾هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿لَيْسَ مِنَ الله﴾(٣). ثم أباح الله إظهار اتخاذهم بشرط الاتقاء، فأمَّا إبطانه(٤) فلا يصحّ أن يتصف به مؤمنٌ في حال.

وقرأ جمهور الناس:﴿تقاة﴾أصله وُقَيَةً ـ على وزن فُعَلة ـ بضم الفاء

---

(١) هذا المثل عجز بيت من شعر، وصدره:

ولقد هممت بذاك إذ حبست ....

والوذم: سيور تشد بها عراقي الدلو، والمثل يضرب للرجل يقطع الأمر دونه: (جمهرة العسكري ١: ١٦٥ والميداني ٢: ١٥٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود، (الجامع الصغير ٢: ١٧٧)، وزاد فيه: «والمكر والخداع في النار».

(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية في إعراب (فليس من الله في شيء) ثم قال: وهو كلام مضطرب لأن تقديره: «فليس من التقرب إلى الله» يقتضي الا يكون «من الله» خبراً لليس، لأنه غير مستقل، وقوله إن «في شيء» في موضع نصب على الحال يقتضي ألا يكون خبراً، وعلى هذا الكلام لا يكون لها خبر (البحر المحيط ٢: ٤٢٣).

(٤) في بعض النسخ: إبطانهم.

وفتح العين ـ أبدلوا من الواو تاءً كتُجاه وتُكأة فصار تُقَيَةً، ثم قلبت الياءُ ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فجاء تُقاة. قال أبو علي: يجوز أن تكون تقاةً مثل رماة حالاً من ﴿تتقوا﴾ وهو جمع فاعل وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تقيٍّ وجعل فعيل بمنزلة فاعل.

وقرأ ابن عباس والحسن وحميد بن قيس ويعقوب الحضرمي ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رجاء والجحدري وأبو حيوة ﴿تَقِيَّةً﴾ ـ بفتح التاء وشد الياء ـ على وزن فعيلة، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وأمال الكسائي القافَ في (تُقاةً) في الموضعين، وأمال حمزة في هذه الآية ولم يمل في قوله: ﴿حَقَّ تُقاتِهِ﴾(١)، وفتح سائر القراء القافَ إلا أن نافعاً كان يقرؤُها بين الفتح والكسر.

وذهب قتادة إلى أن معنى الآية ﴿إلَّا أن تَتَّقوا مِنْهُم تُقَاةً﴾ من جهة صلة الرحم أي: ملامة، فكأن الآية عنده مبيحةٌ الإحسانَ إلى القرابة من الكفار. وذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى الآية: إلا أن تخافوا منهم خوفاً، وهذا هو معنى التقية. واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأي شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقية فكلُّ قادرٍ غالبٍ يُكْرِهُ بجورٍ منه، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا وَجَوَرَةُ الرؤساءِ والسلَّابة وأهل الجاه في الحواضر. قال مالك

(١) من الآية (١٠٢) من سورة آل عمران.

رحمه الله: وزوجُ المرأةِ قد يُكْرِه.

وأما بأيِّ شيءٍ تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل، وبالخوف على الجوارح، وبالضرب بالسوط، وبسائر التعذيب، فإذا فُعل بالإنسان شيءٌ من هذا أو خافه خوفاً متمكناً فهو مُكْرَهٌ وله حُكْمُ التقية. والسجن إكراه، والتقييد إكراه، والتهديد والوعيد إكراه، وعداوة أهل الجاه الجوَرَة تقية. وهذه كلها بحسب حال المُكْرَهِ، وبحسب الشيء الذي يكرَه عليه، فكم من الناس ليس السجنُ فيهم بإكراه، وكذلك الرجل العظيم يُكْرَهُ بالسجنِ والضرب غير المتلف ليكفر فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طُلِبَ منه، ومسائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال.

وأما أي شيء تبيح؟ فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه، ومن بيعٍ وهبة وطلاق، وإطلاق القول بهذا كله، ومن مداراة ومصانعة. وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنتُ متكلماً به. واختلف الناس في الأفعال[1]، فقال جماعة من أهل العلم منهم الحسن ومكحول ومسروق: يفعل المكرَهُ كلَّ ما حُمِلَ عليه مما حَرَّمَ الله فعلَه وينجّي نفسه بذلك. وقال مسروق: فإن لم يفعل حتى مات دخل النار.

(١) أي فعل المكره اتقاء الضرر، لأن ما سبق كان في الأقوال.

وقال كثير من أهل العلم منهم سحنون: بل إنْ لم يفعل حتى مات فهو مأجور،وتَرْكه ذلك المباح أَفضلُ من استعماله. وروي أن عمر ابن الخطاب قال في رجل يقال له: نهيت بن الحارث، أخذته الفُرْس أسيراً، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهُدِّدَ بالنار فلم يفعلْ فقذفوه فيها، فبلغ ذلك عمر فقال: وما كان على نهيت أن يأكل؟. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحةٌ للأقوال، فأما الأفعالُ فلا، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك، وروي ذلك عن سحنون، وقال الحسن في الرجل يقال له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال: إن كان الصنم مقابلَ القبلة فليسجدْ ويجعلْ نيته لله، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه، قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما يمنعه أن يجعل نيته لله تعالى وإن كان لغير قبلة، وفي كتاب الله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وجْهُ اللَّهِ﴾(١). وفي الشرع إباحةُ التنفّلِ للمسافر إلى غير القبلة. هذه قواعدُ مسألة التقية، وأما تَشَعُّب مسائِلِها فكثيرٌ لا يقتضي الإيجازُ جمعه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾. . . إلى آخر الآية، وعيد وتنبيه ووعظ وتذكير بالآخرة. وقوله تعالى: ﴿نَفْسَهُ﴾ نائبة عن إياه،

(١) من الآية (١١٥) من سورة البقرة.

وهذه مخاطبةٌ على معهود ما يفهمه البشر، والنفسُ في مثل هذا راجع إلى الذات، وفي الكلام حذفُ مضافٍ لأن التحذير إنما هو من عقابٍ وتنكيل ونحوه، فقال ابن عباس والحسن: ويحذّركم الله عقابَهُ.

قوله عز وجلّ:

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

الضمير في ﴿تُخْفوا﴾ هو للمؤمنين الذين نُهوا عن اتخاذ الكافرين أولياءَ، والمعنى: إنكم إن أبطنتم الحرصَ على إظهار موالاتهم فإن الله يعلم ذلك ويكرهه منكم. وقوله: ﴿ويعْلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ﴾ معناه: على التفصيل. وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ﴾ عموم، والشيء في كلام العرب: الموجود.

و﴿يومَ﴾ نُصِبَ على الظرف، وقد اختلف في العامل فيه، فقال مكيّ بن أبي طالب: العامل فيه ﴿قدير﴾، وقال الطبري: العامل فيه قوله: ﴿وَإِلى اللَّهِ الْمَصيرُ﴾، وقاله الزجاج، وقال أيضاً: العامل فيه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ يَوْمَ﴾، ورجحه؛ وقال مكي حكاية: العامل فيه فعل مضمر تقديره: «اذكر يوم» و﴿ما﴾ بمعنى الذي، و﴿محضراً﴾ قال قتادة: معناه: موفّراً، وهذا تفسير بالمعنى، والحضور أبينُ من أن يفسرَ بلفظٍ آخر.

وقوله تعالى: ﴿وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ يحتملُ أن تكون ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى فهي في موضع نصب وتكون ﴿تودُّ﴾ في موضع الحال، وإلى هذا العطف ذهب الطبريّ وغيره، ويحتمل أن تكون رفعاً بالابتداء ويكون الخبر في قوله ﴿تودّ﴾ وما بعده، كأنه قال: وعملها السيء مردودٌ عندها، إنّ بينها وبينه أمداً.

وفي قراءة ابن مسعود ﴿مِنْ سوءٍ ودَّتْ﴾، وكذلك قرأ ابن أبي عبلة، ويجوز على هذه القراءة أن تكون﴿ما﴾شرطية، ولا يجوز ذلك على قراءة ﴿تودّ﴾ لأن الفعل مستقبلٌ مرفوع، والشرط يقتضي جزمه، اللهم إلا أن يُقَدَّر في الكلام محذوفٌ «فهي تود» وفي ذلك ضعف. والأمد: الغاية المحدودة من المكان أو الزمان. قال النابغة:

. . . . سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَدِ[1]

فهذه غاية في المكان، وقال الطرماح[2]:

كل حيٍّ مستكملٌ عِدَّةَ العُمْـ ـرِ وَمُودٍ إذا انقضى أَمَدُهُ

فهذه غاية في الزمان.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية: يسرّ أحدَهم أَلَّا يلقَى عمله

---

(١) صدر هذا البيت: إلا لمثلك أو من أنت سابقه . . . .

(٢) الطرماح بن حكيم أحد شعراء الخوارج في العصر الأموي، (انظر ترجمته في الشعر والشعراء: ٤٨٩، والأغاني ١٠: ١٤٨ (دار الكتب)، وتهذيب ابن عساكر ٧: ٥٢، والبيت في ديوانه: ١٩٧، تحقيق عزت حسن).

ذلك أبداً ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذّها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رؤوفٌ بِالْعِبادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة رأفةٌ منه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إعلام بهذه الصفة، فمقتضى ذلك التأنيسُ لئلا يفرطَ الوعيد على نفسِ مؤمن، وتجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إن ربَّكَ لَشديدُ ٱلْعقاب، وإِنَّهُ لَغفورٌ رَحيمٌ﴾[1] لأن قوله: ﴿ويُحذِّركُمُ اللَّهُ نَفسَهُ﴾ معناه: والله محذور العقاب.

قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اختلف المفسرون فيمن أُمِرَ محمد ﷺ أن يقولَ له هذه المقالة، فقال الحسن بن أبي الحسن وابن جريج: إن قوماً على عهد النبي ﷺ قالوا: يا محمد إنا نحبُّ ربنا، فنزلت هذه الآية في قولهم، جعل الله فيها اتباع محمد عَلَماً لحبّه. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يقول هذا القولَ لنصارى نجران، أي: إنْ كان قولكم في عيسى وغلوّكُمْ في أمره حباً لله فاتّبعوني. ويحتملُ أن تكون الآيةُ عامةً لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدَّعون

(١) من الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

أنهم يحبون الله ويحبهم. ألا ترى أن جميعهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبناءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤُهُ﴾[١]، ولفظ «أحباؤه» إنما يُعطي أن الله يحبهم، لكن يعلم أن مرادهم «ويحبوه»[٢] فيحسنُ أن يقالَ لهم: (قلْ إنْ كنتم تُحبّونَ اللّهَ).

وقرأ الزهري ﴿فاتّبعونِّي﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَحْبُبْكُم﴾ بفتح الياء وضم الباء الأولى من «حَبَّ» وهي لغة، قال الزجاج: حَببتُ قليلةٌ في اللغة[٣]، وزعم الكسائيُّ أنها لغةٌ قد ماتت، وعليها استعمل محبوب.

والمحبة إرادةٌ يقترنُ بها إقبالٌ من النفس وميلٌ بالمعتقد. وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المريدُ، والله تعالى يريدُ وقوعَ الكفر ولا يحبه، ومحبةُ العبد لله تعالى يلزمُ عنها ولا بدَّ أن يطيعه، وتكون أعماله بحسب إقبالِ النفس، وقد تمثَّلَ بعضُ العلماء حين رأى الكعبةَ فأنشد[٤]:

(١) من الآية (١٨) من سورة المائدة.
(٢) هكذا هو في جميع النسخ، ولعلَّ الصواب «ويُحِبُّوه».
(٣) على هذه اللغة جاء قول الشاعر:
أحب أبا ثروان من حب تمره ... وأعلم أن الرفق بالجار أرفق
ووالله لـولا تمره مـا حببته ... ولا كان أدنى من عبيد ومشرق
(٤) هذا البيت من قطعة أنشدها أبو الفضل الجوهري لما أشرف على المدينة، ونسبها صاحب نفح الطيب للشبلي ١: ٤٠، وورد البيت في قطعة أخرى غير منسوبة ١: ٤٥ وكأنه مضمّن فيها؛ ولم يرد من القطعة الأولى في ديوان الشبلي إلا البيت الوارد هنا (ص: ١١٣) نقلاً عن "تلبيس إبليس" لابن الجوزي.

هــذه دارُهُ وأنــتَ محِبٌّ   ما بقاءُ الدموع في الآماق

ومحبةُ الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبدَ مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطفُ الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرةُ محبته، وبهذا النظر يتفسَّرُ لفظُ المحبة حيث وقعتْ من كتاب الله عز وجل.

وذكر الزجاج أن أبا عمر وقرأ: ﴿ويَغْفر لكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام،وخطأ القراءة وغلَّط من رواها عن أبي عمرو فيما حسبت.

وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿قلْ أَطيعوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ خطاب لنصارى نجران. وفي قوله: ﴿فإنَّ الله لا يُحبُّ الكَافِرينَ﴾ وعيد، ويحتمل أن يكون بعد الصَّدْعِ بالقتال.

قوله عز وجل:

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لما مضى صدرٌ من محاجّة نصارى نجران والردِّ عليهم وبيانِ فسادِ ما هم عليه، جاءت هذه الآية مُعْلِمَةً بصورةِ الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومنبئةً عن حقيقته كيف كانت، فبدأ تعالى بذكر فضله على هذه الجملة التي آلُ عمران منها، ثم خصَّ امرأةَ عمران بالذكر لأن القصدَ وصفُ قصة القومِ إلى أن يبينِّ أمر عيسى عليه السلام وكيف كان.

و﴿اصْطَفَى﴾ معناه: اختار صفو الناس، فكان ذلك هؤلاء المذكورين وبقى الكفّارُ كَدَراً. و﴿آدَمَ﴾ هو أبونا عليه السلام، اصطفاه الله تعالى بالإيجاد والرسالة إلى بنيه والنبوة والتكليم، حسبما ورد في الحديث[١]، وحكى الزجّاجُ عن قوم أن الله اصطفى آدم عليه السلام بالرسالة إلى الملائكة في قوله: ﴿أَنْبِئْهُم بِأَسْمائِهِم﴾[٢] وهذا ضعيف؛ ونوحٌ عليه السلام هو أبونا الأصغر في قول الجمهور، وهو أول نبيّ بُعِثَ إلى الكفار، وانصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفّةِ الاسم، كهود ولوط. ﴿وآل إبراهيمَ﴾ يعني بإبراهيم الخليلَ عليه السلام، والآل في اللغة: الأهل والقرابة، ويقال للأتباع وأهلِ الطاعة: آل، فمنه آل فرعون، ومنه قول الشاعر وهو أراكة الثقفي في رثاءِ النبي ﷺ وهو يعزي نفسه في أخيه عمرو[٣]:

فلا تبك مَيْتاً بعدَ مَيْتٍ أجنَّهُ عليٌّ وعباسٌ وآلُ أبي بكر

أراد جميعَ المؤمنين. والآلُ في هذه الآية يحتملُ الوجهين، فإذا قلنا

---

(١) الحديث وردت الإشارة إليه في أحاديث الشفاعة، وأخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبريل عليه السلام، وأفضل النبيين؟ آدم)... الحديث، (مجمع الزوائد ٨: ١٩٨، وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي ذر قال: يا رسول الله أرأيت آدم كان نبياً؟ قال: (نعم كان نبياً رسولاً كلمه الله، قال له: اسكن أنت وزوجك الجنة). (تفسير الشوكاني ١: ٥٥).

(٢) من الآية (٣٣) من سورة البقرة.

(٣) هو أراكة بن عبدالله بن سفيان الثقفي، شاعر محسن، قتل بسر بن أرطاة أخاه عمراً، فرثاه بأبيات منها هذا البيت، وهو يخاطب فيها ابنه عبد الله، (انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ٦٧-٦٨).

أراد بالآل القرابة والبيتية، فالتقديرُ: إن الله اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم، أو على العالمين عاماً بأن نقدر محمداً عليه السلام من آل إبراهيم؛ وإن قلنا: أراد بالآل الأَتباع فيستقيم دخولُ أمةِ محمدٍ في الآل لأنها على ملّةِ إبراهيم.

وذهب منذر بن سعيد وغيره إلى أن ذكرَ آدم يتضمَّنُ الإشارةَ إلى المؤمنين به من بنيه، وكذلك ذكر نوح عليه السلام، وأنّ الآل الأَتباع، فعمَّتِ الآيةُ جميعَ مؤمني العالم، فكأن المعنى: إن الله اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخصَّ هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم، ولأن الكلام في قصة بعضهم.

﴿وَآلَ عِمرانَ﴾ أيضاً يحتملُ من التأويل ما تقدَّم في ﴿آل إبراهيم﴾؛ وعمران هو رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود فيما حكى الطبري؛ قال مكي: هو عمران بن ماثال[١]، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال ابن عباس: اصطفى الله هذه الجملة بالدِّينِ والنبوةِ والطاعةِ له.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيةً﴾ نُصِبَ على البدل، وقيل: على الحال لأن معنى ﴿ذُرِّيةً بعضُها مِن بعْضٍ﴾ متشابهين في الدِّين والحال، وهذا أظهر من البدل . والذرية في عرف الاستعمال تقع لما تناسل من الأولاد سفلاً ،

(١) هو «ماثان» عند السهيلي.

واشتقاق اللفظة في اللغة يُعطي أن تقعَ على جميع الناس ، أي كلّ أحدٍ ذريةٌ لغيره ، فالناس كلهم ذريةٌ بعضُهُمْ لبعض ، وهكذا استعملت الذرية في قوله تعالى : ﴿ أَنَّا حَملنا ذُرِّيتهم في الفُلْك المشْحونِ ﴾(١) أي ذرية هذا الجنس ، ولا يسوغ أن يقال في والد : هذا ذريَّةٌ لولده إذ اللفظة من « ذرَّ » إذا بث ، فهكذا يجيء معناها ، وكذلك إن جعلناها من «ذرا» ، وكذلك إن جعلت من «ذرأ» ، أو من الذر الذي هو صغار النمل(٢) . قال أبو الفتح(٣) : الذرية يحتمل أن تكون مشتقة من هذه الحروف الأربعة ، ثم طول أبو الفتح القول في وزنها على كل اشتقاق من هذه الأربعة الأحرف تطويلاً لا يقتضي هذا الإيجازُ ذكرَهُ ، وذكرها أبو علي في الأَعراف في ترجمة : ﴿ مِن ظهورهم ذُرِّيَتَهُمْ ﴾(٤) ، قال الزجّاج : أصلها فُعْلِيّة من الذر ، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر . قال أبو الفتح : هذه نسبة إلى الذرّ غُيِّر أولها ، كما قالوا في النسبة إلى الحَرَم : حِرْمي ـ بكسر الحاء ـ وغير ذلك من تغيير النسب ، قال الزجاج : وقيل : أصل ذريّة ذُرّورة ، وزنها فُعْلولة ، فلما

(١) من الآية (٤١) من سورة يٓس .
(٢) قال الراغب : الذرية يقال للواحد والجمع والأصل والنسل كقوله : (حملنا ذريَّتَهم) ، أي آباءهم ، وقال صاحب النظم : « الآية توجب أن تكون الآباء ذرية الأبناء ، والأَبناء ذرية الآباء لأنه من ذرأ الله الخلق ، فالأب ذرئ منه الولد ، والولد ذرئ منه الأب (البحر المحيط ٢ : ٤٣٥)
(٣) المحتسب ١ : ١٥٦ .
(٤) من الآية (١٧٢) من سورة الأعراف .

كثرتِ الراءاتُ أبدلوا من الأخيرة ياء فصارت ذُرُّويَة ، ثم أُدغمت الواو في الياء فجاءت ذُرِّية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا اشتقاق من ذر يذر ، أو من ذرى ، وإذا كانت من ذرأ فوزنها فعيلة كمريقة أصلها ذريئة فألزمت البدل والتخفيف ، كما فعلوا في البَرِيَّة في قول من رآها من برأ الله الخلقَ ، وفي كوكب دريّ ، في قول من رآه من « درأ » لأنه يدفع الظلمة بضوئه .

وقرأ جمهور الناس:﴿ ذُرية ﴾ بضم الذال ، وقرأ زيد بن ثابت والضحاك :﴿ ذِرّية ﴾ـ بكسر الذال ـ .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْضُها مِنْ بَعْض ﴾ أي في الإيمان والطاعة وإنعام الله عليهم بالنبوة .

واختلف الناس(١) في العامل في قوله : ﴿إِذْ قَالت﴾ ـ فقال أبو عبيدة معمر : ﴿إذ﴾ زائدة، وهذا قول مردود، وقال المبرد والأخفش : العاملُ فعل مضمر تقديره : « اذكر إذ » ، وقال الزجاج : العامل معنى الاصطفاء ، التقدير : « واصطفى آل عمران إذ » . وعلى هذا القول يخرج عمران من الاصطفاء ؛ وقال الطبري ما معناه : إن العامل في « إذ » قوله : ﴿ سَميعٌ ﴾ .

---

(١) قارن كلامه بما جاء في « زاد المسير » ١ : ٣٧٦ .

وامرأة عمران اسمها حنة بنت قاذوذ فيما ذكر الطبري عن ابن إسحق ، وهي أم مريم بنت عمران .

ومعنى قوله : ﴿نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾ أي : جعلت نذراً أن يكونَ هذا الولدُ الذي في بطني حبيساً على خدمة بيتك ، محرَّراً من كلِّ خدمةٍ وشُغْلٍ من أشغال الدنيا ، أي : عتيقاً من ذلك فهو من لفظ الحرية ، ونصبه على الحال . قال مكي : فمن نصبه على النعت لمفعول محذوف يقدّره : غلاماً محرراً ، وفي هذا نظر(١) ، والبيتُ الذي نَذَرَتْهُ له هو بيتُ المقدس .

قال ابن إسحٰق(٢) : كان سببُ نذرِ حنة أنها كانت قد أُمْسِكَ عنها الولد حتى أسنَّتْ ، فبينما هي في ظلِّ شجرة إذ رأتْ طائراً يزقُّ فرخاً له ، فتحركت نفسها للولد ، فدعتِ الله أن يهبَ لها ولداً ، فحملت بمريم ، وهلك عمران ، فلما علمت أن في بطنها جنيناً جعلته نذيرةً لله أن يخدم الكنيسة لا يُنْتَفَعُ به في شيءٍ من أمر الدنيا .

وقال مجاهد : ﴿مُحَرَّراً﴾ معناه : خادماً للكنيسة ، وقال مثله الشعبي وسعيد بن جبير ، وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفا في

---

(١) لأن « نذر » قد أخذ مفعوله وهو « ما في بطني » ، أما من قال إنه منصوب على الحال فيقول : إنه حال من « ما » والعامل « نذر » ، أو من الضمير الذي في « استقر » العامل في الجار والمجرور ، لأن العامل فيه هو « استقر » .

(٢) أورده أيضاً ابن الجوزي في « زاد المسير » ١ : ٣٧٦ .

الذكور خاصة، وكان فرضاً على الأبناء التزام ذلك[١]، فقالت: ﴿ما في بَطْني﴾ ولم تنصَّ على ذكورته لمكان الإشكال، ولكنها جزمتْ الدعوة رجاءً منها أن يكون ذكراً. وتقبُّلُ الشيء وقبوله: أخْذه حيث يُتَصَوَّرُ الأخذُ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها ﴿فتَقَبَّلْ مِنّي﴾: أي آرضَ عنّي في ذلك، واجعله فعلاً مقبولاً مجازىً به، و﴿السميع﴾ إشارة إلى دعائها، ﴿العليم﴾ إشارة إلى نيتها.

قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

هذه الآية خطاب من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والوضع: الولادة، وأنَّث الضمير في ﴿وَضَعَتْها﴾ حملاً على الموجودة ورفعاً للفظ (ما) التي في قولها: ﴿ما في بَطْني﴾[٢] وقولها: ﴿ربِّ إني وضَعْتُها

(١) هذا هو قول الزجاج (المصدر السابق نفسه)؛ وفي بعض النسخ: على الأنبياء.

(٢) قال الزمخشري: وانما أنث على المعنى، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل: الجبلة أو النفس أو النسمة.

أنثى ﴾ لفظ خبر في ضمنه التحسُّر والتلهف ، وبيَّنَ الله ذلك بقوله : ﴿ والله أَعْلَم بما وَضَعَتْ ﴾ .

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَضَعَتْ﴾ بفتح العين وإسكان التاء ـ وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿وَضَعْتُ﴾ ـ بضم التاء وإسكان العين[1] ـ وهذا أيضاً مُخْرِجٌ قولها : ﴿ ربِّ إنِّي وضَعْتُها أُنثى ﴾ من معنى الخبر إلى معنى التلهف ، وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحرّرون الإناثَ لخدمة الكنائس ولا يجوزُ ذلك عندهم ، وكانت قد رَجَتْ أنْ يكون ما في بطنها ذكراً ، فلما وضعت أُنثى تلهفتْ على فوتِ الأمل وأفزعها أن نذرت ما لا يجوز نذره ، وقرأ ابن عباس : ﴿ وضَعْتِ ﴾ ـ بكسر التاء ـ على الخطاب من الله لها .

وقولها : ﴿وَلَيْس الذَّكَر كالأُنْثَى﴾ تريد في امتناعِ نذره، إذ الأنثى تحيض ولا تصلحُ لصحبة الرهبان[2] ، قاله قتادة والربيع والسدي وعكرمة وغيرهم ، وبدأت بذكر الأهمّ في نفسها ، وإلا فسياقُ قصّتها يقتضي أن تقول : وليستِ الأُنثى كالذكر ، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد .

وفي قولها : ﴿ وإني سَمَّيْتُها مريمَ ﴾ سُنّةُ تسميةِ الأطفال قرب الولادة ، ونحوه قول النبي ﷺ : (ولد لي الليلة مولود فسميته باسم

(١) يعني أن جملة « والله أعلم بما وضعْتُ » تتمة كلام أم مريم ، كأنها تخاطب نفسها .
(٢) قارن كلامه بما في « زاد المسير » ١ /٣٧٧ .

أبي إبراهيم)[١] . وقد روي عنه عليه السلام (أن ذلك في يوم السابع يعق عن المولود ويسمَّى)[٢] قال مالك رحمه الله : « ومن مات ولده قبل السابع فلا عقيقةَ عليه ولا تسمية » قال ابن حبيب :«أحبُّ اليَّ أن يسمَّى ، وأن يسمى السّقط لما رُوي من رجاءِ شفاعته »[٣] .

ومريم لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنيثه[٤] . وباقي الآية إعاذة، وورد في الحديث عن النبي عليه السلام من رواية أبي هريرة قال : (كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهلّ إلا ما كان من مريم ابنة عمران وابنها، فإن أمها قالت حين وضعتها: ﴿ وإني أُعيذها بكَ وذُرِّيَتَها مِن الشَّيطانِ الرَّجيم ﴾ فَضرِبَ بينهما حجابٌ فطَعَن الشيطانُ في الحجاب)[٥] وقد اختلفت أَلفاظ الحديث من طرق ، والمعنى واحد كما ذكرته .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود عن أُنس . الجامع الصغير . ٢ /٦١٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي عن سَمُرة بن جندب "تفسير ابن كثير . ١ /٣٥٩". كما أخرجه الطبراني في الصغير عن بريدة مرفوعاً ، وفي الطبراني الأوسط والكبير عن ابن عمر ، وفي الأوسط عن ابنِ عباس . وأخرجه أبو يَعْلى والبزار عن عائشة . « مجمع الزوائد » . ٤ /٥٧ ـ ٥٩ . ومعنى يعق عن المولود : يَذْبح ذبيحة يوم سبوعه ، وتسمى هذه الذبيحة : عقيقة .

(٣) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ولفظه : (سموا أسقاطكم) الحديث . الجامع الصغير . ٢ /٢٥ .

(٤) مريم : قيل : إنه اسم عبراني معناه : العابدة ، وقيل : عربي جاءَ شاذا كمدْيَن وقياسه : مَرام كمنال ، ومعناه في العربية : التي تغازل الفتيان . قال الراجز :
قلْتُ لزيدٍ لَمْ تصِلْهُ مرْيَمُه .

(٥) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . الجامع الصغير ٢٢ /٢٣٤ ـ وقال عنه الزمخشري : « الله أعلم بِصِحتّه » « الكشاف » ١ /٤٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلها﴾ إخبار لمحمد عليه السلام بأن الله رضي مريم لخدمة المسجد كما نذرت أمها وسنّى لها الأمل في ذلك ، والمعنى يقتضي أن الله تعالى أوحى إلى زكرياء ومن كان هنالك بأنه قد تقبلها ، ولذلك جعلوها كما نذرت .

وقوله : ﴿بقَبُولٍ﴾ مصدر جاء على غير المصدر ، وكذلك قولُه :﴿نباتاً﴾ بعد﴿أنبت﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَنْبتها نباتاً حسناً ﴾ ، عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خِلقةٍ وخُلُق .

وقوله تعالى : ﴿ وكَفَّلَها زكرِيَّا﴾ معناه : ضمها إلى إنفاقه وحضنه ، والكافل هو المربي الحاضن ، قال ابن إسحق : إن زكرياء كان زوج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على أختين ، وولدت امرأة زكرياء يحيى ، وولدت امرأة عمران مريم ، وقال السدّيّ وغيره : إن زكرياء كان زوجَ ابنةٍ أخرى لعمران ، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ في يحيى وعيسى : (ابنا الخالة)[١] قال مكي : وهو زكرياء بن آذن . وذكر قتادة وغير واحد من أهل العلم أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحّون في المحرَّرِ عند من يكون من القائمين بأمر المسجد فيتساهمون عليه ، وأنهم فعلوا في مريم ذلك ، فَرُوي أنهم ألقوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (تفسير ابن كثير ٣ : ٣) ولفظ الحديث : (فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة) .

أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراةَ في النهر ، وقيل : أقلاماً بَرَوْهَا من عودٍ كالسهام والقِداح ، وقيل : عصيّاً لهم ، وهذه كلها تقلم . ورُوي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردنّ ، وروي أنهم ألقوه في عين[١] .

وروي أن قلم زكرياء صاعَدَ الجرية[٢] ، ومضت أقلام الآخرين مع الماء في جريته . وروي أن أقلامَ القوم عامَتْ على الماءِ معروضةً كما تفعل العيدان وبقي قلمُ زكرياء مرتزّاً[٣] واقفاً كأنما ركز في طين ، فكفلها زكرياء عليه السلام بهذا الاستهام ، وحكى الطبري عن ابن إسحق أنها لما ترعرعت أصابت بني إسرائيل مجاعةٌ فقال لهم زكرياء : إني قد عجزتُ عن إنفاق مريم فاقترعوا على من يكفلها ، ففعلوا ، فخرج السهم على رجل يقال له جُرَيْج ، فجعل ينفقُ عليها ، وحينئذ كان زكرياء يدخلُ عليها المحرابَ عند جُريج فيجدُ عندها الرزق . وهذا استهام غير الأول ، هذا المرادُ منه دفعها ، والأولُ المراد منه أخذها . ومضمَّنُ هذه الرواية أن زكرياء كفلها من لدن طفولتها دون استهام ، لكن[٤] لأنّ أمّها هلكت ، وقد كان أبوها هلك وهي في بطن أمها ، فَضَمَّهَا زكرياء إلى نفسه لقرابتها من امرأته ، وهكذا قال ابن إسحق . والذي عليه الناس أن زكرياء إنما كفل بالاستهام لتشاحّهم حينئذ فيمن يكفل المحرَّر .

---

(١) انظر تفصيل الاستهام لكفالة مريم وإلقاء الأقلام في «زاد المسير» ١ : ٣٧٩ .
(٢) قيل : جرى عكس جري الماء ، ومعنى صاعد الجرية : قاومها .
(٣) هكذا جاء في جميع النسخ مرتزاً ، ولعلّ الصواب : مرتكزاً .
(٤) لكن : وردت في جميع النسخ ، ولعلها حشو .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر[١] : ﴿وكَفَلها﴾ ـ مفتوحة الفاء خفيفة ـ ﴿زَكريَّاءُ﴾ مرفوعاً ممدوداً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: و﴿كفَّلها﴾ ـ مشددة الفاء، ﴿زكرياء﴾ ممدوداً منصوباً ـ في جميع القرآن ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص : و ﴿ كفَّلها ﴾ ـ مشددة الفاء مفتوحة ، ﴿ زكريا ﴾ مقصوراً في جميع القرآن ، وفي رواية أبي بن كعب : ﴿ وأكفلها زكرياء ﴾ ـ بفتح الفاء ـ على التعدية بالهمزة. وقرأ مجاهد: ﴿فتقبَّلْها﴾ ـ بسكون اللام ـ على الدعاء ﴿ ربَّها ﴾ بنصب الباء على النداء، ﴿وأنبِتْها﴾ ـ بكسر الباء ـ على الدعاء، ﴿وَكَفِّلْها﴾ ـ بكسر الفاء وشدها ـ على الدعاء ﴿ زكرياءَ ﴾ منصوباً ممدوداً ، وروي عن عبد الله بن كثير ، وعبد الله المزني[٢] : ﴿وَكَفِلها﴾ ـ بكسر الفاء خفيفة ـ وهي لغة يقال: كَفِلَ يكفُلُ ـ بضم العين في المضارع ، وكفِلَ ـ بكسر العين ـ يكفَلُ ـ بفتحها ـ في المضارع . وزكرياء : اسم أعجمي يمدُّ وَيُقْصر ، قال أبو علي : لما عُرِّبَ صادف العربية في بنائه فهو كالهيجاء تمدّ وتقصر . قال الزجاج : فأَما تركُ صرفه فلأن فيه في المدِّ ألفي تأنيثٍ وفي القصر ألفَ

(١) في بعض النسخ : وابن عباس .

(٢) في بعض النسخ : وأبي عبد الله المزني ، ولم أعثر له على ترجمة ، وفي البحر لأبي حيان : « وقرأ عبد الله المزني » . ويوجد هناك عبد الله بن معقل بن مقرن المزني أبو الوليد الكوفي ، تابعي ، المتوفى سنة بضع وثمانين بالبصرة ، وهناك عبد الله بن مغفل بن عبد نهم أبو عبد الرحمن المزني صحابي من أصحاب الشجرة توفي سنة ٥٧ هـ ولعل المراد الأول ، والله أعلم . « تهذيب التهذيب » ٦ / ٤٠ ، ٤٢ .

تأنيث . قال أبو علي : ألفُ زكرياء ألفُ تأنيث ولا يجوز أن تكونَ ألفَ إلحاق ، لأنه ليس في الأصول شيءٌ على وزنه ، ولا يجوز أن تكونَ منقلبةً ، ويقال في لغة : زَكَرِيٌّ منونٌ معرب ، قال أبو علي : هاتان ياءا نَسَبٍ ولو كانتا اللتين في زكرياء لوجبَ ألا ينصرفَ الاسمُ للعجمة والتعريف، وإنما حذفت تلك وجلبت ياء النسب(١) . وحكى أبو حاتم زكري بغير صرفٍ وهو غلطٌ عند النحاة ، ذكره مكي .

وقوله تعالى: ﴿كُلَّما﴾ ظرف والعامل فيه ﴿وَجَدَ﴾، والمحراب: المبنى الحسن كالغرف والعلالي ونحوه ، ومحراب القصر : أشرف ما فيه ولذلك قيل لأشرف ما في المصلى ـ وهو موقف الإمام ـ : محراب ، وقال الشاعر :

ربةُ محرابٍ إذا جئتُها ... لم ألقها أو ارتقي سلما(٢)

ومثل قول الآخر(٣) :

كدُمَى العاجِ في المحاريبِ أوكالـ ... ـبَيْضِ في الروضِ زهرُه مستنيرُ

وقوله تعالى : ﴿ وَجَدَ عِنْدها رِزْقاً ﴾ معناه : طعاماً تتغذَّى به مما لم

---

(١) قال أبو حيان (البحر المحيط ٢ /٤٣٣) : « زكرياءُ أعجمي ، شبه بما فيه الألف الممدودة والألف المقصورة فهو ممدود ومقصور ، ولذلك يمتنع صرفه نكرة ، وهاتان اللغتان فيه عند أهل الحجاز ، ولو كان امتناعه للعلمية والعجمة انصرف نكرة » .

(٢) البيت لوضاح اليمن ، (انظر الأغاني ٦ : ٢٢٣ . وزاد المسير ١ : ٣٨٠) .

(٣) البيت لعدي بن زيد العبادي (ديوانه ٨٤) شبه نساء حساناً مشرقات الوجوه بتماثيل من العاج في بيوت العبادة عندهم ، أو بالبيض تضعه النعامة في روضة مزهرة .

يعهده ولا عرف كيف جُلِبَ إليها ، وكانت ـ فيما ذكر الربيع ـ تحت سبعة أبواب مغلقة ، وحكى مكي أنها كانت في غرفة يُطْلَعُ إليها بسلم ، وقال ابن عباس : وجد عندها عنباً في مِكْتَلٍ في غير حينه ، وقاله ابن جبير ومجاهد ، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً وقتادة : كان يجدُ عندها فاكهةَ الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وقال ابن عباس : كان يجد عندها ثمار الجنة : فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وقال الحسن : كان يجد عندها رزقاً من السماء ليس عند الناس ، ولو أنه علم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه ؛ وقال ابن إسحق : هذا الدخول الذي ذكر الله تعالى في قوله : ﴿كلَّما دَخَلَ عَلَيْها﴾ إنما هو دخولُ زكرياء عليها وهي في كفالة جريج أخيراً ، وذلك أن جريجاً كان يأتيها بطعامها فينمّيه الله ويكثّره ، حتى إذا دخل إليها زكرياء عجبَ من كثرته فقال : ﴿ يَا مرْيَمُ أنَّى لكِ هَذا ﴾ ، والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحق .

وقوله : ﴿أنى﴾ معناه : كيف؟ ومن أين[١]؟ وقولها : ﴿هُوَ مِنْ عندِ اللَّهِ﴾ دليلٌ على أنه ليس من جَلْبِ بشر، وهكذا تلقى زكرياء المعنى وإلا فليس كان يقنعُ بهذا الجواب . قال الزجاج : وهذا من الآية التي

(١) راجع البحر المحيط (٢ : ٤٣٣) في تحديد دلالات « أنّى » ، ومنها الجهة (من أي جهة لك هذا الرزق) ، بل قد تعني الكيفية (كيف تهيأ وصول هذا الرزق إليك) . . الخ .

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيةً للعالمين﴾[1]، وروي أنها لم تَلْقَمْ ثدياً قط.

وقولها: ﴿ إنَّ اللَّهَ يرْزُقُ مَنْ يشاءُ بغيرِحِساب ﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله، وذهب الطبريّ إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ، والله تعالى لا تنتقصُ خزائنه، فليس يحسبُ ما يخرج منها. وقد يعبر بهذه العبارة عن المكثرين من الناس أنهم يُنفقون بغيرِ حساب، وذلك مجاز وتشبيه، والحقيقة هي فيما ينتفقُ من خزائن الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

هناك ـ في كلام العرب ـ إشارةٌ إلى مكانٍ فيه بُعْدٌ أو زمان، وهنالك ـ باللام ـ أبلغ في الدلالةِ على البعد، ولا يُعْرَبُ (هنالك) لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنىً.

ومعنى هذه الآية: إن في الوقت الذي رأى زكرياء رزقَ الله لمريم ومكانَتَها منه وفكَّر في أنها جاءت أُمَّها بعد أن أسنَّتْ وأن الله تقبَّلَها

(١) من الآية (٩١) من سورة الأنبياء.

وجعلها من الصالحات، تحرَّكَ أملُهُ لطلبِ الولد وقويَ رجاؤه، وذلك منه على حالِ سنٍّ وَوَهْنِ عظمٍ واشتعالِ شيب، وذلك لخوفه المواليَ من ورائه ـ حسبما يتفسَّرُ في سورة مريم إن شاء الله ـ فدعا ربَّهُ أن يهبَ له ذريةً طيبة. والذريةُ: اسمُ جنسٍ يقع على واحدٍ فصاعداً كما الوليُّ اسم جنس كذلك، وقال الطبري: إنما أراد هنا بالذرية واحداً، ودليلُ ذلك طَلَبُهُ وليّاً ولم يطلبْ أولياءَ، وأنّثَ الطيّبةَ حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر:

أبوك خليفةٌ ولدته أخرى ... وأنت خليفةٌ ذاك الكمالُ[1]

وكما قال الآخر:

فما تزدري من حيَّةٍ جبلية ... سُكَاتٍ إذا ما عضَّ ليس بأدردا[2]

وفيما قاله الطبري تعقّب، وإنما الذرية والولي اسما جنسٍ يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلب زكرياء عليه السلام، و﴿طَيِّبَةً﴾ معناه: سليمة في الخلق والدين نقية، ﴿سَمِيعُ﴾ في هذه الآية بناء اسم فاعل.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ﴾ وتُرِكَ محذوفٌ كثيرٌ دلَّ ما ذُكِرَ عليه، تقديره: فقبل الله دعاءه، ووهبه يحيى، وبعث الملك أو

---

(١) البيت غير منسوب، وهو من شواهد الفراء (اللسان: خلف)، قال: ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن يكون: ولده آخر.

(٢) سكات: لا يشعر به الملسوع حتى يلسعه؛ الأدرد: الذي ذهبت أسنانه؛ والشاهد فيه أنه أنث «جبلية» لموافقة لفظ «حية» ثم عاد إلى المعنى فقال «عضّ» على التذكير، (اللسان: حيي).

الملائكة بذلك إليه، فنادته، وذكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة، وذكر جمهور المفسرين أن المنادي المخبر إنما كان جبريل وحده، وهذا هو العرف في الوحي إلى الأنبياء، وقال قوم: بل نادتْ ملائكةٌ كثيرةٌ حسبما تقتضيه ألفاظ الآية. وقد وجدنا الله تعالى بعث ملائكةً إلى لوط وإلى إبراهيم عليه السلام وفي غير ما قصةٍ.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود وقراءته: (فناداه جبريل وهو قائمٌ يصلّي). وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: ﴿فنادَتْهُ﴾ ـ بالتاء ـ ﴿الملائِكَةُ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداهُ الملائِكَةُ﴾ ـ بالألف وإمالة الدال ـ. قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلموضع الجماعة، والجماعة ممن يعقل في جمع التكسير تجري مجرى ما لا يعقل، ألا ترى أنك تقول: هي الرجال كما تقول: هيَ الجذوعُ وهي الجمال، ومثله: ﴿قالَتِ الأَعْرابُ﴾[(١)]. ففسر أبو علي على أن المنادي ملائكةٌ كثيرة، والقراءة بالتاء على قولِ من يقول: المنادي جبريل وحده متجهة على مراعاة لفظ الملائكة، وعبر عن جبريل بالملائكة إذ هو منهم، فذكر اسمَ الجنس كما قال تعالى: ﴿الذين قالَ لهُمُ الناسُ﴾[(٢)]، قال أبو علي: ومن قرأ: ﴿فناداه الملائِكَةُ﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿وقال نِسْوَةٌ في المدينة﴾[(٣)].

---

(١) من الآية (١٤) من سورة الحجرات.
(٢) من الآية (١٧٢) من سورة آل عمران.
(٣) من الآية (٢٠) من سورة يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن المنادي كثير، ومن قال إنه جبريل وحده كالسديّ وغيره فأفردَ الفعل مراعاةً للمعنى، وعبَّر عن جبريل عليه السلام بالملائكة إذ هو اسم جنسه.

وقوله تعالى: ﴿فنادته﴾ عبارة تستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يُسْرَعَ به وَيُنْهَى إلى نفس السامع لِيُسَرَّ به، فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي بل نداءً كما نادى الرجل الأنصاريُّ كعبَ بن مالك من أعلى الجبل(١).

وقوله تعالى: ﴿وهُوَ قائِمٌ﴾ جملة في موضع الحال، و﴿يُصَلِّي﴾ صفة القائم، و ﴿المحراب﴾ في هذا الموضع موقفُ الإمام من المسجد.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿إنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف، قال أبو علي: وهذا على إضمار القول، كأنه قال: ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ﴾ فقالت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فدعا ربَّه إني مغلوبٌ﴾(٢) على قراءة من كسر الألف، وقال بعضُ النحاة: كُسِرَتْ بعد النداء والدعاء لأن النداء والدعاء أقوال. وقرأ الباقون بفتح الألف من قوله: ﴿أَنَّ الله يبشرك﴾ قال

---

(١) هو حمزة بن عمرو الأسلمي جاء ينادي من أعلى الجبل لكي يؤدي البشارة إلى كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك بأن الله قد عفا عنهم.

(٢) من الآية (١٠) من سورة القمر.

أبو علي: المعنى: فنادته بأنَّ الله، فلما حُذِفَ الجار منها وصل الفعل إليها فنصبها، فأنَّ في موضع نصب، وعلى قياس قول الخليل في موضع جرّ. وفي قراءة عبد الله: ﴿في المحرابِ يا زكرياءُ إنَّ الله﴾، قال أبو علي: فقوله: ﴿زكرياءُ﴾ في موضع نصب بوقوع النداءِ عليه، ولا يجوز فتح الألف في «إنّ» على هذه القراءة لأن (نادته) قد استوفتْ مفعوليها، أحدهما الضمير والآخر المنادى، فإن فتحت «إن» لم يبقَ لها شيء متعلّق به، قال أبو علي: وكلهم قرأ: ﴿في المحرَاب﴾ بفتح الراء - إلا ابن عامر فإنه أمالها، وأطلق ابن مجاهد القول في إمالة ابن عامرٍ الألفَ من (محراب) ولم يخصَّ الجر من غيره، وقال غير ابن مجاهد: إنما نميله في الجرِّ فقط.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يُبَشِّرك﴾ بضم الياء وفتح الباء والتشديد - في كل القرآن إلا في: (عَسق) فإنهما قرآ ﴿ذلك الذي يَبْشُرُ اللَّهُ عبادَه﴾[١] - بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر: ﴿يُبَشِّرك﴾ بشد الشين المكسورة في كل القرآن، وقرأ حمزة: ﴿يبشُر﴾ خفيفاً - بضم الشين - [مما لم يقع][٢] في كلِّ القرآن إلا قوله تعالى: ﴿فبمَ تُبَشِّرون﴾[٣]. وقرأ الكسائي: ﴿يُبشر﴾ مخففةً في خمسة

(١) من الآية (٢٣) من سورة الشورى.
(٢) هكذا وردت هذه العبارة في جميع النسخ، ولعل صوابها «حيثما وقع».
(٣) من الآية (٥٤) من سورة الحجر.

مواضع: في آل عمران في قصة زكرياء وقصة مريم،وفي سورة بني إسرائيل والكهف: ﴿وَيَبْشُرُ المؤمنين﴾ وفي ـ عسق ـ ﴿يَبْشُرُ الله عبادَه﴾.

قال غير واحد من اللغويين: في هذه اللفظة ثلاثُ لغات، بشَّر بشد الشين، وبَشَرَ بتخفيفها(١)، وأبشر يُبشر إبشاراً، وهذه القراءات كلُّها متجهة فصيحةٌ مرويّة، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: (يُبْشِرُكَ)ـبضم الياء وتخفيف الشين المكسورةـمن «أبشر»، وهكذا قرأ في كلِّ القرآن.

ويحيى: اسم سماه الله به قبل أن يولد، قال أبو علي: وهو اسم بالعبرانية صادف هذا البناء، والمعنى من العربية؛ قال الزجاج: لا ينصرف لأنه إن كان أعجمياً ففيه التعريف والعجمة، وإن كان عربياً فالتعريف ووزن الفعل، وقال قتادة: سماه الله يحيى لأنه أحياه بالإيمان. و ﴿مُصدّقاً﴾ نصب على الحال، وهي مؤكّدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمةٍ منَ الله﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي وغيرهم: الكلمة هنا يراد بها عيسى بن مريم. وسمى الله عيسى كلمة إذ صدر عن كلمة منه تعالى لا بسبب إنسانٍ

(١) من ذلك قول الشاعر:
بشَرتُ عيالي إذْ رأيتُ صحيفة أتتك من الحجاج يُتلى كتابها

آخرَ كَعُرْفِ البشر. وروى ابن عباس أن امرأة زكرياء قالت لمريم وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يتحرك لما في بطنك، وفي بعض الروايات: يسجد لما في بطنك[١] قال: فذلك تصديقه، أي: أول التصديق. وقال بعض الناس: ﴿بكلمةٍ من الله﴾ معناه: بكتابٍ من الله، الإنجيل وغيره من كتب الله، فأوقع المفرد موقع الجمع، ف(كلمة):اسم جنس، وعلى هذا النظر سَمّتِ العربُ القصيدةَ الطويلة كلمة[٢].

وقوله تعالى ﴿وسَيِّداً﴾ قال فيه قتادة: أي والله، سيدٌ في الحلم والعبادة والورع، وقال مرة: معناه: في العلم والعبادة، وقال ابن جبير: ﴿وسَيِّداً﴾ أي حليماً، وقال مرة: السيد: التقيّ؛ وقال الضحاك: ﴿وَسَيِّداً﴾ أي تقياً حليماً، وقال ابن زيد: السيد: الشريف، وقال ابن المسيب: السيد: الفقيه العالم، وقال ابن عباس:﴿وَسَيِّداً﴾يقول: تقياً حليماً، وقال عكرمة: السيد: الذي لا يغلبه الغضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كلّ من فسر من هؤلاء العلماء المذكورين السؤدد بالحلم فقد أحرز أكثرَ معنى السؤدد،ومن جَرَّدَ تفسيره بالعلم والتقى ونحوه فلم

(١) روي أنها أحست جنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم.
(٢) من ذلك ما جاء في الحديث: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل) (البحر المحيط ٢: ٤٤٧).

يفسّرْ بحسب كلام العرب، وقد تحصَّلَ العلم ليحيى عليه السلام بقوله عز وجل: ﴿مصدّقاً بكلمةٍ من الله﴾، وتحصَّل التقى بباقي الآية. وخصَّهُ الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمالُ في رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يقعَ في باطل ـ هذا اللفظُ يعمُّ السؤدد، وتفصيله أن يقالَ: بذلُ الندى وهذا هو الكرم، وكفُّ الأذى وهنا هي العفةُ بالفرج واليد واللسان، واحتمال العظائم وهنا هو الحلم وغيره من تحمّل الغرامات وجبر الكسير والإفضال على المسترفد والإنقاذ من الهلكات. وانظر أن النبي ﷺ قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر يجمع الله الأولين والآخرين)، وذكر حديث الشفاعة[1] في إطلاق الموقف، وذلك منه احتمال في رضى ولد آدم، فهو سيدهم بذلك. وقد يوجد من الثقات[2] العلماء من لا يبرز في هذه الخصال، وقد يوجد من يبرز في هذه فيسمَّى سيداً وإن قصَّر في كثير من الواجبات، أعني واجباتِ الندب والمكافحة في الحقّ وقلة المبالاة باللائمة. وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسودَ من معاوية بن أبي سفيان، قيل له: وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير من معاوية، ومعاوية أسود منهما. فهذه إشارة إلى أن معاوية برز في هذه الخصال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد، (الجامع الصغير ١: ٣٦٣) كما أخرجه الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر رضي الله عنه، (الترغيب والترهيب ٤: ٤٣٧).

(٢) في بعض النسخ: من الأتقياء.

ما لم يواقع محذوراً؛ وأنَّ أبا بكر وعمر كانا من الاستضلاع بالواجبات وتتبع ذلك من أنفسهما وإقامة الحقائق على الناس بحيث كانا خيراً من معاوية، ومع تتبع الحقائق، وحمل الناس على الجادة، وقلة المبالاة برضاهم، والوزن بقسطاس الشريعة تحريراً، ينخرم كثيرٌ من هذه الخصال التي هي السؤدد ويشغلُ الزمنُ عنها. والتقى والعلم والأخذ بالأشدِّ أوكدُ وأعلى من السؤدد، أَمَا إنه يحسنُ بالتقي العالم أن يأخذ من السؤدد بكلٍّ ما لا يخلّ بعلمه وتقاه، وهكذا كان يحيى عليه السلام، وليس هذا الذي يحسن بواجب ولا بد، كما ليس التتبعُ والتحريرُ في الشدّةِ بواجبٍ ولا بد، وهما طرفا خيرٍ قد حفتهما الشريعة، فمن صائرٍ إلى هذا ومن صائرٍ إلى هذا، ومثال ذلك: حاكمٌ صليبٌ معبّس فظ على من عنده أدنى عِوَج، لا يعتني في حوائج الناس، وآخر بَسْطُ الوجهِ بسَّامٌ يعتني فيما يجوز، ولا يتتبعُ فيما لم يُرْفَعْ إليه وينفّذ الحكمَ مع رفقٍ بالمحكوم عليه، فهما طريقان حسنان.

وقوله: ﴿وحَصُوراً﴾ أصل هذه اللفظة الحبس والمنع، ومنه الحصير لأنه يحصر من جلس عليه، ومنه سمى السجن حصيراً وجهنم حصيراً، ومنه حَصْرُ العدو وإحصارُ المرض والعذر، ومنه قيل: الذي لا ينفقُ مع نُدَمائه حصور، قال الأخطل[1]:

---

(١) ديوان الأخطل: ١١٦.

وشاربٍ مُربح بالكأس نادمني لا بالحَصور ولا فيها بسوَّار[١]

ويقال للذي يكتِم السر حصور وحصِر، قال جرير:[٢]

ولقد تساقطني الوشاة فصادفوا حَصِراً بسرِّك يا أُميمَ ضنينا[٣]

وأجمع من يعتدّ بقوله من المفسرين على أن هـذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناعُ من وطءِ النساء، إلا ما حكي مكيّ من قول من قال: إنه الحصور عن الذنوب أي لا يأتيها. وروى ابن المسيب عن ابن العاصي ـإما عبدالله وإما أبوهـ عن النبي ﷺ، أنه قال: (كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء) قال: ثم دلى رسول الله ﷺ بيده إلى الأرض فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: (وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيداً وحصورا)[٤]. وقال ابن مسعود: الحصور: العنّين، وقال مجاهد وقتادة: الحصور: الذي لا يأتي النساء، وقال ابن عباس والضحاك: الحصور: الذي لا ينزل الماء.

---

(١) المربح: الذي يربح صاحب الخمر أو الذي ينحر الربح لضيفانه، والرُّبَحُ: الفُصْلان، والحصور: البخيل الضيق، والسوّار: السيئ الخلق الذي يساور عليها ويقاتل؛ ويروى بسآر وهو الذي يترك سؤراً أي بقية في القدح.

(٢) ديوان جرير: ٣٨٧ (تحقيق نعمان أمين طه).

(٣) في الديوان: تسقّطني؛ والمعنى: طلبوا سقطه وعالجوه كي يبوح بسره، والحصر: الكتوم للسرّ الحابس له؛ الضنين: البخيل.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير في تفسيرهما، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة (مجمع الزوائد ٨: ٢٠٩)، وانظر أيضاً «زاد المسير» ١: ٣٨٣.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذهب بعض العلماء إلى أن حصر يحيى عليه السلام كان لأنه لم يكن له إلا مثل الهدبة، وذهب بعضهم إلى أن حَصرَه كان لأنه كان عنيناً لا يأتي النساء وإن كانت خلقته غير ناقصة، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان بأنه كان يمسك نفسه تقىً وجلداً في طاعة الله، وكانت به القدرة على جماع النساء. قالوا: وهذا أمدح له وليس له في التأويلين الأولين مدح، إلا بأن الله يسر له شيئاً لا تكسب له فيه، وباقي الآية بين، وروي من صلاحه عليه السلام أنه كان يعيش من العشب، وأنه كان كثير البكاء من خشية الله حتى خدد الدمعُ في وجهه طرقاً وأخاديد.

قوله عز وجل:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

اختلف المفسرون ـ لم قال زكرياء ﴿ربِّ أنَّى يكونُ لي غلامٌ﴾؟ فقال عكرمة والسدي: إنه لما نودي بهذه البشارة، جاء الشيطان يكدِّرُ عليه نعمةَ ربه، فقال: هل تدري من ناداك؟ قال: نادتني ملائكة ربي، قال: بل ذلك الشيطان، ولو كان هذا من عند ربك لأخفاه لك كما أخفيت نداءك، قال: فخالطتْ قلبَهُ وسوسةٌ وشكٌّ مكانه، فقال: ﴿أَنَّى يكونُ لي غُلامٌ﴾.

وذهب الطبري وغيره إلى أن زكرياء لما رأى حال نفسه وحال امرأته وأنها ليست بحالِ نسل سأل عن الوجه الذي به يكون الغلام، أتبدّل المرأةُ خلقتَها أم كيف يكون؟ وهذا تأويل حسن لائق بزكرياء عليه السلام. قال مكي: وقيل إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك أربعون سنة، وهذا قول ضعيف المعنى(١).

و﴿أنَّى﴾معناه: كيف؟ومن أين؟. وقوله: ﴿بَلَغَنِي الكِبَرُ﴾استعارةٌ، كأن الزمان طريقٌ والحوادثُ تتساوق فيه فإذا التقى حادثان فكأنَّ كلَّ واحدٍ منهما قد بلغ صاحبه، وحقيقة البلوغ في الأَجرام أَن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه. وَحَسُنَ في الآية ﴿بَلَغني الكِبَرُ﴾ من حيث هي عبارةُ واهنٍ منفعل، و«بلغتُ» عبارة فاعلٍ مستعلٍ، فتأمّله. ولا يعترض على هذا بقوله: ﴿وَقَد بَلَغْتُ مِنَ الكِبَر عِتِيّا﴾(٢) لأنه قد أفصح بضعف حاله في ذكر العتيّ.

والعاقر: الإنسان الذي لا يلد، يقال ذلك للمرأة والرجل، قال عامر بن الطفيل(٣):

(١) زاد أبو حيان على هذه الإجابات الثلاث أموراً أخرى لبيان سبب سؤال زكريا منها:
ا ـ أن هذا على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى، فقد قاله من شدة الفرح والدهشة من حصول أمر مستبعد عادة.
ب ـ أنه سأل: أيرزق الولد من امرأته العاقر أم من غيرها؟
جـ ـ يستعلم: أيكون الولد من صلبه أم يكون من بنيه، أي حفيداً؟
(٢) من الآية (٨) من سورة مريم.
(٣) ديوان عامر: ٦٤ (ط. صادر، بيروت).

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً
جباناً فما عذري لدي كلِّ محضر(١)

وعاقر: بناء فاعل وهو على النسب وليس بجار على الفعل.

والإشارة بـ «ذلك» في قوله تعالى: ﴿كذلك اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكونَ إلى هذه الغريبة التي بُشِّر بها، أي كهذه القدرة المستغربة هي قدرة الله، ففي الكلام حذف مضاف، والكلامُ تامٌّ في قوله: ﴿كذلِكَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يَفْعَلُ ما يشاءُ﴾ شرحٌ للإبهام الذي في﴿ذلك﴾. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ إلى حال زكرياء وحال امرأته كأنه قال: ربِّ على أيِّ وجهٍ يكون لنا غلام ونحن بحال كذا؟ فقال له: «كما أنتما يكون لكما الغلام»، والكلام تام على هذا التأويل في قوله: ﴿كذلك﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ ما يشاءُ﴾ جملة مبنية مقررة في النفس وقوعَ هذا الأمر المستغرب.

قوله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

الآية: العلامة. وقال الربيع والسدي وغيرهما: إن زكرياء قال: رب إن كان ذلك الكلام من قِبَلك والبشارةُ حقٌّ، فاجعل لي

(١) في الأصل: لدي كل مشهد، وهو خطأ، لأن البيت من قصيدة له رائية.

علامة أعرف صحةَ ذلك بها، فعوقب على هذا الشكّ في أمر الله بأن منع الكلام ثلاثة أيامٍ مع الناس. وقالت فرقة من المفسرين: لم يشك قط زكرياء وإنما سأل عن الجهة التي بها يكونُ الولد وتتمُّ البشارة، فلما قيل له: ﴿كذلِكَ الله يفْعلُ ما يشاءُ﴾ سأل علامةً على وقتِ الحمل ليعرفَ متى يحمل بيحيى.

واختلف المفسرون ـ هل كان منعه الكلام لآفة نزلت به أم كان ذلك لغير آفة؟ فقال جبير بن نفير[١]: ربا لسانه في فيه حتى ملأه ثم أطلقه الله بعد ثلاثٍ. وقال الربيع وغيره: عوقب لأن الملائكةَ شافهته بالبشارة فسأل بعد ذلك علامةً فأخذ الله عليه لسانه، فجعل لا يقدر على الكلام. وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفةً، ولكنه مُنِعَ محاورةَ الناسِ فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله، قاله الطبري، وذكر نحوه عن محمد بن كعب.

ثم استثنى الرمز، وهو استثناءٌ منقطع[٢]. وذهب الفقهاءُ في

(١) هو جبير بن نفير، ولد في حياة النبي ﷺ وحدَّث عن أبي بكر، وعمر، وأبي ذرٍّ وجماعة، وعنه حدَّث ابنه عبدالرحمن، ومكحول، وغيرهما، من أجلَّة العلماءِ، حديثه في الكتب كلها سوى صحيح البخاري، من كبار التابعين، ولأبيه صحبة، توفي سنة: ٨٠هـ («تذكرة الحفاظ» ٥٢/١ و «الإصابة» ٢٥٨/١).

(٢) إنما كان استثناء منقطعاً لأن الرمز لا يدخل تحت التكليم، ومن أطلق الكلام في اللغة على الإشارة الدالة على ما نفس المشير جعله استثناء متصلاً، ولذلك أنشد النحويون:

أرادت كلاماً فاتقت من رقيبها ... فلم يك إلا وَمْؤُها بالحواجب

وأنشدوا أيضاً:

إذا كلمتني بالعيون الفواتر ... رددتُ عليها بالدموع البوادر

الإشارة ونحوها إلى أنها في حكم الكلام في الأَيمانِ ونحوها، فعلى هذا يجيء الاستثناء متصلاً، والكلام المراد بالآية إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس، فحقيقة هذا الاستثناء أنه منقطع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿رَمْزاً﴾ بفتح الراء وسكون الميم - وقرأ علقمة بن قيس: ﴿رُمُزاً﴾ بضمِّهما، وقرأ الأعمش: ﴿رَمَزاً﴾ بفَتْحهما. والرمز في اللغة: حركة تُعْلِمُ بما في نفسِ الرامز بأيّ شيء كانت الحركة من عينٍ أو حاجب أو شفة أو يد أو عودٍ أو غير ذلك. وقد قيل للكلام المحرَّفِ عن ظاهره: رموز، لأنها علاماتٌ بغير اللفظ الموضوع للمعنى المقصودِ الإعلام به. وقد يقال للتصويت الدال على معنى: رمز، ومنه قول جؤية بن عائذ[1]:

وكان تكلُّم الأبطال رمزاً وغمغمة لهم مثل الهدير[2]

وأما المفسرون فخصص كل واحد منهم نوعاً من الرمز في تفسيره هذه الآية، فقال مجاهد: ﴿إلاَّ رَمزاً﴾، معناه: إلا تحريكاً بالشفتين، وقال الضحاك: معناه: إلا إشارة باليد والرأس، وبه قال السدي وعبدالله بن كثير، وقال الحسن: أمسك لسانه فجعل يشير بيده إلى

(١) جؤية بن عائذ، وقيل: ابن عاتك النضري، ويقال: الأسدي الكوفي النحوي، قدم على معاوية فسأله: ما القرابة؟ قال: المودة، قال: فما السرور؟ قال: المؤاتاة، قال: فما الراحة؟ قال: الجنة، قال: صدقت (بغية الوعاة: ٢١٤).

(٢) الرمز: تصويت خفي باللسان؛ وقيل إشارة بالعينين أو الحاجبين، والغمغمة: الكلام الذي لا يبين، والهدير: تردد صوت البعير في حنجرته.

قومه، وقال قتادة: ﴿ إلاَّ رمزاً ﴾ معناه: إلا إيماء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ الناسَ﴾ بنصب الفعل بأن، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ألا تكلِّمُ﴾ برفع الميم، وهذا على أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة ويكون فيها ضمير الأمر والشأن، والتقدير: آيتك أنه لا تكلم الناس. والقول بأن هذه الآية نسخها قول النبي عليه السلام: (لا صمت يوماً إلى الليل)(١) قول ظاهر الفساد من جهات.

وأمره تعالى بالذكر لربه كثيراً لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاض بأنه لم تدركه آفةٌ ولا علةٌ في لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿آيتك أَلَّا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلاَّ رَمْزاً﴾ لكنه قال له: ﴿واذْكُرْ ربَّك كثيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم معناه: صلّ، والقول الأول أصوب لأنه يناسب الذكر ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس. والعشي في اللغة: من زوال الشمس إلى مغيبها، ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر

(١) أخرجه أبو داود في السنن عن علي رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ: (لا يُتْم بعد احتلام، ولا صُمات يوم إلى الليل). «الجامع الصغير» ٦٥٠/٢. و«الأذكار» للنووي. والصُّمات بالضم: السكوت، وفي الحديث: النهي عما كان من أفعال الجاهلية وهو الصمت عن الكلام في الاعتكاف وغيره.

بعشي(١)،والعشي من حين يفيء الفيء،ومنه قول حميد بن ثور(٢):

فلا الظلَّ من بردِ الضحى تستطيعه
ولا الفيءَ من بردِ العشيِّ تذوق

والعشي: اسم مفرد عند بعضهم، وجمع عشية عند بعضهم كسفينة وسفين، و﴿الإبْكار﴾ مصدر أبكر الرجل، إذا بادر أمره من لدن طلوع الشمس، وتمادى البكرة شيئاً بعد طلوع الشمس، يقال: أبكرَ الرجل وبكَّر، فمن الأول قول ابن أبي ربيعة(٣):

أمِنْ آلِ نعمى أنتَ غادٍ فمُبكر ....

ومن الثاني قول جرير:

ألا بَكَرَتْ سلمى فجد بكورها
وشقَّ العصا بعد اجتماع أميرُها(٤)

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في باب «وقوت الصلاة».

(٢) هو حميد بن ثور الهلالي أبو المثنى، شاعر مخضرم وفد على النبي وأنشده قصيدته التي أولها:
أصبح قلبي من سليمى مقصداً
روى عن عمر، وكان شاعراً مغلباً، وعاش إلى خلافة عثمان ، (انظر الشعر والشعراء: ٣٠٦، والأغاني ٤: ٩٧،ومعجم الأدباء ٤: ١٥٣، والسمط: ٣٧٦،وابن عساكر ٤: ٤٥٦،وكتب الصحابة).

(٣) يعني عمر بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر المشهور، (ترجمته في الأغاني ١: ٢٨ والخزانة ١: ٢٣٨،والشعر والشعراء: ٤٥٧)؛ وتتمة بيته:
.... غداة غدٍ أم رائح فمهجّر؟

(٤) البيت مطلع قصيدة لجرير يهجو بها غسان بن ذهل مناقضاً (ديوانه: ٨٩٠) وشق العصا: كناية عن الفرقة. ومنه قول الشاعر:
بكرت تلومك بعد وهْن في الندى بَسْل عليك ملامتي وعتابي

وقال مجاهد في تفسير الإبكار: أول الفجر، والعشي: ميل الشمس حتى تغيب.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قال الطبري: العامل في ﴿إذْ﴾ قوله: ﴿سَميعٌ﴾، فهو عطف على قوله: ﴿إذْ قالتِ امْرأةُ عِمرانَ﴾، وقال كثير من النحاة: العامل في ﴿إذ﴾ في هذه الآية فعل مضمر تقديره: «واذكر»، وهذا هو الراجح لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيب تدل على نبوة محمد ﷺ، مقصد ذكرها هو الأظهر في حفظ رونق الكلام.

وقرأ عبدالله بن عمر وابن مسعود: ﴿وإذْ قالَ الملائِكَةُ﴾.

واختلف المفسرون ـ هل المراد هنا بالملائكة جبريل وحده أو جمع من الملائكة؟ وقد تقدم القول على معنى مثلها في قوله تعالى: ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ﴾.

و﴿اصْطَفاكِ﴾: مأخوذ من صفا يصفو وزنه «افتعل»، وبدلت طاء لتناسب الصاد. فالمعنى: تخيَّركِ لطاعته.

وقوله تعالى: ﴿وَطهَّركِ﴾ معناه: من كل ما يصم النساءَ في خلْق أو خُلُق أو دين، قاله مجاهد وغيره. وقال الزجاج: قد جاء في التفسير أن

معناه: من الحيض والنفاس؛ وهذا يحتاج إلى سند قوي وما أحفظه.

وقوله تعالى: ﴿واصْطَفَاكِ على نِساءِ العالَمينَ﴾ إن جعلنا ﴿العالَمين﴾ عاماً فيمن تقدم وتأخر جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى عليه السلام وأنها اصطفيت لتلد من غير فحل، وإن جعلنا الاصطفاء عاماً جعلنا قوله: ﴿العالَمين﴾ مخصوصاً في عالم ذلك الزمان، قاله ابن جريج وغيره، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خير نساء الجنة مريم ابنة عمران، وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد)،وروي عنه أنه قال: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)[١] فذهب الطبري وغيره إلى أن الضمير في قوله: (خير نسائها) يراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يراد به الدنيا، أي كل امرأة في زمانها، وقال النبي ﷺ:(خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)[٢]. قال أبو هريرة راوي الحديث: ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط، وهذه الزيادة فيها غيب، فلا يتأول أن أبا هريرة رضي الله عنه قالها إلا عن سماع من النبي ﷺ. وروى أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خير نساء العالمين

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وكذا الترمذي عن علي. (الجامع الصغير ١: ٥٥٣).
(٢) أخرجه الشيخان، والإمام أحمد عن أبي هريرة. «الجامع الصغير» ١: ٥٥٣.

أربع : مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)[١]. وقد أسند الطبري أن النبي عليه السلام قال لفاطمة بنته: (أنت سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران البتول)[٢] وأنه قال: (فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين)[٣].

وإذا تأملت هذه الأحاديث وغيرها مما هو في معناها، وجدت مريم فيها متقدمة، فسائغ أن يتأول عموم الاصطفاء على العالمين عموماً أيضاً. وقد قال بعض الناس: إن مريم نبية[٤]، قال ابن إسحق: كانت الملائكة تقبل على مريم فتقول:﴿يامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصطَفاكِ﴾ الآية، فيسمع ذلك زكرياء فيقول: إن لمريم لشأناً، فمن مخاطبة الملائكة لها جعلها هذا القائل نبية، وجمهور الناس على أنه لم تنبأ امرأة. و ﴿اقْنُتي﴾ معناه: اعبدي وأطيعي، قاله قتادة والحسن، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (كل قنوت في القرآن فهو بمعنى طاعة الله)[٥] ويحتمل أن يكون معناه:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، والطبراني- عن أنس. «الجامع الصغير» ١: ٥٥٣.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٦٤/٣.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٦٤/٣.
(٤) القول بنبوة مريم شهير، وقد مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات، وابن السيد إلى ترجيحه، وذكر أن ذكرها مع الأنبياءِ في سورتهم قرينة قوية لذلك. تفسير روح المعاني ١٥٤/٣.
(٥) أخرجه الإمام أحمد، وأبو يعلى في مسنده، وابن حبان، وابن أبي حاتم، وابن جرير عن أبي سعيد الخدري بلفظ: (كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة). «الجامع الصغير» ٢٣٥/٢. وابن كثير.

أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور، وهو المناسب في المعنى لقوله: ﴿واسْجُدي وارْكَعي﴾ وبه قال مجاهد، وابن جريج، والربيع، وروى مجاهد أنها لما خوطبت بهذا قامت حتى ورمت قدماها[١]. وروى الأوزاعي أنها قامت حتى سال الدمُ والقيح من قدميها. وروي أن الطير كانت تنزل على رأسها تظنها جماداً لسكونها في طول قيامها. وقد قال سعيد بن جبير: ﴿اقْنُتي لِرَبِّكِ﴾ معناه: أَخلصي لربك.

واختلف المتأولون: لم قدم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم، وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع. وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا: «قام زيد وعمرو» لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك[٢]؟ فالقول عندي في ذلك أَن مريم أُمِرَتْ بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما طول القيام والسجود، وخُصَّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، إذ

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره. ٢٦٥/٣.

(٢) ذكر أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية، ثم قال: «وهذا كلام من لم يمعن النظر في كتاب سيبويه، فإن سيبويه ذكر أن الواو يكون معها في العطف المعيَّة، وتقديم السابق وتقديم اللاحق يحتمل ذلك احتمالات سواء فلا يترجح أحد الاحتمالات على الآخر، ولا التفات لقول بعض المتأخرين في ترجيح المعية على تقديم السابق». البحر المحيط ٤٥٧/٢.

العبدُ يقرب في وقت سجوده من الله تعالى، وهذان يختصان بصلاتها مفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك، ثم أمرت ـ بعدُ ـ بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿وارْكَعي معَ الرَّاكِعينَ﴾، وقصد هنا معلم من معالم الصلاة، لئلا يتكرر لفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

هذه المخاطبة لمحمد عليه السلام، والإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره من القصص. والأنباء: الأخبار، و﴿الغيب﴾: ما غاب عن مدارك الإنسان. و﴿نُوحيه﴾ معناه: نلقيه في نفسك في خفاء؛ وحدّ الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ثم تختلف أنواعه، فمنه بالمَلَك، ومنه بالإلهام، ومنه بالإشارة، ومنه بالكتاب، كما قال كعب بن زهير(١):

أتى العُجْمَ والآفاقَ منه قصائدٌ
بقين بقاء الوحي في الحجرِ الأصمْ

(١) ديوان كعب: ٦٤ (ط. دار الكتب)، يفتخر بأبيه وذيوع قصائده، والوحي هنا: الكتابة.

تقول العرب: أوحى، وتقول: وحَى. وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عليه السلام، إذ جاءهم بغيوبٍ لا يعلمها إلا مَن شاهدها وهو لم يكن لديهم، أو مَن قرأها في كتب أهل الكتاب، ومحمد عليه السلام أمي من قوم أميين، أو مَن أعلمه الله بها وهو ذاك ﷺ. و ﴿لَدَيْهِم﴾ معناه: عندهم ومعهم، وقد تقدم القول في الأقلام والكفل. وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها. وقال ابن إسحق: إنما كان استهامهم حين نالتهم المجاعة دفعاً منهم لتحمل مئونتها.

و ﴿يَخْتَصِمونَ﴾ معناه: يتراجعون القول الجهير في أمرها، وفي هذه الآية استعمال القرعة والقرعة سنة، وكان النبي ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه[١]، وقال عليه السلام: (لو يعلمون ما في الصفِّ الأول لاستهموا عليه)[٢]. وجمهور الأمة على تجويز القرعة إلا من شذَّ فظن أنها قمار، وهذا كله فيما يصلح التراضي بكونه دون قرعة، فكأن القرعةَ محسنة لذلك الاختصاص. وأما حيث لا يجوز التراضي كعتق العبيد في ثلث الميت فجَّوزها الجمهور ومنعها أبو حنيفة. وفي الحديث أن النبي ﷺ أقرع بين ستة أعبد، فأعتق اثنين وأرق أربعة[٣].

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجة ـ عن عائشة رضي الله عنها، (الجامع الصغير ٢٦٧/٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي ـ عن أبي هريرة. (الجامع الصغير ٣٧٩/٢).

(٣) أخرجه مسلم، والنسائي، وأبو داود ـ عن عمران بن حصين. (سبل السلام ١٤٣/٤)

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل الذي تقديره: ينظرون ﴿أَيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ﴾، والعامل في قوله: ﴿إِذْ قالَتِ الملائِكَةُ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الملائكة﴾، وهكذا يطّردُ وصفُ الآية وتتوالى الإعلاماتُ بهذه الغيوب. وقال الزجاج: العامل فيها: ﴿يَخْتَصِمونَ﴾، ويجوز أن يتعلق بقوله: (وما كُنْتَ لدَيْهم﴾، وهذا كله يردّه المعنى، لأن الاختصام لم يكن عند قول الملائكة.

وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمر: ﴿إِذْ قالَ الملائِكَةُ﴾. واختلف المتأولون ـ هل الملائكة هنا عبارة عن جبريل وحده أو عن جماعة من الملائكة؟ وقد تقدم معنى ذلك كله في قوله آنفاً: ﴿فنادته الملائكة﴾ فتأمله، وتقدم ذكر القراءات في قوله: ﴿يبشّرك﴾.

واختلف المفسرون ـ لم عبر عن عيسى عليه السلام بـ﴿كَلِمَة﴾ فقال قتادة: جعله الله ﴿كَلِمَة﴾ إذ هو موجود بكلمة وهي قوله تعالى لمراداته: «كن»، وهذا كما تقول في شيء حادث: هذا قدر الله، أي هو عن قدر الله، وكذلك تقول: هذا أمر الله. وترجم الطبري فقال: وقال آخرون: بل الكلمة اسم لعيسى سماه الله بها كما سمّى سائر خلقه بما شاء من الأسماء، فمقتضى هذه الترجمة أن الكلمة اسمٌ مرتجلٌ لعيسى، ثم أدخل الطبري تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: الكلمة هي عيسى، وقول ابن عباس محتملٌ أن يفسَّر بما قال قتادة وبغير ذلك مما سنذكره الآن، وليس فيه شيء مما ادعى الطبري

رحمه الله . وقال قوم من أهل العلم : سماه الله كلمة من حيث كان تقدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله وأنه سيكون ، فهذه كلمة سبقت فيه من الله ، فمعنى الآية : أنت يا مريم مبشّرة بأنكِ المخصوصةُ بولادة الإنسان الذي قد تكلم الله بأمره ، وأخبر به في ماضي كتبه المنزلة على أنبيائه . و ﴿اسْمُهُ﴾ في هذا الموضع ، معناه : تسميته ، وجاء الضمير مذكراً من أجل المعنى ، إذ الكلمةُ عبارة عن ولد .

واختلف الناس في اشتقاق لفظة ﴿المسيح﴾[1] ـ فقال قوم : هو من ساح يسيح في الأرض إذا ذهب ومشى في أقطارها ، فوزنه «مفعل» . وقال جمهور الناس : هو من «مسح» فوزنه «فعيل» ؛ واختلفوا ـ بعد ـ في صورة اشتقاقه من «مسح» ـ فقال قوم من العلماء : سمي بذلك من مساحة الأرض لأنه مشاها فكأنه مسحها ، وقال آخرون : سمي بذلك لأنه ما مسح بيده على ذي علّة إلا برئ ، فهو على هذين القولين ـ «فعيل» بمعنى «فاعل» . وقال ابن جبير : سمي بذلك لأنه مُسح بالبركة ، وقال آخرون : سمي بذلك لأنه مُسِحَ بدهن القدس ، فهو على هذين القولين «فعيل» بمعنى «مفعول» ، وكذلك هو في قول من قال : مسحه الله فطهره من الذنوب . قال إبراهيم النَّخَعي : المسيح : الصدّيق ، وقال ابن جبير عن ابن عباس : المسيح : الملك ، وسمي بذلك لأنه ملك إحياء الموتى

(١) قارن ما جاء هنا بما جاء في «زاد المسير» ١ : ٣٨٩ .

وغيرَ ذلك من الآيات، وهذا قول ضعيف لا يصحُّ عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿عيسى﴾ يحتمل من الإعراب ثلاثة أوجه: البدل من المسيح، وعطف البيان، وأن يكون خبراً بعد خبر، ومنع بعض النحاة أن يكون خبراً بعد خبر وقال: كان يلزم أن يكون أسماهُ على المعنى أو أسماها على اللفظ للكلمة، ويتجه أن يكون﴿عيسى﴾خبر ابتداء مضمر، تقديره: هو عيسى بن مريم، ويدعو إلى هذا كون قوله: ﴿ابن مَرْيَم﴾ صفة لعيسى إذ قد أجمع الناس على كتبه دون ألف، وأما على البدل أو عطف البيان فلا يجوز أن يكون ابن مريم صفةً لعيسى لأن الاسم هنا لم يرد به الشخص، هذه النزعة لأبي علي، وفي صدر الكلام نظر(١).

و ﴿وجيهاً﴾ نُصِبَ على الحال وهو من الوجه، أي: له وجه ومنزلة عند الله. والمعنى في الوجيه أنه حيثما أقبل بوجهه عظم وروعي

---

(١) قال الزمخشري ـ ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٤٦٠/٢: «فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى بن مريم ـ وهذه ثلاثة أشياءَ الاسم منها (عيسى)، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره، فكأنه قيل: الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة» ـ ثم قال أبو حيان تعقيبا على ذلك: «ويظهر من كلامه أن اسمه مجموع هذه الثلاثة فتكون الثلاثة أخباراً عن قوله: [اسمه] فيكون من باب: هذا حلو حامض، وهذا أعسر أيسر ـ فلا يكون أحدهما على هذا مستقلا بالخبرية، ونظيره في كون الشيئين أو الأشياء في حكم شيءٍ واحد قول الشاعر:

كيف أصبحْتَ؟ كيف أمْسيتَ؟ مِمَّا يــزْرَعُ الــودَّ في فؤاد الكــريم؟

أي: مجموع هذا مما يزرع الود، فلما جاز في المبتدأ أن يتعدد دون حرف عطف إذا كان المعنى على المجموع، كذلك يجوز في الخبر».

أمره، وتقول العرب: فلان له وجهٌ في الناس وله جاه، وهذا على قلب في اللفظة، يقولون: جاهني يجوهني بكذا أي واجهني به، وجاه عيسى عليه السلام في الدنيا نبوته وذكره، ورفعه في الآخرة مكانته ونعيمه وشفاعته. و ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ معناه: من الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾ نائب عن حال تقديرها: «ومكلماً»، وذلك معطوف على قوله: ﴿وجيهاً﴾، وجاز عطف الفعل المستقبل على اسم الفاعل لما بينهما من المضارعة، كما جاز عطف اسم الفاعل على الفعل المستقبل في قول الشاعر:

بتُّ أُعشّيها بعضبٍ باتر يقصد في أسؤقها وجائر(١)

وقوله: ﴿في المَهْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿يُكَلِّم﴾، و﴿كَهْلاً﴾ حال

---

(١) البيت أورده الفراء، والزجاج، وأبو علي، ولم ينسبه أحد منهم إلى قائله. بات من أخوات كان. ويعَشِّيها: أي يطعمها العشاء، وفي بعض الروايات: (يغشيها)، بالغين المعجمة، أي يشملها ويضمها. وضمير المؤنث للإبل. ورُوي أيضاً: (بات يعشيها). والعضب: السيف. وباتر: صفة أولى لعضب، ومعناه: قاطع. ويقصد: يتوسط. وأسؤُق: جمع ساق وهو ما بين الركبة والقدم. وجائر: من جار في حكمه إذا ظلم، أي يقصد في أسواق إبلٍ تستحق العقر كالنيب، ويجور في أسواق إبل لا تستحق العقر كالحوامل وذات الفصال. «خزانة الأدب ٢: ٩٤٥».

معطوفة على قوله: ﴿فِي المَهْدِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ الصَّالحِين﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾.

وهذه الآية إخبار من الله تعالى لمريم بأن ابنها يتكلم في مهده مع الناس آية دالة على براءة أمه مما عسى أن يقذفها به متعسف ظان. والمهد: موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته. وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس كهلاً، وفائدة ذلك ـ إذ كلامُ الكهل عُرِفَ ـ أنه إخبارٌ لها بحياته إلى سنِّ الكهولة، هذا قول الربيع وجماعة من المفسرين. وقال ابن زيد: فائدة قوله: ﴿وكهلاً﴾ الإخبار بنزوله عند قتله الدجال كهلاً. وقال جمهور الناس: الكهل: الذي بلغ سن الكهولة. وقال مجاهد: الكهل: الحليم، وهذا تفسير الكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب. واختلف الناس في حدِّ الكهولة، فقيل: الكهل: ابن أربعين سنة، وقيل: ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنتين وثلاثين، وهذا حدّ أولها. وأما آخرها فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: (ربِّ أنَّى يكونُ لي وَلَدٌ) استفهام عن جهة حملها، واستغرابٌ للحمل على حال بكارتها. و ﴿يَمْسَسْني﴾ معناه: يطأ ويجامع، والمسيس: الجماع، ومريم لم تنفِ مسيسَ الأيدي، والإشارة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ﴾ يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها، وقد تقدم شرح هذين التأويلين في أمر زكرياء عليه

السلام، وجاءت العبارة في أمر زكرياء ﴿يفْعَلُ﴾ وجاءت هنا ﴿يخْلُقُ﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي يُتعارف وإن قلَّ، وقصة مريم لا تتعارف البتة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدلُّ عليه. وروي أن عيسى عليه السلام ولد لثمانية أشهر فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إذا قَضى﴾ معناه إذا أراد إيجاده، والأمر: واحد الأمور، وهو مصدرٌ سمي به، والضمير في ﴿له﴾ عائد على الأمر، والقول على جهة المخاطبة، قال مكي وقيل: المعنى يقول لأجله، وهذا ينحو إلى ما نورده عن أبي علي بعد.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿فيكونُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿فيكونَ﴾ بالنصب، فوجه الرفع العطف على ﴿يَقُولُ﴾ أو تقدير: فهو يكون. وأما قراءة ابن عامر فغير متجهة لأن الأمر المتقدم خطابٌ للمقضي وقوله: ﴿فيكونَ﴾ خطاب للمخبر، فليس كقوله: قم فأحسن إليك، لكن وجهها أنه راعى الشبه اللفظي في أن يقدم في الكلام لفظ أمر كما قال أبو الحسن الأخفش في نحو قوله تعالى: ﴿قلْ لِعِبادِيَ الذين آمنوا يُقيموا الصَّلاةَ﴾[١] إنه مجرى جوابِ الأمر وإن لم يكن له جواباً في الحقيقة، فكذلك على قراءة ابن عامر يكون قوله: ﴿فيكونَ﴾ بمنزلة جواب الأمر وإن لم يكن جواباً. وذهب أبو علي في

(١) من الآية (٣١) من سورة إبراهيم.

هذه المسألة إلى أن القول فيها ليس بالمخاطبة المحضة، وإنما هو قول مجازي كما قال:

امتلأ الحَوْضُ وقالَ قطْني[١] ....

وغير ذلك، قال: لأن المنتفي ليس بكائن فلا يخاطب كما لا يؤمر، وإنما المعنى: فإنما يكونه فهو يكون، فهذه نزعة اعتزالية[٢]، رحمه الله وغفر له.

قوله عز وجل:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾

قرأ نافع وعاصم: ﴿ويُعَلِّمه﴾ بالياء، وذلك عطف على: ﴿يُبَشِّركِ بِكَلِمَة﴾، كذا قال أبو علي، ويحتمل أن يكون في موضع الحال عطفاً على: ﴿وَيُكَلِّم﴾. وقرأ الباقون: ﴿ونُعَلِّمه﴾ بالنون، وهي مثل قراءة الياء في المعنى لكن جاءت بنون العظمة، قال الطبري: قراءة الياء عطف على قوله: (يَخْلُق ما يَشاءُ)، وقراءة النون عطف على قوله: (نُوحيهِ إليْك).

---

(١) هذا صدر بيت من الرجز، وعجزه:

.... مَهْلاً رُويداً قد مَلأْتَ بَطْني

وهو من كلام بعض الماتحين، رأى حوضه قد امتلأ، فقال: حسبي- امتلأ حوضي، ويكفيني، يريد بذلك أن ينصرف إلى دلو غيره، وهذا مما يسمى عندهم بلسان الحال، فإن الحوض لا يتكلم. وقطني بمعنى: حسبي - والبيت في اللسان ولم ينسبه لأحد.

(٢) لأن المعتزلة يقولون: المعدوم منتف فلا يخاطب ولا يؤمر، والأمر عندهم هو عين الإرادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قاله خطأ في الوجهين مفسد للمعنى.[١]

و ﴿الْكِتابَ﴾ هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب، هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعيَّنْ، وهذه دعوى لا حجة عليها. وأما: ﴿الحكمة﴾ فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء في الشرعيات والمواعظ ونحو ذلك، مما لم يوحَ إليهم في كتاب ولا بملَك، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه. وقد عبر بعض العلماء عن الحكمة بأنها الإصابة في القول والعمل، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحي أو مأثوراً عمن تقدم عيسى من نبي وعالم. وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها نعلمه على معنى نُهَيِّىء غريزته لها ونقدره ونجعله يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك.

﴿والتَّوراة﴾: هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى عليه السلام كان يستظهر التوراة، وكان أعلم الناس وأعمل بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة: موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام. وذكر: ﴿الإِنْجيل﴾ لمريم وهو لم ينزل ـ بعد ـ لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سينزل.

---

(١) وافق أبو (ح) في البحر المحيط على فساد العطف في قراءة النون، لكنه اعترض على فساد العطف في قراءة الياء، وقال: إنه هو الأولى.

وقوله: ﴿وَرَسولاً﴾ حال معطوفة على: ﴿ويُعَلِّمُهُ﴾. إذ التقدير: ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله: ﴿وجيهاً﴾ ويحتمل أن يكون التقدير: ويجعله رسولاً(١).

وكانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، مبيناً حكم التوراة ونادباً إلى العمل بها ومحللاً أشياء مما حرم فيها، كالشحوم ولحوم الإبل وأشياء من الحيتان والطير.

ومن أول القول لمريم إلى قوله: ﴿إسرائيل﴾خطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيم﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمريم على معنى: يكون من قوله لبني إسرائيل: كيت وكيت، ويكون في آخر الكلام متروك يدلّ عليه الظاهر، تقديره: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدَّم ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾. ويحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله: ﴿إلى بني إسْرائيلَ﴾ فيكون تقديره: فجاء عيسى كما بشر الله رسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أنِّي قدْ جئْتُكُم﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أَظَهر.

---

(١) اختلف العلماءُ في إعراب [رسولاً] هنا ـ قال قومٌ: هو وصف بمعنى المرسل، ويكون منصوباً بإضمار فعل مناسب تقديره: ويجعله رسولا ـ أو حالا معطوفة على [ويعلمه] كما ذكرهما ابن عطية، على حدِّ قول الشاعر:

يـا ليتَ زوجُك قـدْ غـدا مـتـقـلداً سـيـفـاً ورمحـا

أي: ومعتقلاً رمحا وقيل: إن [رسولاً] مصدر بمعنى رسالة، ويكون معطوفاً على الكتاب، والمعنى: ويعلمه رسالةً، فتكون (رسالة) داخلة فيما يعلمه الله لعيسى، قال ذلك الحوفي وأبو البقاءِ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي قد جِئْتُكُمْ﴾ بفتح الألف، تقديره: بأني، وقرئ في الشاذ: ﴿إنّي قدْ جِئْتُكُم﴾، وجمهور الناس قرءوا: ﴿بآية﴾ على الإفراد، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بآيات﴾، وكذلك في قوله بعد هذا: ﴿وجِئْتُكُم بآياتٍ مِنْ رَبِّكُم﴾. واختلف القراء في فتح الألف وكسرها من قوله: ﴿أَنّي أَخْلُقُ﴾ - فقرأ نافع وجماعة من العلماء: ﴿إنّي﴾ بكسر الألف، وقرأ باقي السبعة وجماعة من العلماء: ﴿أني﴾ بفتح الألف. فوجه قراءة نافع: إما القطع والاستئناف، وإما أنه فسر الآية بقوله: (إني) كما فسَّر المثلَ في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ بقوله: ﴿خَلَقَه مِنْ تُرابٍ﴾ [1] إلى غير ذلك من الأَمْثِلَة، وَوَجْه قراءة الباقين البدل من ﴿آية﴾، كأنه قال: وجئتكم بأني أخلق، وقيل: هي بدل من ﴿أني﴾ الأولى، وهذا كله يتقارب في المعنى.

و ﴿أخلق﴾ معناه: أقدر وأهيِّئُ بيدي، ومن ذلك قول الشاعر[2]:

ولأنت تفري ما خلقتَ وبعـ ـضُ القومِ يخلقُ ثم لا يفري

وقوله: ﴿لَكُم﴾ تقييد لقوله: ﴿أَخْلُقُ﴾ لأنه يدل دلالة ما على أنه لم يرد الإيجاد من العدم. ويصرح بذلك قوله: ﴿بإِذْنِ اللَّهِ﴾، وحقيقة الخلق في الأجرام، ويستعمل في المعاني، ومنه قوله تعالى:

---

(١) من الآية (٥٩) من سورة آل عمران.
(٢) هو زهير بن أبي سلمى (ديوانه ٩٤) ويخلق ويفري معناه: يقرر الأمر ثم يمضيه.

﴿وتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[(١)]، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

من كان يخلقُ ما يقو لُ فحيلتي فيه قليلَهْ

وجمهور الناس قرأ: ﴿كَهَيْئَةِ﴾ على وزن فَعلة ـ بفتح الفاء ـ وهو مصدر من قولك: هاء الشيء يهاء هيئا وهيئة، إذا ترتب واستقر على حال ما، وهو الذي تعديه فتقول: هيأت، وقرأ الزهري: ﴿كَهِيَّةِ الطير﴾، بكسر الهاء وياء مفتوحة مشددة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّائر فأَنْفُخ فيهِ فيكونُ طائِراً﴾ على الإفراد في الموضعين، فالأول اسم الجنس والثاني مفرد، أي يكون طائراً من الطيور، وقرأ نافع وحده: ﴿كَهَيْئَة الطَّيْر فأَنْفخُ فيهِ فيكون طائراً﴾ بالإفراد في الأخير، وهكذا قرأ في المائدة. وقرأ الباقون: ﴿كَهيْئَة الطَّيْر فأَنَفخُ فيه فيكونُ طَيْراً﴾ بالجمع فيهما، وكذلك في سورة المائدة، ومعاني هذه القراءات بينة. والطير: اسم جمع وليس من أبنية الجموع، وإنما البناء في جمع طائر أطيار، وجمع الجمع طيور، وحكاه أبو علي عن أبي الحسن.

وقوله: ﴿فأَنْفُخُ فيهِ﴾ ذكَّر الضمير هنا لأنه يحتمل أن يعود على الطين

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة العنكبوت: ﴿إنَّما تعبُدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا﴾.

(٢) أنشد المبرد البيت في الجزء الثاني من الكامل، وذكر قبله بيتا ونسبهما لبعض المحدثين، وهما:

لي حيلة فيمن يَنِمْ مُ، وليس في الكذَّاب حيله

مَنْ كان يخلُق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

ونسبهما في «معجم الأدباء» إلى منصور بن إسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر الضرير المصري. ويخلق ما يقول: يفتريه ـ

ـ يقول: إنه لا حيلة له في الكذاب الذي يفتري الأمور ويدعيها.

المهيأ، ويحتمل أن يريد فأنفخ في المذكور. وأنث الضمير في سورة المائدة في قوله: ﴿فَتَنْفُخُ فيها﴾ لأنه يحتمل أن يعود على الهيئة أو على تأنيث لفظ الجماعة في قوله: ﴿الطَّيْر﴾. وكون عيسى عليه السلام خالقاً بيده ونافخاً بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قِبَله، وأما الإيجاد من العدم وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له.

وقوله:﴿بإذْن اللَّهِ﴾ معناه: بعلم منه تعالى أني أفعل ذلك وتمكين منه لي. وحقيقة الإذن في الشيء هي العلم بأنه يفعل والتمكين من ذلك، فإن اقترن بذلك قول فذلك أمكن في الإذن وأبلغ، ويخرج من حدِّ الإذن إلى حدّ الأمر، ولكن تجده أبداً في قسم الإباحة. وتأمل قوله تعالى: ﴿فَهَزموهُم بإذْن اللَّهِ﴾[1] وقول النبي عليه السلام: (وإذْنها صُماتها)[2].

وروي في قصص هذه الآية أن عيسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل: أي الطير أشدّ خلقةً وأصعبُ أن يحكى؟ فيقولون: الخفاش، لأنه طائر لا ريش له، فكان يصنع من الطين خفافيش ثم ينفخ فيها فتطير، وكل ذلك بحضرةِ الناسِ ومعاينتهم فكانوا يقولون: هذا ساحر.

(١) من الآية (٢٥١) من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الإمام مسلم، وأبو داود، والنسائي - عن ابن عباس (الجامع الصغير ١ : ٤٨٧).

قوله عز وجل:

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

و ﴿أُبْرِئُ﴾ معناهُ: أزيل المرض، يقال: برأ المريض وأبرأه غيره، ويقال: برئ المريض أيضاً كما يقال في الذنب والدين[١].

واختلف المفسرون في: ﴿الأَكْمَه﴾ ـ فقال مجاهد: الأكمه: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقال ابن عباس والحسن والسدّي: الأكمه: الأعمى على الإطلاق، وقال عكرمة: الأكمه: الأعمش، وحكى النقاش قولاً: إن الأكمه هو الأبكم الذي لا يَفهم ولا يُفهم، الميت الفؤاد، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: الأكمه: الذي يولد أعمى مضموم العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ بدعائه وَمَسْحِ يده كلَّ علة فتشفى، ولكن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا

---

(١) قال في الصحاح: أهل الحجاز يقولون: «بَرَأْتَ من المرض بَرْءاً» بالفتح.
ـ وفي المعجم الوسيط: برِئ المريض بَرْءاً وبُرْءاً ـ وبَرُؤَ بَرْءاً وبُروءاً بمعنى: شفي وتخلص مما به ـ
ـ وقال أبو حيان في البحر المحيط ٤٥٥/٢: «الإبراءُ إزالةُ العلَّة، يقال: برِئ الرجل وبَرَأَ من المرض وأما من الذنب ومن الدين فبرئ» تأمل الفرق بين قوله وقول ابن عطية رحمهما الله.

بالإبراء من العلل التي لا يُبْرِئُ منها طبيبٌ بوجه، فليس يتخلص من هذه الأقوال في الأكمة إلا القول الأخير، إذ الأكمة في اللغة هو الأعمى، وكمهت العين عمِيَت، ولولا ضبطُ اللغة لكان القول الذي حكى النقاشُ حسناً في معنى قيام الحجة به. ﴿والأبْرَص﴾ معروف، وهو داء لا يبرأ منه إذا تمكن.

وروي في إحيائه الموتى أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة فيُحيي الإنسان ويكلّمه، وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعاً، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحّتها. وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدًّى بها وإن كان لم ينصَّ على التحدي بها. وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرفَ الناس في ذلك الزمان وشغلهم، وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائبَ لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السَّحَرةِ مع موسى والفصحاء مع محمد عليهما السلام، ووقع في التواريخ المترجمة عن الأطباء أن جالينوس كان في زمن عيسى عليه السلام، وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه فمات في طريقه ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ . . . الآية ـ

فقال السدي وسعيد بن جبير وابن إسحق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيانَ بما يفعل آباؤهم في منازلهم، وبما يؤكل من الطعام ويدّخر حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم: لا تخالطوا هذا الساحر، وكذلك إلى أن نُبِّئَ، فكان يقول لكلٍّ من سأله عن هذا المعنى: أكلتَ البارحة كذا وادخرت كذا. قال ابن إسحق: وكان معلمه يريدُ أن يعلمه الشيءَ فيسبقه إليه عيسى، فيتعجّبُ معلمه من ذلك ويذكره للناس.

وقال قتادة: معنى الآية إنما هو في نزول المائدة عليهم، وذلك أنها لما أنزلت أخذ عليهم عهداً أن يأكلوا ولا يخبأ أحد شيئاً ولا يدخره ويحمله إلى بيته، فخانوا وجعلوا يخبئون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة، فكان عيسى عليه السلام يخبر كلَّ أحد عما أكل وعما ادخر في بيته من ذلك، وعوقبوا على ذلك.

و ﴿ما﴾ في قوله: ﴿بما تَأْكُلونَ﴾ تحتمل أن تكون بمعنى «الذي» وتحتمل المصدرية، وكذلك ﴿وما تَدَّخِرونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تدَّخِرون﴾ بدال مشددة وخاء مكسورة، وهو تفتعلون من ذخرت، أصله تذتخرون، استثقل النطق بالذال والتاء لتقاربهما في المخرج فأبدلت التاء دالاً وأُدغمت الذال في الدال، كما صنع في مدّكر ومطّلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك، نحو قول الشاعر:

إن الكريمَ الذي يعطيكَ نائلَهُ عفواً وَيُظْلَمُ أحياناً فيظَّلمُ[١]

بالطاء غير منقوطة. وقرأ الزهري ومجاهد وأيوب السختياني وأبو السمال: ﴿تَدْخَرون﴾ بدال ساكنة وخاء مفتوحة.

وقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء والإبراء والإنباء. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لآيات﴾ على الجمع.

وقوله: ﴿إنْ كُنْتُم مُؤْمنين﴾ توقيف، والمعنى: لآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم، وإلا فليست بنافعة ولا هادية، فأما كونها آيات فعلى كل حال آمنوا أو كفروا، هذا كله على أنَّ المخاطبة لمن لم يؤمن ـ بعد ـ وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل، وإن كان خطابه لمؤمنين، أو لما[٢] كانوا مؤمنين بموسى، فمعنى الآية: التثبيتُ وهزّ النفس، كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء: أما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال.

قوله عز وجل:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، أورده اللسان في مادة: ظَلَم، برواية:

هُوَ الجوادُ الَّذي يُعطيك نائلَهُ عفواً .... البيت

ومعنى يُظلم بالبناءِ للمجهول: يُطلب منه في غير موضع الطلب. ومعنى يطَّلِمُ أو يظْطَلِم: يحتمل الظلم. ويُروى: فيظلم؛ أي يتكلف. ورواه الأصمعي: وينْظَلِم كما في اللسان.

(٢) لعل الصواب: أو لمن.

قوله: ﴿مُصَدِّقاً﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾. لأن قوله في موضع الحال، وكان عيسى عليه السلام مصدقاً للتوراة متبعاً لها عاملاً بما فيها. قال وهب بن منبه: كان يسبت ويستقبل بيت المقدس.

وقال قتادة في تفسير قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بعضَ الَّذِي حُرِّمَ عليْكُمْ﴾، كان الذي جاء به عيسى ألينَ من الذي جاء به موسى، وقال ابن جريج: أحلَّ لهم لحوم الإبل والشحوم، قال الربيع: وأشياء من السمك، وما لا صِنْصِئَةَ[١] له من الطير. وكان في التوراة محرمات تركها شرع عيسى على حالها، فلفظة البعض على هذا متمكنة، وقال أبو عبيدة: البعض في هذه الآية بمعنى الكلّ، وخطّأه الناسُ في هذه المقالة، وأنشد أبو عبيدة شاهداً على قوله بيت لبيد:

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم يرْضَها أو يخترمْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٢]

---

(١) صِنْصِئة الديك: مخلبه في ساقه.

(٢) بيت لبيد من معلقته المشهورة؛ اخترمته المنيّة: أخذتْه. واخْتَرمهم الدهر: اقْتَطعهم واستأصلهم. والحمام بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره.

يقول لبيد: إني أترك الأمكنة التي لا أحبها ولا أرضى بالعيش فيها إلا إذا نزل بي قضاء الله وقضى علي الموتُ بالبقاء فيها. وفي بعض الروايات: (أو يرتبط) بدلاً من (أو يخترم) ومعناها أن يربط الحمام نفسه بهذه الأرض فلا يبرحها.

وأراد ببعض النفوس ـ نفسه، فالتبعيض صحيح، وليس لأبي عبيدة حجة في البيت؛ وقد أنشد بعضهم بيتاً آخر ليؤيد كلام أبي عبيدة من أن (بعض) تأتي بمعنى (كل) وهو قول الشاعر:

إنَّ الأمورَ إذا الأحداث دبَّرها دونَ الشيوخِ ترى في بعضها خللا=

وليس في البيت له حجة لأن لبيداً أراد نفسه فهو تبعيضٌ صحيح، وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿حُرِّم عليكُم﴾ إشارة إلى ما حرمه الأحبار بعد موسى وشرعوه، فكأن عيسى ردَّ أحكام التوراة إلى حقائقها التي نزلت من عند الله تعالى.

وقرأ عكرمة: ﴿حَرَّم عليكُم﴾ بفتح الحاء والراء المشددة، وإسناد الفعل إلى الله تعالى أو إلى موسى عليه السلام. وقرأ الجمهور: ﴿وجِئْتُكُم بآيةٍ﴾، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿وجِئْتُكُم بآياتٍ مِن رَبِّكم﴾،وقوله تعالى: ﴿فاتَّقوا اللَّهَ وأَطيعون﴾ تحذير ودعاء إلى الله تعالى. وقرأ جمهور الناس: ﴿إنَّ اللَّهَ ربِّي ورَبُّكُم﴾ بكسر الألف على استئناف الخبر، وقرأه قوم: ﴿أَنَّ اللَّهَ ربِّي ورَبُّكُم﴾ بفتح الألف؛ قال الطبري: ﴿أنَّ﴾ بدل من ﴿آية﴾، في قوله: ﴿جئْتُكُم بآيةٍ﴾، وفي هذا ضعف، وإنما التقدير: أطيعوني، لأن الله ربي وربكم، أو يكون المعنى: لأن الله ربي وربكم فاعبدوه.

وقوله: ﴿هذا صِراطٌ مُسْتقيم﴾ إشارة إلى قوله: ﴿إنَّ اللَّه ربِّي وربُّكم فاعبدُوه﴾، لأن ألفاظه جمعت الإيمان والطاعات. والصراط:

= فهو يرى أن الأحداث إذا دبروا الأمور من دون الشيوخ صارت كلها خللا ـ وهذا أيضاً غير صحيح، فليس كل ما دبَّره الأحداث يكون فيه الخلل ـ والتبعيض هنا أيضاً صحيح. وقال بعضهم: لا يقوم (بعض) مقام (كل) إلا إذا دلت قرينة على ذلك نحو قول الشاعر:

أبـا مُنـذرٍ أفْنَيْتَ فـاسْتَبْق بعْضَنَـا حنانَيْك بعْضُ الشرِّ أهْون من بعض

يريد: بعض الشر أهون من كله. وهذا أيضاً موضع بحث ونظر.

راجع اللسان. والبحر المحيط ٢: ٤٦٨.

الطريق، والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه.

قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قبل هذه الآية متروك به يتم اتساق الآيات، تقديره: فجاء عيسى عليه السلام كما بشَّر الله به فقال جميعَ ما ذكر لبني إسرائيل ﴿فلمَّا أَحَسَّ﴾، ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾: علم من جهة الحواس بما سمع من أقوالهم في تكذيبه ورأى من قرائن الأحوال وشدة العداوة والإعراض؛ يقال: أحسستُ بالشيء وحسيتُ به، أصله: حسست فأبدلت إحدى السينين ياء[١]. و﴿الكُفْر﴾ هو التكذيب به، وروي أنه رأى منهم إرادة قتله، فحينئذ طلب النصر، والضمير في ﴿مِنْهُم﴾ لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى اللَّهِ﴾ عبارة عن حال عيسى

---

(١) أضاف أبو حيان: «أو تحذف أولى سينيه في أحْسسْتَ فيقال: أحَسْتَ، قال:

سِوى أن العِتاقَ من المطايا أحَسْنَ به فهُنَّ إليه شُوسُ

وشوس: جمع أشْوس ـ وهو الذي ينظر بمؤْخر عينه تكبراً وتغيظا.

وقال سيبويه: «وما شذَّ من المضاعف ـ يعني في الحذف ـ فشبيه بباب (أقمْت) ـ وذلك قولهم: أحَسْتُ وأحَسْن. يريدون: أحْسَسْتُ وأحْسَسْنَ».

عليه السلام في طلبه من يقوم بالدين ويؤمن بالشرع ويحميه، كما كان محمد ﷺ يعرضُ نفسه على القبائل ويتعرض للأحياء في المواسم. وهذه الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر عنها. بـ ﴿قال مَنْ أنصاري إلى اللَّهِ﴾. ولا شكَّ أن هذه الألفاظ كانت في جملة أقواله للناس. والأنصار: جمع نصير، كشهيد وأشهاد وغير ذلك، وقيل: جمع ناصر، كصاحب وأصحاب. وقوله: ﴿إلى الله﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: من ينصرني في السبيل إلى الله؟ فتكون «إلى» دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها. والمعنى الثاني: أن يكون التقدير: من يضيف نصرته إلى نصرة الله لي؟ فيكون بمنزلة قوله: ﴿ولا تأْكُلُوا أموالَهُم إلَى أموالكم﴾[١] فإذا تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها تضمنت إضافة شيء إلى شيء. وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى ـ «مع»؛ و «نعَم»[٢] إن «مع» تسدُّ في هذه المعاني مسد «إلى» لكن ليس يباح من هذا أن يقال إن «إلى» بمعنى «مع» حتى غلط في ذلك بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى: ﴿وأَيْدِيكُمْ إلى المرافِقِ﴾[٣] فقال: «إلى» بمعنى «مع» وهذه عجمة، بل «إلى» في هذه الآية غاية مجردة، وينظر ـ هل يدخل ما بعد «إلى» فيما قبلها من طريق آخر؟

(١) من الآية (٢) من سورة النساء.

(٢) ونعم: بثبوت الواو في جميع النسخ، وهو وجه جائز، ولو حذفها لكان أحسن.

(٣) من الآية رقم (٦) في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ يأيُّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكُم إلى المرافق﴾.

وَ ﴿الحَوارِيُّون﴾ قوم مرَّ بهم عيسى عليه السلام فدعاهم إلى نصره واتباع ملته، فأجابوه وقاموا بذلك خير قيام، وصبروا في ذات الله. وروي أنه مرَّ بهم وهم يصطادون السمك. واختلف الناس - لم قيل لهم الحواريون؟ فقال سعيد بن جبير: سموا بذلك لبياض ثيابهم ونقائها؛ وقال أبو أرطأة[١]: سموا بذلك لأنهم كانوا قصارين[٢] يحورون الثياب، أي يُبَيّضونها، وقال قتادة: الحواريون: أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك نحوه، وهذا تقرير حال القوم وليس بتفسير اللفظة؛ وعلى هذا الحد شبه النبي ﷺ ابن عمته بهم في قوله: (وحواري الزبير)[٣] والأقوال الأولى هي تفسير اللفظ، إذ هي من الحور، وهو البياض، حورت الثوب: بيضته، ومنه الحواري. وقد تسمي العرب النساءَ الساكنات في الأمصار: الحواريات، لغلبة البياضِ عليهن، ومنه قول أبي جلدة اليشكري[٤]:

(١) أبو أرطأة: كذا ورد، وقد ورد في الصحابة من اسمه أبو أرطاة (انظر الكنى في الاستيعاب والإصابة). ولعله أبو أرطاة حجاج بن أرطاة الكوفي القاضي (التهذيب ٢: ١٩٦).

(٢) قصر الثوب: دقه، ومنه القصار، وحرفته هي القصارة.

(٣) أخرجه الشيخان، كما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير (تفسير ابن كثير، ومجمع الزوائد ١٥١/٩).

(٤) أبو جلدة اليشكري: من بني يشكر. كان مولعاً بالشراب، وقيل: إنه كان ممّن خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجاج بعد أن كان من أخص الناس به، وقيل: مات في طريق مكة. (الشعر والشعراء: ٦١٩ والأغاني ١١: ٢٩١ والآمدي: ٧٨).

يقول الشاعر: قل للنساء الحضريات الصافيات البياض يبكين غيرنا. فهو لا يريد أن يبكي عليه هذا النوع من النساءِ، لأنه غير منعم ولا مترف، ثم طلب ألا يبكي عليه إلا الكلاب التي كانت تخرج معهم للصيد، كناية عن أنه من أهل البدو.

ومثل (الحواري) في الوزن (الحوالي) للكثير الحيلة.

فقلْ للحَواريّات يبكينَ غيرنَا ولا تَبْكِنَا إلا الكَلابُ النوابح

وذكر مكي أن مريم دفعت عيسى عليه السلام في صغره في أعمال شتى، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وهم الذين يقصرون الثياب ثم يصبغونها فأراهم آياتٍ وصبغ لهم ألواناً شتّى من ماء واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الحواريُّون﴾ بتشديد الياء، وأحدهم «حواريّ» وليست بياء نسب وإنما هي كياء كرسيّ، وقرأ إبراهيم النَّخَعي وأبو بكر الثقفي: ﴿الحَوارِيُون﴾ مخففة الياء في جميع القرآن. قال أبو الفتح[١]: العرب تعاف ضمة الياء الخفيفة المكسور ما قبلها وتمتنع منها، ومتى جاءت في نحو قولهم: العاديُون والقاضيُون والساعيُون أعلت بأن تستثقل الضمة فتسكن الياء وتنقل حركتها ثم تحذف لسكونها وسكون الواو بعدها فيجيء العادون ونحوه، فكان يجب على هذا أن يقال: الحوارون، لكن وجه القراءة على ضعفها أن الياء خففت استثقالاً لتضعيفها وحملت الضمة دلالة على أن التشديد مراد، إذ التشديد محتمل للضمة، وهذا كما ذهب أبو الحسن في تخفيف يستهزيون إلى أن أخلص الهمزةَ ياءً البتة وحملها الضمة تذكراً لحالِ الهمزة المرادة فيها.

وقول الحواريين: ﴿واشْهَدْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: اشهد لنا عند الله، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى

(١) المحتسب ١: ١٦٢ (بتصرف).

كما تقول: أنا أُشهد الله على كذا، إذا عزمت وبالغت في الالتزام، ومنه قول النبي عليه السلام في حجة الوداع: (اللَّهُمَّ اشهد)[١]. قال الطبري: وفي هذه الآية توبيخ لنصارى نجران، أي: هذه مقالة الأسلاف المؤمنين بعيسى، لا ما تقولونه أنتم يا مَنْ يدَّعي له الألوهية.

وقوله: ﴿ربَّنا آمَنَّا بما أَنْزَلْتَ﴾ يريدون في الإنجيل وآيات عيسى. و ﴿الرَّسول﴾: عيسى عليه السلام.

وقولهم: ﴿فاكْتُبنا مَعَ الشَّاهدينَ﴾ عبارة عن الرغبة في أن يكونوا عنده في عداد من شهد بالحق من مؤمني الأمم، ولما كان البشر يقيد ما يحتاج إلى علمه وتحققه في ثاني حالٍ بالكتاب، عبروا عن فعل الله بهم ذلك. وقال ابن عباس: قولهم: ﴿مَعَ الشَّاهدينَ﴾ معناه: اجعلنا من أمة محمد ﷺ في أن نكون ممن يشهد على الناس.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى فقال: ﴿ومَكَرُوا﴾ يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم، ويروى أنهم تحيلوا له، واذكوا عليه العيون[٢] حتى دخل هو والحواريون بيتاً فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، فجازاهم الله تعالى بأن

(١) أخرجه البخاري عن أبي بكرة في باب خطبة أيام منى، والإمام مسلم عن جابر، كما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير؛ ومجمع الزوائد.

(٢) أذكوا العيون: بثوا الجواسيس والطلائع، وفي بعض النسخ: أذكوا له.

طرح شبه عيسى على أحدِ الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلةً وهواناً في الدنيا والآخرة. فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكراً في قوله: ﴿وَمَكَر اللَّهُ﴾،وذلك مهيعٌ أن تُسَمَّى العقوبةُ باسم الذنب وإن لم تكن في معناه؛ وعلى هذا فسر جمهور المفسرين الآية، وعلى أن عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فكان ذلك. وروى قوم أن بني إسرائيل دسَّتْ يهودياً جاسوساً على عيسى حتى صحبه ودلّهم عليه ودخل معه البيت، فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأُخذ وصلب. فهذا معنى قوله: ﴿ومَكَرُوا ومكَرَ اللَّهُ﴾، وهذه أيضاً تسميةُ عقوبةٍ باسم الذنب. والمكر في اللغة: السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل ان يُبْطِنَ الماكرُ ضدَّ ما يبدي.

وقوله: ﴿واللَّهُ خيرُ الماكرينَ﴾ معناه: في أنه فاعل حقٍّ في ذلك، والماكر من البشر فاعل باطلٍ في الأغلب، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه أشد بطشاً وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصى، لا إله إلا هو[١]. وذكرُ حَصرِ عيسى عليه السلام، وعدة

---

(١) سأل رجل الجنيد فقال: كيف رضي الله لنفسه المكر وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري ما تقول، ولكن أنشدني فلان الظهراني:

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال: قد أجبتك إن كنت تعقل.

أصحابه به وأمر الشبه وغير ذلك من أمره سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَكَر اللَّهُ﴾. قال غيره من النحاة: العامل فعلٌ مضمر تقديره: اذكر؛ وهذا هو الأصوب. وهذا القول هو بواسطة الملَك لأن عيسى ليس بمكلم. و﴿عيسى﴾ اسم أعجميّ معرَّب فلذلك لا ينصرف، وهوبالسريانية- إيسوع - عدلته العرب إلى عيسى.

واختلف المفسرون في هذا التوفي - فقال الربيع: هي وفاة نوم، رفعه الله في منامه، وقال الحسن وابن جريج ومطر الوارق[1] ومحمد

(١) هو مطر بن طهمان الوراق أبو رجاءٍ الخراساني السلمي، مولى علي، سكن البصرة وروى عن أنس وعِكرمة وعطاءٍ وحميد بن هلال وغيرهم، وعنه إبراهيم بن طهمان، وابنه هلال الراسبي، وعبد الله بن شوذب، ومعمر الدستوائي، وغيرهم، رُوي أن المنصور قتله (تهذيب التهذيب ١٠: ١٦٧).

بن جعفر بن الزبير وجماعة من العلماء: المعنى: إني قابضك من الأرض ومحصلك في السماء فهو توفي قبض وتحصيل، وقال ابن عباس: هي وفاة موت، معناه: إني مميتك، هذا لفظ ابن عباس ولم يفسر. فقال وهب بن منبه: توفاه الله بالموت ثلاث ساعات ورفعه فيها ثم أحياه الله بعد ذلك عنده في السماء، وفي بعض الكتب: سبع ساعات. وقال الفراء: هي وفاة موت ولكن المعنى: إني متوفيك في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال، ففي الكلام تقديم وتأخير، وقال مالك في جامع العتبية: مات عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[١]. ووقع في كتاب مكي عن قوم: إن معنى (مُتَوَفِّيكَ) متقبل عملك، وهذا ضعيف من جهة اللفظ.

وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة، ملة محمد، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة، . وقيل أربعين سنة، ثم يميته الله تعالى[٢].

---

(١) واخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، والحاكم ـ عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وأخرج ابن عساكر، عن وهب مثله. «فتح القدير للشوكاني» ١: ٣١٥.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والإمام أحمد، وأبو داود، وابن جرير ـ عن أبي هريرة. وبوّب ابن كثير لنزوله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وإنْ منْ أهل الكتاب إلا ليؤمننِ به قبْلَ موته﴾ الآية، والحديث ورد بطرق. وذَكر في فتح القدير للشوكاني: ١: ٤٩٧ أنَّه أفرد للأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام مؤلفاً مستقلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فقول ابن عباس رضي الله عنه: هي وفاة موت لا بد أن يتم، إما على قول وهب بن منبه، وإما على قول الفراء، وقوله تعالى: ﴿ورافِعُكَ إليَّ﴾ عبارة عن نقله إلى علو من سفل، وقوله: ﴿إليَّ﴾ إضافة تشريف لما كانت سماءه والجهة المكرمة المعظمة المرجوة، وإلا فمعلوم أن الله تعالى غير متحيز في جهة، وقوله تعالى: ﴿ومُطَهِّرُكَ﴾ حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهاً لذلك كله بالأدناس، فطهر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له.

وقوله تعالى: ﴿وجاعِلُ﴾ اسم فاعل للاستقبال، وحذف تنوينه تخفيفاً، وهو متعد إلى مفعولين، لأنه بمعنى مُصَيِّر، فأحدهما ﴿الَّذين﴾، والآخر في قوله: ﴿فوقَ الَّذين كفَروا﴾، وقال ابن زيد: الذين اتبعوه هم النصارى، والذين كفروا هم اليهود، والآية مخبرة عن إذلال اليهود وعقوبتهم بأن النصارى فوقهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة. فخصص ابن زيد المتبعين والكافرين وجعله حكماً دنيوياً لا فضيلة فيه للمتبعين الكفار منهم بل كونهم فوق اليهود عقوبة لليهود فقط، وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين، فيدخل في ذلك أمة محمد ﷺ لأنها متبعة لعيسى، نصَّ على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين. فمقتضى الآية إعلام عيسى عليه السلام أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين

كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة، ويظهر من عبارة ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون، جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرفهم وأبقى لهم في الصالحين ذكراً، فهم فوقهم بالحجةِ والبرهان، وما ظهر عليهم من أمارات رضوان الله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُم﴾ الخطاب لعيسى، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر، فلذلك جاء اللفظ عاماً من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثم إليّ - أي إلى حكمي وعدلي - يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطَبُ الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿فأَحْكُم﴾.. إلى آخر الآية، وعدٌ لعيسى والمؤمنين ووعيد للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿فأَمَّا الَّذين كَفَروا﴾.. الآية، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم، وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل. وإنما المعنى: فأما الكافرون فالصنعُ بهم أنهم يعذبون عذاباً شديداً في الدنيا بالأسر والقتل والجزية والذل، ومن لم ينله منهم فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالبٌ له بذلك، وقد أبرز الوجود هذا. وفي الآخرة معناه: بعذاب النار، ثم ذكر قسم الإيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال ودعاءً اليها.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فَيُوَفِّيهم﴾ بالياء على الغيبة، والفعل مسند إلى الله تعالى، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: ﴿فَنُوَفِّيهم﴾ بالنون، وهي نون العظمة. وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله. وتقدم نظير قوله: ﴿واللَّهَ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ﴾ في قوله قبلُ: ﴿فإِنْ تَوَلَّوا فإِنَّ الله لا يُحبُّ الكافرين﴾.

قوله عز وجل:

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء والإشارة به إلى ما تقدم من الأنباء. و﴿نَتْلُوه عَلَيْكَ﴾ خبر ابتداء، وقوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾ لبيان الجنس، ويجوز أن تكون للتبعيض، ويصح أن يكون: ﴿نتْلوهُ عليْكَ﴾ حالاً، ويكون الخبر في قوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾، وعلى قول الكوفيين يكون قوله: ﴿نتلوه﴾ صلةً لذلك، على حدّ قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري[1]:

. . . . وهذا تحملين طليق

---

(١) شاعر عاش في العصر الأموي، اسمه يزيد بن ربيعة بن مفرغ، (الشعر والشعراء: ٢٧٦، والأغاني ١٧: ٥١، والخزانة ٢: ٢١٠، ٥١٤، وأمالي الزجاجي: ٢٢٩) والبيت بتمامه:

عدس، ما لعبّادٍ عليك إمارةٌ نجـوْتِ، وهـذا تحملين طليق

يخاطب بغلته، وعدس: كلمة لزجر البغل.

ويكون الخبر في قوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾. وقول البصريين في البيت: إن «تحملين» حال، التقدير: وهذا محمولاً. و ﴿نتلوه﴾ معناه: نسرده، و ﴿مِنَ الآيات﴾ ظاهره آيات القرآن، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾ مِنَ المعجزات والمستغربات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قِبلنا، وبسبب تلاوتنا وأنت أميٌّ لا تقرأ. ولستَ ممن صحبَ أهل الكتاب. فالمعنى: إنها آيات لنبوتك. وهذا الاحتمال إنما يتمكَّنُ مع كون (نتلوه﴾ حالاً.

و ﴿الذِّكْر﴾ ما ينزل من عند الله و ﴿الْحَكِيم﴾ يجوز أن يتأول بمعنى المُحْكم، وهو فعيل بمعنى مفعول، ويحتمل أن يتأول بمعنى مصرِّح بالحكمة، فيكون بناءَ اسم فاعل. قال ابن عباس: ﴿الذِّكر﴾: القرآن، و ﴿الحكيم﴾: الذي قد كمل في حكمته.

وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم، قالوا: سبب نزول قوله تعالى: ﴿إنَّ مَثَلَ عيسى عندَ اللَّهِ﴾... الآية أَن وفد نصارى نجران جادلوا النبي ﷺ في أمر عيسى وقالوا: بلغنا أَنك تشتم صاحبنا وتقول: هو عبد، فقال النبي ﷺ: وما يضر ذلك عيسى، أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فقالوا: فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فحل أو سمعت به؟ وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية(١).

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والبغوي في التفسير عن ابن عباس وذكر الشوكاني (فتح القدير ١: ٣١٦) أن هذه القصة رويت على وجوه عن جماعة من التابعين.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ مَثَل﴾ عبَّر عنه بعض الناس بأن صفة عيسى، وقرنوا ذلك بقوله تعالى: ﴿مثلُ الجنَّة﴾(١) قالوا: معناه: صفة الجنة؛ وهذا عندي ضعف في فهم معنى الكلام، وإنما المعنى: إن المثل الذي تتصوره النفوس والعقول من عيسى هو كالمتصور من آدم، إذ الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه من تراب من غير فحل، وكذلك مثل الجنة عبارة عن المتصور منها، وفي هذه الآية صحة القياس، أي: إذا تُصُوِّرَ أمر آدم قيس عليه جوازُ أمر عيسى عليه السلام. والكاف في قوله: ﴿كَمَثَل﴾ اسم على ما ذكرناه من المعنى، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عبارة عن الحق في نفسه، أي: هكذا هو الأمر فيما غاب عنكم. وقوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ تفسير لمثل آدم الذي ينبغي أن يُتصور، والمثل والمثال بمعنى واحد، ولا يجوز أن يكون ﴿خَلَقَه﴾ صلةً لآدم ولا حالاً منه، قال الزجّاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها بل هو كلام مقطوع منه، مضمنه تفسير المثل.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قال﴾ ترتيب للأخبار لمحمد ﷺ، المعنى: خلقه من تراب ثم كان من أمره في الأزل أن قال له: كن وقت كذا، وعلى مذهب أبي علي الفارسي في أن القول مجازي مثل «وقال قطني»(٢) وأن هذه الآية عبارة عن التكوين، فـ﴿ثُمَّ﴾على بابها في

(١) من الآية (٣٥). من سورة الرعد.
(٢) إشارة إلى الرجز المتقدم في ص ١٢٤ من هذا الجزء:
امتلأ الحوض وقال قطْني مهلًا رويداً قد ملأت بطني

ترتيب الأمرين المذكورين، وقراءة الجمهور: ﴿فيكونُ﴾ بالرفع على معنى: فهو يكون، وقرأ ابن عامر: ﴿فيكونَ﴾ بالنصب، وهي قراءة ضعيفة الوجه، وقد تقدم توجيهها آنفاً في مخاطبة مريم.

وقوله تعالى: ﴿الحقُّ مِن ربِّكَ﴾ رفع على الابتداء وخبره فيما يتعلق به قوله: ﴿من ربك﴾، أو الحق ذلك، أو ما قلنا لك، ويجوز أن يكون خبر ابتداء، تقديره هذا الحق. و﴿المُمْتَرِينَ﴾ هم الشاكُّون، والمِرية: الشك. ونُهي النبي ﷺ في عبارة اقتضت ذم الممترين، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره، ولو قيل: فلا تكنْ ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل: فلا تمتر لكانت أقل، ونُهي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّك فيهِ﴾ معناه: جادلك ونازعك الحجة، والضمير في قوله تعالى: ﴿فيه﴾ يحتمل أن يعود على عيسى، ويحتمل أن يعود على الحق. و﴿العِلْم﴾ الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى.

وقوله تعالى: ﴿فقُلْ تَعالَوا﴾... الآية، استدعاء المباهلة، و﴿تَعالَوا﴾ تفاعلوا من العلو، وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعوّ ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه وللبهيمة ونحو ذلك. و﴿نَبْتَهِل﴾ معناه: نلتعن، ويقال: عليهم بهلة الله بمعنى

اللعنة[١]، والابتهال: الجدّ في الدعاء بالبهلة.

وروي في قصص هذه الآية: أنها نزلت بسبب محاجّة نصارى نجران في عيسى عليه السلام وقولهم: هو الله، وكانوا يكثرون الجدال، وقد روى عبد الله بن الحارث ابن جزء السوائي[٢] عن النبي عليه السلام أنه قال: (ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً فلا أراهم ولا يروني)[٣] لشدة ما كانوا يمارون؛ فلما قرأ النبي ﷺ الآية دعاهم إلى ذلك. فروى الشعبي وغيره أنهم وعدوه بالغد أن يلاعنوه، فانطلقوا إلى السيد والعاقب فتابعاهم على أن يلاعنوا، فانطلقوا إلى رجل آخر منهم عاقل فذكروا له ما صنعوا فذمَّهم وقال لهم: إن كان نبياً ثم دعا عليكم هلكتم، وإن كان ملكاً فظهر عليكم لم يُبق عليكم، قالوا: فكيف نصنع وقد واعدناه؟ قال: إذا غدوتم فدعاكم إلى ذلك فاستعيذوا بالله من ذلك، فعسى أن يعفيكم؛ فلما كان الغد غدا رسول الله ﷺ محتضناً حسيناً آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، فدعاهم إلى الميعاد، فقالوا: نعوذ بالله، فأعاد فأعادوا

---

(١) في حديث مروي عن أبي بكر: (من وَلِيَ من أمور الناس شيئاً فلم يُعطهم كتاب الله فعليه بَهْلَةُ الله). والمعنى: عليه لعنة الله.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن جزء بن عبد الله الزبيدي حليف أبي وداعة السهمي، له صحبة، سكن مصر، رَوَى عن النبي ﷺ أحاديث، وعنه المصريون ومن آخرهم يزيد بن أبي حبيب، وهو آخر من مات بمصر من الصحابة وذلك سنة: ٨٦ هـ بعد أن عمي. (الإصابة. ٢ : ٢٩١). والذي في تفسير الطبري: عبد الله بن الحارث الزبيدي ـ بدلا من: السوائي.

(٣) انظر تفسير الطبري ٣ : ٢١٣ .

التعوذ، فقال النبي ﷺ: فإن أبيتم فأسلموا، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم فإني أنبذ إليكم على سواء، قالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب، ولكنا نؤدي الجزية قال: فجعل عليهم كلَّ سنة ألفي حلةٍ: ألفاً في رجب وألفاً في صفر، وطلبوا منه رجلاً أميناً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح(١) وقال عليه السلام: (لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة)(٢). وروى محمد بن جعفر بن الزبير وغيره أن رسول الله ﷺ لما دعاهم قالوا: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نفعل، فذهبوا إلى العاقب وهو ذو رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: يا معشر النصارى، والله لقد عرفتم أن محمداً لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم عيسى، ولقد علمتم ما لاعن قومٌ قط نبياً فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم وما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم الزمان رأيه. فأتوا النبي عليه السلام فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك وأن نبقى على ديننا، وصالحوه على أموال وقالوا له: ابعثْ معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن حذيفة (فتح القدير ١: ٣١٦، وتفسير ابن كثير ١: ٣٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٣: ٢٩٩.

رضًى. وروى السدي وغيره أن النبي عليه السلام جاء هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين ودعاهم فأبوا وجزعوا، وقال لهم أحبارهم: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فصالحوا النبيّ ﷺ على ثمانين ألف درهم في العام، فما عجزت عنه الدراهم ففي العروض: الحلة بأربعين، وعلى أن عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً عارية كلَّ سنة، ورسول الله ﷺ ضامن لذلك حتى يؤديها إليهم. وقال رسول الله ﷺ: (لو لاعنوا لاستُؤصلــوا من جديد الأرض)[1]، وقال أيضاً: (لو فعلوا لاضطرم عليهم الوادي ناراً)[2]. وروى علباء بن أحمر اليشكري[3] قال: لما نزلت هذه الآية أرسل محمد ﷺ إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ودعا اليهودَ[4] لِيُلا عنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس بإخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ فلا تلاعنوا فانتهوا. وفي هذه القصة اختلافات للرواة وعبارات تجري كلها في معنى ما ذكرناه لكنا قصدنا الإيجاز.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة. (٣: ٣٠٠). وجديد الأرض: وجه الأرض.

(٢) أخرجه الحاكم، وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر، ورواه الحاكم أيضا من وجه آخر عن جابر. (فتح القدير للشوكاني. ١: ٣١٦).

(٣) هو علباءُ بن أحمر اليشكري البصري، أحد القراء، له اختيار، رَوَى عن عكرمة مولى ابن عباس، وعمرو بن أخطب، وروى عنه أبو علي الرحبي، وداود بن الفرات، والحسين بن واقد، وغيرهم. له في مسلم حديث واحد، ذكره ابن حبان في الثقات، (تهذيب التهذيب. ٧: ٢٧٣).

(٤) كذا قال هنا، مع أن الظاهر أنهم نصارى، فهذه رواية غريبة. لكن قتادة روى أن الدعوة إلى كلمة سواء كانت مع اليهود كما جاء في صفحة ١٥٤ من هذا الجزء.

وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بنبوة محمد شاهد عظيم على صحة نبوته ﷺ، وما روي من ذلك خير مما روى الشعبي من تقسيم ذلك الرجل العاقل فيهم أمر محمد بأنه إما نبي وإما ملك، لأن هذا نظر دنياوي(١)، وما روى الرواة من أنهم تركوا الملاعنة لعلمهم بنبوته أحجُّ لنا على سائر الكفرة وأليقُ بحالِ محمد ﷺ. ودعاء النساء والأبناء للملاعنة أهزّ للنفوس، وأدعى لرحمة الله، أو لغضبه على المبطلين. وظاهر الأمر أن النبيّ ﷺ جاءهم بما(٢) يخصه، ولو عزموا استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه وخاصته فقط.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى جَزْمٌ مؤكدٌ فَصَلَ به بين المختصمين، والإشارةُ بـ[هَذَا] هي إلى ما تقدَّم في أمر عيسى عليه السلام، قاله ابن عباس وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

و ﴿الْقَصَصُ﴾ معناه: الإخبار، تقول: قص يقصّ قصاً وقصصاً، إذا تتبع الأمر يخبر به شيئاً بعد شيء، قال قوم: هو مأخوذ

(١) زيادة الألف في النسب هنا جائزة. (٢) في بعض النسخ (من) وهو الصواب.

من: قصّ الأثر. وقوله: ﴿لَهُوَ﴾ يحتمل أن يكون فصلاً ويحتمل أن يكون ابتداء، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ مؤكِّدة بعد النفي، وهي التي يتم الكلام دونها لكنها تعطي معنى التأكيد، وقوله تعالى: ﴿فإن اللَّهَ عليمٌ بالمُفْسدينَ﴾ وعيد.

واختلف المفسرون ـ من المراد بقوله: ﴿قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تعَالَوا﴾؟ فقال قتادة: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ دعا يهودَ المدينة إلى الكلمة السواء، وهم الذين حاجّوا في إبراهيم، وقاله الربيع وابن جريج. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت الآية في وفد نجران، وقاله السدي. وقال ابن زيد: لما أبى أهلُ نجران ما دُعُوا إليه من الملاعنة، دعوا إلى أيسرَ من ذلك، وهي الكلمة السواء.

والذي يظهر لي أن الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ أهلِ الكتاب يعمهم وسواهم من النصارى واليهود، فدعا النبيُّ ﷺ بعد ذلك يهودَ المدينة بالآية، وكذلك كتب بها إلى هرقل عظيم الروم، وكذلك ينبغي أن يُدْعَى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إلى كَلِمةٍ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وروى أبو السمال: ﴿كَلْمة﴾ـ بفتح الكاف وسكون اللام ـ. وروي عنه أنه قرأ: ﴿كِلْمة﴾ـ بكسر الكاف وسكون اللام ـ وذلك على إلقاء حركة اللام على الكاف، كما قالوا في كَبِد: كِبْد بكسر الكاف وسكون الباء. والكلمة هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها، وهي ما فسره بعد ذلك بقوله: ﴿ألّا نعْبُدَ﴾. . . الآية، وهذا كما

تسمي العرب القصيدة كلمة، وجمهور المفسرين على أن الكلمة هي ما فسر بعد، وقال أبو العالية: الكلمة السواء: لا إله إلا الله، والقولان مجتمعان، لأن كل ما فسر ينطبق عليه معنى: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَواءٍ﴾ نعت للكلمة. قال قتادة والربيع وغيرهما: معناه: إلى كلمة عدل، فهذا معنى السواء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿إلى كلمةٍ عدلٍ بينَنَا وبيْنَكُم﴾ كما فسر قتادة والربيع، وقال بعض المفسرين: معناه: إلى كلمة قصد. وهذا قريب في المعنى من الأول، والسواء والعدل والقصد مصادر وُصِفَ بها في هذه التقديرات كلها.

والذي أقوله في لفظة ﴿سَواءٍ﴾ أنها ينبغي أن تفسَّر بتفسيرٍ خاصّ بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ جميعُ الناسِ فيها مستوون، صغيرهم وكبيرهم. وقد كانت سيرة المدعوين أن يتخذَ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواءِ حال، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس [من حق][١] لا يتفاضل الناس فيه، فسواء ـ على هذا التأويل ـ بمنزلة قولك لآخر: هذا شريكي في مال سواء بيني وبينه؛ والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب عنقه، لكنت قد دعوته إلى

(١) ما بين معقفين زيادة عن بعض النسخ.

السواء الذي هو العدل، وعلى هذا الحد جاءت لفظة ﴿سَواءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فانْبِذْ إليْهِمْ على سَواءٍ﴾[(١)] على بعض التأويلات، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو استواء الحال على ما فسرته. واللفظة على كل تأويل فيها معنى العدل[(٢)]، ولكني لم أر لمتقدمٍ أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال، وهو عندي حسن، لأن النفوس تألفه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع خفض بمعنى: إلى ألا نعبد، فذلك على البدل من ﴿كَلِمَة﴾، ويحتمل أن يكون في موضع رفع بمعنى: هي ألا نعبد، وما ذكره المهدوي وغيره من أن تكون مفسرة إلى غير ذلك من الجائزات التي يلزم عنها رفع ﴿نَعْبُدُ﴾ إكثارٌ منهم فاختصرته. واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب، أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية، وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى بن مريم، وبهذا فسر عكرمة، وأدنى ذلك طاعتهم

---

(١) من الآية: (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) هذا ما سبق أن نقله ابن عطية عن قتادة، والربيع ـ وقد وافقهما الزجاج على أنها من استوى الشيءُ، وقد قال زهير:

أروني خُطةً لا ضيْمَ فيها ... يُسَوِّي بيننا فيها السَّواءُ

ومعنى الآية إذاً: إلى كلمةٍ عادلةٍ بيننا وبينكم، قال أبو عبيدة: تقول العرب: قد دعاك فلان إلى سواءٍ فاقبل منه.

لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسر ابن جريج. فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله، وأن يكون الممتثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه ﷺ(١).

وقوله تعالى: ﴿فقُولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمونَ﴾ أمر بالإعلان بمخالفتهم ومواجهتهم بذلك، وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد، أي:سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ـ فقال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند النبي عليه السلام فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية. وقال السدي وقتادة،

---

(١) في قوله تعالى: [ولا يَتَّخذَ بَعْضُنا بعضاً..] إشارة لطيفة، وهي أن البعضية تنافي الإلهية، إذ هي تماثل في البشرية، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً لك، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: [إنْ أنتم إلَّا بشرٌ مثلنا]، [أنُؤْمن لبشرٍ مثلنا] [إنْ هو إلَّا بشَرٌ مثلُكم] فادعاء الإلهيَّة فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشد استبعاداً. والله أعلم.

وحكى الطبري عن مجاهد وقتادة أيضاً أنهما قالا: نزلت الآية بسبب دعوى اليهود أنه منهم وأنه مات يهودياً، وجعل هذا القول تحت ترجمة مفردة له.

والصحيح أن جميع المتأولين إنما نحوا منحى واحداً، وأن الآية في اليهود والنصارى؛ وألفاظ الآية تعطي ذلك، فكيف يدافع أحدٌ أحدَ الفريقين عن ذلك؟ وهذه الآية مبينة فساد هذه الدعاوى التي لا تشبه[1] لقيام الدليل القاطع على فسادها، لأنهم ادعوا لإبراهيم الخليل نحلاً لم تحدث في الأرض، ولا وجدت إلا بعد موته بمدة طويلة، ولما كان الدليل عقلياً قال الله تعالى لهم موبخاً: ﴿أفلا تَعْقِلونَ﴾؟.

واختلف القراء في قوله: ﴿هَآأَنتُم﴾ في المد والهمز وتركه، فقرأ ابن كثير: ﴿هأنتم﴾ في وزن هعنتم[2]، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿هانتم﴾؟ استفهاماً بلا همز، وقرأ الباقون: ﴿ها أنتم﴾ ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مدّ ﴿هؤلاء﴾ و﴿أولاء﴾. فوجه قراءة ابن كثير أنه أبدل من همزة الاستفهام الهاء، أراد: أأنتم، ووجه قراءة نافع وأبي عمرو أحد أمرين، يجوز أن تكون ـ ها ـ التي للتنبيه دخلت على ـ أنتم ـ ويكون التنبيه داخلاً على الجملة، كما دخل على قولهم: هلم، وكما

(١) شبه عليه الأمر: أبهمه.
(٢) في بعض النسخ: وزن فعلتم.

دخلت «يا» التي للتنبيه في قوله: ﴿ألاّ يا سجدوا﴾[١]، وفي قول الشاعر:

يا قاتل الله صبياناً تجيءُ بهم ... أم الهُنَيِّدِ من زندٍ لها واري[٢]

وقول الآخر:

يا لعنة الله والأقوامِ كلِّهم ... والصالحين على سمعانَ من جارِ

وخففت الهمزة من ﴿أَنتُم﴾ ولم تحقق بعد الألف، كما قالوا في هباءة: هباة، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿هَانتم﴾ بدلاً من همزة الاستفهام، كوجه قراءة ابن كثير، وتكون الألف هي التي تدخل بين الهمزتين، لتفصل بينهما. ووجه قراءة الباقين (ها أنتم) مهموزاً ممدوداً يحتمل الوجهين اللذين في قراءة نافع وأبي عمرو، وحققوا الهمزة التي بعد الألف، ولم يخففوها كما خففها أبو عمرو ونافع، ومن لم ير إلحاق الألف للفصل بين الهمزتين كما يراه أبو عمرو فينبغي أن تكون ﴿ها﴾ في قوله للتنبيه ولا تكون بدلاً من همزة الاستفهام، وأما ﴿هؤُلاء﴾ ففيه لغتان، المد والقصر، وقد جمعهما بيت الأعشى في بعض الروايات[٤]:

---

(١) من الآية: (٢٥) من سورة النمل.

(٢) البيت للقتال الكلابي، عبد الله بن المضرحي أحد شعراء القتال في العصر الأموي، (الشعر والشعراء: ٥٩١ والأغاني ٢٠: ١٥٨ والخزانة ٣: ٦٦٧؛ وانظر ديوانه (بيروت ١٩٦١) ص: ٥٧ وروايته: أم الهنيبر (واللسان والتاج: هنبر، زند) والزند: كنى به هنا عن الرحم.

(٣) ورد في الخزانة ٤: ٤٧٩ (دون نسبة).

(٤) انظر ديوان الأعشى: ١١.

هؤلاء ثم هؤلاء قد أعْطيـ ـتُ نعالاً محذوّةً بنعـالِ

وأما إعراب: ﴿هَأَنتُم هؤُلاءِ﴾ فابتداء وخبر، و ﴿حاجَجْتُم﴾ في موضع حال لا يستغنى عنها، وهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُم هؤُلاءِ تَقْتُلونَ﴾(١). ويحتمل أن يكون ﴿هَؤلاءِ﴾ بدلاً أو صفة ويكون الخبر ﴿حاجَجْتُم﴾، وعلى مذهب الكوفيين ﴿حاجَجْتُم﴾ صلة لهؤلاء، والخبر في قوله: ﴿فلِمَ تُحاجُّونَ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فيما لكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي على زعمكم، وإنما المعنى فيما تُشَبَّه فيه دعواكم، ويكون الدليل العقلي لا يرد عليكم، وفسر الطبري هذا الموضع بأنه فيما لهم به علم من جهة كتبهم وأنبائهم مما أيقنوه وثبت عندهم صحته؛ وذهب عنه رحمه الله أن ما كان هكذا فلا يحتاج معهم فيه إلى محاجّة، لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ، كما كان هنالك على حقيقته، وباقي الآية بين.

قوله عز وجل:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفى عنه اليهوديةَ والنصرانيةَ والإشراكَ الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك

---

(١) من الآية (٨٥) من سورة البقرة.

الإشراكُ الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية. وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة: نَفَى نفسَ المِلل وقرَّرَ الحالة الحسنة، ثم نَفَى نفياً بيَّنَ به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالاً بل حفظته، وما كنت سارقاً، فنفيتَ أقبح ما يكون في الأخذ.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية؛ وهنا يدخل كلُّ من اتبع الحنيفية في الفترات وهذا النبيُّ محمد ﷺ، لأنه بعث بالحنيفية السمحة، و ﴿النَّبيّ﴾ في الإعراب نعتٌ، أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلاً نظر. ﴿والَّذين آمنوا﴾ يعني بمحمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرّفين المبدلين. ثم أخبر أن الله تعالى ﴿وليُّ الْمُؤْمنينَ﴾ وعداً منه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة.

والحنيف[١] مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه: المستقيم، ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق. واختلفت عبارة المفسرين عن لفظة الحنيف حتى قال بعضهم: الحنيف: الحاج، وكلّها عبارة عن الحنف بأجزاء منه كالحج وغيره. وأسند الطبريّ عن عبد الله بن عمر عن أبيه، أن زيد بن عمرو بن

(١) تعرضت هذه اللفظة لدراسات كثيرة في العصر الحديث قام بها عرب ومستشرقون.

نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعهُ، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينه، وقال له: إني أريد أن أكون على دينكم، فقال اليهودي: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال:وما الحنيف؟ قال:دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكان لا يعبد إلا الله. فخرج من عنده فلقيَ عالماً من النصارى فقاوله بمثل مقاولة اليهودي، إلا أن النصراني قال: بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم فلم يزل رافعاً يديه إلى الله، وقال: اللهم إني أشهدكَ أني على دين إبراهيم، وروى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (لكل نبيء ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم، ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهيمَ﴾... الآية[1]).

قوله عز وجل:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود. (فتح القدير للشوكاني. ١: ٣١٩).

أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تودُّ وتشتهي أن تُضِلَّ المسلمين، أي تتلفهم في دينهم وتجعلهم في ضلال، ثم فسر الطائفة بقوله: ﴿مِنْ أهلِ الكِتابِ﴾ فيحتمل «مِنْ» أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساءَ والأحبار الذين يسكنُ الناس إلى قولهم، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب.

وقال الطبري: ﴿يضلونكم﴾ معناه: يهلكونكم، واستشهد ببيت جرير[1]:

كنتَ القذى في موج أخضرَ مُزْبدٍ
قذفَ الأتيُّ به فضلَّ ضلالا

وقول النابغة[2]:

فآب مُضِلُّوه بعينٍ جلية... البيت

وهذا تفسير غير خاص باللفظة، وإنما اطرد له لأن هذا الضلال في الآية وفي البيتين اقترن به هلاك، وأما أن تفسر لفظة الضلال بالهلاك فغير قويم[3].

---

(١) البيت للأخطل يهجو به جريراً. والقذى: ما يعلو الماءَ من الزبد والغثاءِ. والأتيُّ: السيل يأتي من بلد بعيد. وقد وردت رواية أخرى للبيت وهي:
كنْتَ القذى في موجِ أكْدَرَ مُزْبدٍ... (البيت).

(٢) البيت للنابغة الذبياني يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني، وتمامه:
.... وغودِرَ بالجولانِ حزمٌ ونائِلُ.
والأصح «مصلوه» بالصاد المهملة.

(٣) ذكر أبو حيان في البحر المحيط أن غير ابن عطية قال: «أصل الضلال في اللغة: الهلاك. =

قوله تعالى: ﴿وَما يُضِلُّون إلاَّ أنفُسَهم﴾ إعلام بأن سوء فعلهم عائد عليهم، وأنهم ببعدهم عن الإسلام هم الضالون، ثم أعلم أنهم لا يشعرون لذلك، أي لا يتفطنون، مأخوذ من الشعار المأخوذ من الشعر، وقيل: المعنى: لا يشعرون أنهم لا يصلون إلى إضلالكم.

ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه ﷺ، والمعنى: قل لهم يا محمد: لأيّ سببٍ تكفرون بآيات الله التي هي آيات القرآن؛ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم؟ قال هذا المعنى قتادة وابن جريج والسدي. وتحتمل الآية أن يريد بالآيات ما ظهر على يدي محمد عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجمادات وغير ذلك؛ و﴿تَشْهَدُون﴾ ـ على هذا ـ تكون بمعنى تحضرون وتعاينون. والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد ﷺ يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسداً، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها. قال مكي: وقيل: إن هذه الآيات عُني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسونَ الْحَقَّ﴾ معناه: تخلطون، تقول:

= من قولهم: ضل اللبن في الماءِ إذا صار مستهلكا فيه ـ وقيل: معناه: يوقعونكم في الضلال، ويلقون إليكم ما يشككونكم به في دينكم. قاله أبو علي».

لَبَست الأمر ـ بفتح الباء ـ بمعنى خلطته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنا عَلَيْهم مَا يَلْبِسون﴾[١] وتقول: لبِستُ الثوب ـ بكسر الباء. قال ابن زيد: الحق الذي لبسوه هو التوراة المنزلة، والباطل الذي لبسوه به هو ما كتبوه بأيديهم ونسبوهُ إلى التوراة. وقال ابن عباس: الحق إسلامهم بكرة، والباطل كفرهم عشية؛ والآية نزلت في قول عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف[٢]: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وجه النهار، ونكفر آخره، عسى أن نلبس على المسلمين أمرهم. وقال قتادة وابن جريج: ﴿لِمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطِلِ﴾ لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام؟ فكأنَّ المعنى على هذا: لم تبقون على هذه الأديان وتوجدونها فيكون في ذلك لبس على الناس أجمعين؟ قال بعض المفسرين: الحق الذي لبسوه قولهم: محمد نبي مرسل، والباطل الذي لبسوه به قول أحبارهم: لكن ليس إلينا، بل ملةُ موسى مؤبّدة.

وقوله تعالى: ﴿وتَكْتُمون الحقَّ وأَنْتُم تعْلَمونَ﴾ يريد شأن محمد ﷺ، كذلك قال الربيع وابن جريج وقتادة وغيرهم. وفي قوله: ﴿وأَنْتُم تعْلَمون﴾ توقيف على العناد ظاهر؛ قال أبو إسحق

(١) من الآية (٩) من سورة الأنعام.

(٢) عبد الله بن الصيف وعدي من أحبار بني قينقاع؛ وفي سيرة ابن هشام: ابن صيف، ويقال: ابن ضيف، وفي بعض نسخ تفسير ابن عطية: الضيف، وعند القرطبي: مالك بن الصيف؛ أما الحارث فكان من أحبار بني قريظة.

الزجاج: ولو قيل: «وتكتموا الحق» لجاز على قولك: لم تجمعوا ذا وَذا؟ على أنَّ ﴿تكتُموا﴾ في موضع نصب على الظرف[1] في قول الكوفيين، وبإضمار «أن» في قول أصحابنا. قال أبو علي: الظرف ها هنا يقبح، وكذلك إضمار «أن» لأنّ ﴿تكتمون﴾ معطوف على موجب مقرّر، وليس بمستفهم عنه، وإنما استفهم عن السبب في اللبس، واللبس موجب فليست الآية بمنزلة قولهم: أتأكل السمك وتشرب اللبن؟ وبمنزلة قولك: أتقوم فأقوم؟ والعطف على الموجب المقرر قبيح متى نصب، إلا في ضرورة شعر كما روي:

. . . . وأَلحقَ بالحجازِ فأَستريحا[2]

وقد قال سيبويه في قولك: أَسرتَ حتى تدخلَ المدينة؟ لا يجوز إلا النصب في «تدخل» لأن السير مستفهم عنه غير موجب، وإذا قلت: أيهم سار حتى يدخُلُها؟ رفعت، لأنَّ السير موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره.

قوله عز وجل:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

أخبر تعالى في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعةِ المسلمين بهذا المنزع، قال الحسن: قالت ذلك يهود خيبر

(١) في بعض النسخ «على الصرف» ـ وهو أن تعطِفَ الواو ما لا يستقيم أن يُعاد فيه الحادث الذي فيما قبله ـ ولعلها أقرب إلى الصواب.

(٢) البيت للمغيرة بن حبناء الحنظلي، وصدره: سأترك منزلي لبني تميم (الخزانة ٣: ٦٠٠).

ليهود المدينة ، قال قتادة وأبو مالك[١] والسدي وغيرهم : قال بعض الأحبار: لِنُظهِرِ الإيمانَ لمحمد صدرَ النهار ثم لنكفرْ به آخرَ النهار، فسيقول المسلمون عند ذلك : ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم انصرفوا عنا؟ ما ذلك إلا لأنهم انكشفت لهم حقيقةٌ في الأمر فيشكُّون، ولعلهم يرجعون عن الإيمان بمحمد ﷺ . ولما كانت الأحبار يُظَنُّ بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم ، طمعوا أن تنخدعَ العربُ بهذه النزعة ففعلوا ذلك : جاءوا إلى النبي ﷺ بكرة فقالوا : يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا ، ولكن أمهلنا إلى العشيِّ حتى ننظر في أمرنا، ثم رجعوا بالعشي فقالوا: قد نظرنا ولستَ به .

﴿وجْهَ﴾على هذا التأويل منصوبٌ بقوله : ﴿آمنوا﴾والمعنى : أظهروا الإيمان في وجه النهار، والضمير في قوله : ﴿آخِرَهُ﴾ عائد على النهار .

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : نزلت الآية لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين ، فصلوا مع النبي ﷺ صلاة الصبح ، ثم رجعوا آخر النهار فصلوا صلاتهم ليرى الناسُ أنهم بدتْ لهم منه ضلالة بعد أن كانوا اتبعوه. وهذا القول قريب من القول الأول .

---

(١) هو أبو مالك الغفاري غزوان الكوفي ـ روَى عن عمار بن ياسر، وابن عباس، والبراءِ بن عازب، وغيرهم ـ وروَى عنه سلمةُ بن كُهيل، وإسماعيل السدي . وغيرهما.

قال ابن أبي خيثمة: سألت ابن معين عن أبي مالك الذي رَوى عنه حصين فقال: هو الغفاري، كوفي ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات ـ «تهذيب التهذيب ٨: ٢٤٥».

وقال جماعة من المفسرين: نزلت هذه الآية في أمر القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح إلى الشام كما كان يصلي، ثم حُوِّلَتِ القبلة فصلَّى الظهر ـ وقيل العصر ـ إلى مكة، فقالت الأحبار لتبّاعهم وللعرب: آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة.

والعامل في قوله: ﴿وجْهَ النَّهارِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ قوله: ﴿أُنْزِلَ﴾، والضمير في قوله: ﴿آخِرَه﴾ يحتمل أن يعود على النهار أو يعود على ﴿الَّذي أُنْزِلَ﴾. و ﴿يَرْجعونَ﴾ -في هذا التأويل- معناه: عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام، كذلك قال قائل هذا التأويل. و ﴿وَجْه النهار﴾ أوله الذي يواجه منه، تشبيهاً بوجه الإنسان، وكذلك تقول: صدر النهار وغرة العام والشهر، ومنه قول النبي عليه السلام: (أقَتَلْتَه في غُرة الإسلام)[١]؟ ومن هذا قول الربيع بن زياد العبسي[٢].

مَنْ كان مسروراً بمقْتَل مالكٍ فليأتِ نِسْوتنا بوجهِ نهارِ
يجدِ النساءَ حواسِراً يندبنه قد قُمْنَ قبل تبلُّجِ الأسحار

(١) روى البخاري الحديث برواية أُخرى في كتاب «الديات» عن أُسامة أنه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، إلى أن قال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلاّ الله؟)... الحديث.

(٢) الربيع بن زياد بن عبد الله العبسي، مشهور في الجاهلية، كان ينادم النعمان بن المنذر، ويقال: أحد الكملة، ولم أر من ذكر أنه أدرك الإسلام إلا الرشاطي. (الإصابة ٥٢٩).

يقول هذا في مالك بن زهير بن جذيمة العبسي[١] وكانوا قد أخذوا بثأره، وكان القتيل عندهم لا يُناحُ عليه ولا يندب إلا بعد أخذ ثأره. فالمعنى: مَنْ سرَّه مصابنا فيه فلينظرْ إلى ما يدله على أنّا قد أدركنا ثأره، فيكمد لذلك ويغتم، ومن استعارة الوجه قولهم: فعلتُ كذا على وجه الدهر، أي في القديم.

وذكر الله تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب أنهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنوا إلَّا لِمَنْ تَبِعَ دينَكُم﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أن هذا القول هو من كلام الطائفة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿أن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم أو يُحَاجُّوكُمْ﴾ ـ فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأتباعهم، وقوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ الهُدى هُدى اللَّهِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني أحدها: ولا تصدقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أو حذاراً أن يؤتى أحدٌ من النبوة والكرامة مثلَ ما أوتيتم، وحذاراً أن يحاجوكم بتصديقهم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه. وهذا القول على هذا المعنى

---

(١) وردت قصة مالك بن زهير في حرب «داحس والغبراء»، وذلك أن قيس بن زهير قتل ابناً لحذيفة فقتل حذيفة مالكاً أخا قيس بعد ما استفرد به. وحرب «داحس والغبراء» مشهورة بين حروب العرب في الجاهلية.

ثمرةُ الحسدِ والكفر، مع المعرفة بصحّةِ نبوة محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون التقدير، « أَلَّا يُؤْتى» فحذفت «لا» لدلالة الكلام، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تصدقوا وتؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإن ذلك لا يؤتاه غيركم، ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عندَ ربِّكم﴾ بمعنى: إلا أن يحاجوكم، كما تقول: أنا لا أتركك أو تقتضيني حقي. وهذا القول على هذا المعنى ثمرة التكذيب بمحمد ﷺ على اعتقادٍ منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل.

ويحتمل الكلام أَنْ يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد وتقروا بنبوته إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم، و ﴿أَن يُؤْتى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم﴾ صفة لحالِ محمد، فالمعنى: تستروا بإقراركم أَنْ قد أوتي أحد مثل ما أوتيتم، أَو فإنهم ـ يعنون العرب ـ يحاجوكم بالإقرار عند ربكم.

قال أبو علي: و ﴿تُؤْمنوا﴾ تعدى بالباء المقدرة في قوله: ﴿أنْ يُؤْتى﴾ كما تعدى أول الآية في قوله: ﴿بالّذي أُنْزل﴾.واللام في قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ﴾لا يسهل أن تعلق بـ﴿تُؤْمِنوا﴾ وأنت قد أوصلته بالباء فتعلّق بالفعل جارَّين، كما لا يستقيم أن تعدّيه إلى مفعولين إذا كان لا يتعدى إلا إلى واحد. وإنما يحمل أمر هذه اللام على المعنى، والمعنى: لا تقروا بأن الله يؤتي أحداً مثل ما أوتيتم إلا لمن، فهذا كما

تقول: أقررتُ لزيد بألف، فتكون اللام متعلقة بالمعنى ولا تكون زائدة على حدّ ﴿إنْ كُنْتُم للرُّؤْيا تَعْبُرون﴾[١] ولا تتعلق على حد المفعول. قال أبو علي: وقد تعدى ﴿آمَن﴾ باللام في قوله: ﴿فما آمَن لِموسى إلاّ ذرِّية﴾[٢]وقوله: ﴿آمَنْتُم له﴾[٣]وقوله: ﴿ يؤْمِنُ باللَّهِ ويؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنينَ﴾[٤]. و ﴿أَحَدٌ﴾ إنما دخل في هذا الكلام بسبب النفي الواقع في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنوا﴾ كما دخلت «مِن» في قوله: ﴿ما يَوَدّ الَّذين كفرُوا مِن أَهْلِ الكتابِ ولا المُشْرِكينَ أَنْ يُنَزَّل عليْكُم مِنْ خيرٍ منْ رَبِّكُم﴾[٥] فكما دخلت «من» في صلة ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾ لأنه مفعول النفي اللاحق لأول الكلام، فكذلك دخل ﴿أَحَدٌ﴾ في صلة ﴿أنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ لدخول النفي في أول الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لأن أحداً الذي فيه الشياع لا يجيء في واجب من الكلام، لأنه لا يفيد معنى.

وقرأ ابن كثير وحده بين السبعة: ﴿آنْ يُؤْتى﴾ بالمد على جهة الاستفهام الذي هو تقرير. وفسّر أبو علي قراءة ابن كثير على أن

(١) من الآية (٤٣) من سورة يوسف.
(٢) من الآية (٨٣) من سورة يونس.
(٣) من الآية (٧١) من سورة طه.
(٤) من الآية (٦١) من سورة التوبة.
(٥) من الآية (١٠٥) من سورة البقرة.

الكلام كله من قول الطائفة، إلا الاعتراض الذي هو: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدى اللَّهِ﴾ فإنه لا يختلف أنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل: ﴿أنْ يُؤْتى﴾ على ما قبله من الفعل، لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون ﴿أنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: تصدقون به أو تعترفون أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا مما يدل عليه الكلام، ويكون ﴿يُحَاجُّوكُم﴾ -على هذا- معطوفاً على ﴿أَنْ يُؤْتى﴾. قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أن» منصوباً، فيكون المعنى: أتشيعون أو أتذكرون ﴿أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مثلَ ما أُوتيتم﴾ ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم: ﴿أَتحَدِّثونَهُم بما فَتَح اللَّهُ عليْكُم﴾(١)، فعلى كلا الوجهين معنى الآية توبيخ من الأحبار للأتباع على تصديقهم بأن محمداً نبي مبعوث، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحاجُّوكم﴾ في تأويل نصب ﴿أنْ﴾ أي: أو تريدون أن يحاجوكم؟ قال أبو علي: و﴿أَحَدٌ﴾ على قراءة ابن كثير هو الذي يدل على الكثرة(٢)، وقد منع الاستفهام القاطع من أن يشفع لدخوله النفي الذي في أول الكلام، فلم يبق إلا أن يقدّر أنه «أحد» الذي في قولك: «أحد وعشرون»، وهو يقع في الإيجاب لأنه بمعنى واحد، وجمع ضميره في قوله: ﴿أَوْ يحاجُّوكُم﴾ جمعاً على المعنى، إذ لـ﴿أحد﴾ المراد بمثل النبوة أتباع، فهو في معنى الكثرة. قال أبو علي:

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة البقرة.
(٢) راجع البحر المحيط ج ٤٩٦/٢ فالكلام هنا يعطي معنى غير المقصود.

وهذا موضع ينبغي أن ترجح فيه قراءةُ غيرِ ابن كثير على قراءة ابن كثير، لأن الأسماء المفردة ليس بالمستمرِ أن تدل على الكثرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إلا أن «أحداً» في مثل النبوة يدل عليها من حيث يقتضي الأتباع.

وقرأ الأعمش وشعيب بن أبي حمزة: ﴿إنْ يُؤْتى﴾ بكسر الهمزة بمعنى: لم يعطَ أحد مثلَ ما أعطيتم من الكرامة، وهذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام خطاباً من الطائفة القائلة، ويكون قولها: ﴿أوْ يحاجُّوكم﴾ بمعنى: أو فليحاجوكم. وهذا على التصميم على أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتي، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلا أن يحاجوكم، وهذا على تجويز أن يؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجةُ له، فهذا ترتيب التفسير والقراءات على قول من قال: الكلام كله من قول الطائفة.

وقال السدي وغيره: الكلام كله من قوله: ﴿قلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ . . . إلى آخر الآية، هو مما أُمِرَ به محمد عليه السلام أن يقوله لأمته. وحكى الزجاجُ وغيره أن المعنى: قل إن الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وحكي عن بعض النحويين أن المعنى: « ألَّا يؤتى أحد»، وحذفت «لا» لأن في الكلام دليلاً عليها، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم أنْ تضِلّوا﴾[1] أي ألَّا

(١) من الآية (١٧٦) من سورة النساء.

تضلوا. وحكي عن أبي العباس المبرد: لا تحذف «لا» وإنما المعنى: كراهة أن تضلوا، وكذلك هنا:كراهة أن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أي ممن خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهدى الله بعيد من غير المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتبعد من هذا القول قراءة ابن كثيربالاستفهام والمد، وتُحْمَلُ عليه قراءة الأعمش وابن أبي حمزة: ﴿إنْ يُؤْتَى﴾ بكسر الألف، كأنه عليه السلام يخبر أمته أن الله لا يعطي أحداً ولا أعطى فيما سلف مثل ما أعطى أمة محمد عليه السلام من كونها وسطاً، ويكون قوله تعالى: ﴿أو يُحَاجُّوكم﴾-على هذه المعاني التي ترتبت في قول السدي - يحتمل معنيين، أحدهما: أو فليحاجوكم عند ربكم، يعني اليهود، فالمعنى:لم يعط أحد مثل حظكم وإلا فليحاجوكم من ادعى سوى ذلك. والمعنى الثاني: أن يكون قوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ بمعنى التقرير والإزراء باليهود، كأنه قال: أو هل لهم أَن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفضَّلكم به؟

وقوله: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ على جميع ما تقدم خبر ﴿إنّ﴾؛ وقال قتادة والربيع: الكلام من قوله: ﴿قلْ إنَّ الهُدى هُدَى اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله للطائفة التي قالت: ﴿ولا تُؤْمِنوا إلاَّ لِمَنْ تَبِع دِينَكُم﴾،وتتفق مع هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتقدير الخبر المحذوف ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدُ مِثْلَ ما

أوتِيتُمْ﴾: «حسدتم وكفرتم»، ويكون قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾محمولاً على المعنى، كأنه قال: أتحسدون أو تكفرون لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم على ما أوتوه فإنه يغلبونكم بالحجة. وأما على قراءة غير ابن كثير بغير المد فيحتمل [ذلك][١] أن يكون بمعنى التقرير بغير حرف استفهام، وذلك هو الظاهر من لفظ[٢] قتادة فإنه قال: يقول: لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموهم على ذلك. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ بدلاً من قوله: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ ويكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن. ويكون قوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ بمعنى: أو فليحاجوكم، فإنه يغلبونكم. ويحتمل قوله: ﴿أن يؤتي﴾خبر﴿إنّ﴾ويكون قوله: ﴿هُدَى الله﴾بدلاً من ﴿الهدى﴾، وهذا في المعنى قريب من الذي قبله. وقال ابن جريج: قوله تعالى: ﴿أن يُؤْتى﴾ هو من قوله محمد ﷺ لليهود، وتمَّ الكلامُ في قوله: ﴿أوُتيتم﴾؛ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ متصلٌ بقول الطائفة: ﴿وَلَا تُؤْمنوا إلَّا لِمن تَبِعَ دينَكم﴾، وهذا القول يفسر معانيه ما تقدم في قول غيره من التقسيم والله المستعان.

وقرأ ابن مسعود: ﴿أَنْ يُحَاجُّوكُم﴾ بدل ﴿أَوْ﴾ وهذه القراءة تلتئم

(١) ما بين معقفين زيادة من بعض النسخ
(٢) في بعض النسخ: من قول.

مع بعض المعاني التي تقدمت ولا تلتئم مع بعضها.

وقوله: ﴿عِنْدَ ربِّكُم﴾ يجيء في بعض المعاني على معنى «عند ربكم في الآخرة»، ويجيء في بعضها على معنى «عند كتب ربكم والعلم الذي جعل في العباد»، فأضاف ذلك إلى الربّ تشريفاً، وكأن المعنى: أو يحاجوكم عند الحق.

وقرأ الحسن: ﴿إنْ يُؤْتِي أَحَدٌ﴾، بكسر الهمزة والتاء، على إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدٌ﴾ والمعنى: إن إنعام الله لا يشبهه إنعام أحد من خلقه. وأظهرُ ما في هذه القراءة أن يكون خطاباً من محمد عليه السلام لأمته، والمفعول محذوف تقديره: إن يؤتي أحد أحداً.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾

في قوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ الفضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿العظيم﴾ تكذيب لليهود في قولهم: «نبوة موسى مؤبدة، ولن يؤتي الله أحداً مثل ما آتى بني إسرائيل من النبوة والشرف»، وسائر ما في الآية من لفظة ﴿واسِعٌ﴾ وغير ذلك قد تقدم نظيره.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب أنهم قسمان في الأمانة، ومقصد الآية ذمُّ الخونة منهم، والتفنيدُ لرأيهم وكذبهم على الله في

استحلالهم أموال العرب. وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿تِيمَنْهُ﴾ بتاء وياء في الحرفين وكذلك: ﴿تِيمَنّا﴾(١) في يوسف، قال أبو عمرو الداني: وهي لغة تميم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما أراه إلا لغة قرشية، وهي كسرُ نون الجماعة كَنِسْتعين، وألف المتكلم كقول ابن عمر: لا إخاله، وتاءِ المخاطب كهذه الآية، ولا يكسرون الياء في الغائب وبها قرأ أبي كعب في: ﴿تِيمَنّا﴾ وابن مسعود والأشهب العقيلي وابن وثاب. وقد تقدم القول في القنطار في صدر السورة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُؤَدِّهِ إليكَ﴾ بكسر الهاء التي هي ضمير القنطار، وكذلك في الأخرى التي هي ضمير الدينار، واتفق أبو عمرو وحمزة وعاصم والأعمش على إسكان الهاء، وكذلك كل ما أشبهه في القرآن، نحو: ﴿نُصْلِهْ جَهنَّمَ﴾(٢) و﴿نؤْتِهْ﴾ و﴿نُوَلِّهْ﴾ إلا حرفاً حكى عن أبي عمرو أنه كسره، وهو قوله تعالى: ﴿فألقِهِ إليهم﴾(٣). قال أبو إسحق: وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلطٌ بينٌ لأن الهاءَ لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزمْ فلا يجوزُ أن تسكن في الوصل. وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فَغُلِطَ عليه، كما غلط عليه في ﴿بارئكم﴾ وقد حكى عنه سيبويه ـ وهو ضابط لمثل هذا ـ أنه يكسرُ كسراً خفيفاً.

---

(١) في سورة يوسف الآية (١١) [قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف].
(٢) في سورة النساء: الآية (١١٦) [نوله ما تولى ونصله جهنم].
(٣) من الآية (٢٨) من سورة النمل [اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم].

والقنطار في هذه الآية: مثالٌ للمال الكثير يدخلُ فيه أكثر من القنطار وأقلّ، وأما الدينار فيحتمل أن يكون كذلك، مثالاً لما قلَّ، ويحتمل أن يريد طبقةً لا تخون إلا في دينار فما زاد، ولم يعن لذكر الخائنين في أقل إذ هم طغام حثالة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿دُمتَ﴾ بضم الدال، وقرأ ابن وثاب والأعمش وأبو عبد الرحمن السلمى وابن أبي ليلى والفياض بن غزوان(١) وغيرهم: ﴿دِمْتَ﴾ ﴿وَدِمتم﴾ بكسر الدال في جميع القرآن، قال أبو إسحق: هو من قولهم: دِمْتَ تَدام مثل نِمْتَ تنامُ، وهي لغة. ودام معناه: ثبت على حال ما، والتدويم على الشيء الاستدارة حول الشيء، ومنه قول ذي الرمة(٢):

.... والشمس حيرى لها في الجوّ تَدْويمُ

---

(١) هو فياض بن غزوان الضبي الكوفي مقرئ موثق، أخذ القراءة عرضاً عن طلحة بن مصرف وسمع من زبيد اليامي، قال الداني: ويروى عنه حروف شواذ من اختياره تضاف إليه، روى الحروف عنه طلحة بن سليمان السمان، وقرأ عليه القرآن بحروف طلحة بن مصرف، وروى عنه عبد الله بن المبارك، وعمر بن شعبان، ونعيم بن ميسرة، وثّقه أحمد بن حنبل. «طبقات القراءِ لابن الجزري. ٢: ١٣».

(٢) صدر البيت:

مُغْـرَوْرِياً رمض الـرَّضْراضِ يَـرْكُضُه ....

واغرَوْرى: سار في الأرض وحْدَه، والفرسَ ركبه عُرياناً. والرمض: شدة الحر. والرضراض: الحصى الصغار، والتَّدويم: الدوران. يصف بذلك جنديا يركض ويضرب برجله الحصى والبيت من قصيدة أولها:

أعن تـرسمت من خـرقـاء منـزلـة ماء الصبـابـة من عينيـك مسجـومُ

ومثل البيت الذي رواه ابن عطية قول علقمة في وصف الخمر:

تشْفي الصُّداعَ ولا يؤذيك صـالبها ولا يُخـالـطُهـا في الـرأس تـدْوِيمُ

والدوام: الدوار يأخذ في رأس الإنسان فيرى الأشياء تدور له، وتدويم الطائر في السماء، وهو ثبوتة إذا صف واستدار، والماء الدائم وغيره هو الذي كأنه يستدير حول مركزه.

وقوله: ﴿قائماً﴾ يحتمل معنيين، قال الزجاج وقتادة ومجاهد: معناه: قائماً على اقتضاءِ دينك؛ يريدون بأنواع الاقتضاء من الحفز والمرافعة إلى الحاكم، فعلى هذا التأويل لا تراعى هيئة هذا الدائم، بل اللفظة من قيام المرء على أشغاله، أي اجتهاده فيها. وقال السدي وغيره: ﴿قائماً﴾ في هذه الآية معناه: قائماً على رأسه، على الهيئة المعروفة، وتلك نهاية الحفز، لأن معنى ذلك أنه في صدر شغل آخر يريد أن يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء وانتزعوا من الآيات جواز السجن، لأن الذي يقوم عليه غريمه فهو يمنعه من تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن.

وهذه الآية وما بعدها نزلت فيما روي بسبب أن جماعةً من العرب كانت لهم ديون في ذمم قوم من أهل الكتاب، فلما أسلم أولئك العرب قالت لهم اليهود: نحن لا نؤدّي إليكم شيئاً حين فارقتم دينكم الذي كنتم عليه، فنزلت الآية في ذلك. وروي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلالَ أموالِ العرب لكونهم أهلَ أوثان، فلما جاء الإسلامُ وأسلم من أسلم من العرب بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك. وقال رسول الله ﷺ:

(ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤادة إلى البَرِّ والفاجر)(١).

قوله عز وجل:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

الإشارة بِـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كونهم لا يؤدون الأمانةَ في دينارٍ فما فوقه، على أحد التأويلين، والضمير في: ﴿قالُوا﴾ يعني به لفيفَ بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنا حلالٌ متى قدرنا على شيءٍ منها لا حجة علينا في ذلك ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك. والأميون: القوم الذين لا يكتبون لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد مر في سورة البقرة اشتقاق اللفظ.

واستعارة السبيل هنا في الحجّة هو على نحو قول حميد بن ثور(٢):

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (عن سعيد بن جبير) انظر (فتح القدير ١: ٣٢٢).

(٢) كنى بالسرحة- وهي الشجرة- عن امرأة، وعلل نفسه: شغلها (انظر ديوان حميد والإصابة ١: ٣١٦). وقد قال حميد هذه القصيدة بعد أن نهى عمر بن الخطاب الشعراء عن التشبيب بالنساء.

وهل أَنا إن علَّلتُ نفسي بسرحةٍ　　من السرح موجودٌ عليَّ طريقُ؟

وقوله تعالى: ﴿فأُولئِكَ ما علَيْهِم مِن سَبيل﴾[١] هو من هذا المعنى، وهو كثير في القرآن وكلام العرب. وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نمر في الغزو بأموال أهل الذمة فنأخذ منها الشاة والدجاجة ونحوها قال: وتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بأس، فقال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليْسَ عَلَيْنا في الأُمِّينَ سبيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحلَّ لكم أموالُهم إلا بطيب أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيقُولُونَ علَى اللَّهِ الكذبَ وهُمْ يعلَمون﴾ ذمٌّ لبني إسرائيل بأنهم يكذبون على الله تعالى في غير ما شيء، وهم علماء بمواضع الصدق لو قصدوها، ومن أخطر ذلك أمر محمد ﷺ، هـذا قول جماعة من المتأولين. وروي عن السدّي وابن جريج وغيرهما أنَّ طائفةً من أهل الكتاب ادّعت أنَّ في التوراة إحلالَ الله لهم أموال الأُمّيين كذباً منها وهي عالمة بكذبها في ذلك، وقالا: والإشارة بهذه الآية إلى ذلك الكذب المخصوص في هذا الفصل.

ثم ردَّ الله تعالى في صدر قولهم: ﴿ليْسَ علَيْنا﴾ بقوله: ﴿بلَى﴾ أي: عليهم سبيل وحجة وتباعة، ثم أخبر على جهة الشرط أَن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله. وتقول

---

(١) من الآية (٤١) من سورة الشورى.

العرب:وفي بالعهد، وأوفى به بمعنى، وأوفى هي لغة الحجاز، وفسر الطبري وغيره على أن الضمير في قوله: ﴿بِعَهْدِهِ﴾ عائد على الله تعالى. وقال بعض المفسرين: هوعائد على ﴿مَنْ﴾. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كلِّ إنسان، وقال ابن عباس: ﴿اتَّقى﴾ في هذه الآية، معناه: اتقى الشرك، ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الّذينَ يشْتَرون بعَهْدِ اللَّهِ﴾ . . . الآية، وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة، وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق، وختر المواثيق. وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته.

واختلف المفسرون في سبب نزولها ـ فقال عكرمة: نزلت في أحبار اليهود، أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، تركوا عهد الله في التوراة للمكاسب والرياسة التي كانوا بسبيلها. وروي أنها نزلت بسبب خصومة الأشعث بن قيس(١) مع رجل من اليهود في أرض، فوجبت اليمين على اليهودي فقال

---

(١) هو الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندي، يكنى أبا محمد، أمه كبشة بنت يزيد، قدم على رسول الله ﷺ سنة عشر في وفد كندة وكان رئيسهم مطاعاً، وفي الإسلام وجيهاً،إلا أنه كان ممن ارتد عن الإسلام بعد النبي عليه الصلاة والسلام، ثم راجع الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق، شهد القادسية، والمدائن، وجلولاء، ونهاوند، واختط بالكوفة دارا في كندة ونزلها، وشهد تحكيم الحكمين، وكان أحد شهود الكتاب، توفي سنة ٤٢ وقيل: ٤٠ هـ بالكوفة وصلى عليه الحسن بن علي. «الإصابة». و«الاستيعاب».

الأشعث: إذن يحلف يا رسول الله ويذهب بمالي، فنزلت الآية[١]. وروى أن الأشعث بن قيس اختصم في أرض مع رجل من قرابته فوجبت اليمين على الأشعث، وكان في الحقيقة مبطلاً قد غصب تلك الأرضَ في جاهليته فنزلت الآية، فنكل الأشعث عن اليمين، وتحرج وأعطى الأرض وزاد من عنده أرضاً أخرى[٢].

وروي أن الآية نزلت بسبب خصومة لغير الأشعث بن قيس؛ وقال الشعبي: نزلت الآية في رجل أقام سلعةً في السوق من أول النهار، فلما كان في آخره جاءه رجل فساومه فحلف حانثاً لقد منعها في أول النهار من كذا وكذا ولولا المساء ما باعها، فنزلت الآية بسببه[٣]، وقال سعيد بن المسيب: اليمين الفاجرة من الكبائر، ثم تلا هذه الآية؛ وقال ابن مسعود: كنا نرى ونحن مع نبينا أنَّ من الذنب الذي لا يغفر يمينَ الصبر، إذا فجر فيها صاحبها، وقد جعل الله الأيمانَ في هذه الألفاظ مشتراة فهي مثمونة أيضاً. والخلاق: الحظ والنصيب والقدر، وهو مستعمل في المتسحبات.

وقال الطبري:﴿ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾معناه: بما يسرهم، وقال غيره:

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ: (من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مالَ امرىء مسلم) الحديث.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن جريج. ٣: ٣٢٢.
(٣) أخرجه البخاري، وابن أبي حاتم عن عبدالله بن أبي أوفى. «تفسير ابن كثير: ١: ٣٧٦».

نفى تعالى أن يكلمهم جملة لأنه يكلم عباده المؤمنين المتقين. وقال قوم من العلماء: وهي عبارة عن الغضب؛ المعنى: لا يحفل بهم ولا يرضى عنهم. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِم﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: يطهرهم من الذنوب وأدرانها، والآخر: ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في الآخرة، و﴿أَلِيمٌ﴾ فعيل بمعنى مُفعل، فالمعنى، مؤلم.

قوله عز وجل:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾

الضمير في ﴿منهم﴾ عائد على أهل الكتاب؛ والفريق: الجماعة من الناس، هي مأخوذة من فرق إذا فصل وأبان شيئاً عن شيء. و ﴿يَلْوُونَ﴾ معناه: يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها، ومثال ذلك قولهم: ﴿سَمِعْنَا وعصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَع﴾[1] ونحو ذلك،وليس التبديل المحض بِلَيٍّ، وحقيقة اللّيّ في الثياب والحبال ونحوها: فتلها وإراغتها[2]،ومنه ليُّ العنق، ثم استعمل ذلك في الحجج والخصومات والمجادلات تشبيهاً بتلك الإراغةِ التي في الأجرام، فمنه قولهم: خصم ألْوى، ومنه قول الشاعر:

(١) من الآية (٤٦) من سورة النساء. (٢) الإراغة: المخادعة، وهي مصدر: أراغ.

فلوكان في ليلى شذًى من خصومة   لَلَوَّيْتُ أعناق الخصوم الملاويا[١]

وقال الآخر:

الفيتني أَلْوَى بَعِيدَ المُسْتَمَرْ[٢]

وقرأ جمهور الناس: ﴿يلْوُونَ﴾ مضارع لوَى، على وزن فعَل بتخفيف العين، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح: ﴿يُلَوّون﴾ بتشديد الواو وفتح اللام من لوَّى، على وزن فَعَّل بتشديد العين، وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية. وقرأ حميد: ﴿يَلُون﴾ بضم اللام وسكون الواو، وهي في الأصل: ﴿يلوُن﴾ مثل قراءة الجماعة، فهمزت الواو المضمومة لأنها عرفها في بعض اللغات، فجاء ـ يلؤون ـ فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام فجاء ﴿يلون﴾. والكتاب في هذا الموضع: التوراة، وضمير الفاعل في قوله: ﴿لِتَحْسَبوه﴾ هو للمسلمين.

وقوله: ﴿وما هُوَ مِن عِنْدِ الله﴾ نفى أن يكون منزّلاً كما ادّعوا، وهو

(١) البيت لمجنون ليلى (ديوانه: ٣١٣، واللسان: شذا، لوى) والشذا: الأذى والملاويا: الثنايا الملتوية.

(٢) في المثل: «لتجدن فلاناً ألوى بعيد المستمر» (فصل المقال: ١٣١ والميداني ٢: ٩٤)، : وقيل: إن المثل للنعمان قاله في خالد بن معاوية السعدي، واستخدمه أرطاة بن سهية في رجز له:

إذا تخازرت وما بي من خزر   ثم كسرت العين من غير عور

ألفيتني ألوى بعيد المستمر

وروي في اللسان (خزر) لعمرو بن العاص؛ وانظر أيضاً المعاني الكبير: ٢٣٩؛ وهو مثل في شدة الخصومة واللجاجة.

من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد، ومنهم بالتكسب، ولم تعن الآية إلا لمعنى التنزيل فبطل تعلق القدرية بظاهر قوله: ﴿وما هُوَ مِن عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقد تقدم نظير قوله تعالى: ﴿ويقُولونَ علَى اللَّهِ الكذبَ وهُمْ يعلَمونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِبَشَرٍ﴾ معناه: لأحد من الناس؛ والبشَر: اسم جنس يقع للكثير والواحد، ولا مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافةَ أن يصلّي بين يدي رسول الله ﷺ[١]، وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه، كقوله تعالى: ﴿وما كانَ لِنَفْس أن تموتَ إلَّا بإذْنِ اللَّهِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ما كان لكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها﴾[٣] فهذا منتفٍ عقلاً، وأما آيتنا هذه فإن النفي فيها على الكمال لأنا نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوءة للكذَبَة والمدّعين. و: ﴿الكتابَ﴾ في هذه الآية اسم جنس، ﴿والحُكْمَ﴾ بمعنى: الحكمة، ومنه قول النبي عليه السلام: (إنَّ من الشعر لحكماً)[٤]، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يقولَ﴾ معطية تعظيم الذنب في القول، بعد مهلة من هذا الإنعام.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي، (نيل الأوطار ٣: ١٥٧).
(٢) من الآية (١٤٥) من سورة آل عمران.
(٣) من الآية (٦٠) من سورة النمل.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود (عن ابن عباس) كما أخرجه أبو داود (عن بريدة) وهو ضعيف (الجامع الصغير ١: ٣٣١).

وقوله: ﴿عباداً﴾ هو جمع عبد، ومن جموعه عبيد وعِبِدَّى(١). وقال بعض اللغويين: هذه الجموع بمعنى، وقال قوم: العباد لله، والعبيد والعبِدَّى للبشر، وقال قوم: العبِدَّى، إنما تقال في العبيد بني العبيد، وكأنه بناء مبالغة تقتضي الإغراق في العبودية. والذي استقريت في لفظة العباد: أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن؛ وانظر قوله تعالى: ﴿واللَّهُ رءوفٌ بالعبادِ﴾ ﴿وعِبادٌ مكْرمونَ﴾ ﴿يا عِبادي الَّذينَ أسْرَفُوا على أنْفُسهم لا تَقْنَطوا مِن رحْمةِ اللَّهِ﴾(٢) وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله: ﴿إن تُعذِّبْهُم فإنَّهم عبادُك﴾(٣) فنوه بهم. وقال بعض اللغويين: إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد فلم ينته بهم إلى اسم العبيد. وقال قوم: بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتنصَّروا وسمّوا أنفسهم العباد كأنه انتساب إلى عبادة الله. وأما العبيد فيستعمل في تحقير، ومنه قول امرئ القيس:

قولا لدودانَ عبيد العصى ما غركم بالأسد الباسل؟(٤)

---

(١) للفظة (عبد) جموع عدة، (راجع لسان العرب).
(٢) هي على الترتيب من السور والآيات الآية: البقرة: ٢٠٧، الأنبياء: ٢٦، الزمر: ٥٣.
(٣) من الآية (١١٨) من سورة المائدة.
(٤) البيت من قصيدة طويلة لامرئ القيس ودودان: بطن من بطون بني أسد. وعبيد العصا: الذين يساقون بها ذِلَّةً وهواناً، وهو أول من لقبهم بهذا اللقب فلزمهم، والمراد بالأسد الباسل: الشاعر نفسه.

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي»[(١)]؟ ومنه قول الله تعالى: ﴿وما ربُّكَ بِظَلَّامٍ للْعبيد﴾[(٢)] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلام لهم في ذلك. ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعةَ لم تقع هنا، ولذلك أُنس بها في قوله تعالى: ﴿قلْ يا عباديَ الَّذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسهم﴾[(٣)]. فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة.

ومعنى قوله: ﴿كونوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً.

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لِبَشَرٍ﴾ ـ فقال النقاش وغيره: الإشارة إلى عيسى عليه السلام، والآية رادّةٌ على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادعوا أَن عبادته هي شرعه ومستندة إلى أوامره. وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد عليه السلام. وسبب نزول الآية: أن أبا رافع القرظي قال للنبي ﷺ حين اجتمعت الأحبار من يهود والوفد من نصارى نجران: يا محمد إنما تريد أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع والمغازي واللباس، كما أخرجه مسلم في الأشربة، وأبو داود في الخراج، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي بن الحسين. «القسطلاني ٤: ٣٠».

(٢) من الآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٣) من الآية (٥٣) من سورة الزُّمَر.

نعبدك ونتخذك إلهاً كما عَبدت النصارى عيسى، فقال الرئيس من نصارى نجران: أوَ ذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال النبي ﷺ: (معاذ الله، ما بذلك أُمرت، ولا إليه دعوت)[١] فنزلت الآية في ذلك. قال بعض العلماء: أرادت الأحبارُ أن تلزم هذا القول محمداً ﷺ، لما تلا عليهم: ﴿قل إنْ كُنْتُم تحبُّونَ اللَّهَ فاتَّبعوني﴾وإنما معنى الآية: فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من طاعة الله، فحرفوها بتأويلهم، وهذا من نوعِ ليِّهم الكتاب بألسنتهم.

وقرأ جمهور القراء: ﴿ثم يقولَ﴾ بالنصب، وروى شبل[٢] عن ابن كثير، ومحبوب[٣] عن أبي عمرو: ﴿ثم يقولُ﴾ برفع اللام، وهذا على القطع وإضمار مبتدأ، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عباداً ليَ﴾ بتحريك الياء مفتوحة.

---

(١) أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، (فتح القدير ١: ٣٢٤).

(٢) شبل بن عباد المَكي القارئ، ثقة، ضابط، هو أجل أصحاب ابن كثير، مولده في سنة ٧٠ وتوفي قبل سنة ١٤٨. روى عن أبي الطفيل، وابن كثير، وعباس بن سهل، وزيد بن أسلم، وغيرهم،وعنه روى ابنه داود، وسعد بن إبراهيم، وابن المبارك، وابن عيينة وغيرهم. «طبقات القراءِ لابن الجزري». و«تهذيب التهذيب».

(٣) هو محمد بن الحسن بن هلال بن محبوب، أبو بكر محبوب «وهو لقبه» البصري، مولى قريش، مشهور كبير، روى القراءة عن شبل بن عباد، ومسلم بن خالد، وأبي عمرو بن العلاءِ، وعنه روى محمد بن يحيى القطعي، وخلف بن هشام، وروح بن عبد المؤمن، وحدث عنه أحمد ابن حنبل، ومحمد بن سنان وأخرج له البخاري. «طبقات القراءِ لابن الجزري. ٢: ١٢٣».

قوله عز وجل:

﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

المعنى: ولكن يقول: ﴿كُونُوا ربَّانِيِّينَ﴾، وهو جمع ربَّانيّ.

واختلف النحاة في هذه النسبة، فقال قوم: هو منسوب إلى الرب من حيث هو عالم علمه، العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به؛ وزيدت الألف والنون مبالغةً كما قالوا: لحياني وشعراني في النسبة إلى اللحية والشعر. وقال قوم: الرباني منسوب إلى الربان وهو معلم الناس وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من ربَّ يربُّ إذا أصلح وربَّى، وزيدت فيه هذه النون كما زيدت في غضبان وعطشان، ثم نسب إليه رباني.

واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له: ربَّاني، فقال أبو رزين[1] الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني: الفقيه،

(١) هو مسعود بن مالك أبو رزين الأسدي مولى أبي وائل الكوفي، روى عن معاذ بن جبل، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم، وروى عنه ابنه عبدالله، وعاصم بن أبي النجود، والأعمش، وغيرهم، شهد صِفين مع علي، كان عالما، فهما، ثقة، وقع ذكره في البخاري في الحيض من صحيحه، أرخ بن قانع وفاته بسنة: ٨٥هـ وقال خليفة: مات بعد الجماجم. «تهذيب التهذيب. ١٠ ص: ١١٨». و«طبقات القراء لابن الجزري».

وقال قتادة وغيره: الرباني: العالم الجليل، وقال ابن عباس: هو الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد: الربّاني: والي الأمر، يربّ الناس أي يصلحهم. فالربانيون: الولاة والأحبار والعلماء؛ وقال مجاهد: الرباني: فوق الحبر لأن الحبر هو العالم، والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وفي البخاري: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس.

وقوله: ﴿بما كُنْتُم﴾ معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، فـ﴿ما﴾ مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن العائد الذي كان يلزم لم يكن بد أن يتضمنه ﴿كُنْتُم تُعَلّمون﴾،ولا يصح شيء من ذلك لأن كان قداستوفت خبرهاظاهراً وهو:﴿تُعَلّمون﴾،وكذلك﴿تُعَلّمون﴾قد استوفى مفعوله وهو ﴿الكتابَ﴾ ظاهراً، فلم يبق إلا أن ﴿ما﴾ مصدرية، إذ لا يمكن عائد، و: ﴿تُعَلِّمون﴾ بمعنى تعرِّفون، فهي متعدية إلى مفعول واحد.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تَعْلمون﴾ بسكون العين وتخفيف اللام، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿تُعَلِّمون﴾ مثقلاً، بضم التاء وكسر اللام، وهذا على تعدية الفعل بالتضعيف، والمفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، تقديره: تعلمون الناس الكتابَ. والقراءتان متقاربتا المعنى، وقد رجحت قراءة التخفيف

بتخفيفهم ﴿تدرسُون﴾، وبأن العلم هو العلة التي توجب للموفق من الناس أن يكون ربانياً، وليس التعليم شرطاً في ذلك، ورجحت الأخرى بأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم، فتجيء قراءة التثقيل أبلغ في المدح. ومن حيث العالم بحال من يعلم، فالتعليم كأنه في ضمن العلم. وقراءة التخفيف عندي أرجح.

وقرأ مجاهد والحسن: ﴿تَعَلَّمون﴾ بفتح التاء والعين وشدّ اللام المفتوحة. وقرأ جمهور الناس: ﴿تدرُسون﴾ بضم الراء، من دَرَسَ إذا أدمن قراءةَ الكتاب وكرره، وقرأ أبو حيوة: ﴿تدرِسون﴾ بكسر الراء، وهذا على أنه يقال في مضارع درس، يدرُس ويدرِس، وروي عن أبي حيوة أنه قرأ: ﴿تُدَرِّسون﴾، بضم التاء وكسر الراء وشدها، بمعنى: تدرِّسون غيركم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: ﴿ولا يأمرُكم﴾ برفع الراء، وكان أبو عمرو يختلس حركة الراء تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة: ﴿ولا يأمرَكم﴾ نصباً، ولا خلاف في الراء من قوله: ﴿أيأمرُكم﴾ إلا اختلاس أبي عمرو، فمن رفع قوله: ﴿ولا يأمُرُكم﴾، فهو على القطع. قال سيبويه: المعنى: ولا يأمركم الله؛ وقال ابن جريج وغيره: المعنى: ولا يأمركم هذا البشر الذي أوتي هذه النعم، وهو محمد ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ولَنْ يأْمُركم﴾ فهذه قراءة تدلُّ على القطع. وأما قراءة من نصب الراء فهي عطف على قوله: ﴿أنْ يُؤْتِيَه﴾ والمعنى: ولا له أن يأمركم،

قاله أبو علي وغيره. وقال الطبري: قوله: ﴿ولا يأمرَكم﴾ ـ بالنصب ـ معطوف على قوله: ﴿ثمَّ يقولَ﴾؛ وهذا خطأ لا يلتئم به المعنى[1]، والأرباب في هذه الآية بمعنى الآلهة.

وقوله تعالى: ﴿أيأمُرُكُمْ بالكُفْرِ﴾ تقرير على هذا المعنى الظاهرِ فسادُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ﴾... الآية، المعنى: واذكر يا محمد إذ، ويحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه، ثم جمع اللفظ في حكاية الحال في هذه الآية، والمعنى: إن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به الإيمانَ بمن أتى بعده من الرسل الظاهرة براهينهم والنصرة له.

واختلف المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية ـ فقال مجاهد والربيع: إنما أخذ ميثاق أهل الكتاب لا ميثاق النبيين، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿وإذْ أَخَذَ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب﴾ قال مجاهد: هكذا هو القرآن، وإثبات ﴿النبيين﴾ خطأ

(١) وجه الخطأ أنه إذا كان معطوفا على [ثُمَّ يقولَ] وكانت [لا] لتأسيس النفي فلا يمكن إلاَّ أن يقدر العامل قبل [لا] وهو (أن)، فينسبك من أن والفعل المنفي مصدر مُنتف فيصير المعنى: ما كان لبشر موصوف بما وصف به انتفاء أمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وإذا لم يكن له الانتفاء كان له الثبوت فصار آمراً باتخاذهم أرباباً وهو خطأ، فإذا جعلت [لا] لتأكيد النفي السابق كان النفي منسحباً على المصدرين المقدر ثبوتها فينتفي قوله: [كونوا عباداً لي]، وأمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً. راجع البحر المحيط ٥٠٧/٢

من الكُتَّاب. وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم، فهو أخذٌ لميثاق الجميع. وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً ـ آدم فمن بعده ـ إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية، وقاله السدي؛ وروي عن طاوس أنه قال: صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين، وقوله: ﴿ثُمَّ جاءَكُم﴾ مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم ـ حكاه الطبري، وهو قول يفسده إعراب الآية.[1] وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم.

وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة: ﴿لِما﴾ بكسر اللام، وهي لام الجر، والتقدير: لأجل ما آتيناكم، إذ أنتم القادة والرؤوس، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه. و ﴿ما﴾ في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة، والعائد إليها من الصلة تقديره: آتيناكموه، و ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس. وقوله: ﴿ثم جاءكم﴾... الآية، جملة معطوفة على الصلة، ولا بد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول، فتقديره عند سيبويه: رسول به مصدق لما معكم، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام، كما

(١) لأن الضمير في كلٍّ من ﴿آتَيْتُكُم وجاءكم﴾ يرجع إلى النبيين، أو الأتباع، وهذا القول يخصص الضمير في (جاءكم) لأهل الكتاب فقط.

قال تعالى: ﴿أَهَذا الَّذي بَعَثَ اللَّهُ رسولاً﴾(١)؛ والحذف من الصلات كثير جميل، وأما أبو الحسن الأَخفش فإن قوله تعالى: ﴿لِما مَعَكم﴾ هو العائد عنده على الموصول، إذ هو في المعنى بمنزلة الضمير الذي قدَّر سيبويه، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إنَّه مَنْ يتَّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضيع أجْرَ المُحْسنين﴾(٢) لأن المعنى: لا يضيع أجرهم، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ إنَّا لا نُضيع أجْرَ مَن أحْسَنَ عملاً﴾(٣) وكذلك ما ضارع هذه الآيات. وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمر، كما يراه أبو الحسن. واللام في: ﴿لَتؤمِنُنَّ﴾ هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق، وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجار والمجرور، وذلك جائز.

وقرأ سائر السبعة ﴿لَما﴾ بفتح اللام، وذلك يتخرج على وجهين، أحدهما: أن تكون ﴿ما﴾ موصولة في موضع رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء، وهي متلقية لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ﴾، وخبر الابتداء قوله: ﴿لَتؤْمِنُنَّ﴾ و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ متعلق بقسم محذوف، والمعنى: والله لتؤمنن؛ هكذا قال أبو علي الفارسي، وفيه من جهة المعنى نظر إذا تأملتَ على أيّ شيءٍ وقع

(١) من الآية (٤١) من سورة الفرقان.
(٢) من الآية (٩٠) من سورة يوسف.
(٣) من الآية (٣٠) من سورة الكهف.

التحليف، لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً، فتأمل. والعائد الذي في الصلة، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حدّ ما ذكرناهما في قراءة حمزة، أما أن هذا التأويل يقتضي عائداً ثالثاً من الخبر الذي هو ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ فهو قوله تعالى: ﴿به﴾، فالهاء من ﴿به﴾ عائدة على ﴿ما﴾، ولا يجوز أن تعود على ﴿رَسُول﴾ فيبقى الموصول حينئذ غير عائد عليه من خبره ذكر. والوجه الثاني الذي تتخرج عليه قراءة القراء ﴿لَمَا﴾ بفتح اللام، هو أن تكون ﴿ما﴾ للجزاء شرطاً، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم،و ﴿جاءَكُم﴾ معطوف في موضع جزم، واللام الداخلة على ﴿ما﴾ ليست المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى: ﴿لئِنْ لَم ينْتَهِ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهِم مَرَضٌ﴾[1] لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ،وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ به﴾، وهذه اللام الداخلة على ﴿إن﴾ لا يعتمد القسم عليها، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة، كما قال تعالى: ﴿وإن لَمْ ينتهوا عمّا يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا مِنْهُم عذابٌ أليم﴾[2]. قال الزجاج: لأن قولك، والله لئن جئتني لأكرمنك، إنما حلف على فعلك[3]، لا أنّ الشرط معلق به، فلذلك دخلت اللام على الشرط،

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية (٧٣) من سورة المائدة.

(٣) لعلّ صحة الجملة: «إنما هو حلِفٌ على فعلك».

و ﴿ما﴾ في هذا الوجه من كونها جزاء لا تحتاج إلى عائد لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى عائد ذكر. والضمير في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ به﴾ عائد على ﴿رسول﴾، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام، وأما الضمير في قوله: ﴿ولَتَنْصُرَنَّه﴾ فلا يحتمل بوجه إلا العودَ على ﴿رسول﴾، قال أبو علي في الاغفال: وجزاء الشرط محذوف[1] بدلالة قوله: ﴿لتؤْمِنُنَّ﴾ عليه. قال سيبويه: سألته - يعني الخليل - عن قوله تعالى: ﴿وإذْ أخَذَ اللَّهُ ميثاق النَّبِيِّينَ لما آتيتُكم﴾ فقال: ﴿ما﴾ هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على ﴿إن﴾ حين قلت: لئن فعلت لأفعلن، ثم استمر يفسر وجه الجزاء؛ قال أبو علي: أراد الخليل بقوله: هي بمنزلة الذي أنها اسم كما أن الذي اسم ولم يرد أنها موصولة كالذي، وإنما فرَّ من أن تكون ﴿ما﴾ حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى: ﴿وإنْ كُلًّا لَمَّا لَيُوفينّهم ربُّك أَعْمالَهم﴾[2] وفي قوله: ﴿وإنْ كلُّ ذلكَ لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا﴾[3]، والله المستعان.

وحكى المهدوي ومكي عن سيبويه والخليل: إن خبر الابتداء فيمن جعل ﴿ما﴾ ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله: ﴿مِنْ كتابٍ وحِكْمة﴾ ولا أعرف من أين حكياه لأنه مفسد لمعنى الآية لا يليق بسيبويه والخليل؛ وإنما الخبر في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ كما قال

(١) قال أبو (ح)- جواب الشرط لا يحذف إلا إذا كان من جنس جواب القسم المذكور ليدل عليه، وإن قدرناه من جنسه وهو (يؤمنوا) خلت جملته من ضمير يعود على (ما) الشرطية. فتأمل.

(٢) من الآية (١١١) من سورة هود.

(٣) من الآية (٣٥) من سورة الزخرف.

أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره.

وقرأ الحسن: ﴿لَمَّا آتيناكم﴾ بفتح اللام وشد الميم، قال أبو اسحق: أي لَمَّا آتاكم الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، وتكون اللام تؤول إلى الجزاء، كما تقول: لَمَّا جئتني أكرمتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر أن (لَمَّا) هذه هي الظرفية، أي: لما كنتم بهذه الحال رؤساءَ الناس وأماثلهم أخذ عليكم الميثاق، إذ على القادة يؤخذ، فيجيء هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة.

وذهب ابن جني[1] في ﴿لما﴾ في هذه الآية إلى أن أصلها «لمن ما»، وزيدت «من» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أدغمت، كما يجب في مثل هذا، فجاء (لَمَّمَا)، فثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقي «لمَّا». وتتفسر هذه القراءة على هذا التوجيه المحلق تفسر ﴿لَما﴾ بفتح الميم مخففة، وقد تقدم. وقرأ نافع وحده: ﴿آتيناكم﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿آتيتُكم﴾ بالتاء، و ﴿رسول﴾ في هذه الآية اسم جنس، وقال كثير من المفسرين: الإشارة بذلك إلى محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مُصَدِّقاً﴾ بالنصب على الحال.

قوله عز وجل:

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ

(١) المحتسب ١: ١٦٤.

ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه، وذلك يحتملُ موطنَ القسم، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصفُ ما فعل مع كلِّ نبي في زمنه. ﴿وأَخَذْتُمْ﴾ في هذه الآية عبارة عما تحصَّل لهم من إيتاء الكتاب والحكمة، فمن حيث أُخذ عليهم أَخذوا هم أيضاً؛ وقال الطبري: أُخذتم في هذه الآية معناه: قبلتم، والإصر: العهد، لا تفسير له في هذا الموضع إلا ذلك. وقوله تعالى: ﴿فاشْهَدوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاشهدوا على أممكم المؤمنين بكم، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد، هذا قول الطبري وجماعة، والمعنى الثاني: بينوا الأمر عند أممكم واشهدوا به. وشهادة الله تعالى على هذا التأويل وهي التي في قوله: ﴿وأَنا مَعَكُم مِن الشاهدين﴾ هي إعطاء المعجزات وإقرار نبواتهم، هذا قول الزجاج وغيره، فتأمل؛ القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفاظها، والقول الثاني هو الأمر بأَدائها. وحكم الله تعالى بالفسق على من تولَّى من الأمم بعد هذا الميثاق، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره. ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله: ﴿فاشْهَدوا﴾ أمر بالأداء.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يبغون﴾ بالياء مفتوحة، ﴿وتُرجعون﴾ بالتاء

مضمومة، وقرأ عاصم: ﴿يَبْغون ويُرْجعون﴾ بالياء معجمة من تحت فيهما، وقرأ الباقون بالتاء فيهما. ووجوه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل.

و ﴿تَبْغُون﴾ معناه: تطلبون. و ﴿أَسْلَم﴾ في هذه الآية بمعنى: استسلم عند جمهور المفسرين، و ﴿مَن﴾ في هذه الآية تعمُّ الملائكة والثقلين.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿طوعاً وكرهاً﴾ ـ فقال مجاهد: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَق السمواتِ والأرضَ لَيقولُنَّ الله﴾[1]، فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلامٌ كرهاً. فهذا عموم في لفظ الآية، لأنه لا يبقى من لا يسلم على هذا التأويل، و﴿أَسْلَم﴾ فيه بمعنى استسلم، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع، وعبارته رحمه الله: كلُّ آدمي فقد أقر على نفسه بأن الله حيّ وأنا أعبده، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص فهذا الذي أسلم طوعاً. وقال ابن عباس: بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق. وروي عن مجاهد أنه قال: الكره في هذه الآية هو بسجود ظلِّ الكافر، فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد ظلّ الكافر وهو كاره. وقال الشعبي: الآية عبارة عن استقادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدرته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى غيره، وذلك هو الذي يسجد

(١) من الآية (٢٥) من سورة لقمان، ومن الآية ٣٨ من سورة الزمر.

كرها؛ وهذا هو قول مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات. وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية أنه أسلم قوم طوعاً، وأسلم قوم خوف السيف. وقال مطر الوراق: أسلمت الملائكة طوعاً، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف(١). وهذا قولُ الإسلامُ فيه هو الذي في ضمنه الإيمان، والآية ظاهرها العموم ومعناها الخصوص، إذ من أهل الأرض من لم يُسْلِمْ طوعاً ولا كرهاً على هذا الحد. وقال قتادة: الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاينة حيث لا ينفعه. ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك، وهذا غير موجود إلا في أفراد، والمعنى في هذه الآية يفهم كل ناظر أن هذا القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة، والتوقيف بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ إنما هو لمعاصري محمد ﷺ من الأحبار والكفار. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿أُصري﴾ بضم الألف، وهي لغة.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، وأخرج الديلمي عن أنس نحوه، (فتح القدير ١: ٣٣٦).

المعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: آمنَّا بالله وما أُنزل علينا، وهو القرآن وأمر محمد ﷺ؛ والإنزال على نبيٍّ الأمة إنزالٌ عليها، وقدم إسماعيل لسنِّهِ، وسائر الآية بين.

ثم حكم تعالى في قوله: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ﴾ . . . الآية، بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غيرَ دين الإسلام، وهو الذي وافق في معتقداته دينَ كلِّ من سَمَّى من الأنبياء، وهو الحنيفية السمحة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال أهل الملل للنبي ﷺ: قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجَّهم يا محمد وأنزل عليه: ﴿ولِلَّهِ علىَ الناس حج البيت﴾[1] فحج المسلمون وقعد الكفار.

وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال: نزلت: ﴿إنَّ الَّذينَ آمنوا والَّذين هادوا والنَّصارى والصابئين مَنْ آمن باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَلا هُمْ يَحْزنون﴾[2] فأنزل الله بعدها: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ ديناً فلن يُقْبَلَ منه﴾ . . . الآية. فهذه إشارة إلى نسخ.

وقوله: ﴿في الآخِرَةِ﴾ متعلق بمقدر، تقديره: خاسر في الآخرة، لأن الألف واللام في الخاسرين في معنى الموصول. وقال بعض

(١) من الآية: (٩٧) من سورة آل عمران.
(٢) الآية (٦٢) من سورة البقرة.

المفسرين: إن قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ . . . الآية، نزلت في الحارث بن سويد[١]، ولم يذكر ذلك الطبري.

قوله عز وجل:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ في الحارث بن سويد الأنصاري، كان مسلماً ثم ارتدَّ ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت ﴿كَيْفَ يهدي اللَّهُ﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿إلَّا الذين تابوا﴾،فأرسل إليه قومه فأسلم. وقال مجاهد: حمل الآيات إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك والله لما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة[٢] قال فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه. وقال

---

(١) الحارث بن سويد، ويقال: ابن مسلم المخزومي، ارتد على عهد رسول الله ﷺ ولحق بالكفار فنزلت هذه الآية: [كيفَ يَهْدي الله قوماً كفَروا بعْدَ إيمانِهم] الآيات، فحمل رجل هذه الآيات فقرأهن عليه فرجع وأسْلم وحسُن إسلامه، روى عنه مجاهد. «الاستيعاب» و «الإصابة».

(٢) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه- عن ابن عباس وأخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر- عن مجاهد،

السدي: نسخ الله تعالى بقوله: ﴿إلاَّ الَّذين تابوا﴾ قولَه: ﴿أولئكَ جزاؤُهم أَنَّ عليهم لعْنَةَ الله﴾. وفي هذه العبارة تجوز كثير، وليس هذا بموضع نسخ.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب[١] والحارث بن سويد بن الصامت ووحوح بن الأَسلت[٢] في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا إلى أهليهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت هذه الآيات. وقال ابن عباس أيضاً والحسن بن أبي الحسن: إن هذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى، شهدوا بنعت الرسول ﷺ وآمنوا به، فلما جاء من العرب حسدوه، وكفروا به ورجح الطبري هذا القول، وقال النقاش: نزلت هذه الآيات في طعيمة بن أبيرق[٣]. وكل من ذكر فألفاظ الآية تعمّه.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللَّهُ﴾ سؤال عن حال، لكنه سؤال

= وقال: هو الحارث بن سويد، وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن السدي، وأخرجه كذلك ابن إسحق، وابن المنذر عن ابن عباس. (فتح القدير. ١: ٣٢٨).

(١) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، أحد بني ضبيعة، كان يُسمَّى في الجاهلية الراهب فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، ذكره ابن هشام في سيرة النبي ﷺ في غزوة أحد.

(٢) هو وحوح بن الأَسلت، واسمه عامر بن جُشم بن وائل الأَوسي الأَنصاري، أخو أبي قيس الشاعر. قال عبد الله بن محمد بن عمارة: له صحبة وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد (الإصابة. ٣: ٦٣١). وكذا «الاستيعاب».

(٣) هو طعيمة بن أبيرق بن عمير الأنصاري، ذكره أبو إسحق المستملي في الصحابة، وقال: شهد المشاهد كلها إلا بدراً، وساق من طريق خالد بن معدان عنه قال: سمعت النبي ﷺ وأنا أمشي قدامه فسألَه رجل: ما فضل من جامع أهله محتسبا، قال: غفر الله لهما البتة. استدركه يحيى بن منده على جده. وإسناده ضعيف قاله أبو موسى. «الإصابة. ٢: ٢٢٤».

توقيف على جهة الاستبعاد للأمر، كما قال عليه السلام: (كيفَ تفلح أمة أدْمَت وجْهَ نبيها؟)[١] فالمعنى: إنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدوا﴾ عطف على ﴿كَفَرُوا﴾ بحكم اللفظ، والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر، والواو لا ترتب. وقال قوم: معنى قوله: ﴿بعْدَ إيمانِهِم﴾:بعد أن آمنوا، فقوله: ﴿وَشَهِدوا﴾ عطف على هذا التقدير.

وقوله تعالى: ﴿واللَّهُ لا يَهْدي الْقَومَ الظَّالمين﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أن الظالم في ظلمه ليس على هدىً من الله، فتجيء الآية عامة تامة العموم. واللعنة: الإبعاد وعدم الرحمة والعطف، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار، ولعنة الملائكة: قول. ﴿والنَّاس﴾: بنو آدم، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه أن الجنّ يدخلون في لفظة الناس، وأنشد على ذلك:

فقلتُ إلى الطعام فقال منهم   أناسٌ نحسدُ الإنسَ الطعاما[٢]

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد، وشج في وجهه حتى سال الدم، فقال: (كيف يفلح قوم) الحديث. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٤».

(٢) نسب صاحب «خزانة الأدب» ٣: ٣ البيت لشمير بن الحارث الضبي، وقيل: لتأبط شراً، وهي رواية الجرجاوي أيضاً. وفي العيني على الشواهد: لجذع بن سنان الغسّاني في رواية من روى: «عِمُوا صبَاحاً». وأما على رواية من روى: «عموا ظلاماً» فإنه ينسب إلى شمر بن =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر أن لفظة(النَّاس) إذا جاءت مطلقة فإنما هي في كلام العرب بنو آدم لا غير، فإذا جاءت مقيدة بالجن فذلك على طريقة الاستعارة، إذ هي جماعة كجماعة،وكذلك:﴿برجالٍ من الجنِّ﴾[١] وكذلك :﴿نفرٌ من الجنّ﴾[٢]، ولفظة النفر أقرب إلى الاشتراك من رجال وناس، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنَّاس﴾[٣] قاضٍ بتباين الصنفين.

وقوله تعالى: ﴿والناس أجمعين﴾[٤] إما أن يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين سماهم الناس إذ هم المعول عليه، وإما أن يريد أنهم في الآخرة يلعنهم المؤمنون ويلعن بعضهم بعضاً، فيجيء من هذا في كل شخص منهم أن لعنه جميع الناس، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفته. وكلُّ مَنْ هذه صفته- وقد أغواه الشيطان- يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها، فيجيء من هذا أنهم يلعنهم جميعُ الناس في الدنيا حتى إنهم ليلعنون أنفسهم، لكن على غير تعيين.

=الحارث الغسّاني. فقلت : إلى الطعام: أي: هلموا إليه، نحسد: يروى بالنون، ويروى بالمثناة التحتية، والإنس: البشر، أي يحسد الإنس على الطعام. والكلام مع الجن بدليل البيت قبله:

أتوا ناري فقلتُ: مَنونَ أنْتُم فقالوا: الجنُّ. قلت: عموا ظلاما

(١) من الآية (٦) من سورة الجن.
(٢) من الآية (١) من سورة الجن.
(٣) من الآية (٦) من سورة الناس.
(٤) تكررت أيضاً في الآية (١٦١) من سورة البقرة والآية (٨٧) من سورة آل عمران.

والضمير في قوله: ﴿خالدينَ فيها﴾ قال الطبري: يعود على عقوبة الله التي يتضمنها معنى اللعنة. وقال قوم من المفسرين: الضمير عائد على اللعنة. وقرائن الآية تقتضي أن هذه اللعنة مخلّدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجرِ لها ذكرٌ، لأن المعنى يُفهمها في هذا الموضع، كما يُفهم قوله تعالى: ﴿كلُّ مَنْ عليها فانٍ﴾[1] أنها الأرض. وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إنَّما أنتَ مُنْذِرُ مَنْ يخشاها﴾[2]: إن الضمير عائد على النار.

و ﴿يُنْظَرون﴾ في هذه الآية، بمعنى: يُؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿يُنْظَرون﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿إلَّا الَّذين تابوا﴾ استثناء متصل يبين ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذلك﴾ والتوبة: الرجوع، والإصلاح عام في القول والعمل.

وقوله تعالى: ﴿فإنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ وعد؛ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿والناس أجمعون﴾.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ

(١) الآية (٢٦) من سورة الرحمن.
(٢) الآية (٤٥) من سورة النازعات.

ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

اختلف المتأولون في كيف يترتب كفر بعد إيمان، ثم زيادة كفر، فقال الحسن وقتادة وغيرهما: الآية في اليهود، كفروا بعيسى بعد الإيمان بموسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ؛ وفي هذا القول اضطراب، لأن الذي كفر بعيسى بعد الإيمان بموسى ليس بالذي كفر بمحمد ﷺ، فالآية على هذا التأويل تخلط الأسلاف بالمخاطبين.

وقال أبو العالية رفيع: الآية في اليهود، كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها في خلاف النبي ﷺ، من الافتراء والبهت والسعي على الإسلام وغير ذلك. وعلى هذا الترتيب يدخل في الآية المرتدون اللاحقون بقريش وغيرهم.

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿ثُمَّ ازْدادوا كفراً﴾ أي تموا على كفرهم وبلغوا الموت به. فيدخل في هذا القول اليهود والمرتدون. وقال السدي نحوه.

ثم أخبر تعالى أن توبة هؤلاء لن تقبل، وقد قررت الشريعة أن توبة كلِّ كافر تقبل، سواء كفر بعد إيمان وازداد كفراً، أو كان كافراً من أول أمره، فلا بد في هذه الآية من تخصيصٍ تُحْمَلُ عليه ويصحُّ به نفي قبول التوبة، فقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: نفي قبول توبتهم مختصٌّ بوقت الحشرجة والغرغرة والمعاينة، فالمعنى: لن تقبل توبتهم عند المعاينة؛ وقال أبو العالية: معنى الآية: لن تقبل توبتهم من تلك الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم على الكفر بمحمد ﷺ،

فإنهم كانوا يقولون في بعض الأحيان: نحن نتوبُ من هذه الأفعال وهم مقيمون على كفرهم، فأخبر الله تعالى أنه لا يقبل تلك التوبة.

وتحتمل الآية عندي أن تكون إشارة إلى قوم بأعيانهم من المرتدين ختم الله عليهم بالكفر، وجعل ذلك جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين، وهم الذين أشار إليهم بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قوماً﴾ فأخبر عنهم أنهم لا تكونُ لهم توبةٌ فيتصوَّر قبولها، فتجيء الآية بمنزلة قول الشاعر:

على لا حبٍ لا يُهْتدى بمناره[1] . . . .

أي:قد جعلهم الله من سخطه في حيِّزِ مَنْ لا تُقبل له توبة إذ ليست لهم، فهم لا محالة يموتون على الكفر. ولذلك بيَّن حكم الذين يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت منزلة هؤلاء، فكأنه أخبر عن هؤلاء المعينين أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر الناس عن حكم من

(١) البيت لامرئ القيس، وتمامه: .... إذَا سافَهُ العَوْدُ النُّباطيُّ جَرْجَرا
اللَّحْبُ واللاحب: الطريق الواسع، من لحبه إذا وطئه ومرَّ فيه، فأصله ملحوب، والمنار: أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفاً: إذا شمَّه شمَّا، ومنه المسافة. والعود: الجمل المُسِنُّ، ويطلق على الطريق القديم. والنُّباطي: نسبة للنَّبط، وهم قوم يحلون البطاحَ بين العراقين يستَنْبطون منها الماء. كانت عاصمتهم (سَلْع) وتعرف اليوم بالبتراء- ثم استعمل اللفظ (النَّبط) في أخلاط الناس من غير العرب. والنبط هم: الأنباط. والجَرْجَرَةُ: صوت يردده البعير في حنجرته.

والمقصود بالبيت نفي المنار إذا شمه البعير المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق وجرجر خوفاً منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر سيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. «معلق الكشاف».

يموت كافراً. و ﴿الضَّالُّون﴾ المخطئون الطريق القويم في الأقوال والأفعال. وقرأ عكرمة: ﴿لنْ نَقْبل﴾ بنون العظمة ﴿تَوْبتَهم﴾ بنصب التاء.

وقوله: ﴿إنَّ الَّذين كفروا وماتوا وهُمْ كُفَّار﴾. . . الآية، جزم للحكم على كل موافٍ على الكفر إلى يوم القيامة.

وقرأ عكرمة: ﴿فلن نَقْبل﴾ بنون العظمة ﴿ملءَ الأرض﴾ بالنصب، والمِلء: ما شحن به الوعاء، فهو بكسر الميم: الاسم، وبفتحها: المصدر، تقول ملأت الشيءَ املؤه مَلئاً، والَملءُ: اسم ما ملأت به. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو السمال: (مِل) دون همزة، ورويت عن نافع؛ و ﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ذَهَباً لو افْتَدى به﴾ دون واو.

واختلف الناس في هذه الآية في قوله: ﴿وَلَو افتدى﴾-فقال الطبري: هي متعلقة بمحذوف في آخر الكلام دلَّ عليه دخول الواو، كما دخلت في قوله: ﴿وَلِيَكونَ مِن الموقنين﴾[1] لمتروك من الكلام، تقديره: وليكون من الموقنين أريناه ملكوت السموات والأرض؛ وفي هذا التمثيل نظر فتأمله. وقال الزجاج: المعنى: لن يقبل من أحدهم إنفاقه وتقرباته في الدنيا ولو أنفق ملءَ الأرض ذهبا ولو افتدى به أيضاً في الآخرة لم يقبل منه، قال: فأَعلمَ أنه لا يثيبهم على

(١) من الآية (٧٥) من سورة الأنعام.

أعمالهم من الخير، ولا يقبل منهم الافتداءَ من العذاب؛ وهذا قول حسن. وقال قوم: الواو زائدة، وهذا قول مردود. ويحتمل أن يكون المعنى نفي القبول جملة على كل الوجوه، ثم خصَّ من تلك الوجوه أليقها وأحراها بالقبول، كما تقول: أنا لا أفعل لك كذا بوجه ولو رغبت إليّ؛ وباقي الآية وعيد بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى أنه لا يقبل من الموافي على الكفر ملءَ الأرض ذهباً، وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحضَّ على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرُّبَ إسرائيل عليه السلام بتحريم ما كان يحبّ على نفسه، ليدلَّ تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب. وفسَّر جمهور المفسرين هذه الآيات على أنها معان منحازة، نظمتها الفصاحة المعجزة أجملَ نظم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تنالوا﴾ . . . الآية، خطاب لجميع المؤمنين؛

وقال السدي وعمرو بن ميمون[١]: البر: الجنة؛ وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاصُّ باللفظة أنه ما يفعله البَرُّ من أفاعيل الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالوا برَّ الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم.

وبسبب نزول هذه الآية تصدق أبو طلحة[٢] بحائطه، المسمى بيرحا، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاها رسول الله ﷺ أسامة ابنه[٣]، فكأن زيداً شقَّ عليه فقال له النبي: (أما إن الله

(١) هو عمرو بن ميمون الأزدي، أبو عبد الله أو أبو يحيى الكوفي، أدرك الجاهلية، وأسلم في حياته ﷺ ولم يلقه، روى عن عُمَر، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعائشة، وغيرهم، وروى عنه سعيد بن جُبير، والربيع بن خثيم، وأبو إسحق السبيعي، وغيرهم، كان عمرو بن ميمون إذا دخل المسجد فرؤى ذكر الله، توفي سنة ٧٤ وقيل: ٧٥ هـ. «الإصابة. ٣: ١١٨». و «تهذيب التهذيب».

(٢) هو أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته، وهو القائل:

أنا أبـو طَلْحَـةَ واسْمي زَيـد وكـلُّ يومٍ في سلاحي صَيْـد

كان من فضلاءِ الصحابة، وهو زوج أُمِّ سليم، شهد بدراً، وروى عنه من الصحابة ابنُ عباس، وأنس، وزيد بن خالد، حُكي أنه كان يبغي الصوم في عهد رسول الله ﷺ فيمنعه الغزو، فلما توفي ﷺ أصبح يسرد الصوم لا يفطر إلا يومَ عيد الفطر أو الأضحى. اختلف في وفاته. «الإصابة. ١: ٥٦٦».

(٣) أُسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي الحِب بنُ الحِب، يكنى أبا محمد، ويقال: أبو زيد، أمه أُمُّ أيمن حاضنة النبي ﷺ، وُلد أُسامة في الإسلام، ومات ﷺ وله عشرون سنة، وقيل: ثماني عشرة، وكان أمَّره على جيش عظيم فمات ﷺ قبل أن يتوجه فأنفذهُ أبو بكر، وكان عمر يُجله ويُكرمه، اعتزل الفتن بعد مقتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية بالمدينة، روى عنه من الصحابة أبو هريرة، وابن عباس، ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدي، وأبو وائل، وآخرون (الإصابة).

قد قبل صدقتك)[١]. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعد بن أبي وقاص،فسيقت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال: إن الله يقول: ﴿لنْ تنالوا البرَّ حتَّى تُنْفقوا مِمَّا تُحبون﴾ فأعتقها. فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّون﴾ أي:من رغائب الأموال يُضَنّ بها، ويتفسر بقول النبي ﷺ: (خيرْ الصَّدَقة أن تَصَدَّق وأنتَ صحيحٌ شحيح تخشى الفقْرَ وتأملُ الغنى)[٢]. . . الحديث. وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يحب من المطعومات على قدر الاشتهاء يدخل في الآية، فكان عبد الله بن عمر يشتهي أكل السكر باللوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية.

وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقاً مما يحبُّ الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعته وترفهه، وهذه كلها محبوبات. وسأل رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، فقال له الرجل: أراك تركت شيئاً وهو أوثقها في نفسي: الصيام، فقال أبو ذر: قربة، وليس هناك، ثم

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن جرير. (فتح القدير. ١: ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «أي الصدقة أفضل» وفي «الوصايا»، وأخرجه مسلم، والنسائي كذلك في «الزكاة».

تلا: ﴿لن تنالوا البر﴾... الآية.

وقوله تعالى: ﴿وما تُنْفقوا مِنْ شيء فإنَّ اللَّهَ بِهِ عَليم﴾ شرط وجواب فيه وعد، أي: عليمٌ مجازٍ به وإن قلّ.

قوله تعالى: ﴿كلُّ الطَّعام﴾... الآية، إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماءُ أهل الكتاب.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كلِّ ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمةٌ عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميعَ الطعام كان حلاً لهم إلا ما حرَّمَ إسرائيل على نفسه خاصة ولم يرد به ولده، فلما استنُّوا هُمْ به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيءٌ من الزوائد التي يدَّعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، قال: إن الله تعالى: حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبةً لاستنانهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فبِظُلْمٍ مِن الَّذين هادوا حرَّمنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر في لفظة الظلم أنها مختصةٌ بتحريم ونحوه، يدلُّ على ذلك أن العقوبةَ وقعت بذلك النوع.

وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية: الرد على قوم من اليهود

(١) من الاية (١٦٠) من سورة النساء.

قالوا: إن ما نحرمه الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملّة أبينا إبراهيم، فأكذبهم الله وأخبر أن الطعامَ كلَّه كان حلالاً لهم قبل التوراة إلا ما حرم إسرائيل في خاصته، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه، وبقيت هذه الزوائد في حيّز افترائهم وكذبهم؛ وإلى هذا تنحو ألفاظ ابن عباس رضي الله عنه، وترجم الطبري في تفسير هذه الآية بتراجم، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه، وحمَّلَ ألفاظَ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكأن المعنى: كلُّ الطعام كان حلا لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها،وهذا شيء لم يقله الضحاك ولا يحتمله لفظه، لكنه في نفسه كلام متخرج على أن يجعل ﴿كان﴾ لا تخصّ الماضي من الزمان، بل تكون بمنزلة التي في قولك: «وَكان اللّٰهُ غفوراً رحيماً»؛ والمعنى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فحُرِّمَ عليهم في التوراة لا هذه الزوائد التي افتروها، فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه. وحمل الطبري قول الضحاك أن معناه: لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في توراة ولا غيرها. وهذا تحميل يرد عليه قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنا عَلَيْهم﴾(١) وقوله ﷺ: (حرمت عليهم الشحوم)(٢) إلى غير ذلك من الشواهد.

---

(١) من الآية (١٤٦) من سورة الأنعام [حرَّمْنا عليهم شُحومَهُما إلاَّ ما حَمَلَتْ ظهورهما].

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة- عن جابر بن عبد الله، وأخرجه البُخاري، ومسلم- عن أبي هريرة، كما أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي وابن ماجة، عن عمر. «الجامع الصغير. ٢: ١٩٢».

وقوله تعالى ﴿حِلًّا﴾ معناه: حلالاً، و ﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب. وانتزع من هذه الآية أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظرُ لمصلحةٍ أو قربة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي ﷺ جاريته على نفسه[1]، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب، فقيل: إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمد ﷺ، وقيل: إن هذا تحريم تقرب وزهد، وتحريم الجارية تحريم غضبٍ ومصلحة نفوس.

واختلف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه. فقال يوسف بن ماهَك[2]: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال له: إنه جعل امرأته عليه حراماً، فقال ابن عباس: إنها ليست عليك بحرام، فقال الأعرابي: ولم والله تعالى يقول في كتابه: ﴿إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ عَلى نفسِهِ﴾؟ فضحك ابن عباس وقال: وما يدريك ما حرَّم إسرائيل؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم فقال: إن إسرائيل عرضت له الأنساء[3] فأضنته فجعل لله إن شفاه من ذلك ألَّا يطعم عرقاً، قال: فلذلك

---

(١) جاريته ﷺ هي مارية القبطية أم سيدنا إبراهيم. سورة التحريم عند قوله تعالى: [يأيُّها ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ...] الآية.

(٢) هو يوسف بن ماهك ـ بفتح الهاءِ ـ بن مهران الفارسي المكي، مولى قريش، روى عن أبيه، وأبي هريرة، وعائشة، وعبد بن صفوان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وغيرهم، وروى عنه عطاء بن أبي رباح، وأيوب، وأبو بسر، وحميد، وابن جريج، وأبو خثيم، وغيرهم، ثقة عدل، توفي سنة: ١٠٣ وقيل ١١٠ (تهذيب التهذيب. ١١: ٤٢١).

(٣) الأنساء: جمع نسا وهو عرق من الورك إلى الكعب.

اليهود تنزع العروقَ من اللحم، وقال بمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم.

وقال ابن عباس والحسن بن أبي الحسن وعبد الله بن كثير ومجاهد أيضاً: إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل وألبانها، ولم يختلفْ فيما علمت أن سبب التحريم هو من مرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي. وقيل: هو وجع عرق النَّسا. وفي حديث عن النبي ﷺ أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له: يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟ فقال لهم: (أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرّمنَّ أحبَّ الطعامِ والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحومُ الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم)[1].

وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذا الأمر أن يعقوب عليه السلام حرم لحوم الإبل وألبانها ـ وهو يحبها ـ تقربا إلى الله بذلك، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر»[2] ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد[3]، وقد مر

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه، وابن جرير الطبري عن ابن عباس، وأخرجة أيضا الإمام أحمد والنسائي. «تفسير الشوكاني» و «ابن كثير» «وابن جرير».

(٢) هذا الحديث ذكره ابن الأثير في الغريب. «ابن الأثير. ٣: ٢٠».

(٣) هو سلمة بن دينار المخزومي المدني مولاهم، التمار، الواعظ، الزاهد، أبو حازم، =

بسوق الفاكهة فرأى محاسنها فقال: موعدك الجنة إن شاء الله، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق، لكن بغضةً لها لما كان امتحن بها، وهذا شيء يعتري نفوسَ البشر في غير ما شيء، وليس في تحريم العروق قربة فيما يظهر، والله أعلم. وقد روي عن ابن عباس أن يعقوب حرَّم العروق ولحوم الابل.

وأمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يأمرهم بالإتيان بالتوراة، حتى يبين منها كيف الأمر، المعنى: فإنه أيها اليهود، كما أنزل الله عليَّ لا كما تدعون أنتم؛ قال الزجاج: وفي هذا تعجيزٌ لهم وإقامة الحجة عليهم، وهي كقصّةِ المباهلة مع نصارى نجران.

قوله عز وجل:

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله: ﴿فَمَنِ افْتَرى عَلى اللَّهِ الكذب مِنْ بعْدِ ذلكَ﴾ تحتمل الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ أن تكون إلى ثلاثة أشياء، أحدها: أنِ تكون

= عالم المدينة وقاضيها أو شيخها، سمع سهل بن سعد الساعدي، وسعيد بن المسيب، وأبا صالح السَّمان، وعِدَّةً، وروى عنه مالك، والسفيانان، والحمَّادان، وخلْقٌ، قال ابن خزيمة: لم يكن في زمانه أحد مثله.

وقوله في الفاكهة لمَّا مرَّ بها في السوق ذكره أبو نعيم في الحِلْية. توفي سنة: ١٤٠ «تذكرة الحفاظ: ١: ١٣٣». وكذا «حلية الأولياء. ٣: ٢٢٩».

إلى التلاوة إذ مضمَّنها بيانُ المذهبِ وقيام الحجة، أي: فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم، واضعٌ الشيءَ في غير موضعه؛ والآخر: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم، فمن افترى على الله الكذب وزاد في المحرمات فهو الظالم؛ والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة، أي: من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم. ويؤيد هذا الاحتمال الأخير قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِن الَّذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم﴾[1] فنصَّ على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشدّدون فشدَّدَ الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة. وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله ﷺ: (يسروا ولا تعسروا)[2]، وقوله: (دين الله يسر)[3] وقوله: (بعثت بالحنيفية السمحة)[4].

---

(١) من الآية (١٦) من سورة النساء.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، والإمام أحمد عن أنس (الجامع الصغير. ٢ : ٦٥٦).

(٣) أخرجه البخاري وهو من افراده، والنسائي عن أبي هريرة (القسطلاني. ١: ١٢٣).

(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ عن جابر. (الجامع الصغير. ١: ٤٢٧).

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالخلاف والجدال مع الأحبار بقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ أي: الأمر كما وصف لا كما تكذبون أنتم، فإن كنتم تعتزون بإبراهيم فاتبعوا ملته على ما ذكر الله.

وقرأ أبان بن ثعلب: ﴿قُل صَّدَقَ اللهُ﴾ بإدغام اللام في الصاد، وكذلك: ﴿قل سِّيروا﴾ قرأها بإدغام اللام في السين. قال أبو الفتح: علة جواز ذلك فشُوّ هذين الحرفين في الفم وانتشار الصدى المنبثّ عنهما، فقاربتا بذلك مخرج اللام، فجاز إدغامها فيهما. وقرأ جمهور الناس: ﴿وُضِعَ﴾ على بناء الفعل للمفعول على معنى: وضعه الله، فالآية على هذا ابتداء معنى منقطع من الكلام الأول. وقرأ عكرمة: ﴿وَضَع﴾ بفتح الواو والضاد، فيحتمل أن يريد: وضع الله، فيكون المعنى منقطعاً كما هو في قراءة الجمهور. ويحتمل أن يريد وضع إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى متصلاً بالذي قبله، وتكون هذه الآية استدعاء لهم إلى ملته في الحج وغيره على ما روى عكرمة أنه لما نزلت: ﴿ومَنْ يَبْتغ غَيْر الإسلام ديناً﴾... الآية، قال اليهود: نحن على الإسلام، فقرئت: ﴿ولِلَّهِ عَلى النَّاس حجُّ البَيْتِ﴾ قيل له: أحجَّهمْ يا محمد إن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟

قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال أربعون سنة)[١] فيظهر من هذا أنهما من وضع إبراهيم جميعاً، ويضعف ما قال الزجاج من أن بيت المقدس من بناء سليمان بن داود، اللهم إلا أن يكون جدَّده، وأين مدةُ سليمان من مدة إبراهيم؟ ولا مريةَ في أن إبراهيم وضع بيتَ مكة، وإنما الخلاف هل وَضْعُ بدأةٍ أو وضعُ تجديد؟

واختلف المفسرون في معنى هذه «الأولية» التي في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ﴾ـ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى قوله: إنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِع مباركاً وهدى هذا البيت الذي بمكة، وقد كانت قبله بيوت لم توضَعْ وضعه من البركة والهدى. وقال قوم: بل هو أول بيت خلق الله تعالى ومن تحته دُحِيَتِ الأرض[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد حدّد ما بين خلقه ودحو الأرض، ونحو ما قال الزجاج من أنه البيت المعمور، أسانيدها ضعاف فلذلك تركتها. وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديداً؛ وقال قتادة: ذكر لنا أن

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما ـ عن أبي ذر (فتح القدير. ١: ٣٣٢).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، في الشعب عن ابن عمر، وأخرج نحوه ابن المنذر عن أبي هريرة. (فتح القدير. ١: ٣٣٢).

البيت أهبط مع آدم ورفع وقت الطوفان(١).

واختلف الناس في ﴿بكَّةَ﴾ ـ فقال الضحاك وجماعة من العلماء: بكة: هي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنَّ هذا من إبدال الباء بالميم، على لغة مازن وغيرهم.

وقال ابن جبير وابن شهاب وجماعة كثيرة من العلماء: مكة: الحرم كله، وبكة: مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت. وقال مالك في سماع ابن القاسم من العتبية: بكة: موضع البيت، ومكة: غيره من المواضع؛ قال ابن القاسم: يريد القرية. قال الطبري: ما خرج عن موضع الطواف فهو مكة لا بكة. وقال قوم: بكة: ما بين الجبلين، ومكة: الحرم كله.

و﴿مباركاً﴾ نصب على الحال، والعامل فيه على قول علي بن أبي طالب إنه أول بيت وضع بهذه الحال ـ قوله: ﴿وُضِع﴾، والعامل فيه على القول الآخر ـ الفعل الذي تتعلق به باء الجر في قوله: ﴿ببكة﴾ تقديره: استقرَّ ببكة مباركاً. وفي وصف البيت بهدىً مجازية بليغة، لأنه مقوِّم مصلح، فهو مرشد، وفيه إرشاد، فجاء قوله: ﴿وهدىً﴾ بمعنى: وذا هدى، ويحتمل أن يكون هدىً في هذه الآية بمعنى الدعاء، أي من حيث دعي العالمون إليه.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٨/٤.

قوله عز وجل:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

الضمير في قوله: ﴿فيهِ﴾ عائد على البيت، وساغ ذلك مع كون الآيات خارجةً عنه لأن البيت إنما وضع بحرمه، وجميع فضائله فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿آياتٌ بيِّناتٌ﴾ بالجمع، وقرأ أبيّ بن كعب وعمر وابن عباس: ﴿آيةٌ بيِّنَةٌ﴾ على الإفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة ـ المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد بالآية اسم الجنس فيقرب من معنى القراءة الأولى.

واختلفت عبارة المفسرين عن الآيات البينات ـ فقال ابن عباس: من الآيات المقام، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يدل على أن قراءته ﴿آية﴾ بالإفراد إنما يراد بها اسم الجنس.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآيات البينات مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً. وقال مجاهد: المقام الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ دخَلَه كان آمنا﴾ كلام آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فرفع ﴿مقام﴾ على قول الحسن ومجاهد ـ على البدل من ﴿آيات﴾، أو على خبر ابتداء تقديره: هن مقام إبراهيم، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه ـ هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدر تقديره: منهن مقام إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلا مثالاً مما في حرم الله من الآيات، وخُصّا بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم المدركون لهاتين الآيتين بحواسهم. ومن آيات الحرم والبيت التي تقوم بها الحجة على الكفار أمرُ الفيل، ورمي طيرِ الله عنه بحجارة السجيل، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه. ومن آياته كفُّ الجبابرة عنه على وجه الدهر. ومن آياته الحجر الأسود وما روي فيه أنه من الجنة، وما أُشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام. ومن آياته حجر المقام، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام وقت رفعه القواعد من البيت لما طال البناء، فكلّما علا الجدار ارتفع الحجر به في الهواء، فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل

يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار، ثم إن الله تعالى لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين لينَّ الحجر، فغرقت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين، فذلك الأثر العظيم باق في الحجر إلى اليوم. وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار، وقال أبو طالب[1]:

وَمَوْطِئُ إبراهيمَ في الصخر رطبةٌ   على قدميه حافياً غيرَ ناعل

فما حفظ أن أحداً من الناس نازع في هذا القول. ومن آياته البينات زمزم في نبعها لهاجر بهمز جبريل عليه السلام الأرض بعقبه، وفي حفر عبد المطلب لها آخراً بعد دثورها بتلك الرؤيا المشهورة، وبما نبع من الماء تحت خفّ ناقته في سفره، إلى منافرة قريش ومخاصمتها في أمر زمزم، ذكر ذلك ابن إسحق مستوعباً، ومن آيات البيت نَفْعُ ماء زمزم لما شُرِبَ له، وأنه يعظم ماؤها في الموسم ويكثر كثرةً خارقةً للعادة في الآبار. ومن آياته: الأَمَنَةُ الثابتة فيه على قديم الدهر، وأن العرب كانت يغيرُ بعضها على

(١) أبو طالب هو عم النبي وناصرُه، وُلد قبل النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة، ولمَّا حضرت الوفاة عبد المطلب وصَّى بالنبي ﷺ إليه فكَفله، وأحسن تربيته، وسافر به إلى الشام وهو شاب، ولما بُعث النبي ﷺ قام بنصره، وذبَّ عنه من عاداه، ومدحه عدة مدائح، توفي في السنة العاشرة من النبوة. «خزانة الأدب: ١: ٢٦١».

وموطىء إبراهيم عليه السلام هو موضع قدمه في الصخرة التي اعتمد عليها حين أمال رأسه ليغسل فأبقَى الله فيها أثر قدمه آية، قال تعالى: [فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيم] وقيل: بل هو أثر قدمه حين رفع القواعد من البيت وهو قائم عليه.

بعض وَيُتَخطَّفُ الناسُ بالقتل وأخذِ الأموال وأنواع الظلم إلا في الحرم؛ وتركَّبَ على هذا أمنُ الحيوان فيه وسلامةُ الشجر، وذلك كله للبركة التي خصه الله بها، والدعوة من الخليل عليه السلام في قوله: ﴿اجْعَلْ هذا البَلَدَ آمناً﴾[1]. وإذعانُ نفوس العرب وغيرهم قاطبة لتوقير هذه البقعة دون ناهٍ ولا زاجر آيةٌ عظمى تقوم بها الحجة، وهي التي فسرت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دخلَه كان آمناً﴾. ومن آياته كونه بواد غير ذي زرع والأرزاق من كل قطرٍ تجيء إليه عن قرب وعن بعد. ومن آياته ما ذكر ابنُ القاسم العتقي رحمه الله، قال في النوادر وغيرها: سمعتُ أن الحرم يعرف بأن لا يجيء سيلٌ من الحل فيدخل الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا ـ والله أعلم ـ لأن الله تعالى جعله ربوةً أو في حكمها ليكون أصونَ له، والحرم ـ فيما حكى ابنُ أبي زيد في الحنجِّ الثاني من النوادر ـ مما يلي المدينة نحواً من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم، ومما يلي العراق نحو ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع، ومما يلي عرفة تسعة أميال، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال إلى موضع يقال له أضاة، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتهى الحديبية. قال مالك في العتبية: والحديبية في الحرم.

(١) من الآية (٣٥) من سورة إبراهيم.

ومن آياته فيما ذكر مكي وغيره أن الطير لا تعلوه، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به، فهو يستشفي بالبيت.

قال القاضي أبو محمد:

وهذا كله عندي ضعيف، والطير تعاين تعلوه، وقد علته العقابُ التي أخذت الحية المشرفةَ على جداره، وتلك كانت من آياته.

ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربع في العام الواحد أخصبت آفاق الأرض، وإن لم يُصبْ جانباً منه لم يخصبْ ذلك الأُفق الذي يليه ذلك العام.

واختلف الناس في مقام إبراهيم ـ فقال الجمهور: هو الحجر المعروف، وقال قوم: البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناه وقام في جميع أقطاره، وقال قوم من العلماء: مكة كلها مقام إبراهيم، وقال قوم: الحرم كله مقام إبراهيم. والضمير في قوله: ﴿ومَنْ دَخَلَه﴾ عائدٌ على الحرم في قول من قال: مقام إبراهيم هو الحرم، وعائد على البيت في قول الجمهور، إذ لم يتقدم ذكر لغيره، إلا أن المعنى يفهم منه أن من دخل الحرم فهو في الأمن، إذ الحرم جزءٌ من البيت، إذ هو بسببه وبحرمته.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿كان آمناً﴾ ـ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم: هذه وصفُ حالٍ كانت في الجاهلية أنّ الذي يجرُّ جريرةً ثم يدخل الحرم فإنه كان لا يتناول ولا يطلب،

فأما في الإسلام وأَمْنِ جميع الأقطار فإن الحرم لا يَمْنَعُ من حدٍّ من حدود الله: من سرق فيه قطع، ومن زني رجم، ومن قَتل قُتل. واستحسن كثير ممن قال هذا القول أن يُخْرَجَ من وجب عليه القتلُ إلى الحِلِّ فيقتل هنالك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، وإن الأمرَ في الإسلام على ما كان في الجاهلية، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه، إلا أنه يجب على المسلمين ألَّا يبايعوا ذلك الجاني ولا يكلّموه ولا يؤوه حتى يتبرَّمَ فيخرجَ من الحرم فيقامَ عليه الحد. وقال بمثل هذا عبيد بن عُمَير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسديّ وغيرهم؛ إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يَقتلُ خارجَ الحرم ثم يعوذُ بالحرم، فأما من يقتل في الحرم فإنه يقام عليه الحد في الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا تُؤمل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يبايع، فليس بآمن.

وقال يحيى بن جعدة[1]: معنى الآية: ومن دخل البيت كان آمناً من النار. وحكى النقاش عن بعض العباد قال: كنت أطوف حول

(١) يحيى بن جعدة بن هُبيرة القرشي المخزومي، رَوَى عن جدته أُم هاني بنت أبي طالب، وعن أبي الدرداء، وزيد بن أرقم، وابن مسعود، وغيرهم، وروى عنه عمرو بن دينار، ومجاهد، وحبيب بن ثابت، وغيرهم، ثقة، ذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب. ١١: ١٩٢).

الكعبة ليلاً فقلت: يا رب إنك قلت: ﴿وَمَنْ دَخَلَه كان آمناً﴾ فمن ماذا هو آمنٌ يا ربّ؟ فسمعتُ مكلماً يكلمني وهو يقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد.

وقوله تعالى: ﴿ولِلَّهِ عَلَى النَّاس حجُّ البَيْت﴾... الآية، هو فرضُ الحج في كتابِ الله بإجماع. وقال مالك رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من مجمله الذي فسّره النبي عليه السلام، والحج من دعائم الإسلام التي بني عليها حسب الحديث[1]، وشروط وجوبه خمسة: البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، واستطاعة السبيل. والحج في اللغة: القصد، لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿حِجُّ البيت﴾ بكسر الحاء، وقرأ الباقون: ﴿حَجُّ البيت﴾ بفتحها. قال سيبويه: حَج حِجّاً مثل ذَكَر ذِكْراً، قال أبو علي: فَحِجٌّ على هذا مصدر، وقال سيبويه أيضاً: قالوا غزاة فأرادوا عمل وَجهٍ واحدٍ كما قيل حِجّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ـ بكسر الحاء، يريدون عمل سنة واحدة ـ ولم يجيئوا به على

(١) يشير إلى حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (بُني الإسلام على خمس) والحديث أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد، (الجامع الصغير. ١: ٤٢٨).

الأصل لكنه اسم له[١]. قال أبو علي: قوله: «لم يجيئوا به على الأصل» يريد على الفتح الذي هو الدفعة من الفعل، ولكن كسروه فجعلوه اسماً لهذا المعنى، كما أن غزاة كذلك، ولم تجئ فيه الغزوة وكان القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأكثر ما التزم كسر الحاء في قولهم ذو الحِجة، وأما قولهم: حَجَّةُ الوداع ونحوه فإنها على الأصل. وقال الزجاج وغيره: الحَج - بفتح الحاء - المصدر، وبكسرها اسم العمل. وقال الطبري: هما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطاع إليه سبيلاً﴾: ﴿مَنْ﴾ في موضع خفض بدل من﴿النَّاسِ﴾ وهو بدل البعض من الكل. وقال الكسائي وغيره: هي شرط في موضع رفع بالابتداء، والجواب محذوف تقديره: فعليه الحج؛ ويدل عليه عطف الشرط الآخر بعده في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وقال بعض البصريين: ﴿مَنْ﴾ رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿حَجُّ البَيْت﴾ ويكون المصدر مضافاً إلى المفعول.

واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر ابن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير: هي حالُ الذي

(١) قوله: (ولم يجيئوا.. اسم له): هذا تتمة كلام سيبويه.

يجد زاداً وراحلة. وروى الطبري عن الحسن من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي[١] أن رسولَ الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة)[٢].وأسند الطبري إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ملك زاداً وراحلة فلم يحجّ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً)[٣]. وروى عبد الرزاق وسفيان عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر[٤] عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي عليه السلام، فقال: ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وضعف قومٌ هذا الحديث لأن إبراهيم بن يزيد الخوزي تكلم فيه

---

(١) إبراهيم بن يزيد الخوزي الأموي أبو إسماعيل المكي، مولى عمر بن عبد العزيز روى عن طاوس وأبي الزبير ومحمد بن عباد وغيرهم. وروى عنه عبد الرزاق، ووكيع، ومعتمر بن سلمان، وغيرهم، قال البخاري: سكتوا عنه. قال ابن سعد: مات سنة ١٥١. «تهذيب التهذيب. ١: ١٧٩».

(٢) أخرجه الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر مرفوعاً، كما أخرجه الدارقطني بعدة روايات مختلفة. «تفسير الشوكاني. ١: ٣٣٢».

(٣) أخرجه الترمذي والبيهقي من رواية الحارث عن عليٍّ. «الترغيب. والترهيب: ٢: ٢١١».

(٤) محمد بن عباد بن جعفر المخزومي المكي، روى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عمر، وغيرهم، وروى عنه ابنه جعفر، والزهري، والأوزاعي وغيرهم، ثقة، قليل الحديث. «تهذيب التهذيب ٩: ٢٤٣».

ابن معين[1] وغيره، والحديث مستغن عن طريق إبراهيم، وقال بعض البغداديين: هذا الحديث مشير إلى أن الحج لا يجب مشياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي أقول: إن هذا الحديث إنما خرج على الغالب من أحوال الناس وهو البعد عن مكة واستصعاب المشي على القدم كثيراً، فأما القريب الدار فلا يدخل في الحديث، لأن القرب أغناه عن زاد وراحلة. وأما الذي يستطيع المشْي من الأقطار البعيدة، فالراحلة عنده بالمعنى والقوة التي وهب. وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يأْتُوك رجالاً﴾ وكذلك أيضاً معنى الحديث: الزاد والراحلة إن لم يكن له عذر في بدنه، من مرض أو خوف على أقسامه أو استحقاق بأجرة أو دين وهو يحاول الأداء، ويطمع فيه بتصرفه في مال بين يديه، وأما العديم فله أن يحج إذا تكلف واستطاع، فمقصد الحديث أن يتحدد موضع الوجوب على البعيد الدار، وأما المشاةُ وأصحابُ الأعذار فكثير منهم من يتكلف السفر وإن كان الحج غير واجب عليه، ثم يؤديه ذلك التكلف إلى موضع يجب فيه الحج عليه، وهذه مبالغة في طلب الأجر ونيله، إن شاء الله تعالى.

وذهبت فرقة من العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطاع إليه سبيلاً﴾ كلام عام لا يتفسر بزاد وراحلة ولا غير ذلك، بل إذا كان

(١) هو يحيى بن معين الإمام الفرد، سيد الحفاظ أبو زكرياء مولاهم البغدادي، سمع هشيما، وابن المبارك وغيرهما، وروى عنه أحمد، والبخاري، وغيرهما، توفي سنة ٢٣٣ هـ. «تذكرة الحفاظ. ٢ : ٢٢٩».

مستطيعاً غير شاق على نفسه فقد وجب عليه الحج، قال ذلك ابن الزبير والضحاك. وقال الحسن: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً. وقال عكرمة: استطاعة السبيل: الصحة. وقال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فهو السبيل إليه. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه ـ في سماع أشهب من العتبية، وفي كتاب محمد، وقد قيل له: أتقول إن السبيل الزاد والراحلة؟ ـ فقال: لا والله، قد يجد زاداً وراحلة ولا يقدر على مسير، وآخر يقدر أن يمشي راجلاً، ورب صغيرٍ أجلد من كبير، فلا صفة في هذا أبينُ مما قاله الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أنبل كلام؛ وجميع ما حكي عن العلماء لا يخالف بعضه بعضاً، الزاد والراحلة على الأغلب من أمر الناس في البعد، وأنهم أصحاء غير مستطيعين للمشي على الأقدام، والاستطاعة ـ متى تحصلتْ ـ عامة في ذلك وغيره، فإذا فرضنا رجلاً مستطيعاً للسفر ماشياً معتاداً لذلك، وهو ممن يسألُ الناسَ في إقامته ويعيشُ من خدمتهم وسؤالهم، ووجد صحابةً، فالحجُّ عليه واجبٌ دون زادٍ ولا راحلة. وهذه من الأمور التي يتصرف فيها فقه الحال. وكان الشافعي يقول: الاستطاعة على وجهين؛ بنفسه أولاً، فمن منعه مرض أو عذر وله مال فعليه أن يجعل من يحج عنه وهو مستطيع لذلك.

واختلف الناس، هل وجوب الحج على الفور أو على التراخي؟

على قولين، ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القولين، قال في «المجموعة» فيمن أراد الحج ومنعه أبواه: لا يعجّل عليهما في حجة الفريضة وليستأذنهما العام والعامين، فهذا على التراخي. وقال في كتاب ابن المواز: لا يحج أحد إلا بإذن أبويه إلا الفريضة، فليخرج وليدعهما، فهذا على الفور. وقال مالك في المرأة يموت عنها زوجها فتريد الخروج إلى الحج: لا تخرج في أيام عدتها، قال الشيخ أبو الحسن اللخمي[1]: فجعله على التراخي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا استقراءٌ فيه نظر.

واختلف قول مالك رحمه الله فيمن يخرج إلى الحج على أن يسأل الناس جائياً وذاهباً، ممن ليست تلك عادته في إقامته ـ فروى عنه ابن وهب أنه قال: لا بأس بذلك، قيل له: فإن مات في الطريق؟ قال: حسابه على الله. وروى عنه ابن القاسم أنه قال: لا أرى للذين لا يجدون ما ينفقون أن يخرجوا إلى الحج والغزو ويسألون، وإني لأكره ذلك، لقول الله سبحانه: ﴿ولاَ عَلَى الَّذين لا يَجدون ما يُنْفِقُون حَرَج﴾[2]. قال ابن القاسم: وكره مالك أن يحجَّ النساءُ في

(١) هو الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الربعي اللخمي القيرواني، تفقه بابن محرز وغيره من علماءِ وقته، ظهر في أيامه وطارت فتاويه، حاز رياسة أفريقية جُملة، وتفقه به جماعةٌ من أهل صفاقس، أخذ عنه أبو عبدالله المازري، له تعليق كبير على المُدَوَّنة (الديباج المذهب. ٢٠٣).

(٢) من الآية (٩١) من سورة التوبة.

البحر لأنها كشفة، وكره أن يحج أحد في البحر إلا مثل أهل الأندلس الذين لا يجدون منه بداً، وقال في كتاب محمد وغيره: قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يأتوكَ رجالاً وعَلى كُلِّ ضامِرٍ يأتين مِنْ كُلِّ فجٍّ عَميق﴾[١] ولا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأنيس من مالك رحمه الله بسقوط لفظة البحر، وليس تقتضي الآية سقوط البحر، وسيأتي تفسير ذلك في موضعه إن شاء الله، وقد قال رسول الله ﷺ: (ناس من أمتي عرضوا علي ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج هذا البحر الأخضر غزاةً في سبيل الله)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين الغزو والحج.

واختلف في حج النساء ماشيات مع القدرة على ذلك، فقال في «المدونة» في المرأة تنذر مشياً فتمشي وتعجز في بعض الطريق: إنها تعودُ ثانية؛ قال: والرجال والنساء في ذلك سواء، فعلى هذا يجب الحج إذا كانت قادرةً على المشي، لأن حجة الفريضة آكد من النذر.

---

(١) الآية (٢٧) من سورة الحج.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم (عن أنس رضي الله عنه) ـ انظر: (الترغيب والترهيب ٢: ٣٠٥).

وقال في كتاب محمد: لا أرى على المرأة الحجَّ ماشيةً وإن قويتْ عليه، لأن مشيهن عورةٌ، إلا أن يكونَ المكان القريب من مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ينظر بفقهِ الحال إلى رائعةٍ أو متجالّةٍ(١).

ولا حجَّ على المرأة إلا إذا كان معها ذو محرم، واختلف إذا عدمته ـ هل يجب الحج بما هو في معناه من نساء ثقات يصطحبن في القافلة، أو رجال ثقات؟ فقال الحسن البصري وإبراهيم النخعي وابن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو حنيفة وأصحابه: المحرم من السبيل، ولا حجَّ عليها إلا مع ذي محرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وقوف مع لفظ الحديث.

وقال مالك: تخرج مع جماعة نساء، وقال الشافعي: تخرج مع حرة ثقة مسلمة، وقال ابن سيرين: تخرج مع رجل ثقة من المسلمين، وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول وتتخذ سلماً تصعد عليه وتنزل ولا يقربها رجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأقوال راعت معنى الحديث. وجمهور الأمةِ على أن للمرأة

(١) التجال: التعاظم؛ وفي العبارة غموض.

أن تحجَّ الفريضة وإن كره زوجها، وليس له منعها. واضطرب قول الشافعي في ذلك.

واختلف الناس في وجوب الحج مع وجود المكوس والغرامة ـ فقال سفيان الثوري: إذا كان المكس ولو درهماً سقط فرض الحج عن الناس. وقال عبد الوهاب: إذا كانت الغرامةُ كثيرةً مجحفة سقط الفرض، فظاهر هذا أنها إذا كانت كثيرةً غير مجحفة لسعة الحال أن الفرض لا يسقط، وعلى هذا المنزع جماعةُ أهلِ العلم وعليه مضت الأعصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نبذة من فقه الاستطاعة، وليس هذا الجمع بموضع لتقصي ذلك، والله المستعان.

والسبيل: تذكر وتؤنث، والأغلب الأفصح التأنيث، قال الله تعالى: ﴿تَبْغونَها عِوَجاً﴾[١] وقال: ﴿قُلْ هذِهِ سبيلي أَدْعُو إلى اللَّهِ﴾[٢]؛ ومن التذكير قول كعب بن مالك[٣]:

قضى يومَ بدرٍ أن تلاقي معشراً بغوا، وسبيلُ البغي بالناسِ جائرُ

(١) من الآية (٩٩) من سورة آل عمران.
(٢) من الآية (١٠٨) من سورة يوسف.
(٣) من قصيدة له يجاوب فيها ضرار بن الخطاب، انظر ديوانه (جمع سامي العاني): ٢٠٠ والبداية والنهاية ٣: ٣٣٥.

والضمير في: ﴿إليه﴾ عائد على البيت، ويحتمل أن يعود على الحج.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَن العالَمين﴾ قال ابن عباس: المعنى: من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاك وعطاء وعمران القطان[1] والحسن ومجاهد. وروي عن النبي عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل: يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبي ﷺ: (من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك)[2]. وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً. وهذا والذي قبله يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة. وقال ابن عمر وجماعة من العلماء: معنى الآية: من كفر بالله واليوم الآخر، وهذا قريب من الأول. وقال ابن زيد: معنى الآية: من كفر بهذه الآيات التي في البيت، وقال السدي وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحجّ، قال السدي: من كان بهذه الحال فهو كافر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا كفر معصية، كقوله عليه السلام: (من ترك الصلاة فقد

---

(١) عمران بن داود العمى أبو العوام القطان البصري، روى عن قتادة، ومحمد بن سيرين، وأبي جمرة الضبعي، وغيرهم، وعنه ابن مهدي، وأبو داود الطيالسي، وآخرون، ذكره يحيى فأحسن الثناء عليه ، وابن حبان ذكره في الثقات. وقال النسائي: ضعيف. وقال الحاكم: صدوق، كان من أخص الناس بقتادة. «تهذيب التهذيب ١٣٠/٨».

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي داود نفيع. (تفسير الشوكاني ٣٣٤/١).

كفر)(١) وقوله: (لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض)(٢) على أظهر محتملات هذا الحديث. وبيَّن أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿غَنِيٌّ عَن العالَمين﴾ الوعيد لمن كفر. والقصد بالكلام: فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى، وينبِّه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغنائه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا ربَّ سواه.

قوله عز وجل:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ.

و﴿الكِتاب﴾: التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون، و﴿آيات الله﴾ يحتمل أن يريد

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسَط عن أنس. (الجامع الصغير ٥٠٩/٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة عن جرير، كما أخرجه الإمام أحمد، والبخاري وأبو داود، والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر، كما أخرجه البخاري والنسائي، عن أبي بكرة، وأخرجه البخاري، والترمذي عن ابن عباس. (الجامع الصغير ٦٣٢/٢).

بها القرآن، ويحتمل أن يراد بالآيات العلامات الظاهرة على يدي محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿واللَّهُ شَهيدٌ علَى ما تَعْمَلون﴾ وعيد محض: أي يجازيكم به ويعاقبكم. قال الطبري: هاتان الآيتان قوله: ﴿قلْ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرون﴾ وما بعدهما إلى قوله: ﴿وأُولئِك لَهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾، نزلت بسبب رجل من يهود حاول الإغراءَ بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحق[١]: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، قال:مرَّ شاس بن قيس اليهودي ـ وكان شيخاً قد عسا[٢] في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاظه ما رأى من جماعتهم، وصلاح ذات بينهم، بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[٣] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود، فقال: اعمد إليهم واجلس معهم وذكِّرهم يوم بعاث[٤]، وما كان قبله من أيام حربهم، وأنشدهمْ ما قالوه من الشعر في ذلك، ففعل الفتى، فتكلم القوم عند ذلك فتفاخروا وتنازعوا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكَبِ: أوس بن

(١) انظر السيرة ١: ٥٥٥ ـ ٥٥٧.
(٢) بمعنى: كبر وأَسَنَّ.
(٣) بنوقيلة: هم الأوس والخزرج وهي أمهم، قضاعية أو غسانية (اللسان: قيل).
(٤) هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس.

قيظي[1]، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر[2] من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها جذعة[3]، فغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاح، موعدكم الظاهرة، يريدون الحرة، فخرجوا إليها، وتحاور الناس على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ ووعظهم فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً من الأوس والخزرج، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات[4]. وقال الحسن وقتادة والسدي: إن هذه الآيات نزلت في أحبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام، بأن يقولوا

---

(١) أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد الأنصاري الأوسي: شهد أُحداً هو وابناه: كنانة، وعبد الله. قيل إنه كان منافقاً وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة، وقيل: لم يحضر عرابة أُحداً مع أبيه ولا مع أخويه لأن الرسول ﷺ استصغره. «الإصابة ٨٧/١». و«الاستيعاب».

(٢) جبار بن صخر بن أمية الأنصاري السلمي شهد بدراً وهو ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أُحُداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلةَ العقبة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين المِقْداد بن الأسود، توفي سنة ثلاثين في خلافة عثمان وهو ابن اثنتين وستين سنة. «الإصابة: ٢٢٠/١».

(٣) يردها جذعة: أي الحرب، يعيدها من جديد وكأنها لم تسكن.

(٤) أخرجه ابن إسحق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن زيد بن أسلم. وقد رويت هذه القِصة مختصرة ومطولة من عِدة طرق. «تفسير الشوكاني ٣٣٦/١».

لهم، إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك في وقوع هذين السببين وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك.

وصد معناه: أعرض عن الشيء وانصرف عنه، وهو فعل يقف ويتعدى بلفظ واحد، تقول: صددت عن كذا، وصددت غيري عنه، فالذي في هذه الآية هو الفعل المتعدي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿تُصِدُّون﴾، بضم التاء وكسر الصاد، وهذا هو الفعل الواقف، نقل بالهمزة فعدِّي. و﴿سَبيلِ اللَّهِ﴾ في هذه الآية هو الإسلام الذي هو طريق إلى رضى الله وجنته، و﴿مَنْ﴾ مفعولة بـ(تَصُدُّون)،والضمير في ﴿تَبْغُونها﴾ عائد على السبيل،ومعنى﴿تبغون﴾ على ما فسر الزجاج والطبري وغيرهما: تطلبون، فالمعنى: تطلبون لها العوجَ، أي الاعوجاج والانفساد، تقول العرب: ابغني كذا بألف موصولة، بمعنى اطلبه لي، فإذا أرادوا أعنّي على طلبه واطلبه معي، قطعوا الألف مفتوحة. وقيل:إنَّ﴿تبغون﴾هنا، من البغي الذي هو التعدي، أي: تبغون عليها، ويكون ﴿عِوَجاً﴾ ـ على هذا التأويل ـ نصبه على الحال من الضمير في ﴿تبغون﴾ أي: عوجاً منكم وعدم استقامة.

---

(١) يشير بهذا إلى ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن السدي. وما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير ـ عن قتادة: «تفسير الشوكاني ٣٣٦/١».

والعِوج بكسر العين ما كان في الأمور والحجج غير الأجرام، والعَوَجُ بفتح العين ما كان في الأجرام كالجدار والعصا ونحو ذلك، قال ابن قتيبة: والأرض خاصة من الأجرام يقال فيها: عِوج بكسر العين، ومنه قول الله تعالى: ﴿لاَ تَرى فِيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾(١). قال بعض اللغويين: هما لغتان بمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُم شُهداء﴾ يريد جمع شاهد، على ما في التوراة من صفة محمد وصدقه، وباقي الآية وعيد.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

الخطاب بقوله: ﴿يـأَيُّها الَّذينَ آمَنوا﴾ عام في المؤمنين، والإشارة بذلك وقت نزوله إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة(٢) شاس بن قيس. والفريق: الجماعة من الناس، والمراد بها هنا الأحبار والرؤوس، و﴿يَرُدُّوكُم﴾ معناه: بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح(٣).

---

(١) الآية (١٠٧) من سورة طه.

(٢) ـ نأرتْ نائرةٌ في الناسِ نأراً: هاجتْ هائجة.

(٣) في قوله تعالى: [يَرُدُّوكُمْ بعْدَ إيمانكُمْ كافرينَ] انتصب [كافرين] على أنه مفعول ثانٍ للفعل [يردّ] لأنها هنا بمعنى (صيَّر) كقول الشاعر:

فــردَّ شُعــورَهُنَّ السُّــودَ بيضـا ... وردَّ وجـوهَـهُـنَّ الـبـيض سـودا

وهو أظهر من قول من قال: إنه منصوب على الحال.

ثم وقف المؤمنين على هذا الأمر المستبعد المستشنع الذي يريده بهم اليهود، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكفُرون وَأَنْتُم﴾ بهذه الأحوال الموصوفة؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال، كما هي في قوله تعالى: ﴿كيفَ تَكْفُرونَ باللَّهِ وكُنْتُمْ أمْواتاً فأَحْياكُم﴾(١) والمعنى أجاحدين تكفرون؟ أجاهلين؟أمستخفين؟أمرتدين؟ونحو هذا من التقدير؛ والواو في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرون﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، ولا يجوز أن تكون ﴿كيف﴾ في هذه الآية كما هي في قولك: «كيف تفعل كذا»؟ وأنت تسأل عن شيء ثابت الوقوع متحصله، لأنه كان يلزم أن يكون كفر المؤمنين مقرراً مثبت الوقوع. وتأمل معنى «كيف» إذا وليها فعل، ومعناها إذا وليها اسم(٢).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُتْلى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الحسن: ﴿يُتلى﴾ بالياء إذ الآيات هي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُم﴾ هي ظرفية الحضور والمشاهدة لشخصه عليه السلام، وهو في أمته إلى يوم القيامة بأقواله وآثاره، و﴿يَعْتَصِم﴾ معناه: يتمسك ويستذري(٣)، وعصم الشيء إذا منع وحمى، ومنه قوله: ﴿يَعْصِمُني مِن الماءِ﴾(٤) والعصم: الأسباب التي يمت بها، ويعتصم من الخيبة في الغرض المطلوب، وقال الأعشى:

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة البقرة.

(٢) هناك خلاف في معناها بين السيرا في وسيبويه.

(٣) يستذري به: يلجأ إليه.

(٤) من الآية (٤٣) من سورة هود.

إلى المرءِ قيسٍ أُطيلُ السُّرى وآخذُ من كلِّ حيٍّ عُصُم[١]

وتصرف اللفظة كثير جداً، وباقي الآية بيِّن، والله المستعان.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾

الخطاب بهذه الآية يعم جميع المؤمنين، والمقصود به وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر.

وتُقاة: مصدر وزنه فُعلة، أصله تقية، وقد تقدم قوله: ﴿إلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنهم تُقَاة﴾[٢]، ويصح أن تكون التقاة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرماة ورام، أو يكون جمع تقي إذ فعيل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون مُتَّقوه المختصون به، ولذلك أُضيفوا إلى ضمير الله تعالى.

واختلف العلماء في قوله: ﴿حق تقاته﴾ ـ فقالت فرقة: نزلت الآية على عموم لفظها، وألزمت الأمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لا يقع إخلال في شيء من الأشياء، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأمة بقوله تعالى: ﴿فاتَّقُوا اللَّهَ ما اسْتَطَعْتُم﴾[٣] وبقوله ﴿لا يُكَلِّف الله نفساً إلا

---

(١) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب، والعُصم: جمع عصام وهو الحبل للمزادة والقربة، والمراد به هنا كل عهد وموثق.

(٢) من الآية (٢٨) من سورة آل عمران.

(٣) من الآية (١٦) من سورة التغابن.

وُسْعَها﴾[١] قال ذلك قتادة والسدي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم.

وقالت جماعة من أهل العلم: لا نسخ في شيء من هذا، وهذه الآيات متفقات، فمعنى هذه: اتقوا الله حقَّ تقاته فيما استطعتم، وذلك أن ﴿حقَّ تُقَاتِه﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه، وقد جعل تعالى الدِّين يسراً، وهذا هو القول الصحيح، وألا يعصي ابن آدم جملة لا في صغيرة ولا في كبيرة وألا يفتر في العبادة - أمرٌ متعذر في جبلة البشر، ولو كلف الله هذا لكان تكليف ما لا يطاق، ولم يلتزم ذلك أحد في تأويل هذه الآية، وإنما عبروا في تفسير هذه الآية بأن قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَقَّ تُقَاتِه﴾: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى[٢]، وكذلك عبر الربيع بن خيثم وقتادة والحسن. وقال ابن عباس رضي الله عنه: معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاته﴾: جاهدوا في الله حق جهاده، ولا نسخ في الآية. وقال طاوس في معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حقَّ تُقاته﴾: يقول تعالى: إن لم تتقوه ولم تستطيعوا ذلك فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

---

(١) من الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصحّحه، وابن مردويه - عن ابن مسعود، وقد رواه الحاكم وصححه، وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً بدون قوله: (ويشكر فلا يكفر) (تفسير الشوكاني ٣٣٦/١. وابن كثير ٣٨٧/١. ومجمع الزوائد ٣٢٦/٦).

وقوله تعالى: ﴿ولا تَموتنَّ إلا وأَنْتُم مُسْلِمون﴾ معناه: دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه. وهكذا هو وجه الأمر في المعنى، وجاءت العبارة على هذا النظم الرائق الوجيز، ونظيره ما حكى سيبويه من قولهم: لا أرينك ها هنا، وإنما المراد: لا تكن هنا فتكون رؤيتي لك. و﴿مُسْلِمون﴾ في هذه الآية: هو المعنى الجامع في التصديق والأعمال، وهو الدِّين عند الله وهو الذي بني على خمس.

وقوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بحَبْل اللَّهِ جَميعاً﴾ معناه: تمنعوا وتحصنوا به، فقد يكون الاعتصام بالتمسك باليد، وبارتقاء القنن، وبغير ذلك مما هو منعة، ومنه الأعصم في الجبل، ومنه عصمة النكاح، والحبل في هذه الآية مستعار، لمّا كان السببُ الذي يعتصم به وصلةً ممتدةً بين العاصم والمعصوم ونسبةً بينهما شبَّه ذلك بالحبل الذي شأنه أن يصل شيئاً بشيء، وتسمى العهود والمواثيق حبالاً، ومنه قول الأعشى[1]:

وإذا تُجوِّزُها حبالُ قبيلةٍ أخذت من الأدنى إليك حبالها

ومنه قول الآخر:

إنِّي بِحَبْلِكِ واصلٌ حَبْلي[2] ....

(١) البيت في ديوانه: ٢٤ والضمير في «تجوزها» يعود إلى ناقته، وفي رواية الدويان: أخذت من الأخرى.

(٢) قائل البيت: امرؤُ القيس. وتمامه: وبريش نَبْلكِ رائِش نبلي.

ومنه قول الله تعالى: ﴿إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وحَبْلٍ مِنَ الناس﴾[(١)].

واختلفت عبارة المفسرين في المراد في هذه الآية بحبل الله - فقال ابن مسعود: حبل الله: الجماعة. وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (إنَّ بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قال: فقيل: يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: الجماعة، وقرأ: ﴿واعْتَصِموا بحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً﴾[(٢)]. وقال ابن مسعود في خطبة: عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبلُ الله الذي أمر به. وقال قتادة رحمه الله: حبل الله الذي أمر بالاعتصام به: هو القرآن. وقال السدي: حبل الله: كتاب الله، وقاله أيضاً ابن مسعود والضحاك. وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (كتابُ الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)[(٣)]. وقال أبو العالية: حبل الله في هذه الآية: هو الإخلاص في التوحيد. وقال ابن زيد: حبل الله: الإسلام.

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (آل عمران).
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس في مسنده، وأخرجه الإمام أحمد، وأبو داود عن معاوية. «الترغيب والترهيب ٨٤/١». كما أخرجه الطبراني في الصغير عن أنس، وفي السند عبدالله بن سفيان وقد تكلم فيه. «مجمع الزوائد ١٨٩/١».
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير - عن أبي سعيد الخدري، وهو حسن. «الجامع الصغير ٢٢٥/٢ ط: ١».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل غير هذا مما هو كله قريب بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿اعْتَصِمُوا﴾، فالمعنى: كونوا في اعتصامكم مجتمعين، ﴿وَلاَ تَفَرَّقوا﴾ يريد التفرق الذي لا يأتي معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى. وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل في هذه الآية. بل ذلك هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (خلافُ أمتي رحمة)[1] وقد اختلف الصحابة في الفروع أشدَّ اختلاف، وهم يدُ واحدةٌ على كلِّ كافر. وأما الفتنة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن التفرق المنهي عنه، أمَا إنّ التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثرَ مَنْ دخله من الصحابة رضي الله عن جميعهم.

قوله عز وجل:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(١) رواه نصر المقدسي في «الحجة»، والبيهقي في «الرسالة الأشعرية» بغير سند، وأورده الحليمي، والقاضي حسين، وإمام الحرمين، وغيرهم، ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا. «الجامع الصغير ٣٩/١». وقال السبكي: لم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف.

هذه الآية تدل على أن الخطاب بهذه الآية إنما هو للأوس والخزرج، وذلك أن العرب ـ وإن كان هذا اللفظ يصلح في جميعها ـ فإنها لم تكن في وقت نزول هذه الآية اجتمعت على الإسلام ولا تألّفت قلوبها، وإنما كانت في قصة شاس بن قيس في صدر الهجرة، وحينئذ نزلت هذه الآية، فهي في الأوس والخزرج، كانت بينهم عداوة وحروب، منها يوم بعاث وغيره، وكانت تلك الحروب والعداوة قد دامت بين الحيين مائة وعشرين سنة، حتى رفعها الله بالإسلام، فجاء النفر الستة من الأنصار إلى مكة حجّاجاً، فعرض رسول الله ﷺ نفسه عليهم، وتلا عليهم القرآن كما كان يصنع مع قبائل العرب، فآمنوا به، وأراد الخروج معهم فقالوا: يا رسول الله، إن قدمتَ بلادنا على ما بيننا من العداوة والحرب خفنا ألّا يتمَّ ما نريده منك، ولكن نمضي نحن ونشيع أمرك ونداخل الناس، وموعدنا وإياك العام المقبل، فمضوا وفعلوا. وجاءت الأنصار في العام التالي، فكانت العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الأولين، ثم جاءوا من العام الثالث فكانت بيعة العقبة الكبرى، حضرها سبعون وفيهم اثنا عشر نقيباً؛ ووصف هذه القصة مستوعب في سيرة ابن هشام(١).

ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام بوجهين، أحدهما أن بني

(١) انظر السيرة ١: ٤٢٨ وما بعدها.

إسرائيل كانوا مجاورين لهم وكانوا يقولون لمن يتوعدونه من العرب: يبعث لنا نبي الآن نقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فلما رأى النفر من الأنصار محمداً ﷺ، قال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تذكره بنو إسرائيل فلا تُسْبَقُنَّ إليه. والوجه الآخر: الحرب التي كانت ضرَّستهم وأفنت سراتهم، فرجوا أن يجمع الله به كلمتهم كالذي كان، فعدد الله تعالى عليهم نعمته في تأليفهم بعد العداوة، وذكَّرهم بها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ عبارة عن الاستمرار وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت ما. وإنما خُصَّتْ هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار، وفيها مبدأ الأعمال، فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي حاله التي يستمرُّ عليها يومَهُ في الأغلب، ومنه قول الربيع بن ضبع(١):

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نفرا

والإخوان: جمع أخ، ويجمع إخوة، وهذان أشهر الجمع فيه، على أن سيبويه رحمه الله يرى أن إخوة اسم جمع، وليس ببناء جمع لأن

---

(١) الربيع بن ضبع بن وهب الفزاري، جاهلي، ذكر ابن هشام في التيجان أنه كبر وخرِّف وأدرك الإسلام، ويقال: لم يسلم، وروي عنه أنه وصف عمره فقال: عشت مائتي سنة في فترة عيسى، وستين في الجاهلية، وستين في الإسلام. «الإصابة ٢٦٧١/٥. ط: ١». وقد قال أبو حيان تعقيباً على استشهاد ابن عطية بهذا البيت: «وهذا الذي ذكره لا أعلم أحداً من النحويين ذهب إليه، إنما ذكروا أن أصبح تستعمل لاتصاف الموصوف بصفةٍ وقت الصباح، وتستعمل بمعنى (صار) فلا يلاحظ فيها وقت الصباح، بل مطلق الانتقال والصيرورة، وعليه قول الربيع بن ضبع.

فَعَلا لا يجمع على فِعْلة، قال بعض الناس: الأخ في الدين يجمع إخواناً، والأخ في النسب يجمع إخوة: هكذا كثر استعمالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي كتاب الله تعالى: ﴿إنَّما المؤمنون إخْوَةٌ﴾[١] وفيه: ﴿أَوْ بَني إِخْوانِهِنَّ﴾[٢] فالصحيح أنهما يقالان في النسب، ويقالان في الدين.

والشَّفا: حرف كل جرم له مهوى، كالحفرة والبئر والسقف والجدار ونحوه، ويضاف في الاستعمال إلى الأعلى كقوله: ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾[٣] وإلى الأسفل كقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾، ويثنّى شفوان. فشبه تعالى كفرهم الذي كانوا عليه وحربهم المُدْنية من الموت بالشفا، لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دأبا فأنقذهم الله بالإسلام، والضمير في ﴿مِنْها﴾ عائد على النار أو على الحفرة، والعَود على الأقرب أحسن، وقال بعض الناس ـ حكاه الطبري: إن الضمير عائد على الشفا، وأنث الضمير من حيث كان الشفا مضافاً إلى مؤنث، فالآية كقول جرير:

رأت مرَّ السنين أخذن مني ... كما أخذ السرارُ من الهلال[٤]

إلى غير ذلك من الأمثلة.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة الحجرات.

(٢) من الآية (٣١) من سورة النور

(٣) من الآية (١٠٩) من سورة التوبة.

(٤) السِّرار: آخر ليلة، إذا كان الشهر تسعاً وعشرين فسراره ليلة ثمان وعشرين، وإذا كان الشهر ثلاثين فسراره ليلة تسع وعشرين، وربما استسر ليلتين، إذا أتم الشهر. اسْتَسَرَّ الهِلال في آخر الشهر: خفي، لا يلفظ به إلا مزيداً. «اللسان».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس الأمر كما ذكر، والآية لا يحتاج فيها إلى هذه الصناعة، إلا لو لم تجد معاداً للضمير إلا الشفا، وأما ومَعَنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه ويعضده المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة.

وقوله تعالى: ﴿كذلك يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لكُم آياتِهِ﴾ إشارة إلى ما بينَّ في هذه الآيات، أي: فكذلك يبين لكم غيرها. وقوله: ﴿لَعَلَّكُم﴾ ترجٍّ في حق البشر، أي: من تأمل منكم الحال رجا الاهتداء(١).

قوله عز وجل:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

= والبيت في ديوان جرير، وإنما قال: أخَذْنَ، ولم يقل: أخَذَ لأن المرَّ لمَّا أُضيف إلى السنين وهو جمعُ مؤنث اكتسب منه التأنيث، فأدخل النون في الفعل مراعاةً لما في المرِّ من التأنيث المكتسب من الإضافة. «معلق الطبري». هذا، وقد روى البيت: أرى مرَّ السنين...

(١) فابن عطية هنا يُبقي الترجي على حقيقته لكنه يجعله بالنسبة إلى البشر لا إلى الله تعالى إذ يستحيل الترجي منه. أما الزمخشري فقال: [لعلكم تهتدون]: إرادة أن تزدادوا هدى، فجعل الترجي مجازاً عن إرادة الله زيادة الهدى ـ فهو على الرأيين مجاز ـ أما في قول الزمخشري فلأنه جعل الترجي بمعنى إرادة الله، وأما في قول ابن عطية فلأنه أسند ما ظاهره الإسناد إليه سبحانه ـ إلى البشر.

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: ﴿ولِتَكُنْ﴾ بكسر اللام على الأصل، إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن.

قال الضحاك والطبري وغيرهما: أُمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول ﴿مِنْ﴾ للتبعيض. وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل على وجوهها ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكلَّ لا يكون عالماً. وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس قال: ومثله من كتاب الله ﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثان﴾(١)، ومثله من الشعر قول القائل:

أخو رغائبَ يُعطيها ويسألها يأبى الظلامةَ منه النوفلُ الزُّفَرُ(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن

(١) من الآية (٣٠) من سورة الحج.
(٢) البيت لأعشى باهلة وهو عامر بن الحارث الباهلي، شاعر جاهلي، والرغائب العطايا. والنوفل: من ينفي الظلم من قومه، الزفر: السيد (اللسان: نفل).

منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون «التجريد». وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ ولا تجده يدخل قول الشاعر: «منه النوفل الزفر»، ولا تجده يدخل في «من» التي هي صريح بيان الجنس، كقولك: ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبعيض. ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة.

قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائمٌ سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق[(١)]، فقد قال ﷺ: (من كان آمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف)[(٢)] ومنها ألَّا يخاف الآمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله ﷺ: (مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[(٣)].

(١) التخرق: الاختلاق.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف) عن ابن عمرو وهو ضعيف. «الجامع الصغير ٥٠٣/٢».

(٣) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم في صحيحه، والأربعة عن أبي سعيد الخدري. «الجامع الصغير ٥٢٠/٢».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: هي اليد[١]، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام الولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير: «يأْمُرونَ بالمعْرُوف وينْهَوْنَ عَن المُنْكر، ويستعينون بالله على ما أَصَابَهم»[٢] فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارةٌ إلى التعرض لما يصيب عَقِيبَ الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالى: ﴿وأْمُرْ بالمعْرُوفِ وَانْه عَن المُنْكَر واصْبر على ما أصابك﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ يـأَيها الذين آمَنوا عليْكُمْ أَنْفُسَكم، لا يضُرُّكُمْ مَنْ ضلَّ إذا اهْتَدَيْتُم﴾[٤] معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكر. وقال بعض العلماء: المعروف: التوحيد، والمنكر: الكفر، والآية نزلت في الجهاد.

---

(١) ـ الضمير في: (لهم) يعود على «الولاة»، و(هي) أي: السُّلْطة، و(اليد) هي المذكورة في الحديث الشريف: (بيده).

(٢) ـ هذه الزيادة ليست من القرآن ـ راجع القرطبي.

(٣) من الآية (١٧) من سورة لقمان.

(٤) من الآية (١٠٥) من سورة المائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالةَ أنّ التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر التوحيد والكفر يدخل في الآية ولا بد.

و﴿المُفْلِحون﴾ الظافرون ببغيتهم، وهذا وعد كريم.

ثم نهى الله تعالى هذه الأمة عن أن يكونوا كالمتفرقين من الأمم. واختلفت عبارة المفسرين في المشار إليهم، فقال ابن عباس: هي إشارة إلى كلٍّ من افترق في الأمم في الدين فأهلكهم الافتراق، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى فرق اليهود وفرق النصارى، ومجيء البينات هو ببعث الرسل وإنزال الكتب، وأسند الفعل دون علامة إلى البينات من حيث نزلت منزلة البيان، ومن حيث لا حقيقة لتأنيثها، وباقي الآية وعيد.

وقوله ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يعني أنه أعظم من سواه، ويتفاضل هذا ن العوضان بأن أحدهما يتخلله فتور، وأما الجزء الفرد من هذا وذلك فسواء، هذا تحرير مذهب أصحابنا الأصوليين رحمهم الله.

قوله عز وجل:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

والعامل في قوله: ﴿يوم﴾ الفعلُ الذي تتعلق به اللام في قوله: ﴿وَلَهُمْ

عذابٌ عَظيمٌ﴾، قال الزجاج: تقديره: ويثبت لهم عذاب عظيم؛ وقال قوم: العامل فيه: عظيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك ضعيف من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن عظم العذاب في ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: ﴿عذابٌ﴾ لأنه مصدر قد وصف.

وبياض الوجوه: عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله، قاله الزجاج وغيره. ويحتمل عندي أن يكون ذلك من آثار الوضوء كما قال ﷺ: (أنتم الغُرُّ المحجَّلون من آثار الوضوء)[1].وأما سواد الوجوه: فقال المفسرون: هو عبارة عن اربدادها وإظلامها بغم العذاب. ويحتمل أن يكون ذلك تسويداً ينزله الله بهم على جهة التشويه والتمثيل بهم، على نحو حشرهم زرقاً وهذه أقبح طلعة، ومن ذلك قول بشار:

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ زُرْقُ العيونِ عليها أوجهٌ سودُ[2]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة. (الجامع الصغير ٣٦٥/١).

(٢) هو بشار بن برد، أبو معاذ، لقبه المرعث، ولد بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب فشب فصيحَ اللسان صحيحَ البيان، كان يعيش في ظلال الشعر، وُلد أكمه، وكان هجاءً يتغزل بالنساءِ، ويهتك سِتر الحشمة حتى نقم الناس منه وتمنوْا موته فأمر المهدي العباسي صاحبَ شرطته أن يضربه بالسوط فضربه حتى مات سنة: ١٦٧ هـ وقد أوفى على السبعين «الأغاني ٣: ١٢٩». والبيت من قطعة يهجو بها العباس بن محمد العباسي. والعلل: المعاذير التي يبديها البخيل ليصرف العفاة، وسُمِّيت عللاً لأنها يبرهن بها على=

وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿تِبْيض وتِسْود﴾ بكسر التاء، وقرأ الزهري، ﴿تبياض وجوهٌ، وتسواد وجوه﴾ بألف، وهي لغة.

ولما كان صدر هذه الآية إخباراً عن حال لا تخص أحداً معيناً بدئ بذكر البياض لشرفه، وأنه الحالة المثلى، فلما فهم المعنى وتعين له الكفار والمؤمنون، بدئ بذكر الذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ تقرير وتوبيخ متعلق بمحذوف تقديره: فيقال لهم: أكفرتم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب (أما)، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغنى المعنى عنه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ منكُم مريضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾(١) المعنى: فأفطر فعدة.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إيمانِكم﴾ يقتضي أن لهؤلاء المُوقَفين إيماناً متقدماً، فاختلف أهل التأويل في تعيينهم ـ فقال أبي بن كعب: المُوقَفين جميع الكفار، والإيمان الذي قيل لهم بسببه: ﴿بعْدَ إيمانكم﴾ هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟ قالوا بَلَى﴾(٢)

=وجه منع العطاءِ. وشبه بشار هذه العلل بحُرَّاس يتخذها البخيل على أمواله على طريقة المكنية وأثبت لها أعيناً زُرقاً ووجوهاً سوداً على طريقة التخييل.

والمقصود من البيت: التشنيع وعلامة الشر، فقوله: «زرق العيون» تشويه وتوسيم بالشر (تعليق الشيخ الطاهر بن عاشور ١٢٨/٣ على ديوان بشار).

(١) من الآية: (١٨٤) من سورة البقرة.

(٢) من الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

وقال أكثر المتأولين: إنما عنى بالتوقيف في هذه الآية أهلَ القبلة من هذه الأمة، ثم اختلفوا ـ فقال الحسن: الآية في المنافقين، يؤمنون بألسنتهم ويكفرون بقلوبهم، فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ أي ذلك الإيمان بألسنتهم. وقال السدي: هي فيمن كفر من أهل القبلة حين اقتتلوا، وقال أبو أمامة[1]: الآية في الخوارج، وقال قتادة: الآية في أهل الردة، ومنه الحديث: (ليردنَّ على الحوض رجالٌ من أصحابي حتى إذا رفعوا إليَّ اختلجوا فأقول: أُصيحابي أُصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: فسحقاً فسحقاً)[2]، وفي بعض طرقه: (فأناديهم: ألا هَلُمَّ، ألا هلم). وذكر النحاس قولاً: إن الآية في اليهود، وذلك أنهم آمنوا بصفة محمد واستفتحوا به، فلما جاءهم من غيرهم كفروا، فهذا كفر بعد إيمان، وروي عن مالك أنه قال: الآية في أهل الأهواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إن كان هذا ففي المختَلجين[3] منهم القائلين ما هو كفر،

---

(١) هو صَديُّ بنُ عَجْلان بن الحارث الباهلي، مشهور بكنيته، روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة، وروى عنه جماعة منهم مكحول وشهر بن حوشب، سكن الشام وتوفي سنة ٨٦ هـ. «الإصابة ٢: ١٨٢».

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري، ومسلم، عن أنس وعن حذيفة. «الجامع الصغير ٣٨٦/٢».

(٣) المختلج: هو الذي نقل عن قومه ونسبه فيهم إلى قومٍ آخرين، اختلج الشيء انتزعه.

وروي حديثٌ أن الآية في القدرية(١) وقال أبو أُمامة: سمعنا من رسول الله ﷺ: أنها في الحرورية(٢)، وقد تقدم عنه أنها في الخوارج وهو قول واحد، و(ما) في قوله: ﴿بما كُنْتُم﴾ مصدرية؛ وقوله تعالى: ﴿فَفي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي في النعيم الذي هو(٣) موجب رحمة الله، وقوله بعد ذلك: ﴿هُمْ فيها﴾ تأكيد بجملتين، إذ كان الكلام يقوم دونها.

قوله عز وجل:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

---

(١) الحديث المشار إليه: هو حديث أبي أُمامة الباهلي، وقد أخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة، وكذا الحاكم. وقد أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وعبد الرزاق وإسحق والطبراني وأبو يَعْلى، كلهم من طريق أبي غالب. «تعليق الكشاف لابن حجر ١: ٣٩٩ ط: ١» «وابن كثير في تفسيره ١/٣٩٠».

والقدرية: قوم يجحدون القدر، أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياءِ وينقسمون إلى اثنتي عشرة فرقة.

(٢) الحرورية: فرقة من الخوارج الذين قاتلهم عليٌّ رضي الله عنه، تنسب إلى موضع بظاهر الكوفة يقال له حروراءَ، وتنقسم إلى اثنتي عشرة فرقة أيضاً.

(٣) قال الزمخشري: «فإن قلت: كيفَ موقع قوله: [هم فيها خالدون] بعد قوله: [ففي رحمة الله]؟ قلت: موقع الاستئناف كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون، لا يظعنون عنها ولا يموتون».

الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار وتنعيم المؤمنين، ولما كان فيها ذكر التعذيب أخبر تعالى أنه لا يريد أن يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا لم يرد ذلك فلا يوجد البتة، لأنه لا يقع من شيء إلا ما يريد تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بالْحَقِّ﴾ معناه: بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون المعنى: نتلوها عليك مضمنة الأفاعيل التي هي حق في أنفسها، من كرامة قوم، وتعذيب آخرين. وقرأ أبو نهيك: ﴿يَتْلوها﴾ بالياء، وجاء الإعلام بأنه تعالى لا يريد ظلماً في حكمه، فإذاً لا يوجد(١).

ولما كان للذهن أن يقف هنا في الوجه الذي به خص الله قوماً بعملٍ يرحمهم من أجله، وآخرين بعملٍ يعذّبهم عليه، ذكر تعالى الحجة القاطعة في ملكه جميع المخلوقات، وأنَّ الحق لا يُعْتَرَضُ عليه، وذلك في قوله: ﴿ولِلَّهِ ما في السموات وما في الأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا﴾ ولم يقل: ﴿مَنْ﴾ من حيث هي جمل وأجناس، وذكر الطبري أن بعض البصريين نظر قوله تعالى: ﴿وإلى الله﴾ فأظهر الاسم، ولم يقل إليه بقول الشاعر:

---

(١) في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا ما عمل لله بها، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها).

وروى أبو ذر أن النبي ﷺ قال فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنه قال: يا عبادي، إني حرّمتُ الظُّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا).

لا أرى الموت يسبق الموتَ شيءٌ نغّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا[(١)]

وما جرى مجراه، وقاله الزجاج، وحكى أن العرب تفعل ذلك إرادةَ تفخيم الكلام والتنبيه على عظم المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تشبه البيت في قصد فخامة النظم، وتفارقه من حيث الآية جملتان مفترقتان في المعنى، فلو تكررت جملٌ كثيرة على هذا الحد لحسن فيها كلّها إظهار الاسم، وليس التعرض بالضمير في ذلك بعرف، وأما البيت وما أشبهه فالضمير فيه هو العرف، إذ الكلام في معنى واحد، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس التي يؤمن فيها اللبس على السامع.

وقرأ بعض السبعة: ﴿تَرجِعُ الأمورُ﴾ بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في معنى: ﴿كُنْتُمْ خيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ﴾ ـ فقال عمر بن الخطاب: هذه لأولنا، ولا تكون لآخرنا، وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل.

(١) البيت لعديٍّ بن زيد. وقوله: لا أرى الموت يسبقهشيءٌ، أي لا يفوت الموتَ شيءٌ. وقوله: نغّصِ الموتُ... يريد: نغص الموتُ عيشَ ذي الغنى والفقر، يعني أن خوفَ الغَنِيِّ من الموت يُنَغِّص عليه الالتذاذ بالغِنَى والسرورَ به، وخوف الفقير من الموت ينغص عليه السعي في التماس الغنى. «خزانة الأدب ١/١٨٣».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد ومن شاكلهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا كلّه قولٌ واحد، مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة، قيل لهم: كنتم خيرَ أمة، فالإشارة بقوله: ﴿أمَّة﴾ إلى أمة محمد معينة، فإن هؤلاء هم خيرها.

وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: خطاب الأمة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلفظة ﴿أُمَّة﴾، على هذا التأويل اسم جنس، كأنه قيل لهم: كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس، وقول النبي ﷺ: (نحن الآخرون السابقون)(١) . . . الحديث. وروى بهز بن حكيم(٢) عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال يوماً وهو مسند ظهره إلى

(١) أخرجه البخاري، ومسلم- عن أبي هريرة. «البخاري ٢/٢ من كتاب الجمعة».

(٢) هو أبو مالك بهز بنُ حكيم بن معاوية بن حيدة القُشَيْري البصري، روَى عن أبيه، وروى عنه الزهري وابن عون، وخلائق من الأئِمة، توفي بعد الأربعين ومائة، وقيل: قبل الستين. «تهذيب الأسماءِ» و «الخلاصة». وحكيم وَالِد بَهْز: هو أبو بهز القُشيري البصري التابعي، ثقة معروف. ومعاوية بن حيدة. جدُّ بهْز صحابي غزا خراسان ومات بها، له أحاديث صحاح. «تهذيب الأسماءِ» و «تهذيب التهذيب»، و «الخلاصة»، و «الإصابة».

الكعبة: (نحن نكمل يوم القيامة سبعين أمة نحن آخرها وخيرها)(١) قال مجاهد: معنى الآية: كنتم خير الناس، وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها على الله تعالى(٢)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى الآية: كنتم للناس خير الناس(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فـ(أمة) على هذا التأويل: اسم جنس، قال أبو هريرة: يجيئون بالكفار في السلاسل فيدخلونهم في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يبعث نبي إلى الأمة كافة إلا محمد ﷺ، فهو وأمته يدعون إلى الإيمان ويقاتلون العالم عليه، فهم خير الناس للناس، وليس يلزم على هذا التأويل أنهم أفضل الأمم من نفس لفظ الآية، لكن يعلم هذا من لفظ آخر، وهي كقوله ﷺ: (أرأف أمتي بأمتي أبو بكر)(٤) فليس يقتضي هذا اللفظ أن أبا بكر أرأف الناس على الإطلاق من مؤمن وكافر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن قتادة ٤٥/٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم ـ عن معاوية بن حيدة. «الجامع الصغير» ٣٤١/١. و «فتح القدير» للشوكاني ٣٤٠/١.

(٣) أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: (خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل) الحديث. «فتح القدير للشوكاني» ٣٤٠/١.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر، وهو ضعيف، والحديث بطوله في الجامع الصغير ١١٨/١.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرأفة المفروضة على الإطلاق ليست بجارية مع الشرع كما يجب.

وأما قوله: ﴿كُنْتُم﴾ على صيغة الماضي، فإنها التي بمعنى الدوام، كما قال: ﴿وكانَ اللَّهُ غَفُوراً رحيماً﴾، إلى غير هذا من الأمثلة، وقال قوم: المعنى كنتم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أخبر به الأمم قديما عنكم. و ﴿خَيْر﴾ على هذه الأقوال كلها خبر كان، ويحتمل أن تكون ﴿كان﴾ التامة، ويكون ﴿خير أمة﴾ نصباً على الحال، وهذا يتجه على بعض التأويلات التي ذكرناها دون بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها مَن عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وقوله: ﴿تأْمُرونَ بالمَعْروفِ﴾ وما بعده أحوال في موضع نصب.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح أنهم لو آمنوا لنجَّوا أنفسهم من عذاب الله. وجاءت لفظة ﴿خَيْر﴾ في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة ﴿خير﴾ من الشياع وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراهما. وقد

بُيِّنَ هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهُم المؤْمنونَ﴾ تنبيه على حال عبد الله بن سلام(١) وأخيه(٢) وثعلبة بن سعية(٣) وغيرهم ممن آمن. ثم حكم الله على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم حرفوا وبدلوا وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد ﷺ، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين.

قوله عز وجل:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة، فالاستثناء

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، وكان اسمه الحصين فغيره النبي ﷺ إلى عبد الله. قال الطبري: مات في قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وأسد أو أسيد بن سعية قالت يهود: ما أتى محمداً إلا شرارنا فأنزل الله تعالى: [لَيْسوا سواءً، مِنْ أهل الكتاب - إلى قوله: صالحين]: «الإصابة».

(٢) هو ثعلبة بن سلام، روى الطبراني من قول ابن جريج مقطوعاً أنه أحد من نزل فيه قوله تعالى: [منْ أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله]. «الإصابة ١٩٩/١».

(٣) وثعلبة بن سعية هو أحد من أسلم من اليهود يوم قريظة فمنعوا دماءَهم وأموالهم، لهم خبر في السير يخرج في أعلام نبوة محمد ﷺ، قال البخاري: توفي ثعلبة في حياة النبي ﷺ. «الإصابة» و «الاستيعاب ٢١١/١».

متصل. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: الأذى هو تحريفهم أمر محمد ﷺ وتكذيبهم إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتَنَقُّصهم المؤمنين وَطعْنُهُم عليهم جملةً وأفراداً، وهذا كله عظيم مقلق وبسببه استحقوا القتلَ والإجلاءَ وضربَ الجزية. لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدُّوا أحداً عن دينه، ولا يَشْغَلوهُ عن عبادة ربّه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير قول ثمامة بن أثال[1]: "يا محمد إن تقتلني تقتلْ ذا دمٍ، وإن تنعمْ تنعم على شاكر، وإن شئت المال فسلْ منه ما شئت" فقوله: «ذا دم» روي بالذال منقوطة، وبالدال غير منقوطة، فذم بفتح الذال وبكسرها أراد بها الذمام، وأما بالدال غير منقوطة، فيحتمل أنه أراد التعظيم لأمر نفسه، وذلك بأحد وجهين: إما أن يريد الوعيد، أي تقتل ذا دم مطلوب بثأره له حماة فاحذر عاقبة ذلك، وإما أن يريد تقتل ملكاً يُسْتَشْفَى بدمه، كما كانت العرب تعتقد في دماء الملوك، فهذا استعطاف لا وعيد، أي: لا ينبغي لك أن تفسد مثلي، وهذا كما استعطف

(١) هو ثمامة بن أثال الحنفي، سيد أهل اليمامة أُسر فقال ﷺ: (ما عندك يا ثُمامة؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم).الحديث، أسره الصحابة حينما ظفروا به بنجد، وكان يريد مكة ليعتمر فأصبح مربوطاً باسطوانة عند باب رسول الله ﷺ، فأمر به النبي ﷺ فأُطلق، فذهب ثمامة إلى المصانع فغسل ثيابه، واغتسل، ثم جاءَ إلى رسول الله ﷺ فأسلم وشهد شهادة الحقّ. «الاستيعاب ٢٠٣/١».

الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى، ويحتمل كلام ثمامة أنه أراد تحقيرَ أمرِ نفسه وليذهب عن نفس رسول الله ﷺ المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبد الله بن مسعود: وهل أعمد[١] من رجل قتلتموه؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبد العزيز، حين قال له: لأقتلنك، قال: إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر[٢] شيئاً، فكأن ثمامةَ أراد: إن تقتلني تقتل حيوانا حقيراً شأنه، كما يقتل كلّ ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام علي؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عظيم في نفسه تنبيهاً لهم.

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ . . . الآية، بخبر غيبٍ صحّحه الوجود، فهي من آيات محمد ﷺ، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرون﴾، أي: لا تكون حربهم معكم سجالاً[٣]،

(١) من حديث ابن مسعود أن أبا جهل قال لمّا قتله: أعمد من رجل قتله قومه، أي: هل زاد على رجل قتله قومه؟ وهل كان إلا هذا؟ أي أنه ليس بعار، وقيل: أعمد بمعنى: أعجب، وقيل: أعمد بمعنى أغضب، وقيل: معناه: أتوجّع وأشتكي، والمراد بذلك كله أن يُهوِّن على نفسه ما حلّ به من الهلاك. «النهاية لابن الأثير ١٤٣/٣».

(٢) اختلفت النسخ في كتابة الكلمة مِمّا لم يتبين معه المقصود بها إلاّ ما كان من نسخة الخزر فهي أقرب إلى الفهم، ويوجد احتمال أن اللفظة هي الخزر بتقديم الزاي على الراءِ ومعناها كما في معجم البلدان: سكان الخزر، وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب، وهو احتمال غير بعيد سيّما إذا علم أن الأسير من بلاد الترك، فليحقق.

(٣) قال بعضهم: إن (ثُمَّ) في قوله تعالى: [ثمَّ لا يُنْصَرونَ] استئناف إخبار بأنهم لا ينصرون ـ يريد اعداءه، ولم يشرك في الجزاءِ فيجزم لأنه ليس مرتبا على الشرط، بل التولية مترتبة على القتال، والنصر منفى عنهم أبداً، و (ثم) هنا ليست للتراخي في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإخبار بانتفاء النصر عنهم مطلقاً.

وخصَّ الأدبار بالذكر دون الظهر تخسيساً للفارّ، وهكذا هو حيث تصرف.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾ معناه: أُثبتت بشدة وإلزام مؤكد، وهذا وصفُ حالٍ تقرَّرتْ على اليهود في أقطارِ الأرض قبل مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلام وإن المجوس لتجبيهم[١] الجزية، وما كانت لهم عزة ومنعة إلا بيثرب وخيبر وتلك الأرض فأزالها الله بالإسلام، ولم تبقَ لهم رايةٌ أصلاً في الأرض. و ﴿الذِّلَّة﴾ ـ فِعلة من الذل، و ﴿ثُقِفوا﴾ معناه: أخذوا وهم بحال المذنب المستحقّ الإهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿فإمَّا تَثْقَفَنَّهم في الحَرْبِ﴾[٢]. ﴿فاقْتُلُوا المُشْرِكينَ حيْثُ ثَقِفْتُمُوهم﴾[٣] واللفظة مأخوذة من الثقاف، ومنه قول الشاعر:

تدعو ثقيفاً وقد عضَّ الحديدُ بها عضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأَنابيبِ[٤]

وقوله تعالى: ﴿إلَّا بِحَبْلٍ﴾ استثناء منقطع، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلَّا خطأً﴾[٥] لأن بادي الرأي

(١) جبى الخراجَ والماءَ والحوضَ يجباهُ ويجبيه: جمعه. ابن سيده، يقال: جَبَيْتُ الخراجَ من القوم وجبيتُه القومَ، إذا أخذته منهم. ويقال: جبيت الخراج جباية، وجبوته جباوة.

(٢) من الآية (٥٧) من سورة الأنفال.

(٣) من الآية (٩١) من سورة البقرة.

(٤) البيت للنابغة الذبياني. والثقاف: خشبة تقوم بها الرماح، والأنابيب: جمع أُنبوب وهو كعوب العصا. يقول: عض الحديد معصم هذه المرأة فأوجعها فجعلت تستغيث بقومها. «ديوان النابغة».

(٥) من الآية (٩٢) من سورة النساء.

يعطي أن له أن يقتل خطَأً، وأن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة، وليس الأمرُ كذلك، وإنما الكلام محذوف يدركه فهمُ السامع الناظر في الأمر، وتقديره في آيَتِنَا: فلا نجاةَ من الموت إلا بحبل.

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهم الذِّلَّةُ أَيْنما ثُقِفُوا﴾ كأنه بالمعنى: هلكوا واستؤصلوا، فلذلك حسُن أن يجيء بعدها: ﴿إلَّا بِحَبْلٍ﴾. وقرب فهم ذلك للسامع. قال الزجاج: المعنى: ضُرِبَتْ عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، والحبل: العهد، شُبِّهَ به لأنه يصلُ قوماً بقوم كما يفعل الحبلُ في الأَجرام.

و ﴿باءُوا﴾ معناه: مضوا متحملين لهذا الحكم، وغضب الله عليهم بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم. وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنّتِ والعصيان توجب الغضب، فلذلك خُصُّوا به، والنصارى إنما ضلوا فقط. و ﴿المسْكَنة﴾: التذلل والضعة، وهي حالة الطوَّافِ الملتمسِ لِلُّقمة ولِلُّقمتين الضارعِ المفارقِ لحالة التعفّف والتعزز به، فليس أحدٌ من اليهود وإن كان غنياً إلا وهو بهذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك، و ﴿آيات اللَّهِ﴾ يحتمل أن يراد بها المتلوة، ويحتمل أن يريد العبر التي عرضت

عليهم. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكونَ في وهم إنسان ممكناً بوجه ما.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بما عَصَوْا﴾ حمله المفسّرون على أن الإشارةَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الشيءُ الذي أشير إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأول، قاله الطبري والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن الله تعالى استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تأمل[١]. وعصيان بني إسرائيل واعتداؤ هم في السبت وغيره متقررٌ في غيرِ ما موضعٍ من كتاب الله. وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية: «اجتنبوا المعصيةَ والعدوانَ فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس».

قوله عز وجل:

﴿ * لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامةً في جميع

(١) يريد: تأمل المتأمل؛ وقد تكون بصيغة المجهول «تؤمل». كما جاء في بعض النسخ.

أهل الكتاب، عقَّب تعالى ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أنّ أهلَ الكتاب لم يزلْ فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدركَ الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا النظرَ أن جميعَ اليهود على عِوَجٍ من وقت عيسى، وتجيءُ الآية إشارةً إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصارى، ولفظ﴿أهل الكتاب﴾يعم الجميع، والضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿مِنْهُمُ المؤْمنونَ وأكثَرهُمُ الفاسِقون﴾، وما قال أبو عبيدة من أن الآية نظيرة قول العرب: «أكلوني البراغيث» خطأ مردود[1]، وكذلك أيضاً ما حُكي عن الفراء أن ﴿أُمَّةٌ﴾ مرتفعة بـ ﴿سَواءً﴾ على أنها فاعلة كأنه قال: لا تستوي أمة كذا، وأنّ في آخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره: وأمة كافرة، فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودلَّ عليه، كما قال أبو ذؤيب:

(١) ذهب أبو عبيدة إلى أن الواو في [لَيْسُوا] علامة جمع لا ضمير مثلها في ذلك قول الشاعر:

يلُومونَني في شِراءِ النَّخيـ ـلِ قوْمي، وكلُّهم ألوم

واسم (ليس) هو: (أمة قائمة) ـ أي: ليس سواءً مِن أهل الكتاب أمة قائمةٌ مَوصوفةٌ بما ذكر وأمةٌ كافرةٌ. قال أبو (حيّان) في البحر المحيط: «إن ابن عطية توهم أن اسم (ليس) هو (أمة قائمة) فقط، وأنه لا محذوف ـ فإذا عرف أن ليس الغرض تفاوت الأمة القائمة التالية وإذا قدِّر ثمَّ محذوف لم يكن قول أبي عبيدة خطأً مردوداً».

عصيتُ إليها القلبَ إني لأمْرِها سميعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابها[١]؟

المعنى: أم غي، فاقتصر لدلالة ما ذكر عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما الوجه أن الضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ يراد به من تقدم ذكره، و ﴿سَواءً﴾ خبر ليس، و ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتابِ﴾ مجرور فيه خبر مقدم، و ﴿أمة﴾ رفع بالابتداء.

قال ابن عباس رضي الله عنه لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد[٢] بن سعية، وأسد بن عبيد[٣]، ومن أسلم من اليهود

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي أنشده ابن هشام في المغني وروايته:

دعاني إليها القلبُ إنّي لأمْرِهِ سميع ....

ورواه النيسابوري في تفسيره بهذا اللّفظ: دَعاني إليها القلبُ إنّي لأمره مطيع

ومعنى البيت على ما في ديوان الهذليين: عصاني إليها: أي خَطَر إليها قلبي وذهب إليها، فما أدري أرشد الذي وقعت فيه أم غي؟

وقال غيره:

أراك فما أدري أهمٌّ ضَمَمْتُه وذو الهمّ قِدماً خاشعٌ مُتضائلُ

والتقدير: أم غيره. قال الفراءُ: لأن المساواة تقتضي شيئين، وذلك واضح في قوله تعالى: [سَواءٌ العاكفُ فيه والبادِ].

[سَواءٌ محياهُمْ ومَماتُهُمْ].

(٢) أسيد بن سعية بن عريض القرظي أحد من أسلم من اليهود، نزل هو وأخوه ثعلبة بن سعية في الليلة التي في صبيحتها نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ ومعهما أسيد بن عبيد القرظي فأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم. «الإصابة ٣٣/١». و «الاستيعاب ٥٦/١».

(٣) أسد بن عبيد القرظي ذكره ابن حبان في الصحابة وهو أحد من أسلم من اليهود مع أسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية وغيرهما، وفيهم قالت اليهود لما أسلموا: ما أتى محمداً إلا شرارنا، فأنزل الله فيهم: [لَيْسوا سَواءً منْ أهلِ الكتاب] الآية «الإصابة ٣٣/١».

معهم: قال الكفار من أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَواءً﴾... الآية، وقال مثله قتادة وابن جريج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو أصح التأويلات. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: معنى الآية: ليس اليهود وأمة محمد سواء، وقاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمن حيث تقدم ذكر هذه الأمة في قوله: ﴿كُنْتُمْ خيْرَ أُمَّةٍ﴾ وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبيه: ﴿ليْسُوا سَواءً﴾، والكتاب على هذا جنس كتب الله، وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط. والمعنى: من أهل الكتاب وهم أهل القرآن أمة قائمة.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله: ﴿قائمة﴾ فقال مجاهد: معناه: عادلة، وقال قتادة والربيع وابن عباس: معناه: قائمة على كتاب اللّٰهِ وحدوده مهتدية، وقال السّدي: القانتة المطيعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله، ومنه قيل للدنانير أو الدراهم الوازنة: قائمة، وهذه الآية تحتمل هذا المعنى وألَّا تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقتَ تلاوةِ آيات الله. ويحتمل أن يراد بـ﴿قائِمَةٍ﴾ وصفُ حال التالين في آناء الليل، ومن كانت

هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله. وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله: ﴿إلَّا ما دُمْتَ علَيْه قائماً﴾(١).

و﴿يَتْلونَ﴾ معناه: يسردون، و﴿آيات اللّهِ﴾ في هذه الآية هي: كُتبه، والآناء: الساعات، واحدها إِنْي بكسر الهمزة وسكون النون. ويقال فيه أَنْي بفتح الهمزة، ويقال: إِنَى بكسر الهمزة وفتح النون والقصر، ويقال فيه: أَنىَ بفتح الهمزة، ويقال: إِنْوٌ بكسر الهمزة وسكون النون وبواو مضمومة. ومنه قول الهذلي:

حلوٌ ومرٌّ كعطفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ في كل إِنْيٍ قضاه الليل ينتعلُ(٢)

وحكمُ هذه الآية لا يتفق في كلّ شخص شخص بأن يكون كلُّ واحد يصلي جميعَ ساعات الليل، وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأُمة، إذ بعض الناس يقومُ أولَ الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم بعد هجعةٍ ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات عبارة آناء الليل بالقيام، وهكذا كان صدرُ هذه الأمة، وعرفَ الناسُ القيامَ في أول الثلث الآخر من الليل أو قبله بشيء، وحينئذ كان يقوم الأكثر، والقيامُ طولَ الليل قليل، وقد كان في الصالحين من يلتزمه،

(١) تقدمت في سورة آل عمران، في الآية: ٧٥.

(٢) المُتَنَخِّل لقبه، واسمه: مالك بن عُوَيمر بن سُوَيد، وقيل: بن عُوَيمر بن عثمان، ويكنى أبا أُثَيْلَة، جاهلي من شعراءِ هذيل وفحولهم وفصحائهم. «الأغاني ١٤٥/٢٠». و «خزانة الأدب ١٣٧/٢». والبيت من قصيدة قالها في ابنه أُثيلة يَرْثيه. ورواية البيت في الديوان وفي كتاب الشعر والشعراء: في كل أَنْي حذاء الليل ينتعل. ورواية الأغاني: في كل آن أتاه، والقدح: السهم. المِرَّة: الشدة والقوة. إني: واحد الآناء، وهي الساعات. وينْتعل: يسري في كل ساعة من هدايته.

وقد ذكر الله تعالى القصد من ذلك في سورة المزمّل، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجهُ الله داخلٌ في هذه الآية، وهو أفضل من التنفّل لمن يُرْجَى انتفاعُ المسلمين بعلمه.

وأما عبارة المفسرين في ﴿آناء الليل﴾ ، فقال الربيع وقتادة وغيرهما: آناء الليل: ساعات الليل، وقال عبد الله بن كثير: سمعنا العرب تقول: آناء الليل: ساعات الليل، وقال السدي: آناء الليل: جوف الليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق. أما إن جوفَ الليل جزء من الآناء.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية بسبب أن النبي ﷺ احتبس عنا ليلة عن صلاة العتمة وكان عند بعض نسائه فلم يأت حتى مضى ليل، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع، فقال: (أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة)[1] فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَواءً﴾ . . . الآية، فالمراد بقوله: ﴿يَتْلُون آياتِ اللّٰهِ آناءَ اللَّيْلِ﴾ صلاة العشاء. وروى سفيان الثوري عن منصور[2] أنه قال: بلغني أن

(١) أخرجه أحمد، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني. قال السيوطي: بسند حسن عن ابن مسعود قال: (أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاءِ ليلة) الحديث. ولفظ ابن جرير، والطبراني قال: (إنه لا يصلي هذه الصلاة) الحديث. «فتح القدير للشوكاني ٣٤٢/١».

(٢) هو منصور بن المعتمر بن عبد الله أبو عتاب السَّلَمي الكوفي، روى عن أبي وائل، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وخلق، وروى عنه أيوب، وحُصين بن عبد الرحمن، =

هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدون﴾، ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً، فهي على هذا جملةٌ في موضع الحال، كأنه قال: يتلون آياتِ الله آناءَ الليل مصلّين. وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول، أخبر عنهم أنهم أيضاً أهل سجود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آناء الليل قد يعتقد السامعُ أنَّ ذلك في غير الصلاة، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول، ويثبت فيها على هذا الثاني، فـ ﴿هُمْ يَسْجُدون﴾ على هذا نعت عُدِّد بواو العطف، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل.

و ﴿يُؤْمِنونَ﴾ معناه: يصدقون، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالأنبياء. لأنه من جائزات العقل التي أثبتها السمع من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسارِعونَ في الخَيْراتِ﴾ وصف بأنهم متى دُعُوا إلى خيرٍ من نصر مظلوم وإغاثة مكروب وجبر مهيض وعبادة الله أجابوا،

=والثوري، وابن عُيَينة، وآخرون، كان أثبت أهل الكوفة، صام ستين سنة وقامها، توفي سنة ١٣٢ هـ. «تهذيب التهذيب ١٠/٣١٢».

ومنه فعلُ مالكٍ رضي الله عنه في ركعتي المسجد، وقال: دعوتني إلى خير فأجبت إليه. ومما يدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿وَيُسَارِعونَ في الخَيْراتِ﴾ أن يكون المرء مغتنماً للخمس قبل الخمس كما قال النبي ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك، وغناك قبل فقرك)[١]، فيكون متى أراد أن يصنع خيراً بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضاً مسارعة في الخيرات. وذكر بعض الناس قال: دخلت مع بعض الصالحين في مركب فقلت له: ما تقول أصلحك الله في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرة يا بن أخي، قال المحدث: فجاءني والله بجوابٍ ليس من أجوبة الفقهاء.

ثم وصف الله تعالى من تحصلت له هذه الصفات بأنه من جملة الصالحين، و ﴿مِن﴾ يحسن أن تكون للتبعيض، ويحسن أن تكون لبيان الجنس[٢].

قوله عز وجل:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ

(١) أخرجه الحاكم، في مستدركه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، وأخرجه الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم، والبيهقي - عن عمرو بن ميمون مرسلاً، وقال: إنه حسن. «الجامع الصغير ١-١٥٧».

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «لم يتقدم شيءٌ فيه إبهام فيُبين جنسه. ويظهر أن الوصف بالصلاح زيادة على الوصف بالإسلام، ولذلك سأل بعض الأنبياء الله هذه الرتبة - قال سليمان مخاطبا ربه: [وأَدخلني برَحْمَتِكَ في عبادِكَ الصَّالحِينَ] - وقال الله تعالى في حق إبراهيم: [ولقد اصطَفيناهُ في الدُّنْيا وإنَّه في الآخِرةِ لِمَن الصَّالِحِين].

عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: ﴿تَفْعلوا﴾ و ﴿تُكْفَروه﴾ بالتاء، على مخاطبة هذه الأمة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء فيهما على مشابهة ما تقدم من: ﴿يَتْلونَ﴾ و ﴿يُؤْمِنونَ﴾ - وما بعدهما، وكان أبو عمرو يقرأ بالوجهين.

و ﴿تُكْفَروه﴾ معناه: يغطى دونكم فلا تثابون عليه، من هذا قول النبي ﷺ: (ومن أزلت إليه نعمة فليذكرها فإن ذكرها فقد شكرها، فإن لم يفعل فقد كفرها)(١)، ومنه قول الشاعر(٢):

. . . . والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفسِ المنعمِ

وفي قوله تعالى: ﴿واللَّهُ عَليمٌ بالْمُتَّقين﴾ وعد ووعيد. ثم عقب تعالى ذكر هذا الصنف الصالح بذكر حال الكفار ليبين الفرق،

---

(١) أخرجه الطبراني، عن طلحة بن عبيد الله بلفظ: (من أولي معروفاً فليذكره، فمن ذكره فقد شكرهُ، ومن كَتَمه فقد كَفَره). «مجمع الزوائد ٨/١٨١» ومعنى أزلْتُ: أسْديت.

(٢) هو عنترة بن شداد العبسي، والبيت كاملا هو:

نُبِّئْتُ عمراً غيرَ شاكرِ نِعْمَتي والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ

التَّنْبِئَةُ: مثل الإنباءِ. والمخبَثَةَ: المَفْسدة. يقول: أُعلِمْتُ أنَّ عمراً لا يشكر نعمتي، وكفران النعمة يُنَفِّر نفسَ المنعمِ عن الإنعام.

وخصَّ الله تعالى الأموالَ والأولادَ بالذكر لوجوه: منها أنها زينةُ الحياة الدنيا وَعُظْمُ ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها ألصقُ النصرة بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار المكذبين بالآخرة لا همة لهم إلا فيها وهي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناءَ فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تغنِ هذه فغيرها من الأمور البعيدةِ أَحْرَى أَلَّا يغني.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحابُ النَّارِ﴾ إضافة تخصيص مَّا تَقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ما يُنْفِقون في هذِهِ الحياةِ الدُّنيا﴾... الآية، معناه: المثالُ القائمُ في النفوس من إنفاقهم الذي يعدّونه قربةً وحسبةً وتحنثاً، ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباءً منثوراً وذهابه، كالمثالِ القائم في النفوس من زرع قومٍ نَبَتَ واخضرَّ وقويَ الأملُ فيه فهبَّتْ عليه ريحٌ فيها صرٌ محرق فأهلكته، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر، ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما-وليس الذي يوازي المذكور الأول- وترك ذكر الآخر، ودل المذكوران على المتروكين، وهذه غايةُ البلاغة والإيجاز، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثل الَّذينَ كفروا كَمَثَل الَّذي ينعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلَّا دُعاء﴾[1].

(١) من الآية (١٧١) من سورة البقرة.

وقرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج[١] ﴿تُنْفِقون﴾ بالتاء على معنى قل لهم يا محمد، و﴿مَثَلُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في محذوفٍ به تتعلق الكاف من قوله: ﴿كَمَثَل﴾، و﴿ما﴾ ـ بمعنى الذي، وجمهور المفسرين على أن ﴿يُنْفِقون﴾ يراد به الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنّث وفي عداوة رسول الله ﷺ، وكان ذلك عندهم قربة، وقال السدي: ﴿يُنْفِقُون﴾ معناه: من أقوالهم التي يبطنون ضدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، لأنه يقتضي أن الآية في المنافقين، والآية إنما هي في كفارٍ يعلنون مثل ما يبطنون، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿يُنْفقون﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه، أي هي كالريح التي فيها صرّ، فتبطل كل ما لهم من صلة رحم وتحنث بعتق ونحوه، كما تبطل الريحُ الزرعَ، وهذا قولٌ حسن لولا بُعْدُ الاستعارة في الإنفاق.

والصِّرُّ: البرد الشديد المحرق لكل ما يهبّ عليه، وهو معروف، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: الصِّرُّ: البرد، وتسميه العرب: الضريب، وذهب الزجاج وغيره إلى أن اللفظة من التصويت، من قولهم: صرَّ الشيء، ومنه الريح الصرصر، قال الزجاج: فالصرّ: صوت النار التي في الريح.

(١) هو أبو داود المدني مولى ربيعة بن الحارث، ثقة ثبت (تقريب التهذيب ١: ٥٠١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الصرُّ: هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار.

والحرث: شامل للزرع والثمار، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض وهي حقيقة الحرث، ومنه الحديث: (لا زكاة إلا في عينْ أو حرْث أو ماشية)[١].

وقال عز وجل: ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه؟ فالجواب أن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث مَنْ هذه صفته، إذ عقوبته أرجى[٢]، وأخذةُ الله له أشدّ، والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى، كما روي:«في جوف العير»[٣] وغيره. وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كلَّ

(١) في موطإ الإمام مالك ٢٤١/١ أنَّه بلغَه أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على دمشق في الصدقة «إنما الصدقة في العين، والحرث، والماشية». قال مالك: ولا تكون الصدقة إلا في ثلاثة أشياءَ: في الحرث، والعين، والماشية.

(٢) اختلفت النسخ في هذه اللفظة، فهي: أرجى، وأوحى، وأوخى. ورجا مهموزاً وغيرَ مهموز يأتي بمعنى الخوف والتأخير، وأوْحى: بمعنى أسرَع، ويبعد معنى أوخى الذي هو القصد والتحري.

(٣) الجوف اسم واد في أرض عاد فيه ماءٌ وشجر، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، فيه من كل الثمار، حماه رجل اسمه حمارُ بن طُويلع أو مُويلع، وإلى قصته يشير ابن عطية وهي مذكورة في عدة كتب منها: «اللسان» في مادة: (جوف)، والميداني في «الأمثال» في مادة: (أكفر من حمار)، و «معجم البلدان ٣: ١٧٤» و «حياة الحيوان» في: (الحمار الوحشي). وتشير=

مصائب الدنيا فإنما هي بمعاصي العبيد، وينتزع ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على قوله: إن كل حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن ظلم نفسه. وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدوي إلى أن قوله تعالى: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم﴾ معناه: زرعوا في غير أوان الزراعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن يقال في هذا: ظلموا أنفسهم بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل، ويخصّ هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أوعبُ وأشدُّ تمكناً، وهذا المنزع يشبهه من جهة ما قول امرئ القيس:

وسالفةٍ كَسَحُوقِ اللّيا نِ أضرم فيها الغويُّ السُّعُرْ[1]

فخصص الغويَّ لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق، فتطفئ النارَ عن نفسها رطوبتُها بعد أن تتشذب وتسودّ، فيجيء الشبه حسناً. والرشيدُ لا يضرم النار إلا فيما يبس

=الأسطورة كما رواها اللسان إلى أنَّ هذا الرجل كان له بنون فماتوا كلهم فكفر بالله، وقتل كلَّ من مرَّ به، ثم أرسل الله عليه صاعقة فأحرقته والجوفَ، فصار الجوفُ ملعباً للجن لا يتجرأ أحد على سلوكه، وفيه قال الشاعر:

وخَرقٍ كجوْفِ العَيرْ قفْرٍ مَضَلَّةٍ

أراد (كجوف الحمار) فلم يستقم له فقال: كجوف العير.

(١) السالفة: جانب العنق، وسَحوق بفتح السين: طويلة. واللِيان: النخل، واحدتها: لينة، وأضْرَم: أوقد. الغوي: الغاوي. السعر: النار: يصف فرساً له.

وأسحق[١] فهو يذهبُ ولا يبقى منه ما يشبه به.

والضمير في: ﴿ظَلَمَهُم﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في: ﴿يُنْفِقُون﴾، وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليردّ عليهم ولا ليبين ظلمهم، وأيضاً فقوله: ﴿ولكِنْ أَنْفُسَهم يظْلِمون﴾ يدلّ على فعل الحالِ في حاضرين.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأنسون بهم في الباطن من أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، ويستنيمون إليهم.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِكم﴾ يعني: من دون المؤمنين، ولفظة ﴿دون﴾ تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام، فشبه الأخلاءَ بما يلي بطنَ الإنسان من ثوبه، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: (ما من خليفة ولا ذي إمرةٍ إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله)[٢].

(١) أسحق بمعنى يبس وجفَّ. وفي بعض النسخ: واستحق، أي استحق النار.
(٢) أخرجه البخاري، والنسائي، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري «تفسير ابن كثير ٣٩٨/١».

وقوله: ﴿لَا يأْلُونَكُم خَبالاً﴾ معناه: لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم، تقول: ما ألوتُ في كذا،أي:ما قصرت بل اجتهدت، ومنه قول زهير:

جرى بعدهم قومٌ لكي يلحقوهمُ
فلم يلحقوا ولم يُليموا ولم يأْلوا[١]

أي لم يقصروا. والخبل والخبال: الفساد.

وقال ابن عباس: كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك. وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين، نهى الله المؤمنين عنهم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً)[٢]، فسره ابن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم (محمداً).

---

(١) ورواية البيت في ديوانه: ١١٤.

سَعى بَعدَهمْ قومٌ لِكيْ يدْركوهُمُ فلمْ يفْعَلوا ولَمْ يُلاموا ولَمْ يألُوا

يقول: تقدم هؤلاءِ في المجد والشرف، وسعى علي آثارهم قومٌ آخرون لكي يدركوهم وينالوا منزلتهم فلم ينالوا ذلك. ولم يُليموا: أي لم يأتوا ما يُلامون عليه، يقال: ألام الرجل إذا أتى ما يُلام عليه، وما تركت في عملي لَوْمَة، أي: ما ألام عليه. «ديوان زهير ١١٤. ط. دار الكتاب».

(٢) أخرجه أبو يعلى، والنسائي، والإمام أحمد، وابن جرير. «تفسير ابن كثير ٣٩٨/١».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل في هذه الآية استكتابُ أهلِ الذمة وتصريفُهُمْ في البيع والشراء والاستنامة إليهم. وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنّفه، وتلا عليه هذه الآية. وقيل لعمر: إن ها هنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخطّ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذاً أتخذُ بطانةً من دون المؤمنين.

و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا عَنِتُّم﴾ مصدرية. فالمعنى: ودّوا عنتكم، والعنت: المشقة والمكروه يلقاه المرء،وعقبة عنوت: أي شاقة؛ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾[١] معناه: المشقة إما في الزنى وإما في ملك الأرب. قال السدي: معناه: ودُّوا ما ضللتم، وقال ابن جريج: المعنى: ودوا أن تعنتوا في دينكم، ويقال: عَنِتَ الرجل يعنَتُ بكسر النون في الماضي.

وقوله تعالى: ﴿قدْ بَدَتِ الْبَغضاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِم﴾ يعني بالأقوال، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه. وخصَّ تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تَشَدُّقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث أن رسول الله ﷺ نهى أن يتشحَّى الرجل في عرض أخيه[٢]، معناه: أن يفتح فاه به، يقال: شحا الحمار

(١) من الآية (٢٥) من سورة النساء.

(٢) الحديث المشار إليه لم نعثر عليه بهذا اللفظ في المراجع التي بين أيدينا. والأحاديث في الغيبة والنميمة كثيرة، ذكر المفسرون معظمَها عند قوله في سورة الحجرات: [ولا يَغْتَبْ بعضُكمْ بعضاً، أيُحبُّ أحدُكم أنْ يأكل لحْمَ أخيهِ ميتا فكرهتموه].

فاه بالنهيق، وشحا اللجام في الفرس، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب[١]، فذِكْر التشحي إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط.

وقوله: ﴿وما تُخْفي صُدورُهُم أكْبَر﴾ إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿قدْ بَدا البَغْضاءُ﴾ بتذكير الفعل، لما كانت البغضاء بمعنى البغض.

ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿قد بَيَّنّا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُم تعْقِلون﴾ تحذيراً وتنبيهاً، وقد علم تعالى أنهم عقلاء، ولكن هذا هزٌّ للنفوس كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا.

قوله عز وجل:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

تقدم إعراب نظير هذه الآية وقراءتها في قوله تعالى آنفاً: ﴿هأنتم هؤُلاءِ حَاجَجْتُم فيها لكُمْ بهِ عِلْمٌ﴾، والضمير في: ﴿تُحِبُّونَهم﴾ لمنافقي اليهود الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿بطانَةً مِنْ دونِكم﴾، والضمير في هذه الآية اسم للجنس، أي: تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقراءتكم. وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال

(١) راتب: ثابت، وهو خبر «النهي».

الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا يحبون المؤمنين، وأنهم يكفرون بكتابهم، وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتاظون ويتربصون الدوائر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عليكُمُ الأَناملَ﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه ومنه قول أبي طالب(١):

. . . . يَعَضُّون غيظاً خلْفَنا بِالأَنامل

ومنه قول الآخر:

وقد شهِدتْ قيسٌ فما كان نصرها قتيبةَ إلا عضُّها بالأباهمِ(٢)

وهذا العضُّ هو بالأسنان، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغائظة، كما أن عضَّ اليد على اليد يتبع هيئة النفس النادمة المتلهفة على فائت قريب الفوت، وكما أن قرع السن هيئة النفس

---

(١) صدره: وَقَدْ حالَفوا قوماً علَيْنا أظِنَّةً

والبيت من قصيدة له يتعوذ فيها بحرم مكة. «سيرة ابن هشام ١: ١٧٦».

(٢) البيت من قصيدة للفرزدق قالها في قتل قتيبة بن مسلم ويمدح سليمان بن عبدالملك ويهجو قيساً وجريراً. «شرح ديوان الفرزدق ٢: ٨٥١». وقد أراد: بالأباهيم ـ لكنه حذف.

ومثل البيتين اللذين استشهد بهما ابن عطية قولُ الحارث بن ظالم المرِّي:

وأقبــل أقــوامــاً لِئــامــاً أذِلَّــةً يعضــون من غيْظٍ رؤوسَ الأباهِم

وقول الآخر:

إذا رأوْني أطــالَ الله غــيْــظَهُــمْ عضُّــوا مِن الغَيْظ أطرافَ الأباهيمِ

النادمة فقط، إلى غير ذلك من عدِّ الحصى والخطِّ في الأرض للمهموم ونحوه، ويكتب هذا العض بالضاد، ويكتب عظَّ الزمان بالظاء المشالة، وواحد الأنامل أنملة بضم الميم، ويقال بفتحها، والضم أشهر، ولا نظير لهذا الاسم في بنائه إلا أشد، وله نظائر في الجموع.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُون بالكِتاب كُلِّه﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يُحْفَظْ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن كما كان المنافقون من العرب يفعلون، إلا ما روي من أمر زيد بن الصيت القينقاعي(١)، فلم يبق إلا أن قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ معناه: صدقنا أنه نبيّ مبعوث إليكم، أي: فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم لا نضمر لكم إلا المودة، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة، وهذا منزع قد حُفِظَ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه، ويدلّ على هذا التأويل أن المعادل لقولهم: (آمنا) عض الأنامل من الغيظ، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو قوله تعالى: ﴿وإذَا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُم﴾(٢)، بل هو ما يقتضي البغضَ وعدمَ المودة. وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضية(٣).

---

(١) ورد اسمه في السيرة (٥٢٣/٢): زيد بن اللصيت، قال ابن هشام: ويقال: ابن لصيب. وفي بعض النسخ: ابن الوسيط.

(٢) من الآية (١٤) من سورة البقرة.

(٣) الإباضية: قوم من الحرورية لهم هوى ينسبون إليه، وقيل: هم فرقة من الخوارج أصحاب عبدالله بن إباض التميمي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الصفة تترتب في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قلْ مُوتوا بِغَيْظِكم﴾، قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة، وقال قوم: بل أُمر النبي ﷺ وأمته أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة، ويجري المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

ونـنـمـى في أرومـتـنـا ونفقأ عينَ من حسدا[١]

وينظر إلى هذا المعنى في قوله: ﴿مُوتوا بِغَيْظكم﴾ قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّماءِ ثمَّ لْيَقْطَع﴾[٢].

وقوله: ﴿إنَّ اللَّهَ عَليمٌ بذاتِ الصُّدور﴾ وعيد يواجهون به على هذا التأويل الأخير في: ﴿مُوتوا بغَيْظكم﴾، وهو إخبار مجرد لمحمد ﷺ في تأويل الدعاء في: ﴿موتوا بغيظكم﴾، و﴿ذاتِ الصُّدور﴾: ما تنطوي

(١) ورواية الأغاني ٩: ٥٤. ط: ٣ للبيت هي:

وزمْـزَم مِـنْ أرومَـتـنـا ونَـفْـقَـأُ عَـيْنَ مـن حـسـدا

والبيت من قطعة قالها في الفخر، ويُتغنى بها، وهي من جيد شعره. والأرومة: تضم الأصل، وفقأ العين: قلعها.

(٢) من الآية (١٥) من سورة الحج.

عليه، والإشارة هنا إلى المعتقدات، ومن هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة»(١)، ومنه قولهم: «الذيب مغبوط بذي بطنه»(٢)، والذات: لفظ مشترك في معان لا يدخل منها في هذه الآية إلا ما ذكرناه.

قوله عز وجل:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظ عام في كل ما يحسن ويسوءُ، وما ذكر المفسرون من الخصب والجدب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما هي أمثلة وليس ذلك باختلاف، وذكر تعالى المس في الحسنة ليبين أنَّ بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن، لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه،

---

(١) أخرجه مالك في الموطإ في ما لا يجوز من النحل. وذو بطن: أي: صاحبة بطن بمعنى: الكائنة في بطن حبيبة بنت خارجة، وكانت بنت خارجة زوجاً لأبي بكر. والقصة بكاملها في «الاستيعاب» في ترجمة «خارجة بن زيد».

(٢) قال أبو عبيد: «وذلك أنَّه لا يظن به أبدا الجوع، إنما يظن به البِطنة لعدوه على الناس والماشية، ولعله يكون مجهوداً من الجوع، وأنشدَ:

وَمَنْ يسْكُن البحرين يعظُم طحالُه ويُغبط ما في بَطْنه وَهو جائِعُ

اللسان ـ مادة: (بَطَنَ).

فدل هذا المنزعُ البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقدٌ لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة، وقد قال الشاعر:

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوةُ مَن عاداك مِن حسد[1]

ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء المذكورين، وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة، جاء قوله تعالى: ﴿وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُمْ كَيْدَهُمْ شيئاً﴾ تسليةً للمؤمنين وتقوية لنفوسهم، وَشَرَطَ ذلك بالصبر والتقوى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿لا يضِرْكم﴾ بكسر الضادِ وجزم الراء، وهو من ضار يضير بمعنى: ضرَّ يضر وهي لغة فصيحة، وحكى الكسائي: ضار يضور، ولم يقرأ على هذه اللغة. ومِن ضار يضير في كتاب الله ﴿لا ضير﴾[2]، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

---

(١) لم نعثر على قائل البيت فيما لدينا من المراجع، وورد في «العقد الفريد لابن عبد ربه ٢: ٣٢٠» أن عبدالله بن المبارك المروزي كتب إلى عليٍ بن بشر المروزي:

كلُّ العداوة قدْ تُرْجَى إماتَتُها إلا عَداوةُ مَن عاداكَ مِنْ حَسَدِ
فإنَّ في القلب مِنْها عُقدةٌ عُقِدَتْ وليْسَ يَفْتَحها راقٍ إلى الأَبَد
إلَّا إلَهُ فإنْ يَرْحَمْ تحِل به وإنْ أباه فلا تَرْجوه مِنْ أحدِ

(٢) من قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة (الشعراء): [قالوا لا ضَيْر إنَّا إلى ربّنا مُنْقَلبون].

فقيل: تَحَمَّلْ فوق طوقك إنها   مُطَبَّقَةٌ مَنْ يأْتِهَا لا يضيرها[١]

يصف مدينة، والمعنى: فليس يَضيرها، وفي هذا النفي المقدّر بالفاء هو جواب الشرط. ومن اللفظ قول توبة بن الحمير:

وقال أناسٌ لا يَضيرُكَ نأيها   بلى كلُّ ماشَفَّ النفوسَ يضيرها[٢]

وقرأعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لا يضُرُّكم﴾ بضم الضاد والراء والتشديد في الراء، وهذا من ضر يضُر، وروي عن حمزة مثل قراءة أبي عمرو. وأما إعراب هذه القراءة فجزم، وضمت الراء للالتقاء، وهو اختيار سيبويه في مثل هذا إتباعاً لضمة الضاد، ويجوز

(١) تحَمَّلْ: الخطاب للبُخْتي في البيت قبله، والبُخْتي: واحد البخت، أو البختية وهي الإبل الخُراسانية، والبيت هو:

ومـا حَمَـل الـبُخْتِيُّ عـامَ غِيـارِهِ   عليـه الـوسـوق بُـرُّهـا وشَعيرهـا

والطوْقُ: الطاقة. ومطبقة: مملوءَةٌ طعاماً. والضمير في إنَّها ـ للقرية المذكورة في قوله:

أتى قـريـةً كـانت كثيراً طعـامُها   كـرفـع التـرابِ كل شيء يَميـرُهـا

«الأغاني» و«الشعر والشعراء ٢: ٥٤٩».

(٢) هو توبة بن الحمير بن حزم بن كعب أحد بني عقيل شاعر إسلامي وأحد عشاق العرب المشهورين، وصاحبته ليلى الأخيلية، كان يقول الأشعار فيها ولا يراها إلا متبرقعة، فأتاها يوماً وقد سفرت فأنكر ذلك، وعلم أنها لم تُسفر إلا لأمر حدث... فأنشأ القصيدة التي منها البيت ومطلعها:

وكنتُ إذا مـا جئتُ ليلَى تَبـرْقَعَتْ   فقَدْ رابَني منْها الغـداةَ سفُـورهَـا

الشعر والشعراء ١: ٣٥٦».

الضير: الضر، والنأي: البعدُ، وشفَّ النفوسَ: أي آذاها. والمعنى: يقولُ أُناس إن الفراقَ والبُعد لا يضرك، فقلت: بلى ـ كل ما يؤذي النفس يَضرُّها ولا ينفعها. «معلق الحماسة» ١٢٥/٢».

فتح الراء وكسرها مع إرادة الجزم، فأما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبارة الزجاج في هذا متجوز فيها، إذ يظهر من درج كلامه أنها قراءة، وأما فتح الراء من قوله: ﴿لا يضُرَّكم﴾ فقرأ به عاصم فيما رواه أبو زيد عن المفضل عنه، ويجوز أيضاً أن يكون إعراب قوله: ﴿لا يضُرُّكم﴾ رفعاً إما على تقدير: فليس يضركم، على نحو ما تقدم في بيت أبي ذؤيب، وإما على نية التقدم على: ﴿وإنْ تَصْبروا﴾ كما قال:

يا أقرعُ بن حابسٍ يا أقرعُ إنك إن يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ[1]

المراد إنك تصرع. وقرأ أبيّ بن كعب: ﴿لا يضْرُرْكم﴾ براءين، وذلك على فكّ الإدغام، وهي لغة أهل الحجاز، وعليها قوله تعالى في الآية: ﴿إنْ يَمْسَسْكم﴾، ولغة سائر العرب الإدغام في مثل هذا كله. والكيد: الاحتيال بالأباطيل، وقوله تعالى: ﴿وأكيد كيْداً﴾[2] إنما هي تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللّٰهَ بِما يعْمَلون مُحيط﴾ وعيد، والمعنى: محيط جزاؤه وعقابه بالقدرة والسلطان. وقرأ الحسن: ﴿بما تَعْملون﴾ بالتاء، وهذا إما على توعد المؤمنين في اتخاذ هؤلاء بطانةً، وإما على توعد هؤلاء المنافقين بتقدير: قل لهم يا محمد.

---

(١) البيت من الرجز، وقائله الصحابي جرير بن عبدالله البجلي، وسببه أنه نافر رجلاً من اليمن إلى الأقرع بن حابس حكم العرب فقال: يا أقرع... ويصرع: معناه: يطرح.«شواهد ابن عقيل».

(٢) الآية (١٦) من سورة الطارق.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات، والظاهر أنها استقبال أمر آخر. لأن تلك مقاومة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أُحُد، فالعامل في ﴿إِذْ﴾ فعلٌ مضمر تقديره: واذكر. وقال الحسن: هذا الغُدُوُّ المذكور في هذه الآية لتبوىء المؤمنين الذي كان في غزوة الأحزاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وخالفه الناس. والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أُحد، وفيها نزلت هذه الآيات كلها. وكان من أمر غزوة أُحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فنزلوا عند أُحد يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة يدبّر وينتظر أمر الله تعالى، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة جمع رسول الله ﷺ الناسَ واستشارهم، وأخبرهم أنه كان رأى في منامه بقرة تذبح وثلماً في ذباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينة، وأَنه تأولها المدينة، وقال لهم: أرى ألَّا نَخرجَ إلى هؤلاء الكفار، فقال له عبدالله بن أبيّ بن سلول: أقمْ يا رسولَ الله

ولا تخرجْ إليهم بالناس، فإن هم أقاموا بشرٍّ محبس، وإن انصرفوا مَضَوْا خائبين، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام، فوالله ما حاربنا قط عدواً في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غَلَبنا، فوافق هذا الرأي رأيَ رسول الله ﷺ ورأيَ جماعةٍ من المهاجرين والأنصار. وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى عدوّنا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب، فقام رسول الله ﷺ فصلّى بالناس صلاةَ الجمعة وقد جشمه هؤلاء الداعون إلى الحرب، فدخل إثرَ صلاته بيتَهُ ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أَكْرَهْنَا رسول الله ﷺ، فلما خرج عليهم النبي ﷺ في سلاحه قالوا: يا رسول الله أقمْ إن شئت، فإنا لا نريد أن نُكْرِهَكَ، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل.

ثم خرج بالناس، وسار حتى قرب من عسكر المشركين هناك، وبات تلك الليلة، وقد غضب عبدُالله بن أبيّ سلول وقال: أطاعهم وعصاني. فلما كان في صبيحةِ يوم السبت اعتزم رسول الله ﷺ على السير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل، فانخزل عنه عند ذلك عبدالله بن أبي بن سلول بثلاثمائة من الناس، من منافق ومتبع، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالا، ومضى رسول الله ﷺ في سبعمائة، فهمَّتْ عند ذلك بنو حارثة من الأوس

وبنو سلمة من الخزرج بالانصراف، ورأوا كثافةَ المشركين وقلةَ المسلمين، وكادوا أن يجبنوا ويفشلوا فعصمهم الله تعالى: وذمر[١] بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبي ﷺ، فمضى رسول الله ﷺ حتى أطل على المشركين، فتصافَّ الناس. وكان رسول الله ﷺ قد أمَّر على الرماة عبدالله بن جبير وكانوا خمسين رجلاً، وجعلهم يحمون الجبلَ وراء المسلمين، وأسند هو إلى الجبل، فلما أضرمت الحرب انكشف المشركون وانهزموا، وجعل نساء المشركين تبدو خلاخلهن وهن يسندن في صفح[٢] جبل، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمةَ الغنيمةَ أيها المسلمون. وكان رسول الله ﷺ قال لهم: لا تبرحوا من هنا ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير، فقال لهم عبدالله بن جبير وقوم منهم: اتقوا الله واثبتوا كما أمركم نبيكم، فَعَصَوْا وخالفوا وزالوا متبعين، وكان خالد بن الوليد قد تجرد في جريدة خيل وجاء من خلف المسلمين حيث كان الرماة، فحمل على الناس، ووقع التخاذل وصيح في المسلمين من مقدمتهم ومن ساقتهم، وصرخ صارخ: قُتِلَ محمد، فتخاذل الناس واستشهد من المسلمين نيفٌ على سبعين. قال مكي: قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة،

---

(١) ذمَره: بالتخفيف والتشديد: لامه وحضّه وحثّه، وتَذامر القوم في الحرب: تحاضوا، والقوم يتذامرون: أيْ يحض بعضهم بعضاً على الجد في القتال. «اللسان»، قال عنترة:

لَّما رأيتُ القوم أقْبل جمْعُهُم يتذامرون كررْتُ غيْرَ مذمَّم

(٢) الصفح: الجانب، ومن الجبل مضطجعه، وهو لغة في السفح الذي هو عرض الجبل حيث يسفح فيه الماءُ. وقيل السفح: أصل الجبل. وقيل: هو الحضيض الأسفل. «اللسان».

ومن الأنصار سبعون، وتحيز رسول الله ﷺ في أعلى الجبل وتجاوز الناس.

هذا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآية، وأمر أُحُد بطوله وما تخلله من الأفعال والأقوال مستوعَبٌ في كتب السير، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره.

وحكى مكي عن السدي ما يظهر منه أن القتال كان يوم الجمعة، وحكى عنه الطبري أن نزول أبي سفيان بأُحد كان في الثالث من شوال، وذلك كله ضعيف، وقال النقاش: وقعة أحد في الحادي عشر من شوال، وذلك خطأ. قال الطبري وغيره: فغدُوُّ رسول الله ﷺ يوم الجمعة إلى التدبير مع الناس واستشارتهم هو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا سيما أن غدو النبي ﷺ إنما كان ورأيه ألَّا يخرج الناس، فكان لا يشك في نفسه أن يقسم أقطار المدينة على قبائل الأنصار.

وقال غير الطبري: بل نهوض النبي ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة هو غدوه، وبوأ المؤمنين في وقت حضور القتال، وقيل: ذلك في ليلته، وسماه غدواً إذ كان قد اعتزم التدبير والشروعَ في الأمر من وقت الغدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا سيما أن صلاة الجمعة ربما كانت قبل الزوال، حسبما وردت بذلك أحاديث(١)، فيجيء لفظ الغدو متمكناً. وقيل: إنَّ الغدو المذكور هو غدوة يوم السبت إلى القتال، ومن حيث لم يكن في تلك الليلة موافقاً للغدو فهو كأنه كان في أهله، وبوأ المسلمين بأمرِهِ الرماةَ وبغيرِ ذلك من تدبيره مصافَّ الناس، و ﴿تُبَوِّئُ﴾ معناه: تعيِّنُ لهم مقاعدَ يتمكنون فيها ويثبتون، تقول: تبوأت مكان كذا إذا حللته حلولاً متمكناً ثبتَّ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾(٢) ومنه قول النبي ﷺ: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٣) ومنه قول الشاعر:

كم صاحبٍ ليَ صالحٍ بوّأتُهُ بيديَّ لحدا(٤)

ومنه قول الأعشى:

(١) من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي عن جابر أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة ثم نذهب إلى جمالنا فنريحها حين تزول الشمس. «نيل الأوطار».

(٢) من الآية (٧٤) من سورة الزمر، ومنه قوله تعالى: [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ من الجنّةِ غُرَفاً].

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة عن أنس. «الجامع الصغير ٢: ٥٥٣».

(٤) البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ومطلعها:

لـيْسَ الجَـمَـالُ بِمئْـزَرٍ فـاعْـلَمْ وإنْ رُدِّيـتَ بُـرْدا

وبوّأته: أنزلته، واللَّحْد: الحفرة وهو القبر.

وما بوّأ الرحمن بيتَكَ منـزلاً بشرقيِّ أجيادالصفاوالمحرَّمِ [١]

وقوله تعالى: ﴿مَقاعِدَ﴾ جمع مقعد، وهومكان القعود، وهذا بمنزلة قولك: مواقف، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً، والمبارزة والسرعان[٢] يجولون.

وقوله: ﴿واللَّهُ سَميعٌ﴾ أي:ما تقول ويقال لك وقت المشاورة وغيره؛ و ﴿إذ﴾ الثانية بدل من الأولى، و ﴿هَمَّتْ﴾ معناه: أرادت ولم تفعل، والفشل في هذا الموضع: هو الجبن الذي كاد يلحق بني سلمة وبني حارثة، والفشل في البدن: هو الإعياء والتبليح[٣]، والفشل في الرأي: هو العجز والحيرة وفساد العزم، وقال جابر بن عبد الله: ما وددنا أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾.

وقوله: ﴿وَعَلى اللَّهِ فَلْيَتوكَّلِ المؤْمنون﴾ أمرٌ في ضمنه التغبيط

---

(١) رواية البيت في الديوان:

ومَـا جَعَـلَ الـرحمن بيتـك في العُـلى بـأَجْيـاد غَـرْبيَّ الـصَّـفـا والمحـرم

وأجياد: أرض بمكة، أو جبل بها لكونه موضع خيل تبع. «قاموس». والبيت من قصيدة هجا بها الأعشى عُمَير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان لمّا جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه «الديوان. ٤٠٠. ط الشركة اللبنانية للكتاب».

(٢) وسرعَان الناس مُحَرَّكة: أوائلهم المستبقون، وتُسكّن الراءُ ـ وفي السين ثلاث لغات: الفتح والضم والكسر. ومن الخيل أوائلها. «قاموس».

(٣) يقال بَلَح الرجل وبلَّح أعيا، وقد أبلحه السير فانقطع به. «اللسان».

للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي ﷺ.
وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿تُبوِّئُ للمؤمنين﴾ بلام الجر، وقرأ ـ:
﴿واللّٰهُ وليُّهم﴾ على معنى الطائفتين لا على اللفظ.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

لما أمر الله تعالى بالتوكل عليه، ذكَّر بأمرِ بدرٍ الذي كان ثمرةَ التوكل على الله والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيكم﴾ كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمر بدر وبأمر الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين محرضاً على الجدِّ والتوكل على الله، ومن قال: إن قول النبي ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيكم﴾... الآية إنما كان في غزوة أُحد، كان قوله تعالى: ﴿ولَقَد نصَرَكُم اللّٰهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿تَشْكرون﴾ اعتراضاً بين الكلام جميلاً. والنصرُ ببدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم انبنى الإسلام، وكانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة. وبدر: ماء هنالك سُمِّي به الموضع. وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدراً فبه سُمّي. قال

الواقدي[١]: فذكرت هذا لعبد الله بن جعفر[٢] ومحمد بن صالح[٣] فأنكراه وقالا: بأي شيء سميت الصفراء والجار وغير ذلك من المواضع؟ قال: وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري[٤] فقال: سمعت شيوخاً من بني غفار يقولون: هو ماؤ نا ومنزلنا وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينةَ إنما هي بلاد غفار، قال الواقدي: فهذا المعروف عندنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُم أَذِلَّة﴾ معناه: قليلون، وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين التسعمائة والألف، وأذلة: جمع ذليل، واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم، وأنهم

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي مولى الأسلميين، كان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية، كان من أهل المدينة، انتقل إلى بغداد وولي القضاء بها. كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار، توفي سنة: ٢٠٧. «الفهرست لابن النديم ١٤٤».

(٢) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي، أبو محمود، ولد بأرض الحبشة حفظ عن النبي ﷺ وروى عنه وعن أبويه، وعنه بنوه، كان يقال له: قطب السخاءِ، كان أحد أمراءِ عليٍّ يوم صفين، وقال فيه رسول الله ﷺ: (وأما عبد الله فيشبه خَلْقي وخُلُقي)... «الإصابة ٢: ٢٨٩».

(٣) محمد بن صالح بن دينار التمار، أبو عبد الله المدني، مولى الأنصار، روى عن أبي حازم، والقاسم، وعمر بن عبد العزيز، وعنه ابنه صالح، والواقدي وغيرهما، ثقة قليل الحديث، توفي سنة ١٦٨ هـ «تهذيب التهذيب: ٢: ٢٢٥».

(٤) لم نعثر على ترجمته فيما لدينا من المراجع.

مغلوبون، وقد قال النبي ﷺ في ذلك اليوم: (اللهم إن تهلِك هذه العصابة لم تعبد)[١]، وهذه الاستعارة هي كاستعارة الكذب في قوله في الموطأ: كذب كعب، وكقوله: كذب أبو محمد، وكاستعارة المسكنة لأصحاب السفينة على بعض الأقوال، إذ كانت مسكنتهم بالنسبة إلى الملك القادر الغاصب.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، ورجّاهم في الإنعام الذي يوجب الشكر، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكراً على النعمة في نصره ببدر.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿نَصَرَكُم﴾ وهذا على قول الجمهور: إن هذا القول من النبي ﷺ كان ببدر، قال الشعبي والحسن بن أبي الحسن وغيرهما: إن هذا كان ببدر، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر بن حسل المحاربي[٢] محارب فهر قد جاء في مدد المشركين، فغمَّ ذلك المؤمنين، فقال النبي ﷺ للمؤمنين عن أمر الله تعالى هذه المقالة، فصبر المؤمنون واتقوا، وهزم المشركون، وبلغت الهزيمة كرزاً ومن معه فانصرفوا ولم يأتوا من فورهم، ولم يمدّ المؤمنون بالملائكة،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في باب الإمداد بالملائكة من كتاب «الجهاد ٥: ١٥٦».

(٢) كرز بن جابر بن حسل القرشي الفهري أسْلم بعد الهجرة وحسُن إسلامه، وولّاه رسول الله ﷺ الجيش الذي بعثه في أثر العرنيين الذين قتلوا راعيه. «الاستيعاب» و «الإصابة. ٣: ٢٩٠، و٣٠٩».

وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب النبي ﷺ مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وخالف الناس الشعبي في هذه المقالة، وتظاهرت الروايات بأنَّ الملائكة حضرت بدراً وقاتلت، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة[١]: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى. ومنه حديث الغفاري وابن عمه اللذين سمعا من الصحابة: أقدُمْ حيزوم فانكشف قناعُ قلب أحدهما فمات مكانه وتماسك الآخر[٢].

وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام إلا يوم بدر، وكانوا يكونون في سائر الأيام عدداً ومدداً لا يضربون. ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث[٣] لأبي لهب[٤]: ما هو إلا أن لقينا القوم

---

(١) مالك بن ربيعة بن البدن بن عامر الأنصاري الساعدي أبو أسيد، مشهور بكنيته، شهد بدراً وأحداً وما معها، روى عن النبي ﷺ، وعنه أولاده وآخرون من الصحابة والتابعين. وهو آخر البَدْرِيِّين موتاً، توفي سنة: ٦٠ هـ. «الإصابة ٣: ٣٤٤».

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة، وابن جرير في تفسيره من طريق ابن حميد. اقدم بضم الدال من التقدم: كلمة يزجر بها الخيل. وحيزوم: اسم فرس جبريل، وهو فيعول من الحزم. الروض الأنف ٢: ٧٠».

(٣) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة، أسلم يوم الفتح، شهد حنينا، وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ توفي سنة: ١٥ وقيل: ٢٠. «الإصابة. ٤ : ٩٠».

(٤) أبو لهب هو أحد أعمام النبي ﷺ، واسمه عبد العزي، كان كثير الإذاية لرسول الله ﷺ =

فمنحناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون، وعلى ذلك فوالله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْقٍ بين السماء والأرض ما تُليق[١] شيئاً ولا يقوم لها شيء، ومن ذلك أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري[٢] أحد بني سلمة أسر يوم بدر العباس بن عبد المطلب، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً طويلاً جسيماً، فقال النبي ﷺ: (لقد أعانك عليه ملك كريم)[٣]... الحديث بجملته. وقد قال بعض الصحابة: كنت يوم بدر أتبع رجلاً من المشركين لأضربه بسيفي فلما دنوت منه وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعلمت أن ملكاً قتله[٤].

وقال قتادة بن دعامة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة[٥]، قال الطبري: وقال آخرون: إن الله وعد المؤمنين يومَ

=والبغضة له، والازدراءِ به، والتنقص له ولدينه، توفي بعد وقعة بدر بعدة أيام، رماه الله بالعدسة فقتلته.

(١) من ألاق يُليق، أي: ما تُبقي ولا يَقف لها ولا يثبت.

(٢) هو كعب بن عمرو بن عباد الأنصاري السلمي، مشهور باسمه وكنيته، شهد العقبة وبدراً، وله فيها آثار كثيرة، وهو الذي أسر العباس. قال المدائني: كان قصيراً دحداحاً عظيم البطن، توفي بالمدينة سنة: ٥٥. «الإصابة ٤ : ٢٢١».

(٣) رواه الإمام أحمد، وفيه راوٍ لم يُسَمَّ، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد ٦ : ٨٥ في باب ما جاء في الأسرى».

(٤) أخرجه ابن جرير، وابن إسحق ـ عن أبي داود المازني، وكان شهد بدراً. «ابن جرير ٤ : ٧٧».

(٥) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر «تفسير الشوكاني ١ : ٣٤٦».

بدر أن يمدهم في حروبهم كلها إن صبروا واتقوا، فلم يفعلوا ذلك إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة، ثم أدخل تحت هذه الترجمة عن عبد الله بن أبي أوفى[١] أنه قال: حاصرنا قريظة مدة فلم يفتح علينا فرجعنا، فبينا رسول الله ﷺ قد دعا بغسل يريد أن يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها، فلف رسول الله ﷺ رأسه بخرقة ولم يغسله، ونادى فينا فقمنا كالّين متعبين، حتى أتينا قريظةَ والنضير، فيومئذ أمدنا الله بالملائكة بثلاثة آلاف، وفتح لنا فتحاً يسيراً، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل.

وقال عكرمة: كان الوعد يوم بدر، فلم يصبروا يوم أحد ولا اتقوا، فلم يُمدوا ولو مُدوا لم يهزموا.

وقال الضحاك: كان هذا الوعد والمقالة للمؤمنين يوم أحد، ففرَّ الناسُ وولوا مدبرين فلم يُمدهم الله، وإنما مُدُّوا يوم بدر بألف من الملائكة مردفين.

وقال ابن زيد: قال المسلمون لرسول الله ﷺ يوم أحد وهم

(١) عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، أبو معاوية، له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية، وهو آخر من مات من الصحابة، وكان من أصحاب الشجرة، توفي سنة: ٨٠ «الإصابة ٢: ٢٧٩».
والحديث الذي رواه أخرجه ابن جرير بلفظه، وأخرج البخاري ومسلم طرفاً منه في غزوة بني قريظة. «البخاري ٣: ٢٠».

ينتظرون المشركين: يا رسول الله، أليس يمدنا الله كما أمدَّنا يوم بدر؟ فقال لهم النبي ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾ . . . الآية، وإنما أمدهم يوم بدر بألف؛ قال ابن زيد: فلم يصبروا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾ تقرير على اعتقادهم الكفاية في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمر بيناً في نفسه أن الملائكة كافية بادر المتكلم إلى الجواب ليبني ما يستأنف من قوله عليه فقال: ﴿بَلَى﴾ وهي جواب المقررين. وهذا يحسن في الأمور البينة التي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قلْ أَيُّ شيءٍ أَكْبَرُ شهادةً قُل الله﴾[١] وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَلَا يَكْفيكم﴾، وقد مضى القول في الإمداد في سورة البقرة في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُم في طُغْيانهم﴾[٢].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن[٣]: ﴿بِثَلَاثَهْ آلافٍ﴾ يقف على الهاء، وكذلك: (بِخَمْسَهْ آلاف)، ووجه هذه القراءة ضعيف، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال، إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمالٌ للأوَّل، والهاء إنما هي أَمارة وقف، فيقلق الوقفُ في موضعٍ إنما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحما شاه، يريدون

(١) من الآية (١٩) من سورة الأنعام.
(٢) من الآية (١٥) من سورة البقرة.
(٣) من هنا حتى أواخر الشواهد الشعرية نقول:بإيجاز عن «المتحسب ١: ١٦٥ ـ ١٦٦».

لحمَ شاةٍ فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف: قالا، يريدون:قال، ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثبت، ومن ذلك في الشعر قول الشاعر:

ينباع من ذِفْرى غضوب جسْرةٍ[١] . . . .

يريد: ينبع فمطل، ومنه قول الآخر:

أقول إذ خَرَّتْ على الكلكالِ يا ناقتا ما جُلْتِ من مجالِ[٢]

يريد: على الكلكل فمطل، ومنه قول الآخر:

فأنت من الغوائل حين ترمي ومن دمِّ الرجال بمنتزاحِ[٣]

يريد بمنتزح، قال أبو الفتح[٤]: فإذا جاز أن يعترض هذا التمادي

(١) قائله عنترة بن شداد، وتمام البيت: زيَّافةٍ مثلَ الفَنيقِ المُكْدَمِ.
أراد: ينبع فأشبع الفتحة لإقامة الوزن. وينبع: يتفجر. والذِّفْرى: ما خلف الأذن. والجَسْرة: الناقة الموثقة الخلق. والزَّيفُ: التبختر. والفَنِيقُ: الفحل من الإبل. والمكدم: الغليظ الصلب. يقول: ينبع هذا العرق من خلف أذن ناقة غضوب موثقة الخلق شديدة التبختر في سيرها. «ديوانه: ١٥».

(٢) نسبهُ في اللسان إلى الراجز. والكَلْكل والكَلْكَال: الصدر من كل شيء،وجال الفرس يجول في الميدان: قطع جوانبه، والمجال: اسم مكان الجولان.

(٣) قائل البيت: إبراهيم بن علي بن هرمة الهذلي القرشي، يرثي ابنه. الغوائل: الدواهي: المنتزح: البعد. يقال:نزح نزوحا وانتزح انتزاحا: بَعُد. وقولهم: أنت من الذم بمنتزحٍ، مجاز (أساس البلاغة).

(٤) المحتسب ١: ١٦٦.

بين أَثناء الكلمة الواحدة، جاز التمادي والتأني بين المضاف والمضاف إليه إذ هما في الحقيقة اثنان(١).

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿مُنَزَّلين﴾ بفتح النون والزاي مشددة، وقرأ الباقون: ﴿مُنْزَلين﴾ بسكون النون وفتح الزاي مخففة، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مُنَزِّلين﴾ بفتح النون وكسر الزاي مشددة معناها: يُنزلون النصر، وحكى النحاس قراءة ولم ينسبها: ﴿مُنْزِلين﴾ بسكون النون وكسر الزاي خفيفة، وفسَّرها بأنهم ينزلون النصر.

و ﴿بَلَى﴾ جواب النفي الذي في ﴿أَلَنْ﴾ وقد تقدم معناه. ثم ذكر تعالى الشرط الذي معه يقع الإمداد وهو الصبر، والتقى. والفور: النهوض المسرع إلى الشيء مأخوذ من فور القدر والماء ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾(٢) فالمعنى: ويأتوكم في نهضتكم هذه. قال ابن عباس: ﴿مِنْ فَوْرِهم هذا﴾ معناه: من سفرهم هذا، قال الحسن والسدي: معناه: من وجههم هذا، وقاله قتادة. وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح مولى أم هانيء(٣): من غضبهم هذا.

---

(١) قال أبو حيّان بعد أن أورد هذه الأمثلة نقلاً عن ابن عطية، وبعد أنْ نقل رأيه: «وهو تكثير وتنظير بغير ما يناسب، والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوصل مجرى الوقف أبدلها هاءً في الوصل كما أبدلوها هاءً في الوقف، وما ذكره ابن عطية من أمثلة إنما هو من باب إشباع الحركة».

(٢) من الآية (٤٠) من سورة هود.

(٣) هو باذام، ويقال باذان أبو صالح مولى أم هانيء بنت أبي طالب، تابعي مشهور رَوَى عن علي، وابن عباس، وأبي هريرة، ومولاته أم هانيء، وعنه الأعمش، وإسماعيل السدي=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير لا يخص اللفظة، قد يكون الفور لغضب ولطمع ولرغبة في أجر، ومنه الفورُ في الحجّ والوضوء.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم: ﴿مُسَوِّمين﴾، بكسر الواو، وقرأ الباقون: ﴿مُسَوَّمين﴾، بفتح الواو، فأما من قرأ بفتح الواو فمعناه: مُعْلَمين بعلاماتٍ، قال أبو زيد الأنصاري(١): السومة: العلامة تكون على الشاة وغيرها يجعل عليها لون يخالف لونها لتعرف، وروي أن الملائكة أعلمت يومئذ بعمائم بيض، حكاه المهدوي عن الزجاج، إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامةٍ صفراء على مثال عمامة الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحق. وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذناب والأعراف معلمة النواصي والأذناب بالصوف والعهن؛ وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، وقال عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير(٢): نزلت الملائكة في سيما

= وسماك بن حرب، وأبو قلابة، وسفيان الثوري، وغيرهم، ووثّقهُ بعضهم، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه تفسير، وما أقل ما له من المسند، وفي ذلك التفسير ما لم يتابعه عليه أهل التفسير، ولم أعلم أحداً من المتقدمين رَضِيَه. «تهذيب التهذيب ١: ٤١٦». و «الإصابة الجزءُ الأول، وكذا الرابع».

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت صاحب النحو واللغة، روى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني، وغيرهما، وكان الأصمعي يقول فيه: هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشر سنين، توفي في البصرة سنة ٢١٤ أو ٢١٥ هـ (انظر إنباه الرواة للقفطي ٢: ٣٠، وتاريخ بغداد ٩: ٧٧، وتهذيب التهذيب ٤: ٣، وابن خلكان ٢: ٣٧٨).

(٢) هو عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير الأسدي أخو عبد الله بن حمزة، روى عن جدة أبيه أسماءَ بنت أبي بكر، وأختها عائشة أم المؤمنين، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعنه ابن عمٍّ ابيه =

الزبير عليهم عمائمُ صفر، وقال ذلك عروة وعبد الله ابنا الزبير. وقال عبد الله: كانت ملاءةً صفراء فاعتمَّ الزبير بها، ومن قرأ: ﴿مسوِّمين﴾ بكسر الواو، فيحتمل من المعنى مثل ما تقدم، أي: هم قد أعلموا أنفسهم بعلامة وأعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة بأن النبي ﷺ قال للمسلمين يوم بدر: (سوِّموا فإن الملائكة قد سوَّمت)[1] فهم على هذا مُسَوِّمون، وقال كثير من أهل التفسير: إن معنى ﴿مسوِّمين﴾ بكسر الواو أي هم قد سَوَّموا خيلهم أي: أعطوها سَوْمَها من الجري والقتال والإحضار فهي سائمة، ومنه سائمة الماشية، لأنها تركت وسومها من الرعي، وذكر المهدوي هذا المعنى في ﴿مُسَوَّمين﴾ بفتح الواو أي: أرسلوا وسومهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو قلق، وقد قاله ابن فُورك أيضاً.

قوله عز وجل:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

=هشام بن عروة. ثقة. وقال الزهري: كان سخيا سريا أحسن الناس وجها، أخرج له مسلم والنسائي حديث: (لا تحصي فيحصي الله عليك). «تهذيب التهذيب. ٥: ٩١».

وحديث السيمة: أخرجه ابن هشام في السيرة.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن إسحق، وهو مرسل، وابن جرير الطبري، وابن سعد من طرق. «تعليق ابن حجر على الكشاف ١: ٤١٢».

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

الضمير في: ﴿جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ عائد على الإنزال والإمداد، والبشرى مصدر، واللام في: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه ﴿جَعَلَه﴾. ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئاً إلا أن ينصر الله.

وقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ يريد للمؤمنين، وكذلك أيضاً هي الإدالة للكفار من عند الله، واللام في قوله: ﴿لِيَقْطَع﴾ متعلقة بقوله: ﴿وما النَّصرُ إلَّا مِنْ عِنْد اللَّهِ﴾، وعلى هذا لا يكون قطع الطرف مختصاً بيوم، اللهم إلا أن تكون الألف واللام في ﴿النَّصْرِ﴾ للعهد، وقيل: العامل فيه ﴿وَلَقَدْ نَصَركم﴾، حكاه ابن فُورك وهو قلق، لأن قوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُم﴾ لا يترتب عليه، وقد يحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لِيَقْطَع﴾ متعلقة بـ ﴿جَعَلَه﴾، فيكون قطع الطَّرَفِ إشارةً إلى من قتل ببدر على ما قال الحسن وابن إسحق وغيرهما، أو إلى من قتل بأحد على ما قال السدّي، وقتل من المشركين ببدر سبعون، وقتل منهم يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً. وقال السدي: قتل منهم ثمانية عشر والأول أصح.

والطرف: الفريق، ومتى قتل المسلمون كفاراً في حرب فقد

قطعوا طرفاً، لأنه الذي وليهم من الكفار، فكأن جميع الكفار رقعةٌ وهؤلاء المقتولون طرفٌ منها أي حاشية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَع طَرَفاً﴾ بمنزلة: لِيَقْطَعَ دابراً.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهم﴾ معناه: أو يخزيهم، والكبت: الصرع لليدين، وقال النقاش وغيره: التاء بَدَلٌ من دال كَبَته، أصلها كَبَده أي: فعل به ما يؤذي كبده، وإذا نصر الله على أمة كافرة فلا بد من أحد هذين الوجهين، إما أن يقتل منهم وإما أن يخيبوا، فذلك نوع من الهزم.

وقوله تعالى: ﴿ليس لَكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ﴾ توقيفٌ على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب من جهة النبي ﷺ. وروي في ذلك أنه لما هُزِمَ أصحابُهُ، وَشُجَّ في وجهه حتى دخلت بعضُ حَلَقِ الدرع في خده،وكسرت رباعيته، وارتثّ بالحجارة حتى صُرِعَ لجنبه، تحيز عن الملحمة، وجعل يمسحُ الدمَ من وجهه ويقول: (لا يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم)[١] هكذا لفظ الحديث من طريق أنس بن مالك، وفي بعض الطرق:(وكيف يفلح؟)وفي بعضها أن سالماً مولى أبي حذيفة كان يغسل الدمَ عن وجه رسول الله ﷺ، قال: فأفاق وهو يقول: (كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله)؟ فنزلت الآية بسبب هذه المقالة.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والطبري والإمام أحمد في مسنده (عن أنس).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفّار قريش، فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ويريحَ منهم، فروي أنه دعا عليهم أو استأذن في أن يدعوَ عليهم، وروى ابن عمر وغيره: أنه دعا على أبي سفيان والحارث بن هشام[١] وصفوان بن أمية[٢] باللعنة، إلى غير هذا من معناه، فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لكَ مِن الأَمْر شيءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامضِ أنت لشأنك ودمْ على الدعاءِ إلى ربك. قال الطبري وغيره من المفسرين: قوله: ﴿أَوْ يَتوبَ عَلَيْهِم﴾ عطف على ﴿يَكْبِتهم﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيءٌ﴾ اعتراض أثناء الكلام، وقوله: ﴿أَوْ يتوبَ﴾ معناه: فيسلمون، وقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهم﴾ معناه: في

(١) هو الحارث بن هشام بن المغيرة، القرشي، المخزومي ـ أخو أبي جهل، وابن عم خالد بن الوليد، أمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهو ممن شهد بدراً مع المشركين، وكان فيمن انهزم، وعيَّره حسان بن ثابت ببيتين، فرد عليه المترجم له بثلاثة أبيات قيل فيها: إنها أحسن ما قيل في الاعتذار من الفِرار، أسلم يوم فتح مكة ثم حسن إسلامه، قيل: كانت وفاته في طاعون عمواس: وقيل: استشهد يوم اليرموك. «الإصابة ١: ٢٩٣».

(٢) صفوان بن أمية بن خلف أبو وهب الجمحي، أمه صفية بنت معمر جمحية أيضاً، قتل أبوه يوم بدر كافراً، وحُكي أنه كان إليه أمر الأزلام في الجاهلية، كما حُكي أنه فر يوم فتح مكة وأسلمت امرأته فأحضر له ابن عمه عمير بن وهب أماناً من النبي ﷺ فحضر، وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم، وكان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام. «الإصابة ٢: ١٨٧».

الآخرة بأن يوافوا على الكفر. قال الطبري وغيره: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ بمعنى حتى يتوب، أو إلى أن يتوب، فيجيء بمنزلة قولك: لا أفارقك أو تقضيني حقي، وكما تقول: لا يتم هذا الأمر أو يجيء فلان، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لكَ منَ الأَمْرِ شيْءٌ﴾ ليس باعتراض على هذا التأويل، وإنما المعنى الإخبار لمحمد عليه السلام أنه ليس يتحصل له من أمر هؤلاء الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلموا، فيرى محمد عليه السلام أحدَ أَمَلَيْه فيهم، أو يعذّبهم الله بقتلٍ في الدنيا، أو بنارٍ في الآخرة أو بهما، فيرى محمد ﷺ الأملَ الآخر. وعلى هذا التأويل فليس في قوله: ﴿لَيْسَ لكَ مِن الأَمْرِ شيْءٌ﴾ ردعٌ كما هو في التأويل الأول، وذلك التأويلُ الأول أقوى.

وقرأ أُبي بن كعب: ﴿أَوْ يَتُوبُ﴾ ﴿أَوْ يُعَذِّبُ﴾ برفع الباء فيهما، المعنى: أو هو يتوبُ، ثم قرر تعالى ظلم هؤلاء الكفار، ثم أكد معنى قوله: ﴿لَيْسَ لكَ مِن الأَمْرِ شيْءٌ﴾ بالقول العام، وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكُهُ الأشياءَ، إذ ذلك مقتضٍ أن يفعل بحقّ ملكه ما شاء، لا اعتراضَ عليه ولا معقّبَ لحكمه، وذكر أن الغفران والتعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيساً للنفوس وجلباً لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاء ويُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ، واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

و﴿ما﴾ في قولِه: ﴿ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ﴾ إشارة إلى جملة العالم فلذلك حسنت ﴿ما﴾؛ وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخةٌ لدعاء النبي ﷺ على المشركين كلامٌ ضعيف كله، وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ(١).

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾

هذا النهي عن أكل الربا اعترضَ أثناءَ قصةِ أحد، ولا أحفظ سبباً في ذلك مرويّاً. والربا: الزيادة، وقد تقدَّم ذكر مثل هذه الآية وأحكام الربا في سورة البقرة(٢). وقوله: ﴿أَضْعافاً﴾ نصب في موضع الحال، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدَّيْنَ، فكان الطالبُ يقول: أتقضي أم تُرْبي؟ وقوله: ﴿مُضاعَفَةً﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف

---

(١) قال تعالى في هذه الآية [يغْفرُ لِمَن يشاءُ ويُعذِّبُ مَنْ يشاءُ]. قال المفسرون: بدأ بالغفران وأردف بالعذاب ليناسب ما تقدم من قوله: [أَوْ يتوبَ عليْهم أَوْ يعذِّبَهم] ـ ولم يشترط في الغفران هنا التوبة إذ يغفر سبحانه وتعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب إلا ما استثناه تعالى من الشرك. وقوله بعد ذلك: [واللهُ غفورٌ رحيمٌ] ترجيحٌ لجهة الإحسان والإنعام والغفران.

(٢) ذكر أبو حيان وجهاً آخر في سبب نزول هذه الآية (انظر البحر المحيط ٣: ٥٤).

خاصة. وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهومُ الخطاب، إذ المسكوتُ عنه في الربا في حكم المذكور، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع أَنواعه التضعيفُ والزيادةُ على وجوهٍ مختلفة من العين[١] أو من التأخير ونحوه.

والنار في قوله: ﴿وَاتَّقوا النَّار﴾ هي اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها أعدت للكافرين، أي أنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشنَّع أمر النار بذكر الكفر، وحسَّنَ للمؤمن أن يحذرَهَا ويبعدَ بطاعة الله عنها، وهذا كما قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي أنهم هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى، هذا مذهبُ أهل العلم في هذه الآية.

وحكى الماردي وغيره عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن أَكَلَةَ الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذَّبون يومَ القيامة بنارِ الكَفَرة لا بنار العصاة، وبذلك توعدوا، فالألف واللام على هذا في قوله: ﴿واتَّقوا النَّار﴾ إنما هي للعهد.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، والطاعة هي موافقة الأمر

---

(١) العين والعينة ضرب من ضروب الربا، يتم بالحيلة الكلامية.

الجاري عند المأمور مع مراد الآمر، وقال رسول الله ﷺ: (مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني)[١].

وقال محمد بن إسحق: إن هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد، وانهزام من فر وزوال الرماة عن مراكزهم[٢].

قوله عز وجل:

﴿ * وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ ﴾

قرأ نافع وابن عامر: ﴿سارِعوا﴾ بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ باقي السبعة بالواو، قال أبو علي: كلا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو. وأمال الكسائيُّ الألف من قوله: ﴿سارِعوا﴾ ومن قوله: ﴿وَيُسارِعون في الخيْراتِ﴾ و﴿نُسارِعُ لهم

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٢) قال المهدوي: ذِكْر الرسول زيادة في التبيين والتأكيد والتعريف بأن طاعته طاعة الله، وقيل في صيغتها الأمر ومعناها العتب على المؤمنين في ما جرى منهم من أكل الربا والمخالفة يوم أحد.

في الخَيْراتِ﴾(١) في كل ذلك؛ قال أبو علي: والإمالة هنا حسنة لوقوع الراء المكسورة بعدها.

والمسارعة: المبادرة، وهي مفاعلة إذ الناس كأنّ كلّ واحدٍ يسرع ليصل قبل غيره، فبينهم في ذلك مفاعلة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾(٢).

وقوله: ﴿إلى مَغْفِرَةٍ﴾معناه: سارعوا بالتقوى والطاعة والتقرب إلى ربكم إلى حال يغفر الله لكم فيها، أي: يستر ذنوبكم بعفوه عنها وإزالة حكمها، ويدخلكم جنته. قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير ﴿وسارِعوا إلى مغْفِرَةٍ﴾ معناه: إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مقال حسَنٌ يحتذى عليه في كلِّ طاعة.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُها السمواتُ والأرضُ﴾ تقديره: كعرض السموات والأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُم إلا كنفسٍ واحدةٍ﴾(٣) أي كخلقِ نفس واحدة وبعثها، فجاء هذا الاقتضاب المفهوم الفصيح، ومنه قول الشاعر:

(١) [ويسارعون في الخيرات] من الآية (١١٤) من سورة آل عمران، ومن الآية (٦١) من سورة المؤمنون، [ونسارع لهم في الخيرات] من الآية (٥٧) من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية (١٤٨) من سورة البقرة، ومن الآية (٤٨) من سورة المائدة.
(٣) من الآية (٢٨) من سورة لقمان.

حسبتَ بُغَامَ راحلتي عَنَاقـاً   وما هي وَيْبَ غيرِكَ بالعَنَاقِ[١]

ومنه قول الآخر:

كأن غديرهم بجنوب سِلّى   نعـامٌ قـاقَ في بَلَدٍ قفـارِ[٢]

التقدير: صوتَ عَنَاقٍ وغديرَ نعامٍ.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿عَرْضُها السموات والأرْضُ﴾ فاختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب ـ فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تُقْرَنُ السموات والأرضون بعضها ببعض كما يبسط الثوب، فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله. وفي الحديث عن النبي ﷺ: (إن بين المصراعين من أبواب الجنة مسيرةَ أربعين سنة، وسيأتي عليها يوم يزدحم الناسُ فيها كما تزدحمُ الإبلُ إذا وردت خُمْصاً ظِماءً)[٣] وفي الحديث عنه ﷺ: (إن في الجنة شجرةً يسير

(١) البيت لذي الخرق الطهوي يخاطب ذئباً تبعه في طريقه. وبُغام الناقة بالضم: صوت لا تفصح به. والعَناق: بالفتح الأنثى من المعز. وويب: بمعنى: ويل. «اللسان».

(٢) البيت نسبه في اللسان للنابغة، ونسبه ابن بري لشقيق بن جزءِ بن رباح الباهلي، والغدير: الحال. وسِلّى: اسم موضع بالأهواز كثير الثمر. والنعام: طائر من فصيلة النعاميات يقال فيه: إنه مُركَّبٌ من خِلقة الطير وخِلقة الجمل، ومؤنثه نعامة. قاق النعام: صوَّت. والقفار: جمع القفر الخالي من البناءِ والشجر والساكن. يريد: كأن حالهم في الهزيمة حال نعام تغدو مذعورة.

(٣) أخرجه الطبراني ـ عن عبدالله بن سلام بلفظ: (قال رسول الله ﷺ: إن ما بينْ المِصْراعين في الجنة أربعون عاماً، وليأتين يوم يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظماءً). «مجمع الزوائد. (١٠ : ٣٩٧) والحديث متعدد الروايات والطرق. والخُمص: جمع خميص من خَمِص إذا جاع. والظماءُ: جمع ظمآن من ظمِئ مثل عطش وزناً ومعنىً.

الراكبُ المجدّ في ظلها مائةَ عام لا يقطعها)[١]، فهذا كله يقوي قولَ ابن عباس، وهو قول الجمهور: إنّ الجنةَ أكبرُ من هذه المخلوقات المذكورة، وهي ممتدّةٌ عن السماء حيث شاءالله تعالى، وذلك لا يُنْكَر، فإن في حديث النبي عليه السلام: (ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسيّ إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأَرض، وما الكرسي في العرش إلا كحلقةٍ في فلاة الأرض)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض، وقدرة الله تعالى أعظم من ذلك كله.

وروى يعلي بن أبي مرة[٣] قال: لقيت التنوخي[٤] رسول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم، والبخاري، والترمذي عن أنس. (الجامع الصغير ١: ٣١١).

(٢) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي ذر. (فتح القدير للشوكاني ١: ٢٤٥).

(٣) هكذا ورد في جميع النسخ: وكذا في «تفسير القرطبي»، أما بقية كتب التفاسير الموجودة بأيدينا فقد ورد فيها: يعلى بن مرة بإسقاط (أبي)، ولعله الصواب، بدليل أن ابن جرير روى حديثاً عن يعلى بن مرة عن التنوخي، وهو نفس السند الذي رواه به ابن عطية.

وهو يعلى بن مرة الثقفي أبو المرازم من أفاضل الصحابة، رَوَى عن النّبيِّ ﷺ أحاديث، وروى عنه ابناه، وراشد بن سعد، وآخرون. قال ابن سعد: أَمَرَهُ ﷺ بأن يقطع أعناب ثقيف فقطعها (الإصابة ٣: ٦٦٩).

(٤) التَّنوخي بفتح المثناة الفوقية وضم النون المخففة وخاءٍ معجمة نسبة إلى تنوخ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين، وتحالفوا على التناصر، وهي إحدى القبائل الثلاث التي هي مسكن نصارى العرب وهم بهراء وتنوخ وتغلب.

هرقل[١] إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيخاً كبيراً قد فند[٢] فقال: قدمت على النبي ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب هرقل: إنك كتبت إليَّ تدعوني إلى جنّةٍ عرضُها السموات والأرض أُعِدَّتْ للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: (سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار)[٣]؟ وروى قيس بن مسلم[٤] عن طارق بن شهاب[٥] قال: جاء رجلان من اليهود من نجران إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أحدهما: تقولون جنة عرضها السموات

= والتنوخي هذا لمّا حضر بين يدي رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام فأجاب بأنه رسول قوم، وعلى دين قوم لا يرجع عنه حتى يرجع، فقال ﷺ: إنك تهدي مَن أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. (مجمع الزوائد ٨: ٢٣٥).

(١) هرقل: هو إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية، حكم من سنة: ٦١٠ إلى سنة ٦٤١، في مدته افتتح أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد كثيراً من بلاد سوريا، وهزموا جيوشاً رومية عديدة، وفتحوا مِصر ودمشق. (دائرة المعارف لوجدي ١٠: ٤٩٢).

(٢) فند، الفَنَد: الخرف وإنكار العقل من الهرم أو المرض، وقد يستعمل في غير الكبر. (اللسان).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن التنوخي وهو حديث صحيح، (الجامع الصغير. ٢: ١٤». كما أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤: ٩٢ عن يعلى بن مرة عن التنوخي).

(٤) هو قيس بن مسلم الجدلي العدواني أبو عمر الكوفي، من قيس علان، رَوَى عن طارق بن شهاب، والحسن بن محمد بن الحنفية، ومجاهد وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وغيرهم، وروى عنه الأعمش، وشعبة، والثوري، ومسعر، ومالك بن مغول، وآخرون، ثقة، وكان مرجئاً. (تهذيب التهذيب ٨: ٤٠٣).

(٥) هو طارق بن شهاب بن عبد شمس البجلي، أبو عبدالله، رأى النبيَّ ﷺ، روى عنه مرسلاً، وعن الخلفاء الأربعة وغيرهم، وروى عنه إسماعيل بن أبي خالد، وقيس بن مسلم، وجماعة، توفي سنة ٨٢هـ. «تهذيب التهذيب. ٥/٣». و«الإصابة».

والأرض، أين تكون النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: أرأيت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ والليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال اليهودي: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ دعه إنه بكلٍّ موقن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه الآثار كلها هي في طريق واحد، من أن قدرة الله تتسع لهذا كله، وخصَّ العرضَ بالذكر لأنه يدل متى ذُكِرَ على الطول، والطول إذا ذكر لا يدلُّ على قَدْرِ العرض، بل قد يكونُ الطويل يسيرَ العرض كالخيط ونحوه؛ ومن ذلك قول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ﴾ معناه: كعرض السموات والأرض، كما هي طباقاً، لا بأن تقرن كبسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضها كعرضها وعرض ما وراءها من الأرضين إلى السابعة، وهذه الدلالة على العظم أغنت عن ذكر الطول.

وقال قوم: الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى، حسنت العبارةُ عنها بعرضها السموات والأرض، كما تقول لرجل: هذا بحرٌ، ولشخص كبيرٍ من الحيوان: هذا جَبَلٌ، ولم تقصد الآيةُ تحديدَ العرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجلب مكي هذا القول غير ملخص، وأدخل حجة عليه قول العرب: أرض عريضة. وليس قولهم: أرض عريضة مثل قوله: ﴿عَرْضُها السمواتُ والأَرْضُ﴾ إلا في دلالة ذكر العرض على الطول فقط، وكذلك فعل النقاش؛ وروي أن النبي ﷺ قال للفارين يوم أحد: (لقد ذهبتم فيها عريضة)[١] وقال ابن فُورك: الجنة في السماء، ويزاد فيها يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار، وهو قول ضعيف، وجمهور العلماء على أنهما قد خلقتا، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين﴾ و ﴿أُعِدَّتْ لِلْكافِرين﴾[٢] وغير ذلك؛ وهو نص في الأحاديث كحديث الإسراء[٣] وغيره مما يقتضي أَن ثَمَّ جنة قد خلقت. وأما من يقول: يزاد فيها فلا ترد عليه الأحاديث، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير والتاريخ، وابن إسحق في السيرة، وذكره ابن الأثير في النهاية في مادة: عَرَضَ.

(٢) [أُعِدَّتْ لِلكافرينَ] تكررت في الآيتين (١٣١) من سورة (آل عمران) و (٢٤) من سورة (البقرة).

(٣) أخرجه مسلم في باب الإيمان ١٠٢/١ كما أخرجه غيره من المحدثين.

و ﴿أُعِدَّتْ﴾ معناه: يسرت وانتظروا بها. ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: ﴿الَّذينَ يُنْفقون﴾... الآية، وظاهر هذه الآية أنها مدحٌ لفعل المندوب إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء﴾ معناه: في العسر واليسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إذ الأغلب أن مع اليسر النشاط وسرورَ النفس، ومع العسر الكراهيةَ وضر النفس.

وكظم الغيظ: ردُّهُ في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبطه ومنْعه كَظْمٌ له، والكِظَامُ: السير الذي يُشَدّ به فمُ الزقّ والقربة، وكظم البعير جِرَّتَهُ[١]: إذا ردَّها في جوفه، وقد يقال لحبسه الجِرَّةَ قبل أن يرسلها إلى فيه: كَظْمٌ، حكاه الزجاج، فقال: كظم البعير والناقة إذا لم يجترَّا، ومنه قول الراعي:

فأَفَضْن بعد كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ   من ذي الأباطح إذ رَعينَ حقيلا[٢]

---

(١) الجِرَّة بالكسر: ما يخرجه البعير للاجترار.

(٢) الراعي: هو عبيد بن حُصين النميري تقدمت ترجمته. وأفاض البعير: دفع جرته من كرشته، وكظَم كظوما: أمْسك عن الجرة. قال ثعلب: سألني محمد بن عبد الله بن طاهر عن هذا البيت فقلت: ذو الأبارق وحقيل: موضع واحد فأراد من ذي الأبارق إذْ رَعَيْنَه، يقول: كنَّ أي الإبل كظوما من العطش، فلما ابتَلَّ ما في بطونها أفضنْ بجرة، والمعنى أنَّها إذا رعت حقيلا أفاضت بذي الأبارق. (معجم البلدان ٣: ٣٠٧) ورواية البيت فيه:

وأفضن بعد كظومهن بجرة * من ذي الأبارق... بدلاً من: ذي الأباطح.

والغيظ: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسر بعض الناسِ الغيظَ بالغضب، وليس تحريرُ الأمرِ كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال بها معه ظهور في الجوارح وفِعلٌ ما ولا بد، ولهذا جاز إسناد الغضبِ إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسْنَدُ إليه تعالى غيظ ، وخلط ابن فورك في هذه اللفظة.

ووردت في كظم الغيظ وَمَلْكِ النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، ومنه قوله عليه السلام: (ليس الشديد بالصُّرعَةِ، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسه عند الغضب)(١)، ومنه قول النبي عليه السلام: (ما من جرعة يتجرعها العبد خيرٌ له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله)(٢)، وروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قال: (من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأه الله أمناً وإيماناً)(٣)،والعفو عن الناس من أجلِّ ضروب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم ـ عن أبي هريرة. (الجامع الصغير. ٢ : ٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر (وهو حسن). (الجامع الصغير ٢ : ٤٤٠).

(٣) أخرجه ابن أبي لَيْلى في ذمِّ الغضب عن أبي هريرة، (وهو ضعيف). الجامع الصغير. (٢ : ٥٥٤) ـ هذا وهناك أخبار وأشعار كثيرة عن كظم الغيظ نذكر منها:

عن عائشة أن خادماً لها غاظها فقالت: لله درُّ التقوى، ما تركت لذي غيظ ثناء.

وأنشد أبو القاسم ابن حبيب:

وإذا غضبت فكن وقوراً كاظماً للغيظ تُبصرُ ما تقول وتسمع

فعلِ الخير، وهذا حيث يجوز للإنسان ألا يعفو، وحيث يتجه حقه. وقال أبو العالية: (وَالعافِين عَن النَّاسِ) يريد عن المماليك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسنٌ على جهة المثال، إذ هم الخدمة، فهم المذنبون كثيراً، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذُ العقوبةِ سهلٌ، فلذلك مَثَّلَ هذا المفسر به.

وذكر تعالى بعد ذلك أنه يحب المحسنين فعم هذه الوجوه وسواها من البر، وهذا يدلك على أن الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى سؤال جبريل عليه السلام فقال: (ما الإيمان؟ ثم قال: ما الإسلام؟ فذكر له رسول الله ﷺ المفروضات، ثم قال له: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه)(١). . . الحديث.

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفاً دون الصنف الأول، فألحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون. وروي في سبب هاتين الآيتين: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو اسرائيل أكرمَ

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عمر ٢٩/١.

على الله منا حين كان المذنبُ منهم يصبح وعقوبته مكتوبةٌ على باب داره، فأنزل الله هذه الآية توسعةً ورحمةً وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل. وروي أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية(١). وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عبد يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ويستغفر إلا غفر له)(٢).

وقوله: ﴿والَّذين﴾ عطف جملة ناس على جملة أخرى، وليس ﴿الَّذين﴾ بنعت كرر معه واو العطف، لأن تلك الطبقة الأولى تنزه عن الوقوع في الفواحش، والفاحشة هنا: صفة لمحذوف أقيمت الصفة مقامه، التقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وهو لفظ يعم جميع المعاصي، وقد كثر اختصاصه بالزنى، حتى فسر السدي هذه الآية بالزنى، وقال جابر بن عبد الله لما قرأها: زنى القوم ورب الكعبة؛ وقال إبراهيم النَّخَعي: الفاحشة من الظلم، والظلم من الفاحشة، وقال قوم: الفاحشة في هذه الآية إشارة إلى الكبائر، وظلم النفس إشارة إلى الصغائر.

و ﴿ذَكَروا اللَّهَ﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحياء منه، إذ هو

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير ـ عن ثابت البناني (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، وإبن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني، والبيهقي في «الشعب»، والضياءُ في «المختارة» عن أبي بكر الصديق. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٠).

المنعم المتطول؛ ومن هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله صهيباً لو لم يخف الله لم يعصه». واستغفروا معناه: طلبوا الغفران، واللام معناها: لأجل ذنوبهم، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا الله﴾، اعتراضاً مرققاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجياً في عفوه إذا رجع إليه، وجاء اسم الله مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب حملاً على المعنى، إذ هو بمعنى: وما يغفر الذنوب إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ الإصرار معناه: اعتزام الدوام على الأمر وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير أي: الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قعنب العدوي: علم الله أنها مني صري، يريد: عزيمة، فالإصرار اعتزام البقاء على الذنب، ومنه قول النبي عليه السلام: (لا توبة مع إصرار)[١] وقال أيضاً: (ما أصرَّ من استغفر)[٢].

واختلفت عبارة المفسرين في الإصرار ـ فقال قتادة: هو الذي يمضي قدماً في الذنب لا تنهاه مخافة الله، وقال الحسن: إتيان العبد الذنب هو الإصرار حتى يموت، وقال مجاهد: (لَمْ يُصِرُّوا) معناه:

(١) وأخرج الديلمي في الفردوس عن ابن عباس قال: (لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار)، وهو ضعيف. (الجامع الصغير ٢: ٦٤٧).
(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي عن أبي بكر «وهو ضعيف» (الجامع الصغير ٢: ٤١٧).

لم يمضوا، وقال السدي: الإصرار: هو ترك الاستغفار والسكوت عنه مع الذنب(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمون﴾ قال السدي: معناه: وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال ابن إسحق: معناه: وهم يعلمون بما حرمت عليهم، وقال آخرون: معناه: وهم يعلمون أن باب التوبة مفتوح لهم،وقيل: المعنى: وهم يعلمون أني أعاقب على الإصرار.

ثم شرك تعالى الطائفتين المذكورتين في قوله: ﴿أُولئكَ جزاؤُهم﴾ . . . الآية، وهذه تؤذن بأن الله تعالى أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبولَ توبة التائب، وليس يجبُ عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العامِلين﴾ بمنزلة قوله: ونعم الأجر، لأن نعم وبئس تطلب الأجناس المعرفة أو ما أضيف إليها، وليست هذه الآية بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً القومُ﴾(٢) لأن المثل هنا أضيف إلى معهود لا إلى جنس، فلذلك قدَّرَهُ أبو علي: ساء المثلُ مثلُ القوم، ويحتمل أن يكون مثل القوم مرتفعاً بـ «ساءَ» ولا يضمر شيء.

---

(١) مما ذكر في «الإصرار» قول الشاعر:

يُصِرُّ بالليل ما تخفى شواكِلُه ... يا ويحَ كلِّ مصرِّ القلبِ خَتَّار

(٢) من الآية (١٧٧) من سورة الأعراف.

قوله عز وجل:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾

الخطاب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للمؤمنين. والمعنى: لا يذهب بكم أن ظهر الكفار المكذبون عليكم بأحد، فإن العاقبة للمتقين، وقديماً أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذلك تكون عاقبة هؤلاء. وقال النقاش: الخطاب بعد ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك قلق. وخلت معناه: مضت وسلفت.

قال الزجاج: التقدير: أهل سنن، والسنن: الطرائق من السير والشرائع والملك والفتن ونحو ذلك، وسنة الإنسان: الشيء الذي يعمله ويواليه، ومن ذلك قول خالد الهذلي لأبي ذؤيب:

فلا تجزعن من سنة أنت سِرتها فأول راض سنَّةً من يسيرها(١)

وقال سليمان بن قتة:

وإن الأُلى بالطَّفِّ من آل هاشمٍ تأسَّوْا فسنُّوا للكرام التأسِّيا(٢)

---

(١) السنة: السيرة حسنةً كانت أو قبيحة، والسيرة: الطريقة. يقول: أنت جعلتها سائرة في الناس.

(٢) هو سليمان بن قتة منسوب إلى أمه، وكان شاعراً يحمل عنه الحديث وهو مولى لتيم قريش. «المعارف لابن قتيبة: ٢٥٨» =

وقال لبيد:

من معشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤُهم ولكلِّ قومٍ سنةٌ وإمامُها[١]

وقال ابن زيد: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكم سُنَنٌ) ـ معناه: أمثال.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

وهذا تفسير لا يخص اللفظة.

وقال تعالى: ﴿فَسيروا﴾ وهذا الأَمر ينبئك بالإِخبار دون السير لأن الإِخبار إنما يكون ممن سار وعاين، إذ هو مما يُدْرَكُ بحاسّةِ البصر وعن ذلك ينتقل خبره، فأحالهم الله تعالى على الوجه الأكمل. وقوله: ﴿فانْظُروا﴾، هو عند الجمهور من نظر العين، وقال قوم: هو بالفكر[٢].

وقوله تعالى: ﴿هَذا بَيانٌ لِلنَّاس﴾ قال الحسن: الإشارة إلى القرآن، وقال قتادة في تفسير الآية: هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامةً وهدى وموعظة للمتقين خاصة، وقال بمثله ابن جريج والربيع.

= والأُلى: اسم موصول، والطَّف بالفتح: موضع قرب الكوفة كانت به وقعة الحسين بن علي رضي الله عنهما، والمراد بآل هاشم من كان مع الحسين من أهل بيته. تأَسَّوا: تعزوا فسنوا للكرام التأسيا، أيْ:بينوه وأوضحوا طريقته. «تعليق الكامل».

(١) يقول: هو من قوم سنَّت لهم أسلافهم كسب رغائب المعالي واغتنامها، ولكل قوم سنة وإمام سنة يُؤتم به فيها.

(٢) والجملة الاستفهامية في موضع المفعول لِـ (انظروا)، و(كيف) في موضع نصب خبر (كان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كونه بياناً للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن، وتَحْسُن إضافته إلى المتقين الذين مِنهم نَفْع وإياهم هَدَى، وقال ابن إسحق والطبري وجماعة: الإشارة بـ (هذا) إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قبلكم سُنَنٌ﴾ . . . الآية، قال ابن إسحق: المعنى: هذا تفسير للناس إن قبلوه، قال الشعبي: المعنى: هذا بيان للناس من العمى.

ثم نهى عز وجل المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأُحد، والحزن على من فقد وعلى مذمة الهزيمة، وأنَّسهم بأنهم الأعلون أصحاب العاقبة، والوهْن والوهَن: الضعف واللين والبلى، ومنه ﴿وَهَنَ العَظْم مِنِّي﴾[1] ومنه قول زهير:

. . . . فأصبح الحبل منها واهناً خَلَقا[2]

ومن كرم الخلق ألا يهنَ الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلينَ إذا

---

(١) من الآية (٤) من سورة مريم.

(٢) صدر البيت:

وأَخْلفَتْـك ابْنـةُ البَكـريِّ ما وَعَـدَتْ . . . .

الإخلاف: ألا يفي بالعهد وأن يعد الرجل العدة فلا ينجزها. الحبل: العهد، والواهي: الضعيف. والخَلَق بالفتح: البالي.

كان محقّاً، وأن يتقصّى جميعَ قدرته ولا يضرعَ ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى، ومنه قول النبي ﷺ: (المؤمن هين لين)(١) و (المؤمنون هينون لينون)(٢) ومنه قول الشاعر(٣):

لعمرُك ما إن أبو مالكٍ بِواهٍ ولا بضعيفٍ قُواه
إذا سدته سدت مطواعة ومهما وَكَلْتَ إليه كفاه

وفي هذا الأسلوب الذي ذكرته يجري قول النابغة:

ومَن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهى الظَّلُوم ولا تقعد على ضَمَد
إلا لمثْلك أو مَنْ أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمد(٤)

وفيه يجري قول العرب: «إذا لم تغلب فاخلُب»(٥)، على من تأوله

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب «وهو ضعيف». «الجامع الصغير ٢: ٥٧١».
(٢) أخرجه البيهقي، و «هو ضعيف». «الجامع الصغير ٢: ٥٧٢».
(٣) هو المتنخل، قال يرثي أخاه عويمرا وهو أبو مالك، وقيل: بل هو: أبو الشاعر لأن المتنخل اسمه مالك. والواهي: الضعيف. والقُوى: جمع قوّة خلاف الضعف. وبعد البيت:
ولكنه هينٌ لينٌ كعالية الرمح عَرْد نَساه
وعالية الرمح: ما دخل في السنان إلى ثلثه. والعَرْد: بالفتح ثم سكون الراءِ: الشديد. والنَّسا بفتح النون مقصوراً: عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ. والمطواعة: الكثير الطوع أي الانقياد. يريد أن أباه كان جلداً شهماً لا يكل أمره إلى أحد، ولا يؤخر لعجزه إلى وقت آخر، ومعنى كونه لينا كعالية الرمح: أنه إذا دعي أجاب بسرعة، وأنه غليظ موضع النسا. وإذا كنت فوقه سيداً له طاوعك ولم يحسدك، وإذا وكلْتَ إليه شيئاً كفاك. «الخزانة ٢: ١٩٥».
(٤) الظلوم: الكثير الظلم. الضمد: الذل والغيظ. استوْلى: غلب. الأمد: الغاية التي تجري إليها. إلا لمثلك: أي أبيك أو مَنْ خرج من صُلبك.
(٥) في مجمع الأمثال: (إنْ لم تغلب فاخْلُب)، بالضم، ويروى بالكسر، والصحيح الضم يقال: خلَب يخلُب خلابة، وهي الخديعة. ويراد به الخدعة في الحرب.

من المخلب، أي حارب ولو بالأظافر، وهذا هو فِعْل عبد الله بن طارق[١] وهو من أصحاب عاصم بن عدي[٢] حين نزع يده من القِران[٣] وقاتل حتى قتل، وفِعْل المنذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحة

---

(١) هو عبد الله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي، حليف لبني ظفر من الأنصار، شهد بدراً وأُحداً، وهو أحد الستة الذين بعثهم الرسول ﷺ إلى رهط من عضل والقارة في آخر سنة ثلاث من الهجرة ليفقهوهم في الدين، ويعلموهم القرآن وشرائع الإسلام، فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع وهو ماءٌ لهذيل استصرخوا عليهم بهذيل وغدروا بهم، فقاتلوا حتى قُتلوا وهم: عاصم بن ثابت، ومرثدٌ بن أبي مرثد، وخبيب بن عدي، وخالد بن البكير، وزيد بن الدثنة، وعبد الله هذا من الذين لم يقاتلوا ولانوا في القول ورَقُّوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأُسروا حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله يده من القِران وأخذ سيفه واستأْخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وقبره بالظهران. «الإصابة» و «الاستيعاب».

(٢) في كتب السير أن عاصماً هو ابن ثابت ـ وهو الصحيح ـ وليس ابن عدي. ولعله سهو من الناسخ سقط فيه: (ثابت، وخبيب)، فبذلك يكون ابن عطية قد ذكر ثلاثة من الستة: «عبد الله بن طارق، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي».

فأما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري فمن السابقين الأولين من الأنصار، يكنى أبا سليمان، شهد بدراً وهو الذي حمته الدبر من المشركين لما أرادوا أن يحتزوا رأسه يوم الرجيع حين قتله بنو لحيان لأنه كان قتل عظيماً من عظماءِ قريش يوم بدر. «الإصابة والاستيعاب».

وأما خبيب بن عدي بن مالك الأنصاري الأوسي فقد شهد بدراً وأُسر يوم الرجيع فانطلق به المشركون مع من أُسر معه إلى مكة فباعوهما وحبس في بيت (ماوِيَّة) مولاة حجير بن أبي إهاب التي قالت فيه: ما رأيت أسيراً خيراً من خُبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ من حديقة، وإنه لموثق في الحديد، وأيضا فإنه طلب منها لما علم منها دنو أجله أن تحضر له موسى يتطهر بها ففعلت حيث أرسلتها مع غلام إليه فندمت على فعلتها، ولما دخل بها عليه وسلمها له قال خبيب: لعمرك ما خافت أمك غدري، ما كنت لأفعل إن شاءَ الله، ولما خرجوا به من الحرم ليقتلوه طلب منهم أن يُمهلوه حتى يصلي ركعتين فصلاَّهما، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل للمسلمين، ثم سلَّم نفسه ودعا على الحاضرين من مشركي قريش بدعائه المعروف: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً». «الإصابة والاستيعاب».

(٣) القِرَان: الحَبْل يربط به الأسير ويُقادبه.

بن الجلاح[١] في يوم بئر معونة. ومن رآه من معنى الخلب والخلابة الذي هو الخديعة والمكر فهو رأي دهاة العرب، وليس برأي جمهورها، ومنه فِعْل عمرو بن سعيد الأَشدق[٢] مع عبد الملك بن مروان عند قتله إياه، والأمثلة في ذلك كثيرة، وأيضاً فليس المكر والخديعة بذلٍّ محضٍ، ولذلك رآه بعضهم.

وأما قولهم: «إذا عزَّ أخوك فَهِنْ»[٣]، فالرواية الصحيحة المعنى فيه بكسر الهاء بمعنى: لِنْ واضعف ضَعْفَ المطواع. وأما الرواية بضم الهاء فهي أمرٌ بالهوان، وما أعرف ذلك في شيء من مقاطع العرب، وأما الشرع فقد قال النبي عليه السلام: (لا ينبغي لمؤمنٍ أن يُذِلَّ نفسه)[٤]، ورأيت لعاصمٍ أن المثل على ضم الهاء إنما هو من الهُون الذي هو الرفق وليس من الهوان.

وقال منذر بن سعيد: يجب بهذه الآية أَلَّا يوادَّع العدوّ ما كانت

---

(١) المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري الخزرجي يكنى أبا عبيدة، شهد بدراً وأحدا واستشهد يوم بئْر معونة وهي: بين أرض عامر وحَرَّة بني سليم. «الإصابة والاستيعاب».

(٢) عمرو بن سعيد الأشدق كان من أكابر بني أمية وأما جدهم، وكان شجاعاً باسلاً، وعلى يديه اسْتَتَبَّ الأمر لمروان بن الحكم فنازع عبد الملك من بعده الحُكم فقتله. «البيان والتبيين».

(٣) المثل في أمثال المفضل الضبي: ٦٠ والفاخر: ٦٤ وجمهرة العسكري ١: ٦٥ وفصل المقال: ٢٣٥ والميداني ١: ٤٤ والمستقصى: ٥٣؛ والخلاف بين العلماء فيه حول ضم الهاءِ وكسرها قديم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، انظر المسند ٥: ٤٠٥، وهو أيضاً عند الترمذي وابن ماجة في باب «الفتن».

للمسلمين قوة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم بالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ إخبارٌ بعلوِّ كلمة الإسلام؛ هذا قول الجمهور وظاهر اللفظ، وقاله ابن إسحق، وروي عن ابن عباس وابن جريج: إنما قال الله لهم ذلك بسبب علوهم في الجبل، وذلك أن رسول الله ﷺ حين انحاز في نفر يسير من أصحابه إلى الجبل، فبينما هو كذلك إذ علا خالد بن الوليد عليهم الجبل فقال رسول الله ﷺ: (اللهم لا يعلوننا)[١] ثم قام وقام من معه فقاتل أصحابُه وقاتل حينئذ عمر بن الخطاب حتى أزالوا المشركين عن رأس الجبل، وصعد رسول الله ﷺ وأصحابه فيه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق الشرط بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنوا﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْن﴾ فيكون الشرط على بابه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من نجم نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود[٢] إيمانه واضطرب يقينه: ألا لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.

(١) أخرجه ابن جرير من طريق العوفي ـ عن ابن عباس قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي ﷺ: اللهم لا يعلون علينا، (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٤) كما أخرجه ابن إسحق في سيرته.

(٢) التأود: التثني والاعوجاج.

ثم قال تعالى تسليةً للمؤمنين: ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ﴾، والأُسوة مَسْلاةٌ للبشر، ومنه قول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أُعَزّي النفسَ عنه بالتأسِّي(١)

والسلوُّ بالتأسي هو النفع الذي يجره إلى نفسه الشاهد المحدود، فلذلك رُدَّتْ شهادته فيما حُدَّ فيه وإن تاب وحسنت حاله. والقَرح: القتل والجراح، قاله مجاهد والحسن والربيع وقتادة وغيرهم.

والمعنى: إن مسكم في أُحُدٍ فقد مَسَّ كفارَ قريش ببدرٍ بأيديكم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿قُرْحٌ﴾ بضم القاف، وكلهم سَكَّنَ الراء، قال أبو علي: هما لغتان كالضَّعف والضُّعف والكَرْه والكُرْه، والفتح أولى، لأنها لغةُ أهلِ الحجاز والأخذُ بها أوجبُ لأن القرآن عليها نزل.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

هذه القراءات لا يُظَنّ إلا أنها مرويةٌ عن النبي ﷺ، وبجميعها عارض جبريل عليه السلام مع طول السنين توسعةً على هذه الأمة،

(١) وما يبكون: أي النساء والرجال. أُعَزِّي: أُصبر وأُسلي. والتأسي: التصبر. قال المبرّد: أن يرى ذو البلاءِ من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه، فيسكن ذلك من وجده.

وتكملةً للسبعة الأحرف حسب ما بيناه في صدر هذا التعليق، وعلى هذا لا يقال: هذه أولى من جهةِ نزولِ القرآن بها، وإن رجحت قراءةٌ فبوجهٍ غيرِ وجهِ النزول. قال أبو الحسن الأخفش: القَرْح والقُرْح مصدران بمعنى واحد، ومن قال: القَرْح بالفتح الجراحات بأعيانها، والقُرْح بضم القاف ألمُ الجراحات قُبِلَ منه إذا أتى برواية، لأن هذا مما لا يعلم بقياس، وقال بهذا التفسير الطبري.

وقرأ الأعمش: ﴿إنْ تَمْسَسْكُم﴾ بالتاء من فوق، ﴿قروح﴾ بالجمع، ﴿فَقَدْ مَسَّ القومَ قرحٌ مِثْلُه﴾. وقرأ محمد بن السميفع اليماني ﴿قَرَحٌ﴾ بفتح القاف والراء؛ قال أبو الفتح[1]: هي لغة في القرح كالشّلِّ والشَّلَلِ والطَّرْدِ والطَّرَد، هذا مذهب البصريين، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين في أنّ لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول: نَحَوه بفتح الحاء، يريد نَحْوَه، ولو كانت الكلمة مبْنِيَّة على فتح الحاء لأُعِلّتِ الواو كعصاة وقناة، وسمعت غيره يقول: أنا مَحَموم بفتح الحاء. قال ابن جني: ولا قرابةَ بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق والحمد لله.

قوله عز وجل:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) المحتسب ١: ١٦٦ - ١٦٧.

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

أخبر تعالى على جهة التسلية أن الأيام على قديم الدهر وغابره أيضاً إنما جعلها دولاً بين البشر، أي: فلا تنكروا أن يُدالَ عليكم الكفار. وقال تعالى: ﴿نُدَاوِلُها﴾ فهي مفاعلةٌ من جهة واحدة، وإنما ساغ ذلك لأن المداولة منه تعالى هي بين شيئين، فلما كان ذانك الفريقان يتداولان حَسُنَ ذلك، والدُّولة بضم الدال: المصدر، والدَّوْلَةُ بفتح الدال: الفعلة الواحدة من ذلك، فلذلك يقال: في دَوْلَة فلان لأنها مرة في الدهر، وسمع بعضُ العرب الأقحاح قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: إنما هو «وتلك الأيام نداولها بين العرب»، فقيل له: إنما هو «بين الناس» فقال: إنا لله، ذهب مُلْكُ العرب وربِّ الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الله الذينَ آمنوا﴾ دخلت الواو لتؤذن أنّ اللام متعلقة بمقدّر في آخر الكلام، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك. وقوله تعالى: ﴿وليَعْلَم﴾ معناه: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزلاً أنهم يؤمنون، وليساوق علمه إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأول، وعلْمه تعالى لا يطرأ عليه التغيّر؛ ونحو هذا: أن يضرب حاكمٌ أحداً ثم يبين سبب الضرب ويقول: فعلت هذا التبيين لأضربَ مستحقاً، معناه: ليظهر أن فعلي وافق استحقاقه.

وقوله تعالى: ﴿ويتّخذَ منكمْ شُهَداءَ﴾، معناه: أهل فوز في

سبيله حسبما ورد في فضائل الشهيد.

ثم أخبر تعالى أن إدالته الكفار على المؤمنين إنما هي ليمحّصَ المؤمنين، وأن إدالة المؤمنين على الكفار إنما هي لمحق الكفار، هذا مقتضى ألفاظ الآية. وقد قال ابن عباس وغيره: جعل الله الدُّولةَ لرسوله يوم بدر، وعليه يوم أحد. وذهب كثير من أهل العلم إلى العبارة عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، وروي في ذلك عن النبي ﷺ حديث: (إنهم يدالون كما تنصرون).

والتمحيص: التنقية. قال الخليل: التمحيصُ من العيب، يقال: مَحَّصَ الحبلُ إذا زال عنه بكثرة مَرِّهِ على اليد زِئْبِرُهُ وٱمَّلَس، هكذا ساق الزجاجُ اللفظةَ (الحبل) ورواها النقاش «محص الجمل»: إذا زال عنه وَبَره وأملس، وقال حنيف الحناتم وقد ورد ماءً يقال له: طُوَيْلع[1]: إنك لمِحِصُ الرشاء، بعيدُ المستقى، مَطِلٌ

(١) حنيف الحناتم رجل من بني تيْم اللات، وأحد بني حَنْتم، ابن عدي بن الحارث بن تيم اللاَّت من ثعلبة ـ وفي المثل: «آبَلُ مِنْ حَنيفِ الحَناتم». ومن كلام حنيف الدال على إبالته قوله: «من قاظ الشرف، وتربَّع الحزن، وتشتى الصمان فقد أصاب المرعى» (مجمع الأمثال ١: ٨٦». والتاج على القاموس في مادة (أَبَلَ) وإبالة الرجُل: حُسْنُ رعايته للإبل، وأَبَلت الإبل: استغنت عن الماء بالكلأ الرطب.

وطُويلع: ماءٌ لبني تيم ثم لبني يربوع منهم، قال أبو منصور: هو ركية عادية بالشواجن عذبة الماءِ قريبة الرشاءِ. قال السكوني: قال شيخ من الأعراب لآخر: فهل وجدتَ طويلعاً، أما والله إنه لطويل الرِّشاءِ، بعيد العشاء، مشرف على الأعداء. (معجم البلدان ٦/٧٣).

على الأَعداء، فالمعنى: إنه لبعده يملس حبله بطول الجرّ ومرِّ الأيدي.

فمعنى الآية: إن الله يمحص المؤمنين إذا أُدال عليهم بأنه ينقي المتشهدين من ذنوبهم، وينقّي الأحياءَ من منافقيهم إذ يميزهم، وإنه يمحق الكافرين إذا نصر عليهم، أي: يتنقصهم، والمحق: الذهاب شيئاً شيئاً، ومنه محاق القمر.

قوله عز وجل:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)﴾

﴿أَمْ﴾ هي بمعنى الإضراب عن الكلام الأول والتركِ له، وفيها لازم معنى الاستفهام، فلذلك قدَّرها سيبويه بِبَلْ وألف الاستفهام. و ﴿حَسِبْتُم﴾ معناه: ظننتم؛ وهذه الآية وما بعدها تقريعٌ وعَتْبٌ لطوائف المؤمنين الذين وقعتْ منهم الهفواتُ المشهورةُ في يوم أحد.

وقوله: ﴿ولَمَّا يَعْلَم﴾ نفي مؤكد وهو معادل لقول القائل: قد كان كذا، فلما أكد هذا الخبر الموجب بقد أكد النفي المعادل له بلمّا، وإذا قال القائل: كان هذا، فمعادله: لم يكن دون تأكيد في الوجهين، قاله سيبويه.

وقرأ جمهور الناس: بكسر الميم للالتقاء في قوله ﴿ولَمَّا يعلَمِ﴾، وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿ولَمَّا يعْلَمَ﴾ بفتح الميم إتباعاً

لفتحة اللام، وقرأ الجمهور ﴿ويعْلَمَ﴾ على النصب بإضمار «أن» عند البصريين، وبواو الصرف عند الكوفيين. وروي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه قرأ: ﴿ويَعْلَمُ﴾ بالرفع على استئناف الفعل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويحيى بن يعمر وأبو حيوة وعمرو بن عبيد: ﴿ويعْلمِ﴾ بكسر الميم جزماً معطوفاً على قوله: ﴿ولمّا يعلمِ﴾.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ولقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الموتَ﴾، والسبب في ذلك أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بدر يريد عير قريش مبادراً فلم يُوعِبِ[١] الناسُ معه، إذ كان الظن أنه لا يلقى حرباً، فلما قضى الله ببدرٍ ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلةِ الرفيعة؛ كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنّون حضورَ قتالِ الكفار مع النبي ﷺ ليكون منهم في ذلك غَنَاءٌ يُلْحِقهم عند ربهم ونبيهم بمنزلة أهلِ بدر، ولأنس بن النضر[٢] في ذلك كلام محفوظ، فلما جاء أمر أُحد وحضر القتال لم يَصْدُقْ كلُّ المؤمنين، فعاتبهم الله بهذه الآية، وألزمهم تعالى تمني الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه المتمنى، وإلا فنفس قتل المشرك للمسلم

---

(١) أوعب الناس: خرجوا كلهم للغزو.

(٢) هو أَنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري الخزرجي عم أَنس بن مالك خادم النبي ﷺ، رُوي أنه غاب عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أَشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أَصنع، القصة بتمامها في الإصابة والاستيعاب.

لا يجوز أن يُتمنى من حيث هو قتل، وإنما تُتمنى لواحقه من الشهادة والتنعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ قبلِ أنْ تَلْقَوْه﴾، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلاقوه﴾، وهذه والأولى في المعنى سواء من حيث «لقي» معناه يتضمن أنه من اثنين وإن لم يكن على وزن فاعل، وقرأ مجاهد: ﴿مِنْ قبلُ﴾ بضم اللام وترك الإضافة، وجعل ﴿أن تَلْقَوه﴾ بدلاً من الموت.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يريد رأيتم أسبابه، وهي الحرب المشتعلة والرجال بأيديهم السيوف، وهذا كما قال عمير بن وهب[1] يوم بدر: رأيت البلايا تحمل المنايا. قال الحارث بن هشام:

ووجدتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدَّدِ[2]

---

(١) هو عمير بن وهب بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ـ يُكنى أبا أمية، كان له قدْرٌ وشرف في قريش، شهد بدراً كافراً، وهو القائل لقريش يومئذ في الأنصار: إني أرى وجوهاً كوجوه الحيات، لا يموتون ظمأ أو يقتلوا منّا أعدادهم، فلا تتعرضوا لهم بهذه الوجوه التي كأنها المصابيح، فقالوا له: دع هذا عنك وحرش بين القوم. وهو الذي مشى حول عسكر النبي من نواحيه ليحزر عددهم يوم بدر، وأسر ابنه، ثم قدم عمير المدينة يريد الفتك برسول الله ﷺ فأخبره ﷺ بما جرى بينه وبين صفوان فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة حيث أسلم على يده خلق كثير، وشهد أحداً، وهو أحد الأربعة الذين أمد بهم عمر بن الخطاب عمْرو بن العاص بمصر، عاش إلى صدر من خلافة عثمان. «الاستيعاب والإصابة».

(٢) تلقاءُ الشيء: نحوه، وقد يستعمل في معنى اللقاءِ. والمأزق: المضيق. والتبدد: التمزق. وقوله: «ووجدت ريح الموت من تلقائهم» ضربه مثلا، ومعناه: إنه غلب على ظنه أنه لو وقف وقاتل قتل، وأن قتاله منفرداً لا يؤثر في العدو، فلذلك آثر الفرار. ورواية البيت في الحماسة:

وشَمَمْت ريحَ المَوْت من تلقائهم... إلخ.

يريد لقرب الأمر، ونحو هذا قول عامر بن فهيرة:[1]

لقد رأيت الموت قبل ذوقه

يريد لما اشتد به المرض. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَلَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها: التأكيد للرؤية وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين في اللفظ، والآخر: أن يكون المعنى: وأنتم تنظرون في أسباب النجاة والفرار وفي أمر محمد عليه السلام هل قُتِلَ أم لا؟ وذلك كله نقض لما كنتم عاهدتم الله عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحكى مكي وغيره عن قوم أنهم قالوا: المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد، وهذا قول ضعيف، إلا أن ينحى به إلى هذا القول الذي ذكرته أنه النظر في أمره ـ هل قتل؟ والاضطراب بحسب ذلك.

والمعنى الثالث: أن يكون قد وقفهم على تمنيهم ومعاهدتهم، وعلى

---

(١) عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، من مواليد الأزد، أسود، أسلم وهو مملوك للطفيل فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وكان إسلامه قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان يرعى الغنم في ثَوْر ثمَّ يروح بها على رسول الله ﷺ وأبي بكر في الغار، وكان رفيقهما في الهجرة إلى المدينة، شهد بدراً وأحداً، ولما قدم المدينة اشتكى فيمن اشتكى بالحمى وكان كلّما تألم يقول:

إني وَجَدْتُ الموت قبْل ذوْقِهِ ... إنَّ الجبانَ حتْفُه مِنْ فوقه
كلُّ امرئٍ مجاهدٌ بِطَوقه ... كالثَّور يحْمي جلدَه بِرَوْقِه

قتله عامر بن الطفيل يوم بئر معونة. «الإصابة والاستيعاب».

أنهم رأوا الذي تمنوا، ثم قال على جهة التوبيخ والعتب: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل وفيتم أم خالفتم؟ كأنه قال: وأنتم حسباء أنفسكم، فتأملوا قبيحَ فعلكم، وفي هذا التوبيخ على هذا الوجه ضربٌ جميلٌ من الإبقاء والصون والاستدعاء. قال ابن فُورك: المعنى: وأنتم تتأملون الحال في ذلك وتفكرون فيها ـ كيف هي؟ وهذا نحو ما تقدم.

قوله عز وجل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

هذا استمرار في عتبهم وإقامة حجة الله عليهم، المعنى: إن محمداً ﷺ رسولٌ كسائر الرسل، وقد بلَّغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العملُ بمضمَّن الرسالة، وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله. و﴿خَلَتْ﴾ معناه: مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الرُّسُلُ﴾ بالتعريف، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿رُسُلٌ﴾ دون تعريف، وهي قراءة حطان بن عبدالله[1]،

(١) هو حطان بن عبدالله الرقاشي البصري، ويقال: السدوسي، كبير القدْر، صاحب زهد وورع وعلم، قرأ على أبي موسى الأشعري عرضا، وقرأ عليه عرضا الحسن البصري، مات سنة=

فوجْه الأولى تفخيم ذكر الرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى، ووجْه الثانية أنه موضع تفسير لأمر النبي عليه السلام في معنى الحياة، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك فيَجيءُ تنكير ﴿الرُّسُل﴾ جارياً في مضمار هذا الاقتصاد به ﷺ، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشيء، فمنه قوله تعالى: ﴿وقَليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُور﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيلٌ﴾[2] إلى غير ذلك من الأمثلة. ذكر ذلك أبو الفتح[3]، والقراءة بتعريف الرسل أوجه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ ماتَ﴾... الآية، دخلت ألف الاستفهام على جملة الكلام على الحدّ الذي يخبر به ملتزمه، لأن أقبح الأحوال أن يقولوا: إن مات محمد أو قتل انقلبنا، فلما كان فعلهم ينحو هذا المنحى وقفوا على الحد الذي به يقعُ الإخبار. وقال كثير من المفسرين: ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض إنما هو: تنقلبون على أعقابكم إن مات محمد؛ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبذلك النظر الذي قدمته يَبين وَجْهُ فصاحةِ الألف على

=نيف وسبعين، وهو ثقة، قليل الحديث، (طبقات القراءِ للجزري ١/٢٥٣. وتهذيب التهذيب).

(١) من الآية (١٣) من سورة سبأ.

(٢) من الآية (٤٠) من سورة هود.

(٣) انظر المحتسب ١: ١٦٨.

الشرط، وذلك شبيهٌ بدخول ألف التقريب في قوله: ﴿أَوَلَوْ كان آباؤُهم﴾[١] ونحوه من الكلام، كأنك أدخلت التقريرَ على ما ألزمت المخاطب أنه يقوله. والانقلاب على العقب يقتضي التولّي عن المنقلب عنه. ثم توعد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يضُرَّ اللَّهَ شيئاً﴾ لأن المعنى: فإنما يضرّ نفسه وإياها يُوبِقُ. ثم وعد الشاكرين وهم الذين صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبيه بل مضى على دينه قدماً حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع[٢] وتقضي بذلك وصيته إلى الأنصار، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبريّ عنه بِسَنَدٍ أنه مرَّ عليه رجل من المهاجرين والأنصاري يتشحَّطُ في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بَلَّغَ، فقاتلوا على دينكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدَّقَ فعلُهم قولَهم، ثم يدخل في

---

(١) تكررت في سورة البقرة في الآية (١٧٠) وفي سورة المائدة في الآية (١٠٤).

(٢) هو سعد بن الربيع بن عمرو الأنصاري الخزرجي، أحد نقباء الأنصار، كان كاتباً في الجاهلية، شهد العقبة الأولى والثانية وبدراً، وقتل يوم أحد شهيداً، أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس عن خبره أهو في الأحياءِ أم في الأموات، فوجده المتطوع للبحث عنه به رمق، فقال له: بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، فقال له سعد: اذهب إليه فأقرئه مني السلام، وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وأني قد نفذت مقاتلي، وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي، فلماأخبر ﷺ بحالته قال: نصح لله ولرسوله حيًّا وميتاً. (الإصابة والاستيعاب).

الآية الشاكرون إلى يوم القيامة. قال ابن إسحق:معنى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكرينَ﴾ أي: من أطاعه وعمل بأمره. وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكره غيره: أنه قال في تفسير هذه الآية: الشاكرون: الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: أبو بكر أمير الشاكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الإشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قُبِضَ وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا وهموا بالاجتماع والمكاشفة، فأوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبيَّ لم يُقْبَضْ، فقام بخطبته المشهورة المخوِّفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، فَفَتَّ ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهَّدَ أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات،﴿وما مُحَمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ﴾ وتلا الآية كلها، فبكى الناسُ ولم يبقَ أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفع الله بخطبة عمر ثم بخطبة أبي بكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه.

ثم أخبر تعالى عن النفوس أنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند الله تعالى، أي: فالجبن لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقويةُ النفوسِ للجهاد، قال ابن فورك: وفيه تسليةٌ ما في موت النبيّ عليه السلام، والعبارة بقوله: ﴿وما كانَ﴾ قد تجيء فيما هو ممكن قريب نحو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ. وقد تقع في الممتنع عقلاً نحو قوله: ﴿مَا كانَ لَكُم أَنْ تُنْبِتوا شَجَرَها﴾[1] فهي عبارة لا صيغة لها ولا تتضمن نهياً كما يقول بعض المفسرين، وإنما يفهم قدر معناها من قرائن الكلام الذي تجيء العبارة فيه. و﴿نفس﴾ في هذه الآية: اسم الجنس، والإذن: التمكينُ من الشيء مع العلم بالشيء المأذون فيه، فإن انضاف إلى ذلك قولٌ فهو الأمر. وقوله: ﴿كتاباً﴾ نصب على التمييز، و﴿مؤجلاً﴾ صفة. وهذه الآية رادّة على المعتزلة[2] في قولهم بالأجلين. وأما الانفصال عن تعلقهم

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة النمل.

(٢) مذهب المعتزلة: أن المقتول ليس بميت، لأن القتل فِعْلُ العبدِ، والموت فعلِ الله، فيكون بذلك للمقتول أجلان: أحدهما القتل، والآخر الموت، وأنه لو لم يُقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت. «روح المعاني ٤/٧٦».

بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّركُم إلى أَجَلٍ مُسَمَّى﴾[١] ونحو هذا من الآيات؛ فسيجيء في مواضعه إن شاء الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِ منها﴾ مشروطٌ بالمشيئة، أي نؤت من شئنا منها ما قُدِّرَ له، بيَّنَ ذلك قوله تعالى: ﴿من كان يريدُ العاجلةَ عجَّلنا له فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُريد﴾[٢]، وقرينةُ الكلام تقتضي أنه لا يؤتى شيئاً من الآخرة،لأن من كانت نيته من عمله مقصورةً على طلب الدنيا فلا نصيبَ له في الآخرة، والأعمالُ بالنيات، وقرينة الكلام في قوله: ﴿وَمنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نؤته منها﴾ لا تمنع أن يؤتى نصيباً من الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: (نُؤْته) و(نُؤْته) و(سَنَجْزي) كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة

(١) من الآية (١٠) من سورة إبراهيم.
(٢) من الآية (١٨) من سورة الإسراء.

الكلام عليه. قال ابن فورك في قول الله تعالى: ﴿وسَنَجْزي الشاكرينَ﴾ إشارة إلى أنه ينعمهم بنعيم الدنيا لا أنهم يقصرون على الآخرة.

ثم ضرب تعالى المثل للمؤمنين بمن سلف من صالح الأمم الذين لم يَثْنِهم عن دينهم قتلُ الكفار لأنبيائهم فقال: ﴿وكأَيِّنْ من نبيٍّ﴾. . .الآية،وفي (كأين) أربع لغات[١]: (كأَيِّن) على وزن كعَيِّن بفتح العين، ﴿وكائِن﴾، على وزن كاعن،و(كأْيِّن) على وزن كَعْيِن بسكون العين، و(كإِن) على وزن كَعِن بكسر العين؛ وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعن، فمن ذلك قول الشاعر:

وكائن رددْنا عنكم من مُدجَّجٍ يجيءُ أَمام القوم يَرْدي مقنّعا[٢]

وقال جرير:

وكائنْ بالأباطح من صديقٍ يراني لو أُصِبْتُ هو المصابا[٣]

---

(١) قارن بما أورده ابن جني في المحتسب ١: ١٧٠ - ١٧٣ ففيه كثير مما أورده المؤلف حول «كأين».

(٢) لم نعثر على قائله. والمدَجَّجُ: الشاك في السلاح. يَرْدي بفتح الياءِ: يمشي مشياً فيه تبختر. ورجل مقنع: عليه بيضةُ الحديد.

(٣) البيت من قصيدة له يمدح بها الحجاج بن يوسف مطلعها:

سَئِمْتُ مِن المُـواصَلة العتـابـا . . . وأمْسى الشَّيْبُ قـد ورث الشَّبابا

والأباطح جمع أبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى، أصابه الدهر بنفسه وماله: جاحه ففجعه، والمصيبة: ما أصاب من الدهر.

وقال آخر:

وكائنْ ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادته أو نقصُهُ في التكلّمِ (١)

وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولا قول الشاعر:

كأيّنْ في المعاشرِ من أناس أخوهم فوقهم وهمُ كرامُ(٢)

وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة، لأنها كاف التشبيه دخلت على «أي» كما دخلت على «ذا» في قولك: لفلان كذا وكذا، وكما دخلت على «أن» في قولك: كأن زيداً أسد، لكن بقي لها معنى التشبيه في كأن، وزال عنها ذلك في كذا وكذا، وفي كأيّن، وصرفت العرب كأيّن في معنى «كم» التي هي للتكثير، وكثر استعمالهم للفظة حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت، وهذا كما لعب في قولهم: لعمري حتى قالوا: رعملي، وكما قالوا: أطيب وأيطب،

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى. الصمتُ والصمات: السكوت، يقول: وكم صامتٍ يعجبك صمتهُ فتستحسنه، وإنما تظهر زيادته على غيره ونقصانه عن غيره عند تكلمه، وقد نسب الجاحظ هذا البيت في (البيان والتبيين ج ١/١٧٠) للأعور الشني.

هذا وقد أنشد الكسائي أيضاً:

وكائِنْ ترى يسْعى من الناسِ جاهداً على ابْنٍ غدا منه شجاعٌ وعقربُ

وقال آخر:

وكائِنْ أصابت مؤمناً مِن مصيبةٍ على الله عقباها ومنْه ثوابها

والمتأمل يرى ابن عطية قد روى الأبيات التي استشهد بها (كايِن) بالياءِ تسهيلاً للهمزة كما هي عادة أهل المغرب العربي.

(٢) لم نعثر على قائله. والمعاشر جمع معشر: الجماعة متخالطين أو غير ذلك.

وكما قالوا: طبيخ في بطيخ، فعوملت الكافُ وأيٌّ معاملةَ ما هو شيء واحد. فأما اعتلال لغة من قال: (كائن) على وزن فاعل، فإنهم أخذوا الأصل الذي هو (كأين) فقلبوا الياء قبل الهمزة ونقلت حركةُ كلٍّ واحد منهما إلى أختها، فجاء (كيّأ) على وزن كيَّع، فحذفوا الياء الثانية المفتوحة تخفيفاً، كما حذفوا الياء من ميِّت وهيِّن وليِّن فقالوا، مَيْت وهيْن ولَيْن، وكما حذفوا الياء الثانية من ـ «أي» تخفيفاً، ومنه قول الفرزدق بن غالب التميمي:

تنظرت نصراً والسماكين أَيْهُما علَيَّ من الغيثِ استهلَّتْ مواطره

فجاء (كَيْإٍ) على وزن كَيْعٍ، فأبدلت هذه الياء الساكنة ألفا مراعاةً للفتحة التي قبلها، كما قالوا: في يَوْجَل ياجل، وكما أبدلوا الياء ألفاً في (طاي)، وكما أبدلت في (آية) عند سيبويه، إذ أصلها عنده (أيّة) على وزن فعْلة بسكون العين، فجاء (كاءٍ) ثم كتب هذا التنوين نوناً في المصحف؛ فأما قياس اللغة فحذفه في الوقف، فكما يقولون: مررت بزيد فكذلك يقولون: (كايي)، ووقف عليه أبو عمرو (كاي) بياء دون نون، وكذلك روى سورة بن المبارك[1] عن الكسائي، ووقف سائر القراء بإثبات النون مراعاة لخط المصحف. قال أبو علي: ولو

---

(١) هو سورة بن المبارك الخراساني الدينوري، روى القراءة عن الكسائي، وهو من المُكثرين عنه، وروى عنه محمد بن سمعان بن أبي مسعود، ومحمد بن الجهم، وأحمد بن زكرياء السوسي. (طبقات القراءِ لابن الجزري ١: ٣٢١).

قيل إنه لما تُصرِّفَ في الكلمة بالقلب صارت بمنزلة النون التي من نفس الكلمة وصارت بمنزلة لام فاعل فأقرت في الوقف، لكان قولاً، ويقوّي ذلك أنهم لما حذفوا الكلام من قولهم: إما لا، جعلوها بالحذف ككلمة واحدة، فأجازوا الإمالة في ألف «لا» كما تجوز في التي من نفس الكلمة في الأسماء والأفعال، فيوقف على (كاين) بالنون ولا يوقف على النون إذا لم تقلب، كما لا تميل الألف من «لا» إذا لم يحذف فعلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذه اللغة التي فيها هذا القلب قرأ ابن كثير وحده، وقرأ سائر السبعة باللغة التي هي الأصل، وذهب يونس بن حبيب في (كاين) إلى أنه فاعل من الكون، وقوله مردود، إذ يلزم عنه إعراب الكلمة ولم يعربها أحد من العرب. وأما اللغة التي هي (كأْين) على وزن (كَعَيْن) فهي قراءة ابن محيصن والأشهب العقيلي، وتعليل هذه اللغة أنه علل الأصل الذي هو (كأْين) بالتعليل المتقدم، فلما جاء (كيأُ) على وزن كيع، ترك هؤلاء إبدال الياء الساكنة ألفاً كما تقدم في التعليل الأول، وقلبوا الكلمة فجعلوها (كأين) على وزن كعين، وحسن هذا من وجهين: أحدهما أن التلعب والتصرف في هذه الكلمة مهيع، والثاني أنهم راجعوا الأصل الذي هو تقديم الهمزة على الياء. وأما اللغة التي هي(كإن)على وزن(كَعِن)فهي قراءة ابن محيصن أيضاً، حكاها عنه أبو عمرو الداني، وقرأها الحسن بن أبي

الحسن إلا أنه سهَّل الهمزة ياء فقرأ (كيٍ) في جميع القرآن، وتعليل هذه اللغة أنهم حذفوا الألف من (كائن) الممدودة على وزن كاعن بعد ذلك التصرف كله تخفيفاً، وهذا كما قالوا: أمَ والله، يريدون: أما، وكما قالوا على لسان الضب[1]:

لا أشتهي أن أرِدَا إلا عَراداً عَردا
وصِلِيّاناً بَرِدا وَعنْكَثاً مُلْتَبِدَا

أرادوا: عارداً وبارداً، فحذفوا تخفيفاً، وهذا كثير في كلامهم، و(كأيّن) في هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كم» وبمعناها تعطي في الأغلب التكثير.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿قُتِلَ﴾ بضم القاف وكسر التاء مخففة، وقرأ الباقون: ﴿قَاتَلَ معه﴾، بألف بين القاف والتاء، وقرأ قتادة: ﴿قُتِّلَ﴾ بضم القاف وكسر التاء مشدودة على التكثير.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ قال فيه جماعة من المفسرين منهم الطبري: إنه مستند إلى ضمير ﴿نَبيٍّ﴾، والمعنى عندهم: أن النبيّ

---

(١) قال أبو الهيثم: تقول العرب: قيل للضب: «وِرْداً وِرْداً»، فقال.

أَصْبَحَ قَلْبي صَرِدَا لا يَشْتَهي أَنْ يَرِدَا

الأبيات. «اللسان» في مادة: (عَرَدَ) وصرِدَ بالكسر صرَداً، والصَّرد: البَرْدُ، والعَرادَ: حشيشٌ طيِّبُ الريح، وقيل: حمْض تأكُله الإبل، والعارِدُ من النبات: المنتصبُ الشديد أو: عَرَادٌ عَردٌ على المبالغة. والصِّلِيَّان: نبت، والعَنْكَثُ نبت. والْتَبَدَ الورق: تَلَبَّد بعضه على بعض، والْتَبَدت الشجرة: كثُرت أوراقها. وفي «حياة الحيوان» للدميري: ومن كلامهم الذي وضعوه على ألسنة البهائم: ثم قالت السمكة: رد يا ضَبُّ فقال: أصبح قلبي... إلخ.

قتل. قال ابن عباس في قوله: ﴿وما كان لِنَبيّ أَنْ يَغُلَّ﴾ النبي يقتل؛ فكيف لا يخان، وإذا كان هذا فـ ﴿ربِّيُّونَ﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿مَعَهُ ربِّيُّونَ﴾ على هذا التأويل يجوز أن يكون صفة لـ﴿نَبِيٌّ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي أسند إليه ﴿قُتِلَ﴾، فإن جعلته صفةً أضمرت للمبتدأ الذي هو﴿كأين﴾خبراً تقديره في آخر الكلام: مضى أو ذهب أو فقد ﴿فما وهنوا﴾، وإن جعلت مَعَهُ ﴿رِبِّيُّون﴾ حالاً من الضمير فخبر المبتدأ في قوله: ﴿قُتِلَ﴾، واذا جعلته صفة فالضمير في ﴿مَعَه﴾ عائد على ﴿نَبِي﴾، وإذا جعلته حالا فالضمير في ﴿مَعَه﴾ عائد على الضمير ذي الحال، وعلى كلا الوجهين من الصفة والحال فـ ﴿مَعَه رِبِّيُّون﴾ متعلق في الأصل بمحذوف، وليس متعلقاً بـ ﴿قُتِل﴾.

وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة معه: إن ﴿قُتِلَ﴾ إنما هو مستند إلى قوله: ﴿رِبِّيُّون﴾ وهم المقتولون، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم يقتل نبيّ في حرب قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول يتعلق قوله: ﴿مَعَهُ﴾ بـ ﴿قُتل﴾، وهذه الجملة: ﴿قُتِلَ مَعَهُ ربِّيُّون﴾ هي خبر الابتداء. ويتصور في قراءة من قرأ ﴿قاتَل﴾ جميع ما ذكرته من التقديرات في قراءة ﴿قُتل﴾. وأَما قراءة قتادة ﴿قُتِّلَ﴾ فقال أبو الفتح[1]: لا يحسن أن يُسْنَدَ الفعلُ إلا إلى

(١) انظر المحتسب ١: ١٧٣.

الربيين، لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يُسْتَعملَ في قَتْلِ شخصٍ واحد، فإن قيل: يستند إلى﴿نبيّ﴾مراعاة لمعنى «كم» فالجواب أن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله: ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾، ودل الضمير المفرد في ﴿معه﴾ على أن المراد إنما هو التمثيل بواحدٍ واحد، فخرج الكلام على معنى «كم»، قال أبو الفتح: وهذه القراءةُ تقوّي قولَ من قال من السبعة: إن ﴿قُتِل﴾ بتخفيف التاء أو ﴿قاتَل﴾ إنما يستند إلى الربيين. ورجح الطبري استناد ﴿قُتل﴾ إلى النبي بدلالة نازلة محمد ﷺ، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل: قتل محمد، فضرب المثل بنبي قُتِل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا لم يسند الفعل إلى ﴿نَبيٍّ﴾ فإنما يجيء معنى الآية: تثبيت المؤمنين بعد من قتل منهم فقط، وترجيحُ الطبريّ حسن، ويؤيد ذلك ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أفإِنْ ماتَ أَوْ قُتل﴾، وحجة من قرأ: ﴿قاتل﴾ أنها أعم في المدح لأنه يدخل فيها من قتل ومن بقي(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن عندي على هذه القراءة إسناد الفعل إلى الربيين، وعلى

(١) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام ثم قال: «قُتِل ـ يظهر أنها مدح، وهي أبلغ في مقصود الخطاب لأنها نصٌّ في وقوع القتل، ويستلزم المقاتلة ـ وقاتل لا تدل على القتل إذ لا يلزم من المقاتلة وجود القتل ـ فما ذكر من أنه يحسن عنده ـ لا يظهر حسْنُه، بل القراءتان تحتملان الوجهين».

قراءة ﴿قُتل﴾ إسناده إلى ﴿نَبِيٍّ﴾.

وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من ﴿رِبِّيُّون﴾، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب[١]: ﴿رُبّيون﴾ بضم الراء، وروى قتادة عن ابن عباس: (رَبّيون) بفتح الراء، قال ابن جنى: الفتح في الراء لغة تميم[٢]،وكلها لغات. واختلف الناس في معنى ﴿رِبِّيُّون﴾ ـ فقال ابن مسعود: الربيون: الألوف من الناس والجمع الكثير، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة ،وقاله الحسن وقتادة وعكرمة. ولقول عبد الله بن مسعود وابن عباس: «إنهم الألوف» ـ قال بعض المفسرين: هم عشرة آلاف فصاعداً، أخذ ذلك من بناء الجمع الكثير في قولهما: هم الألوف، وهذا في الربيين أنهم الجماعات الكثيرة هو من الرِّبة بكسر الراء وهي الجماعة الكثيرة، قاله يونس بن حبيب، وقال: إن قوله تعالى: ﴿قُتل مَعَه رِبِّيُّون﴾ منسوبون إليها، قال قطرب: جماعة العلماء على قول يونس، وقال الزجاج: يقال: إن الرِّبة عشرة آلاف، وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: ﴿ربِّيُّون﴾

(١) هو عطاءُ بن السائب أبو زيدٍ الثقفي، الكوفي، أحد الأعلام، أخذ القراءة عرضا عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأدرك علياً، روى عنه شعبة بن الحجاج، وأبو بكر بن عياش، وجعفر بن سليمان، ومسح على رأسه ودعا له بالبركة، توفي سنة: ١٣٦. «طبقات القرآء» لابن الجزري، ٥١٣/١.

(٢) كذا ورد هنا، وجاء في المحتسب (١: ١٧٣) الضمّ في (رُبيون) تميمية.

معناه: علماء، وقال الحسن: فقهاء علماء، قال أيضاً: علماء صُبُر[١]، وهذا القول هو على النسبة إلى الرَّب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع، ويقوي هذا القول في قراءة من قرأ ﴿رَبيون﴾ بفتح الراء، وأما في ضم الراء وكسرها فيجيء على تغيير النسب، كما قالوا في النسبة إلى الحرم: حِرَميّ بكسر الحاء، والى البصرة، بِصْري بكسر الباء، وفي هذا نظر، وقال ابن زيد: الرَّبانيون: الولاة، والرَّبيون: الرعية الأتباع للولاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأن هذا من حيث هم مربوبون.

وقال النقاش: اشتقاق(ربِّيٍّ من:ربا الشيءيربو إذا كثر، فسمى بذلك الكثير العلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف.

وقال مكي: رِبِّي بكسر الراء منسوب إلى الرَّب، لكن كسرت راؤه إتباعاً للكسرة والياء اللتين بعد الراء، وروي بضم الراء كذلك لكنهم ضموها كما قيل: دُهري بضم الدال في النسب إلى الدهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فما وَهَنوا﴾ بفتح الهاء، وقرأ الأعمش والحسن وأبو السمال: ﴿وَهِنوا﴾ بكسر الهاء، وهما لغتان بمعنى،

---

(١) الصُّبُر: بضم الصاد والباءِ جمع صبير، وهو الكفيل ومقدم القوم.

يقال: وَهِنَ بكسر الهاء يُوهَنُ، وَوَهَن بفتح الهاء يَهِنُ. وقرأ عكرمة وأبو السمال أيضاً: ﴿وَهْنوا﴾ بإسكان الهاء، وهذا على طلب الخفة كما قالوا في نِعم وبِئْس إلى غير ذلك من الأمثلة، وقد تقدم معنى الوهن في قوله آنفاً: ﴿ولا تَهِنوا﴾. والضمير في قوله: ﴿فما وَهَنوا﴾ عائد على جميع الرِّبيين في قول من أسند ﴿قُتِل﴾ إلى ﴿نبيء﴾، ومن أسنده إلى ﴿الرِّبيين﴾ قال في هذا الضمير: إنه يعود على من بقي منهم، إذ المعنى يفهم نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وما ضَعُفُوا﴾ معناه: لم يكتسبوا من العجز والإلقاء باليد ما ينبئُ عن ضعفهم.

وقوله تعالى: ﴿وما اسْتَكانوا﴾ ذهبت طائفة من النحاة إلى أنه من السكون فوزنه افتعلوا استكنوا، فمطلت فتحة الكاف فحدث من مَطْلها ألفٌ(١). وذهبت طائفة إلى أنه مأخوذ من كان يكون، فوزنه على هذا الاشتقاق استفعلوا أصله استكونوا، نقلت حركة الواو إلى الكاف وقلبت ألفاً، كما فعلوا في قولك: استعانوا واستقاموا، والمعنى: إنهم لم يضعفوا ولا كانوا قريباً من ذلك، كما تقول: ما فعلتُ كذا ولا كدت، فتحذف لأن الكلام يدل على أن المراد: وما كدت أن أفعل، ومحبة الله تعالى للصابرين ما يظهر عليهم من نصره وتنعيمه(٢).

---

(١) هذا هو قول الفراء وجماعة من النحاة، وقد مرَّت نماذج من المطل آنفاً.

(٢) قال العلماء: الله يحب الصابرين على قتال عدوهم، أو على دينهم وقتال الكفار، والظاهر العموم، وكثيرا ما تمدحت العرب بالصبر، وحثت عليه، قال طرفة: =

قوله عز وجل.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

هذه الآية في ذكر الرِّبيين، أي: هذا كان قولهَم، لا ما قاله بعضكم يا أصحاب محمد، مِن قول مَن قال: نأخذ أماناً من أبي سفيان، ومِن قولِ مَن قال: نرجع إلى ديننا الأول، ومِن قول مَن فرَّ، فلا شك أن قوله مناسب لفعله ولو بعض المناسبة، إلى غير ذلك مما اقتضته تلك الحال من الأقوال.

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿قولهَم﴾ بالنصب، ويكون الاسم فيما بعد ﴿إلَّا﴾، وقرأ جماعة من القراء ﴿قولُهُمْ﴾ بالرفع وجعلوا الخبر فيما بعد ﴿إلَّا﴾، وروى ذلك حماد بن سلمة عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ذكره المهدوي.

واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا أن ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر، كما نزلت قصة أُحُد بعصيان من عصا.

وقوله تعالى: ﴿ذُنوبَنا وإِسْرافَنا في أَمْرنا﴾ عبارتان عن معنىً قريبٍ بعضُهُ من بعض، جاء ذلك للتأكيد ولتعلم مناحي الذنوب،

=وتشكي النفسُ ما صاب بها فاصبري إنَّك مِنْ قَومٍ صُبُرْ

وكذلك فسر ابن عباس وغيره . وقال الضحاك: الذنوبُ عام، والإسرافُ في الأمر أريد به الكبائر خاصة .

وقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقدامَنا﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتثبيت القدم على هذا استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: ﴿وانْصُرْنا عَلى القَوْم الكافِرينَ﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب؛ قال ابن فورك: في هذا الدعاء ردٌّ على القدرية، لقولهم: إن الله لا يخلقُ أفعالَ العبد، ولو كان ذلك لم يسُغ أن يدعى فيما لا يفعله.

و﴿ثواب الدُّنْيا﴾ في هذه الآية: الظهور على عدوهم، قاله ابن إسحق وقتادة وغيرهما، وقال ابن جريج: الظفر والغنيمة، وفسر بهذا جماعة من المؤلفين في التفسير، قال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة فقط، لأن الغنيمة لم تحلَّ إلا لهذه الأمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا اعتراض صحيح .

﴿وحُسْنَ ثوابِ الآخِرَةِ﴾ الجنة بلا خلاف، وعبر بلفظة ﴿حُسْن﴾ زيادةً في الترغيب[1] وباقي الآية بين.

---

(١) وهو أيضاً دلالة على فضله وتقدمه، وأنه هو المعتد به عند الله [تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة].

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الإشارة بقوله: ﴿الَّذينَ كَفَروا﴾ إلى المنافقين الذين جبّنوا[١] المسلمين وقالوا في أمر أُحُد: لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، إلى نحو هذه الأقوال، ثم اللفظ يقتضي كلَّ كافر كان في ذلك الوقت ويكونُ إلى يوم القيامة، نهى الله المؤمنين عن طاعتهم. و ﴿بَل﴾ تركٌ للكلام الأول ودخول في غيره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ على الابتداء والخبر، وهذا تثبيت، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بلِ اللَّهَ﴾ بالنصب على معنى: بل أطيعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقي﴾ استعارة، إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأَجرام، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿والَّذينَ يَرْمونَ المُحْصَناتِ﴾[٢] ونحوه قول الفرزدق:

---

(١) جَبَّنَه: نسبه إلى الجبن. وفي نسخة: (خبَّبوا) بمعنى: خدعوا.
(٢) من الآية (٤) من سورة الأنبياء.

هما نفثا في فيٍّ من فَمَوْيهما على النابحِ العاوي أشدَّ رجامِ [١]

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَنُلْقِي﴾ بنون العظمة، وقرأ أيوب السختياني: ﴿سَيُلْقِي﴾ بالياء على معنى «هو»، وقرأ ابن عامر والكسائي: ﴿الرُّعُبَ﴾ بضم العين حيث وقع، وقرأ الباقون: ﴿الرُّعْب﴾ بسكون العين. وهذا كقولهم: عُنُق وَعُنْق، وكلاهما حسن فصيح.

وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وقال: انظر القوم، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمرون إلى مكة، وإن كانوا على الخيل فهم عامدون[٢] إلى المدينة، فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول الله ﷺ، فَسُرَّ وسر المسلمون. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين يريهم الجَلَد، فبلغ حمراءَ الأسد؛ وإن أبا سفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبقَ إلا الفلّ والطريد[٣] ننصرف عنهم؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصِلَهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي[٤] قد جاء إلى

---

(١) البيت في الديوان، وروايته هي:

هُمَا تفلا في فيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا عَلَى النَّابحِ العَاوي أشد رجام

ونَفَث نفثا إذا بزق من فيه ولا ريق معه. وقوله: أشد رجام، أي: أشد نفث.

(٢) عامدون: قاصدون.

(٣) الفلُّ: المنهزمون، والطريد: الذي لا يستشعر أمناً.

(٤) معبد الخزاعي ذكره أبو عمر بن عبد البر فقال: هو الذي رد أبا سفيان يوم أُحد عن الرجوع إلى المدينة. قال ابن حجر العسقلاني: قلت: وزعم بعضهم أن معبداً هذا هو ولد أم معبد =

رسول الله ﷺ وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها كانت تميل إلى رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما أصابك؛ ولوددنا أنك لم تُرْزَأْ في أصحابك. فلما سمع رسول الله ﷺ والناس بما عزمت عليه قريش من الانصراف اشتد ذلك عليهم، فسخَّر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر ركب حتى لحق بأبي سفيان بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعةَ إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قط يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه من كان تخلَّفَ عنه، وندموا على ما صنعوا، قال: ويلك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرةَ عليهم لنستأصلَ بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه شعراً، قال: وما قلت؟ قال: [قلت]:

كادت تُهَدّ من الأصوات راحلتي
إذ سالتِ الأرضُ بالجردِ الأبابيل
تَرْدي بأُسْدٍ كرامٍ لا تنابلةٍ
عند اللقاءِ ولا مِيلٍ معازيلِ

=الخزاعية التي مر النبي ﷺ بها في الهجرة، والذي يظهر لي أنه غيره. «الإصابة ٣: ٤٤٢».

فظلتُ عدواً أظنُّ الأرضَ مائلة لما سَمَوْا برئيسٍ غيرِ مخذول(١)

إلى آخر الشعر، فوقع الرعبُ في قلوب الكفار. وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه سيكونُ للقوم قتالٌ غيرُ الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء(٢)، وهي ـ بعدُ ـ متناولةٌ كلَّ كافر، ويجري معها قول النبي عليه السلام: (نُصِرْت بالرعب مسيرة شهر)(٣)،ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم عليه السلام بها بعد هذه الأحوال كلها حين امتد ظلُّ الإسلام. قال بعض أهل العلم: إنه لما أمر الله المؤمن بالصبر، ووعده النصر، وأخبره أن الرعب مُلْقى في قلوب الكفار، نقص الرعب من كلّ كافر جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن إذ قد وعد النصر، فلذلك كلف المؤمن الوقوف للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿بما أَشْرَكُوا﴾ هذه باء السبب، والمعنى: إن المشرك بالله نفسه مقسمة في الدنيا، وليس له بالله تعالى ثقة، فهو يكره الموت ويستشعر الرعب منه، والسلطان: الحجة والبرهان(٤)، ثم

---

(١) الهدُّ: الهدم الشديد. الجُرْد: جمع أجرد، وهو الفرس الرقيق الشعر. الأبابيل جمع إبالة: القطعة من الخيل والإبل. تَرْدي: تمشي مشياً فيه نوع من التبختر. التنابلة: القصار، واحدهم تِنْبال. مِيل": جمع أَمْيَل، معازيل: جمع معزال، الذي ليس معه سلاح. وبقية القطعة الشعرية ورد في سيرة ابن هشام.

(٢) يريد إلقاء الرعب في قلوب الكفار.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر وهو صحيح (الجامع الصغير ١: ١٥٢).

(٤) قال أبو حيان :[ما لم ينزل به سلطاناً]،تسليط النفي على الإنزال والمقصود نفي السلطان، أي آلهة لا سلطان في إشراكها، فينزل نحو قوله: (على لاحب لا يهتدي بمناره)؛أي لا منار له.

أخبر تعالى بعاقبة الكفار في الآخرة، والمأوى: مفْعَل من أويت إلى المكان إذا دخلته وسكنت فيه، والمثوى، مفْعَل من: ثويت، والتقدير: وبئس مثوى الظالمين هي.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

جاءت المخاطبة في هذه الآيات بجمع ضمير المؤمنين، وإن كانت الأمور التي عاتبهم الله تعالى عليها لم يقع فيها جميعهم، ولذلك وجوه من الفصاحة: منها وعظ الجميع وزجره، إذ مَن لم يفعل مُعَدّ أن يفعل إن لم يزجر، ومنها الستر والإبقاء على من فعل، وكان رسول الله ﷺ قد وعد المؤمنين النصرَ يومئذ على خبر الله تعالى إن صبروا وجدوا، فصدق الله الوعد أولاً، وذلك أن رسول الله ﷺ صافَّ المسلمين يومئذ ورتب الرماة على ما قد ذكرناه في صدر تفسير هذه الآيات في قصة أُحد، فبارز علي بن أبي طالب أبا سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين، وحمل الزبير وأبو دجانة[1] فهزّا

---

(١) أبو دجانة الأنصاري: هو سماك بن خرشة، وقيل: ابن أوس بن خرشة. قال علي: إنه استشهد باليمامة، وهو ممن شاركوا في قتل سلمة، رُوي عن أنس أن النبي ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فأخذه أبو دجانة ففلق به هام المشركين، ولما التحم القتال يوم أحد ذَبَّ عن النبي ﷺ مصعب بن عمير حتى قتل، وأبو دجانة حتى كثرت فيه الجراحة. «الإصابة ٤: ٥٨».

عسكر المشركين، ونهض رسول الله ﷺ بالناس، فأبلى حمزة بن عبدالمطلب وعاصم بن أبي الأقلح، وانهزم المشركون وقتل منهم اثنان وعشرون رجلاً،فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهم بإِذْنِهِ﴾. والحَس: القتل الذريع، يقال: حسهم إذا استأصلهم قتلاً، وحس البردُ النبات، وقال رؤبة:

إذا شكَوْنا سنة حَسُوسا تأكلُ بعد الأخضر اليبيسا[1]

قال بعض الناس: هو مأخوذ من الحاسة، والمعنى في حس: أفسد الحواس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. والإِذْن: التمكين مع العلم بالممكن منه.

وقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا فَشِلْتُم﴾ يحتمل أن تكون ﴿حتَّى﴾ غاية مجردة، كأنه قال: إلى أن فشلتم، ويقوي هذا أن ﴿إذا﴾ بمعنى «إذ» لأن الأمر قد كان تقضى، وإنما هي حكاية حال، فتستغني ﴿إذا﴾ على هذا النظر عن جواب، والأظهر الأقوى أن ﴿إذا﴾ على بابها تحتاج إلى الجواب، وتكون ﴿حتى﴾ كأنها حرف ابتداء على نحو دخولها على الجمل.

واختلف النحاة في جواب ﴿إذا﴾ ـ فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله:

(١) الحسوس: السنة الشديدة. اليبيس: ما يبس من العشب والبقول.

﴿تنازَعْتُمْ﴾، والواو زائدة[١]، وحكى المهدوي عن أبي علي أنه قال: الجواب قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يشبه نظر أبي علي. ومذهبُ سيبويه والخليل وفرسان الصناعة أن الجواب محذوفٌ مقدر يدل عليه المعنى، تقديره: انهزمتم ونحوه. والفشل: استشعار العجز وترك الجد، وهذا مما فعله يومئذ قوم. والتنازع هو الذي وقع بين الرماة، فقال بعضهم: الغنيمة الغنيمة، ألحقونا بالمسلمين، وقال بعضهم: بل نثبت كما أمرنا. و﴿عَصَيْتُم﴾ عبارة عن ذهاب مَنْ ذَهَبَ من الرماة حتى تمكن خالد بن الوليد من غرة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ﴾ يعني من هزم القوم، قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة[٢] وصواحبها مشمراتٍ هارباتٍ ما دونَ أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماةُ إلى العسكر حين كشفنا القومَ عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا﴾ إخبارٌ عن الذين حرصوا

(١) هذا رأي الفراء وجماعة، قاله أبو حيان.

(٢) هي زوج أبي سفيان وأم معاوية (انظر الإصابة والاستيعاب)، والخدم: جمع خدمة وهي الخلخال.

على الغنيمة وكان المالُ هَمَّهم، قاله ابن عباس وسائر المفسرين. وقال عبدالله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريدُ الدنيا حتى نزل فينا يومَ أحد: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومِنْكُمْ مَنْ يريدُ الآخرة﴾ إخبار عن ثبوتِ من ثبت من الرماة مع عبدالله بن جبير امتثالاً للأمر حتى قتلوا، ويدخل في هذا أنس بن النضر وكل من جدَّ ولم يضطرب من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْتَلِيَكم﴾ معناه: لِيُنْزِلَ بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عفا عنكُمْ﴾ إعلامٌ بأنّ الذنبَ كان يستحقُّ أكثر مما نزل، وهذا تحذير، والمعنى: ولقد عفا عنكم بأن لم يستأصلوكم، فهو بمنزلة: ولقد أبقى عليكم، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصةِ أُحد، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحق وجماعة من المفسرين، وقال الحسن بن أبي الحسن: «قتل منهم سبعون، وقتل عم النبي عليه السلام، وشُجَّ في وجهه وكُسِرَتْ رباعيته، وإنما العفو أنْ لم يستأصلهم. هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله غضابٌ لله، يقاتلون أعداءَ الله، نُهُوا عن شيءٍ فضيعوه، فوالله ما تُرِكُوا حتى غُمّوا بهذا الغمِّ، فأَفسقُ الفاسقينَ اليوم يجترمُ كلَّ كبيرة،

ويركبُ كلَّ داهية، ويسحبُ عليها ثيابه، ويزعمُ أنْ لا بأسَ عليه، فسوف يعلم».

قوله عز وجل:

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾

العامل في ﴿إذْ﴾ قوله: ﴿عَفَا﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء وكسر العين من أَصعَد ومعناه: ذهب في الأرض، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿إذ تصعدون في الوادي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصعيد وجهُ الأرضِ، وصعدةُ اسمٌ من أسماء الأرض، فأَصعدَ معناه: دخل في الصعيد، كما أن أصبح دخل في الصباح إلى غير ذلك. والعرب تقول: أصعدنا من مكة وغيرها، إذا استقبلوا سفراً بعيداً وأنشد أبو عبيدة لحادي الإبل:

قد كنتِ تبكين على الإصعادِ فالآن صَرَّحْتِ وصاح الحادي

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو عبد الرحمن واليزيدي[1] ومجاهد

---

(١) هو يحيى بن المبارك الإمام، أبو محمد العدوي البصري المعروف باليزيدي نحويٌّ مقرىء، ثقة، علامة كبير، نزل بغداد، وعُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري، له تصانيف=

وقتادة: ﴿إذ تَصْعَدون﴾ بفتح التاء والعين، من صعَد إذا علا، والمعني بهذا صعود من صعد في الجبل، والقراءة الأولى أكثر.

وقوله تعالى: ﴿ولا تَلْوُونَ﴾ مبالغة في صفة الانهزام، وهو كما قال دريد: وهل يردُّ المنهزم شيء؟ وهذا أشد من قول امرىء القيس:

.... أخو الجَهد لا يلْوي على من تعذَّرا[1]

وقرأ ابن محيصن وابن كثير في رواية شبل: ﴿إذْ يُصْعدون ولا يَلْوون﴾ بالياء فيهما على ذكر الغيب، وقرأ بعض القراء: ﴿ولَا تَلْؤُون﴾ بهمز الواو المضمومة، وهذه لغة، وقرأ بعضهم: ﴿ولا تلُون﴾ بضم اللام وواوٍ واحدة، وهي قراءة متركبة على لغة من همز الواو المضمومة، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام وحذفت إحدى الواوين الساكنتين، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تُلْوُون﴾ بضم التاء، من ألوى وهي لغة، وقرأ حميد بن قيس: ﴿على أُحُد﴾ بضم الألف والحاء، يريد الجبل، والمعنيُّ بذلك رسول الله عليه السلام، لأنه

= عدة، توفي بخراسان سنة: ٢٠٢ عن أربع وسبعين. «طبقات القراء للجزري».

(١) صدر البيت: بسير يضِجُّ العَوْد منه يمُنّه.....
العَوْد: الجمل المُسن. يمُنّه: يضعفه، أخو الجَهْد: يريد نفسه وهو السائق المجد الشديد الدفع، لا يلوي: لا يلتفت ولا يميل. تعذَّر عن الأمر: تأخَّر، ومن الذنب: تنصل.

كان على الجبل، والقراءة الشهيرة أقوى لأن النبي ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعد ما فرَّ الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم، وروي أنه كان ينادي: (إليَّ عباد الله)(١)، والناس يفرون.

وفي قوله تعالى: ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ مدحٌ للنبي عليه السلام، فإن ذلك هو موقف الأَبطال في أعقاب الناس، ومنه قول الزَّبير بن باطا(٢): "ما فعل مقدمتنا إذ حملنا وحاميتنا إذ فررنا" وكذلك كان رسول الله ﷺ أشجعَ الناس، ومنه قول سلمة بن الأكوع: (كنا إذا احمرَّ البأسُ اتقينا برسول الله ﷺ)(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُم﴾ معناه: جازاكم على صنيعكم، وسمى الغمَّ ثواباً على معنى أنه القائم في هذه النازلة مقام الثواب، وهذا كقوله:

.... تحية بينهم ضربٌ وجيع(٤)

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٧».

(٢) الزَّبير بن باطيا أو باطا بفتح الزاي وكسر الباءِ جد الزبير بن عبدالرحمن المذكور في الموطأ في كتاب «النكاح»، وهو قرظي من بني قريظة يكنى أبا عبدالرحمن، وكان قدْ مَنَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية فطلب قيس من النبي ﷺ أن يهب له دمه، وتمام القصة في غزوة بني قريظة. «سيرة ابن هشام، والروض».

(٣) رواه الإمام أحمد، والطبراني، والنسائي، والبيهقي ـ عن علي بن أبي طالب. «نسيم الرياض شرح شفا عياض ٢: ٤٩».

(٤) البيت لعمرو بن معديكرب من قصيدة له مطلعها: =

وكقول الآخر:

أخاف زياداً أن يكونَ عطاؤه أداهمَ سُوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرا(١)

فجعل القيودَ والسياطَ عطاء، ومحدرجة: بمعنى مدحرجة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿غَمّاً بِغَمٍّ﴾ - فقال قوم: المعنى: أثابكم غماً بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين، بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالباء على هذا باء السبب.

وقال قوم: المعنى أثابكم غماً بالغم الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالباء على هذا باء معادلة، كما قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر

= أمنْ ريحانةَ الداعي السَّميع ... يُؤَرقني وأصحابي هُجوع

وصدر البيت:

وَخَيْلٍ قَد دَلَفْتُ لها بِخَيلٍ ....

وخيلٍ: أي: وأصحاب خيلٍ قد تقدمت لها بمثلها. دلف بمعنى: تقدم. والتحية: الدعاءُ بالحياة فأخبر عنها بالضرب الوجيع تهكُّماً.

(١) قائل البيت هو الفرزدق، وروايته كما في الديوان (١: ٢٢٧. ط. الصاوي):

فَلَمَّا خَشيتُ أنْ يكونَ عَطاؤُه... البيت

والأداهم: جمع أدهم، وهو القيد، سمي به لدُهمته وسواده: والمُحَدْرَجَة: السياط. وحدْرَجَهُ: قتله وأحكم قتله، وسوط مُدَحْرجٌ: أي مُغارٌ مَفْتول. والبيت من قصيدة مطلعها:

تذكَّرَ هذا القلْبُ من شوقِهِ ذكْرا تذكُّر شوْقاً ليس ناسِيَه عَصْرا

والحرب سجال. وقالت جماعة كثيرة من المتأولين: المعنى أثابكم غماً على غم، أو غماً مع غم، وهذه باء الجر المجرد.

واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد: الغمُّ الأول: أن سمعوا: ألا إن محمداً قد قتل، والثاني: القتل والجراح الواقعة فيهم. وقال الربيع وقتادة أيضاً: بعكس هذا الترتيب، وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما: بل الغمُّ الأول هو قتلهم وجراحهم وكلُّ ما جرى في ذلك المأزق، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه. وذلك أن رسول الله ﷺ طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في صفح الجبل فمشى نحوهم، فأهوى إليه رجل بسهم ليرميه فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر، وعلى من مات من أصحابهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيلٍ كثيرة، فنسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمرُ أبي سفيان، فقال رسول الله عليه السلام: (ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تقتلْ هذه العصابة لا تعبد)[1] ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة، وأغنى عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق محمد بن الحسين. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٧)، (كما أخرجه مسلم في صحيحه في باب الإمداد بالملائكة من كتاب «الجهاد» ٥: ١٥٦).

واختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة أُحُد اختلافاً كثيراً، وذلك أَن الأمر هُوِّلَ، فكلٌّ أَحدٍ وصف ما رأى وسمع، قال كعب ابن مالك: أول من ميَّز رسولَ الله ﷺ أنا، رأيت عينيه تزهران تحت المغفر(١). ورُوي أن الخيل المستعلية إنما كانت حملة خالد بن الوليد، وأَن أبا سفيان إنما دنا والنبي عليه السلام في عرعرة(٢) الجبل. ولأبي سفيان في ذلك الموقف قول كثير، ولعمر معه مراجعة محفوظةٌ اختصرتها إذ لا تخصُّ الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنوا على ما فاتَكُم﴾ معناه: من الغنيمة، ﴿وَلَا ما أَصابَكُمْ﴾ معناه: من القتل والجرح وذل الانهزام وما نيل من نبيكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللام من قوله: ﴿لِكَيْلا﴾ متعلقة بـ ﴿أَثَابكُمْ﴾، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أَن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبيرٌ بما تَعْمَلُون﴾ توعد.

---

(١) أُخرجه ابن هشام في السيرة النبوية. (الروض الأُنف ٢: ١٣٦).
(٢) عرعرة الجبل: رأسه ومعظمه.

ثم ذكر الله تعالى أمر النعاس الذي أمَّن به المؤمنين فغشي أهلَ الإخلاص، وذلك أنه لما ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب، قال النبيّ ﷺ لعلي بحضرة أصحابه المتحيزين في تلك الساعة إليه: (اذهب فانظر إلى القوم، فإن جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عامدون إلى المدينة، فاتقوا الله واصبروا)[١] ووطنهم على القتال. فمضي علي ثم رجع فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالاً، فأمِنَ الموقنون المصدقون رسول الله ﷺ، وألقى الله عليهم النعاس، وبقي المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ لا يصدّقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤمُّ المدينةَ ولا بد، فلم يقع على أحدٍ منهم نوم، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنياوية. قال أبو طلحة: لقد نمت في ذلك اليوم حتى سقط سيفي من يدري مراراً[٢]. وقال الزبيربن العوام: لقد رفعت رأسي يومَ أحد من النوم فجعلت أنظرُ إلى أصحاب النبي ﷺ، فما منهم أحدٌ إلا وهو يميل تحت حَجَفته[٣]. وقال ابن مسعود: نعسنا يوم أُحُد والنعاسُ في الحرب أَمَنَةٌ من الله، والنعاسُ في الصلاة من الشيطان.

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة. (الروض الأُنف ٢: ١٤٠).

(٢) روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه» (٨ / ١٧١). ورواه كذلك الترمذي والنسائي.

(٣) الحجف: ضرب من الترسة، واحدتها حجفة، تصنع من جلود الإبل يطارق بعضها ببعض، وقيل: تصنع من جلود خاصة. «اللسان في مادة حجف».

وقرأ جمهور الناس ﴿أَمَنة﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن والنخعي ﴿أَمْنَة﴾ بسكون الميم، وهما بمعنى الأمن، وفتح الميم أفصح، وقوله: ﴿نُعاساً﴾ بدل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يَغْشَى﴾ بالياء حملا على لفظ النعاس بإسناد الفعل إلى الضمير البدل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تغشى﴾ بالتاء حملا على لفظ ﴿أَمَنَة﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المبدل منه(١). والواو في قوله تعالى: ﴿وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُم﴾ هي واو الحال كما تقول: جئت وزيد قائم. قاله سيبويه وغيره، قال الزجاج: وجائز أن يكون خبر قوله: ﴿وَطَائفةٌ﴾ قوله: ﴿يَظُنونَ﴾ ويكون ﴿قدْ أَهَمَّتهم﴾ صفة للطائفة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهم أنفُسهم﴾ ذهب أكثر المفسرين قتادة والربيع وابن إسحق وغيرهم إلى أن اللفظة من الهمّ الذي هو بمعنى الغمّ والحزن، والمعنى: إن نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة قد جلبت إليهم الهمَّ خوفَ القتل وذهاب الأموال، تقول العرب: أهمني الشيء إذا جلب الهمَّ. وذكر بعض المفسرين أن اللفظة من قولك: همَّ بالشيء يَهُمُّ إذا أراد فعله.

---

(١) اعترض بعض النحويين على ذلك فقالوا: لما أعربَ (نُعاساً) بدلا من (أمنة) كان القياسُ أن يتحدث عن البدل لا عن المبدل منه، لكنه تَحَدَّثَ هنا عن المبدل منه، فإذا قلت: (هند حسنها فَاتن) كان الخبر عن حسنها ـ وأجاز بعضهم أن يخبر عن المبدل منه على ما خرج ابن عطية إعراب (نعاساً) و (تغشى) بقراءة التاءِ، واستدلوا على ذلك بقول الشاعر:

إن السيوفَ غدوَّها ورواحَها   تركتْ هَوازنَ مثلَ قرْن الأعضب

إذ قال: (تركت) ولم يقل: (تركا). وردّ المعترضون بأن (غدوَّها ورواحَها) انتصبا على الظرف لا على البدل. البحر المحيط ٣/٨٦، ٨٧.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى: أهمتهم أنفسهم المكاشفةَ ونبْذَ الدين، وهذا قول من قال: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، ونحو هذا من الأقوال.

قوله عز وجل:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿غيْرَ الحَقِّ﴾ معناه: يظنون أَن الإسلام ليس بحق وأَن أمر محمد عليه السلام يضمحل ويذهب.

وقوله:﴿ظن الجاهلية﴾-ذهب جمهور الناس إلى أن المراد مدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام، وهذا كما قال: ﴿حميَةَ الجاهِلِيَّةِ﴾، و ﴿تبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ﴾[١]، وكما تقول: شعر الجاهلية، وكما قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقا. وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد في هذه الآية: ظن الفرقة الجاهلية، والإشارة إلى أبي سفيان ومن معه، والأمر محتمل، وقد نحا هذا المنحى قتادة والطبري[٢].

---

(١) [حميَّة الجاهلية] من الآية (٢٦) من سورة الفتح - و [تبرُّجَ الجاهلية] من الآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

(٢) قال الزمخشري: «وظن الجاهلية كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق، تريد الظن=

وقوله تعالى: ﴿يقُولونَ هلْ لنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شيءٍ﴾ حكاية كلام قالوه. قال قتادة وابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي بن سلول: قتل بنو الخزرج، فقال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يُقْتَلْ أحدٌ منا، وهذا منهم قول بأَجَلَين، وكأن كلامهم يحتمل الكفر والنفاق، على معنى: ليس لنا من أمر الله شيء، ولا نحن على حقٍّ في اتباع محمد، ذكره المهدوي وابن فورك، لكن يُضْعِفُ ذلك أن الردَّ عليهم إنما جاء على أن كلامهم في معنى سوء الرأي في الخروج، وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد[1].

وقوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ الأَمْرَ كلَّهُ للَّهِ﴾ اعتراض أثناء الكلام فصيح.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كلَّه﴾، بالنصب على تأكيد الأمر، لأن (كلَّه) بمعنى أجمع، وقرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿كلُّه لله﴾ برفع (كل) على الابتداء والخبر، ورجَّح الناس قراءةَ الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة (كل)[2].

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ في أَنْفُسهم ما لا يُبْدُونَ لك﴾ يحتمل أن

= المختص بالمِلّة الجاهلية، ويجوز أن يراد: ظن أهل الجاهلية: أي لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله».

(١) وعلى الرأيين يكون الاستفهام في الآية معناه النفي، وقال بعضهم: الصواب أنه حقيقي و (مِنْ) في كلامهم (من شيءٍ) زائدة للتأكيد.

(٢) والتأكيد بكلمة (كل) ـ وبلفظ (إنَّ) إنما هو لمقابلة التأكيد في كلامهم بزيادة (مِنْ).

يكون إخباراً عن تسترهم بمثل هذه الأقوال التي ليست بمحضِ كفرٍ، بل هي جهالة، ويحتمل أن يكون إخباراً عما يخفونه من الكفر الذي لا يقدرون أن يظهروا منه أكثرَ من هذه النزعات، وأخبر تعالى عنهم على الجملة دون تعيين، وهذه كانت سنته في المنافقين، لا إله إلا هو.

وقوله تعالى:﴿يقولُونَ لَوْكان لَنا مِنَ الأَمْرشيءٌ ما قُتِلْناها هُنا﴾ هي مقالة سمعت من مُعَتِّبِ بن قشير[1] المغموص عليه بالنفاق. وقال الزبير بن العوام فيما أسند الطبري عنه: والله لكأني أسمع قولَ معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاسُ يغشاني، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلامُ معتب يحتملُ من المعنى ما احتمل كلام عبد الله بن أبي، ومعتب هذا ممن شهد بدراً، ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، وقال ابن عبد البر[2]: إنه شهد العقبة، وذلك وهم، والصحيح أنه لم يشهد عقبة.

---

(١) هو معتب بن قُشير ـ مصغرا ـ بن بليلٍ، وقيل: مليل الأنصاري الأوسي، ذكروه فيمن شهد العقبة وبدراً وأحداً، وقيل:إنه كان منافقاً ثم تاب،وهو القائل يوم أحد: «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا». «الإصابة» و «الاستيعاب».

(٢) الاستيعاب: ١٤٢٩ (ط. مصر).

وقوله تعالى: ﴿قلْ لو كُنْتُمْ في بيوتِكُمْ﴾. . . الآية، ردٌّ على الأقوال، وإعلامٌ بأن أجل كلِّ امرىءٍ إنما هو واحد، فمن لم يقتل فهو يموت لذلك الأجل على الوجه الذي قدر الله تعالى، وإذا قُتِلَ فذلك هو الذي كان في سابق الأزل(١).

وقرأ جمهور الناس: ﴿في بُيوتكم﴾ بضم الباء، وقرأ بعض القراء ـ وهي بعض طرق السبعة: ﴿في بِيوتكم﴾ بكسر الباء، وقرأ جمهور الناس ﴿لَبَرزَ﴾ بفتح الراء والباء على معنى: صاروا في البراز من الأرض، وقرأ أبو حيوة: ﴿بُرِّزَ﴾ بضم الباء وكسر الراء وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَليْهم القَتْلُ﴾ أي: كتب عليهم في قضاء الله وتقديره، وقرأ الحسن والزهري: ﴿عليهِمُ القِتالُ﴾. وتحتمل هذه القراءة معنى الاستغناء عن المنافقين، أي: لو تخلفتم أنتم لبرز المؤمنون الموقنون المطيعون في القتال المكتوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ولِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما في صدوركُم ولِيُمَحّص ما في قُلوبِكم﴾. . . الآية: اللام في قوله تعالى: ﴿ولِيَبْتلي﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: وليبتلي وليمحص فعل هذه الأمور الواقعة، والابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره، والمعنى:

(١) هذا النوع يسمى عند علماء البيان الاحتجاج الفطري، وهو أن يذكر المتكلم معنى ثم يستدل عليه بضروب من المعقول، كقوله تعالى: [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسَدَتا]، [قل يُحْيِيها الذي أنشأها أول مرَّةٍ]، ومنه قول الشاعر:

جرى القضاءُ بما فيه فإن تلُم ... فلا مَلامَ على ما خُطَّ بالقلَم

ليختبره فيعلمه علماً مساوقاً لوجوده وقد كان متقرراً قبل وجود الابتلاء أزلا، و ﴿ذات الصُّدور﴾: ما تنطوي عليه من المعتقدات، هذا هو المراد في هذه الآية.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

اختلف المتأولون في من المراد بقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكمْ يومَ التقى الجمعانِ؟﴾[١] ـ فقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المراد بها جميع من تولى ذلك اليوم عن العدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد على جميع أنحاء التولي الذي لم يكن تحرفاً لقتال.

وأسند الطبري رحمه الله قال: خطب عمر رضي الله عنه يوم الجمعة فقرأ ﴿آلَ عِمران﴾، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إنَّ الَّذين تَولَّوا منكُم يومَ الْتَقَى الْجَمْعَان﴾ قال: لما كان يوم أُحُد هُزمنا ففررتُ حتى صعدتُ الجبل، فلقد رأيتني أنزو

(١) الجمعان: تثنية الجمع ـ وهي: اسم جمع. وقد نص النحويون على أن اسم الجمع لا يثنى. لكنه هنا أراد جمع المؤمنين وجمع المشركين فلذلك صحت تثنيته، ونظير ذلك قوله:

وكلُّ رفيقيْ كلِّ رحْلٍ وإنْ هُما ... تعاطى القنا قوماهما أخوان

فقد ثنَّى (قوماً) لأنه أراد معنى القبيلة.

كأني أروى[١]، والناس يقولون: قُتِلَ محمد، فقلت: لا أجدُ أحداً يقول:قتل محمد إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت هذه الآية كلها. قال قتادة: هذه الآية في كلٍّ من فر بتخويف الشيطان وَخَدْعِهِ، وعفا الله عنهم هذه الزلة. قال ابن فورك: لم يبقَ مع النبي يومئذ إلا ثلاثة عشر رجلاً، أبو بكر، وعلي، وطلحة، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسائرهم من الأنصار، أبو طلحة وغيره. وقال السدي وغيره: إنه لما انصرف المسلمون عن حملة المشركين عليهم صعد قوم الجبل، وفر آخرون حتى أتوا المدينة، فذكر الله في هذه الآية الذين فروا إلى المدينة خاصةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

جعل الفرارَ إلى الجبل تحيزاً إلى فئة.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً، منهم رافع بن المعلى[٢]، وأبو حذيفة بن عتبة[٣]، ورجل آخر، قال ابن إسحق: فر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وأخوه سعد،

---

(١) أنزو: أثب وأقفز - والأروى: اسم للجمع - تيوس الجبل.

(٢) هو رافع بن المعلى الأنصاري الزرقي، له ذكر في ترجمة درة بنت أبي لهب، روي عن ابن عباس في قوله تعالى: [إنَّ الذين توَلَّوا منْكُمَ يومَ التَقى الجَمْعان]أنَّالآية نزلت في عثمان بن رافع بن المعلى. «الإصابة ١ : ٤٩٨». والذي يحتمل أن تكون نزلت هذه الآية في عثمان ورافع بن المعلى لأنهما معاً فرَّا يوم أحد.

(٣) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي العبشمي، كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، استشهد يوم اليمامة وهو ابن ست وخمسين سنة. «الإصابة ٤ : ٤٢».

ورجلان من الأَنصار زُرَقيان، حتى بلغوا الجَلْعَبَ ـ جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص ـ فأقاموا به ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: (لقد ذهبتم فيها عريضة[١]). قال ابن زيد: فلا أدري هل عفا عن هذه الطائفة خاصة أم عن المؤمنين جميعاً؟

واستزلَّ معناه: طلب منهم أن يزلوا، لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه. وقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِ ما كَسَبُوا﴾ ظاهره عند جمهور المفسرين أَنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكينِ الشيطان من استزلالهم، وبخلق ما اكتسبوه أيضاً هم من الفرار، وذهب الزجاج وغيره إلى أن المعنى: إن الشيطان ذكَّرهم بذنوب لهم متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاعِ عنها، قال المهدوي: بما اكتسبوا من حبِّ الغنيمة والحرص على الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل لفظ الآية أن تكون الإشارة في قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبوا﴾ إلى هذه العبرة، أي: كان للشيطان في هذا الفعل الذي اكتسبوه استزلال لهم، فهو شريكٌ في بعضه.

ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم، فتأوله جمهور العلماء على حطِّ التبعةِ في الدنيا والآخرة، وكذلك تأوله عثمان بن عفان في حديثه مع

---

(١) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: [سارعوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأَرْضُ (آل عمران: ١٣٢). ص ٣٢٥ من هذا الجزء.

عبيد الله بن عدي بن الخيار[١]، وكذلك تأوله ابن عمر في حديثه مع الرجل العراقي[٢]، وقال ابن جريج: معنى الآية: عفا الله عنهم إذ لم يعاقبهم، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر بإجماع فيما علمت، وعدها رسول الله ﷺ في الموبقات مع الشرك وقتل النفس وغيرها[٣].

قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

(١) راجعنا حديث عثمان مع عدي بن الخيار فلم نجد فيه التأول، وورد هذا التأول في رواية شقيق عن عبد الرحمن بن عوف. (مجمع الزوائد ٩: ٨٣) وقد روى الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبري، والبزار بإسناد حسن عن عاصم عن شقيق قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: مالي أراك جفوتَ أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عيْنَين [جبل من جبال أُحد] قال عاصم: يقول: يوم أُحد ـ ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر، قال: فانطلق فخبّر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عيْنَين، فكيف يعيرني بذلك وقد عفا الله عنه فقال: [إن الَّذين تَوَلَّوْا منكمْ يومَ الْتَقَى الجمْعان إنما اسْتَزَلَّهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفورٌ رحيم]، وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أُمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله بسهم فقد شهد، وأما قوله: إني تركتُ سُنَّة عمر فإني لا أُطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك. وهذا هو التأول الذي تأوله عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، والترمذي عن عثمان بن موهب، كلٌّ في «باب المناقب». وفي البخاري، والترمذي أن الرجل السائل من أهل مصر.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، وهو صحيح. «الجامع الصغير ١: ٢٦». كما أخرجه الطبراني عن أبي سعيد. وهو صحيح (الجامع الصغير ٢: ٢٥٤).

نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتقد الفاسد، الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها ومن قاتل فَقُتِلَ لو قعد في بيته لعاش ولم يمت في ذلك الوقت الذي عَرَّضَ فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقدُ المعتزلةِ في القول بالأَجَلين، وهو نحو منه.

وقوله تعالى: ﴿لإِخْوانِهم﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى أُحُدٍ كانوا من الأنصار، أكثرهم من الخزرج، ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة، وصرح بهذه المقالة - فيما ذكر السدي ومجاهد وغيرهما- عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه، وقيل: بل قالها جميع المنافقين، ودخلت ﴿إذا﴾ في هذه الآية وهي حرف استقبال من حيث ﴿الذين﴾ اسم فيه إبهام يعم من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تتصور في مستقبل الزمان، ويطّرِدُ النهيُ للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إذا﴾ لتدلَّ على اطراد الأمر في مستقبل الزمان، وهذه فائدة وضع المستقبل موضع الماضي، كما قال تعالى: ﴿واللَّهُ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ﴾[١] إلى نحوها من الآيات، وكما قالت:

* وفينا نبي يعلم ما في غدِ[٢] *

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة يونس.

(٢) القائلة جارية من جُوَيرياتٍ كنّ عند الربيع بنت معوذ يغنين ويضربن بالدف، فقالت إحداهن: (وفينا نبي يعلمُ ما في غد)، فقال النبي ﷺ: (لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين)، وهو طرف من حديث أخرجه البخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه «القسطلاني على البخاري ٦: ٢٦٦».

كما أن فائدة وضعهم الماضي موضع المستقبل للدلالة على ثبوت الأمر، لأن صيغة الماضي متحققة الوقوع، فمن ذلك قول الشاعر:

وإني لآتيكم تَشَكُّرَ ما مضى
من الأمرِ واستيجابَ ما كان في غدِ[١]

ومنه قول الربيع:

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نفرا

والضرب في الأرض: الإبعاد في السير، ومنه: ضرب الدهرَ ضرباته إذا بعدت المدة. وضربُ الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة بسقوط (في)، وقال السدي وغيره في هذه الآية: الضرب في الأرض: السيرُ في التجارة؛ وقال ابن إسحق وغيره: بل هو السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعمُّ القولين.

و﴿غُزًّى﴾: جمع غاز، وزنه ـ فُعَّل ـ بضم الفاء وشد العين المفتوحة ـ كشاهد وشُهَّد وقائل وقُوَّل، وينشد بيت رؤبة.

فالآن قد نَهْنَهَني تَنَهْنُهِي وأَوْلُ حلمٍ ليس بالمسفَّهِ
وقُوَّلٌ إلّا دَهٍ فلا دَهِ[٢]

---

(١) البيت في اللسان في مادة (شكر) أنشده أبو علي. قال: لتشكر ما مضى، يريد ما يكون في غدِ فوضع الماضي موضع الآتي. ورواية اللسان: في الغد. وأنشده الفراءُ في معاني القرآن. ورواية البيت في تفسير ابن جرير واللسان: (استجاب).

(٢) النهنهة: الكفُّ، ونهنهه عن الشيءِ: زَجَره. السَّفَه: خفَّة الحلم. وقولُه: إلّادَهِ فلادَهِ معناه: إنْ لم يكن هذا الأمر الآن فلا يكون بعد الآن، ولا يُدرى ما أَصْلُه. قال الجوهري: إني لأظنها فارسية: يقول: إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبداً. والقُوَّل: جمع قائل ـ مثل راكِع ورُكَّعٍ. اللسان في مادة: (دَهْدَه).

يريد إن لم تتبِ الآن فلا تتوبُ ابداً، وهو مثل معناه: إن لم يكن كذا فلا يكون كذا، وقد روي: وقولهم إلا دَهٍ فلا دَهِ، قال سيبويه وغيره: لا يدخل ﴿غُزًّى﴾ الجر ولا الرفع. وقرأته عامة القراء بتشديد الزاي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والزهري: ﴿غُزَى﴾ مخففة الزاي، ووجهه إما أن يريد غزاةً، فحذف الهاءَ إخلاداً إلى لغة من يقول: ﴿غزًّى﴾ بالتشديد، وهذا الحرف كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر يمدح الكسائي(١):

أبى الـذمَّ أخـلاقُ الكسـائيِّ وانتمى
بـه المجـدَ أخـلاقُ الأبـوِّ السـوابق

يريد الأبوة جمع أب، كما أن العمومة جمع عم، والبنوة جمع ابن، وقد قالوا: ابن وبنو. وتحتمل قراءتهما أن تكون تخفيفاً للزاي من (غزًّى)، ونظيره قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿وكذّبوا بآياتنا كِذَاباً﴾(٢) في قول من قال: إنه تخفيف، وقد قيل: إنه مصدر جرى على غير المصدر، وقرأ الحسن: ﴿وما قتّلوا﴾ مشددة التاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلك حَسْرةً﴾ قال مجاهد: معناه: يحزنهم قوله ولا ينفعهم.

---

(١) البيت للقَنَّانِيِّ كما في «اللسان» في مادة: (أبَى). والقنّانِيُّون عدة بين كتّاب وغيرهم. قال ابن سيده: الأب: الوالد، والجمع أبون، وآباءٌ، وأُبُوٌّ، وأُبُوَّة ـ عن اللحياني.
(٢) الآية (٢٨) من سورة النبأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالإشارة بـ ﴿ذلِكَ﴾ إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة، لأن الذي يتيقن أن كلَّ موتٍ وقتلٍ فبأجل سابق، يجد برد اليأس والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقد أن حميمه لو قعد في بيته لم يمت يتحسر ويتلهف. وعلى هذا التأويل مشى المتأولون، وهو أظهر ما في الآية.

وقال قوم: الإشارة بـ ﴿ذلِكَ﴾ إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكون خلافهم لهم حسرة في قلوبهم. وقال قوم: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نفس نهي الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد، لأنهم إذا رأوا أن الله تعالى قد وسمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرةً في قلوبهم. ويحتمل عندي أن تكون الإشارة إلى النهي والانتهاء معاً، فتأمله. والحسرة: التلهف على الشيء والغم به.

ثم أخبر تعالى خبراً جزماً أنه الذي يحيي ويميت بقضاء حتمٍ، لا كما يعتقد هؤلاء. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿واللهُ بما يَعْملون﴾ بالياء، فهذا وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون: ﴿تعْمَلون﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيدٌ للنهي في قوله: ﴿لا تَكُونوا﴾، ووعيدٌ لمن خالفه، ووعد لمن امتثله.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ

﴿أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في قوله: ﴿لَمغفرة﴾ هي المتلقية للقسم، والتقدير: واللهِ لَمغفرة.

وترتب الموت قبل القتل في قوله: ﴿ما ماتُوا وما قُتِلوا﴾ مراعاة لرتبة الضرب في الأرض والغزو، فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر، وهو الضرب، وقدَّم القتل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُم﴾ لأنه ابتداء إخبار، فقدم الأشرفَ الأهمَّ، والمعنى: أو متم في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُتُّم أَوْ قُتِلْتُم﴾ لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر، وآية تزهيدٍ في الدنيا والحياة. والموت المذكور فيها هو موتٌ على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقُدِّم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي: ﴿مِتُّم﴾ بكسر الميم و﴿مِتْنا﴾ و﴿مِتَّ﴾ بالكسر في جميع القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بضم الميم في جميع القرآن، وروى أبو بكر عن عاصم ضم الميم في جميع القرآن، وروى عنه حفص ضم الميم في هذين الموضعين: ﴿أو مُتّم﴾ ﴿ولئن مُتّم﴾ فقط، وكسر الميم حيث ما وقعت في جميع القرآن. قال أبو علي: ضمُّ الميم هو الأشهر والأقيس، مُتَّ تموت مثل: قُلتَ تَقول وطُفْتَ تطوف، والكسرُ شاذ في القياس وإن كان

قد استعمل كثيراً، وليس كما شذّ قياساً واستعمالاً كشذوذ اليَجدَّع[١] ونحوه، ونظير مِتّ تموت بكسر الميم: فضِل بكسر الضاد يفضل في الصحيح وانشدوا[٢]:

ذكرت ابنَ عباسٍ بباب ابن عامر
وما مرَّ من عمري ذكرت وما فضِلْ

وقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطف على المغفرة و﴿خيْرٌ﴾ خبر الابتداء، والمعنى: المغفرة والرحمة اللاحقة عن القتل أو الموت في سبيل الله ـ خير، فجاء لفظ المغفرة غيرَ مُعَرّفٍ إشارة بليغة إلى أن أيسر جزء منها خير من الدنيا، وأنه كافٍ في فوز العبد المؤمن، وتحتمل الآية أن يكون قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ إشارة إلى القتل أو الموت في سبيل الله، سمى ذلك مغفرةً ورحمةً إذ هما مقترنان به، ويجيء التقدير: لذلك مغفرة ورحمة، وترتفع المغفرة على خبر الابتداء المقدر، وقوله: ﴿خيْرٌ﴾ صفة لخبر الابتداء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَجمعون﴾ بالتاء على المخاطبة وهي أشكل بالكلام، وقرأ قوم منهم عاصم فيما روى عنه حفص: ﴿يجمعون﴾ بالياء، والمعنى: مما يجمعه المنافقون وغيرهم.

---

(١) هذه الكلمة قافية بيت قائله ذو الخرق الطهوي، ذكره صاحب «اللسان» في مادة: (جدّع). وفي (خزانة الأدب ٢: ٤٨٨) ونص البيت هو:

يقول الخنى وأبغض العجم ناطقاً إلى ربنا صوتُ الحمار اليُجَدَّعُ

(٢) قائله: أبو الأسود الدؤلي كما في (الأغاني ١٣: ٣٢٢).

ثم ذكر تعالى الحشر إليه ، وأنه غايةٌ لكلِّ أَحَدٍ قُتل أو مات . وفي الآية تحقيرٌ لأمرِ الدنيا وحضٌ على طَلَبِ الشهادةِ، أي : إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضيُّ إليه في حال الشهادة الأولى.

وقوله تعالى : ﴿فَبِمارَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ معناه : فبرحمة من الله و﴿ما﴾ قد جرد عنها معنى النفي ، ودخلت للتأكيد ، وليست بزائدة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سيبويه اسم الزيادة من حيث زال عملها، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَبِما نَقْضِهِم ميثاقَهم﴾[١] قال الزجاج: الباء بإجماع من النحويين صلةٌ وفيها معنى التأكيد[٢]. ومعنى هذه الآية: التقريع لجميع من أخل يوم أُحُد بمركزه، أي: كانوا يستحقون الملام منك، وألَّا تلين لهم، ولكن رحمَ الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتتممَ محاسنَ الأخلاق، وهُمْ بأنْ لَيَّنَكَ الله لهم، وَجُعِلْتَ بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنك لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك وتفرقوا عنك.

والفظُّ : الجافي في منطقة ومقاطعه، وفي صفة النبي عليه السلام

---

(١) تكررت في الأيتين: (١٥٥) من سورة (النساء) و (١٣) من سورة (المائدة).

(٢) للعلماءِ في (ما) هذه كثير من الآراء، قيل: إنها نكرة تامة و (رحمة) بدل منها۔ وقيل: إنها استفهامية للتعجب، وقيل: إنها نافية۔ وكل قول من هذه الأقوال مردد وموضع مناقشة وبخاصة كونها استفهامية، وأصح الأقوال قول الزجاج وهي أنها للتأكيد. قال النابغة:

المــرءُ يهْــوى أن يَــعيــ ـشَ وطول عيش ما يضره

في الكتب المنزلة: ليس بفظ ولا غليظٍ ولا صخّابٍ في الأسواق[١]، وقال الجواري لعمر بن الخطاب: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله[٢]. . . الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلةً لعضد الحقِّ والشدة في الدين، والفظاظة: الجفوةُ في المعاشرة قولاً وفعلاً، ومنه قول الشاعر[٣]:

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخٍ
وكنتُ أخشى عليها من أذى الكلم

وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر[٤]:

يُبْكَى علينا ولا نبكي على أحدٍ لَنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبل

والانفضاض: افتراق الجموع، ومنه فض الخاتم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير، والترمذي في الشمائل في باب ما جاءَ في خُلُق رسول الله ﷺ (بضم الخاء واللام). وأخرجه البيهقي، وأبو نعيم عن أم الدرداءِ أو امرأةِ أبي الدرداءِ. (القسطلاني في المواهب بشرح الزرقاني ٦:١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في فضل عمر، وفي صفة إبليس، ومسلم في الفضائل، والنسائي في المناقب، وفي اليوم والليلة. (القسطلاني ٥:٣٠٢). والجواري: جمع جارية.

(٣) نسبه أبو تمام في الحماسة (شرح المرزوقي: ٢٨٢-٢٨٤) إلى إسحق بن خلف وهو من أبيات يشكو فيها الفقر ويحاذر على بنته أميمة من ذل اليتم والفقر ويتمنى لشدة محبته لها موتها.

(٤) قائل البيت: المخبل السعدي، وهو شاعر مخضرم، قيل: اسمه ربيعة بن مالك، وقيل: كعب بن ربيعة، وقيل الربيع بن ربيعة. «الشعر والشعراء» و «الأغاني». والإصابة».

قوله عز وجل :

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة في الأمور.

والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وأَمْرُهُم شُورى بيْنَهم﴾[١] وقال النبي ﷺ: (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار)[٢] وقال عليه السلام: (المستشار مؤتمن)[٣]. وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديِّنا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي

---

(١) من الآية (٣٨) من سورة الشورى.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، عن أنس (الجامع الصغير ٢ : ٤٢٥).
(٣) أخرجه الأربعة عن أبي هريرة، والترمذي عن أم سَلَمة، وابن ماجة ـ عن ابن مسعود ـ (الجامع الصغير ١ : ٥٧٥).

الحسن: «ما كمل دينُ امرئٍ لم يكمل عقله». وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً وادّاً في المستشير. والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة ـوهي أعظم النوازلـ شورى. وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: (أشيروا علي أيها الناس)[١]، في اليوم الذي تكلَّم فيه المقداد[٢] ثم سعد بن عبادة[٣]. ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حدّ فتلك قوانين شرع ﴿ما فَرَّطْنا في الكتاب مِنْ شَيْءٍ﴾[٤]، وكأن الآية نزلت مؤنسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة أُحُد يقتضي أن يعاقبوا بألَّا يشاوروا في المستأنف.

وقرأ ابن عباس: ﴿وشَاوِرْهُم في بعْضِ الأمْرِ﴾، وقراءة الجمهور إنما

---

(١) ذكره ابن هشام في سيرته (٢: ٤٤٧) كما نقله عنه القسطلاني في «المواهب اللدنية» بهذا اللفظ (١: ٤١٢).

(٢) هو المقداد بن عمرو الكندي البهراني، وقيل: الحضرمي، تبنَّاه الأسود صغيراً فنسب إليه، وهو ممن شهد بدراً فارساً مع بقية المشاهد بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أحد السبعة الذين هم أول من أظهر الإسلام، واشتهرت كلمته التي سرَّ بها النبي ﷺ في غزوة بدر، توفي بمصر، ودفن بالمدينة، صلى عليه عثمان بن عفان. «الإصابة» و «الاستيعاب».

(٣) هو سعد بن عبادة الأنصاري، سيد الخزرج المكني أبا ثابت وأبا قيس، ويقال له: الكامل، شهد العقبة، وهو أحد النقباءِ، وصاحب راية ورياسة الأنصار، كما عرف هو وأهله بالجود والكرم، واختلفَ في شهوده بدراً، وتوفي بحوران في الشام سنة: ١٥ وقيل: ١٦ «الإصابة» و«الاستيعاب».

(٤) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

هي باسم الجنس الذي للبعضِ وللكل، ولا محالة أن اللفظَ خاصٌّ بما ليس من تحليل وتحريم، والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتحيز، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه في هذه الآية(١).

وقرأ جابر بن زيد وأبو نُهَيك وجعفر بن محمد وعكرمة: ﴿عزمتُ﴾ بضم التاء، سمى الله تعالى إرشاده وتسديده عزماً منه، وهذا في المعنى نحو قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُم بينَ الناسِ بما أراكَ الله﴾(٢)، ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولَٰكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(٣)، فجعل تعالى هزمه المشركين بحنين وتشويهَ وجوههم رمياً، إذ كان ذلك متصلاً برمي محمد ﷺ بالحصباء. وقد قالت أم سلمة: ثم عزم الله لي.

---

(١) والشورى تعطى معنى استخراج رأي المستشار، ولهذا يقال: إنها مأخوذة من قولهم: (شرْتُ العَسَل). وأنشدوا قول خالد بن زهير:

وقاسمتها بالله - حقّاً لأنتُمُ ... أَلَذُّ من السَّلْوى إذا ما نشورها

والسلوى على كلامه: العسل، وقد جاءَ في (اللسان): قال الزجاج: أخطأ خالد، إنما السلوى طائر. وقال الفارسي: السلوى: كل ما سلاك، وقيل للعسل: سلوى لأنه يسَلّيك بحلاوته وتأتيه عن غيره يردُّ بذلك على أبي إسحق الزجاج.

وقال الأعشى:

كأن جنيًّا من الـزنجبيـ ... ـل خالط فاها وأرْياً مشورا

وجنيٌّ: فعيل من جنى الثمر يجنيه، والزنجبيل: نبات طيب الرائحة معروف، والأرْي: عسل النحل، وشار العسل واشتاره: جمعه.

(٢) من الآية (١٠٥) من سورة النساء.

(٣) من الآية (١٧) من سورة الأنفال.

والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجهد، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام: (قيدها وتوكل)(١).

ثم ثبت تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إنْ يَنْصرْكُمُ الله فلا غالبَ لكم﴾ أي: فالزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها.

والخذلُ: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الظباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذا تركتها أمها، وهذا على النسب أي بذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذا الذي يَنْصُرُكُم﴾ تقدير جوابه: لا من - والضمير في ﴿بَعْدِه﴾ يحتمل العودة على المكتوبة، ويحتمل العودة على الخذل الذي تضمنه قوله: ﴿وإنْ يَخْذُلْكُم﴾.

قوله عز وجل:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عمرو بن أمية الضمري. «الجامع الصغير ٢ : ٢١٩». كما رواه الترمذي عن أنس بلفظ: (اعقِلْها وتوكل). ورواية البيهقي أصح كما في «الجامع الصغير» ١ : ١٥٥».

تقدم القول في صيغة: وما كان لكذا أن يكون كذا، في قوله تعالى: ﴿وما كانَ لِنفْسٍ أَنْ تَموتَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وبها قرأ ابن عباس وجماعة من العلماء. وقرأ باقي السبعة:﴿أن يُغَلَّ﴾ بضم الياء وفتح الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء. واللفظة: بمعنى الخيانة في خفاء، قال بعض اللغويين: هي مأخوذة من الغلل وهو الماء الجاري في أصول الشجر والدوح، قال أبو علي: تقول العرب: أغلَّ الرجل يُغلُّ إغلالاً: إذا خان ولم يؤدِّ الأمانة، ومنه قول النمر بن تولب[١]:

جزى الله عني جَمْرَةَ ابنةَ نوفل جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال شريح: ليس على المستعير غير المُغِلّ ضمان. قال أبو علي: وتقول في الغِلّ الذي هو الضغن: غَلَّ يَغِلُّ بكسر الغين. ويقولون في الغلول من الغنيمة: غَلَّ يَغُلُّ بضم الغين. والحجة لمن قرأ يَغُلُّ أن ما جاء من هذا النحو في التنزيل أسند الفعل فيه إلى الفاعل على نحو: ﴿ما كان لنا أن نُشْرك باللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٢] ﴿ما كانَ لِيأْخُذَ أَخاهُ في

(١) هو النمر بن تولب العكلي، أحد الشعراءِ المخضرمين، وفد على النبي ﷺ، ومدحه بشعر، وكتب له النبي ﷺ كتاباً، ثم نزل بعد ذلك البصرة، وكان جواداً، وعمِّر طويلاً، يقال: عاش مائة سنة. «الإصابة والاستيعاب» و«تهذيب التهذيب» ١٠: ٤٧٤».

(٢) من الآية (٣٨) من سورة يوسف.

دِين المَلِكِ﴾[١] ﴿وما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تموتَ﴾[٢] ﴿وما كانَ الله لِيُضِلَّ قوْماً بعْدَ أن هداهم﴾[٣] ﴿ومَا كانَ الله لِيُطلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ﴾[٤]ولا يكاد يجيء: ما كان زيد لِيُضْربَ فيسند الفعل فيه إلى المفعول به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الاحتجاج نظر

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يَغُلّ﴾ بضم الغين، فقيل له: ان ابن مسعود قرأ ﴿يُغَلّ﴾ بفتح الغين، فقال ابن عباس: بلى والله وَيُقْتَل.

واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبيّ أن يكون غالاً على هذه القراءة -التي هي بفتح الياء وضم الغين- فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفةٍ حمراء فُقِدَتْ من المغانم يوم بدر، فقال بعضُ من كان مع النبي ﷺ: ولعل رسول الله أخذها، فنزلت الآية[٥].

(١) من الآية (٧٦) من سورة يوسف.
(٢) من الآية (١٤٥) من سورة آل عمران.
(٣) من الآية (١١٥) من سورة التوبة.
(٤) من الآية (١٧٩) من سورة التوبة.
(٥) أخرجه أبو داود، وعبد بن حميد الترمذي، وحسنّه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق مقسم عن ابن عباس. «الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩١». و «ابن كثير١: ٤٢١».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أنَّ في ذلك حرجاً، وقيل: كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفاً. قال النقاش: ويقال: إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أُحد: الغنيمةَ الغنيمةَ أيها الناس، إنما نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهوله، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ، قال: (خشيتم أن نغل؟)[(١)] ونزلت هذه الآية. وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله ﷺ بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله تعالى عليه عتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي:يقسم لبعض ويترك بعضاً[(٢)]، وروي نحو هذا القول عن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلاماً بعدل رسول الله ﷺ وقسمه للغنائم، ورداً على الأعراب الذين صاحوا به: اقسم علينا غنائمنا يا محمد، وازدحموا حتى اضطروه إلى السمرة التي أخذت رداءه[(٣)]،

(١) ذكره الثعلبي، والواحدي عن الكلبي ومقاتل. (الكشاف ١: ٤٣٤) . والبغـوي، والخازن في الجزء الأول ص: ٣٦٩ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير من طريق سلمة بن نبيط ـ عن الضحاك. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩١)،وأخرجه الطبري، والواحدي في أسبابه. (الكشاف ١: ٣٤٣) .

(٣) أخرجه أبو داود، والإمام أحمد، ورجال أحد أسانيده ثقات. (مجمع الزوائد ٦: ١٨٧ وسيرة ابن هشام ٤ :٩٢٨).

ونحا إليه الزجاج. وقال ابن إسحق : الآية إنما نزلت إعلاماً بأن النبي عليه السلام لم يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأن الآية على هذا في قصة أُحد، لما نزل عليه : ﴿وشاوِرْهُم في الأَمْرِ﴾ إلى غير ذلك مما استحسنوه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه، وبالجملة فهو تأويلٌ ضعيف، وكان يجب أن يكون ـ ﴿يُغِلّ﴾ بضم الياء وكسر الغين، لأنه من الإغلال في الأمانة. وأما قراءة من قرأ: ﴿أَن يُغَلّ﴾ بضم الياء وفتح الغين، فمعناها عند جمهور من أهل العلم: أن ليس لأحدٍ أن يَغُلَّه، أي يخونه في الغنيمة. فالآية في معنى نهي الناس عن الغلول في المغانم والتوعّد عليه. وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظوراً مع الأمراء لشنعة الحال مع النبي ﷺ، لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتعيّن توقيره، والولاةُ وإنما هم عن أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقير. وقال بعض الناس: معنى ﴿أَنْ يُغَل﴾ أن يوجد غالاً، كما تقول: أحمدتُ الرجل وجدته محموداً، فهذه القراءة ـعلى هذا التأويلـ ترجع إلى معنى ﴿يَغُلّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقال أبو علي الفارسي : معنى ﴿يُغَلّ﴾ بضم الياء وفتح الغين يقال له: غللت وينسب إلى ذلك، كما تقول أسقيته، إذا قلت: سقاك الله، كما قال ذو الرمة :

وأَسْقيه حتى كادَ مما أَبُثُّه تكلّمني أحجارُهُ وملاعِبُهْ[1]

---

(١) سقيتُ فلانا وأسْقيته: إذا قلتُ له: سقاك الله. وبثَّ الشكوى: جهر بها. =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل موقِّر للنبي عليه السلام. ونحوه في الكلام: أكفرتُ الرجل إذا نسبته إلى الكفر، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا آكل سمناً حتى يحيا الناس من أول ما يحيون»(١)، أي يدخلون في الحيا(٢).

وقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يومَ القيامةِ﴾ وعيدٌ لمن يغلّ من الغنيمة، أو في زكاته فيجحدها ويمسكها، فالفضيحةُ يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غَلَّ في الدنيا. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (ألا عسى رجلٌ منكم يجيء يومَ القيامةِ على رقبته شاةٌ لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أَغِثْني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك)(٣) ثم ذكر ذلك عليه السلام في بقرة لها خوارٌ، وجملٍ له رغاءٌ، وفرسٍ له حمحمة. وروى نحو هذا الحديث ابن عباس، قال النبي ﷺ: (لا

= والملاعب: ملاعب الصبيان في الدار من ديارات العرب حيث يلعبون، والواحد ملعب. وقبله:

وقفتُ على ربْع لميَّة ناقتي فما زلْتُ أبكي عِنْدَهُ وأخاطِبُهْ

(١) كان ذلك في عام الرمادة، وهو عام أصاب الناس فيه مجاعة وهي سنة: ١٧ من الهجرة. (تاريخ الخلفاءِ للسيوطي ١٣٠. ط. السعادة بمصر).

(٢) والحيا، مقصور: الخصب، والجمع أحياءٌ، وقد جاءَ ممدوداً بمعنى المطر والخصب، والحياة: نقيض الموت. والحياءُ: التوبة والحشمة.

(٣) أخرجه بطوله ابن أبي شيبة، والإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، والبيهقي، في الشعب- عن أبي هريرة قال: (قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظَّمه وعظَّم أمره، ثم قال: ألا لا ألفينَّ أحدكم) . (الدر المنثور للسيوطي ٩٢/٦).

أعرفنَّ أحدكم يأتي يومَ القيامة يحملُ شاة لها ثغاء. . .) الحديث بطوله[١] . وروى نحوه أبو حميد الساعدي[٢] وعمر بن الخطاب وعبد الله بن أنيس[٣] . وقال رسول الله ﷺ : (أدوا الخياط والمخيط)[٤] فقام رجل فجاء بشراك أو شراكين، فقال رسول الله ﷺ : (شراك أو شراكان من نار)[٥] وقال في مدعـم[٦] : (إن الشملة التي غَلَّ من المغانم يوم خيبر لتشتعلُ عليه ناراً).

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٤ : ١٥٩)، وذكره ابن كثير بطوله وقال: لم يرْوِهِ أحَد من أهل الكتب الستة (١ : ٤٢١).

(٢) هو أبو حميد الساعدي الأنصاري الصحابي المشهور، عبد الرحمن بن سعد، له ذكر في الصحيحين، شهد أُحُداً وما بعدها، وتوفي آخر خلافة معاوية. «الاستيعاب» والإصابة ٤ : ٤٦.

(٣) لعله عبد الله بن أنيس الجهني لأنه أشهر الخمسة الذين شاركوه في اسمه واسم أبيه، قاله الزرقاني على «المواهب اللدنية» في سرية «عبد الله بن أنيس»، وقال: لا معنى للتردد في أنه غيره (٢ :٦٣). وترجم له في سيرة ابن هشام، وذكر قصيدته التي قالها في قتل ابن نبيح (٤ :٢٦٧). وترجم له الحافظ في «الفتح» في «باب الخروج في طلب العلم» من البخاري (١ : ١٢٧). كما ترجم له في الإصابة أيضاً بطول (٢ : ٢٧٨) وقال فيه صاحب «الاستيعاب»: كان مهاجرياً أنصارياً عقبياً. وترجم له السيوطي في (إسعاف المبطا (١٩٧).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه، عن عبادة بن الصامت (٢ : ٢٣٠) وأخرجه الموطأ في باب ما جاءَ في الغلول (٣ : ٢٩) كما أخرجه أبو داود باختصار، ورواه الإمام أحمد ورجال أحد أسانيده ثقات. (مجمع الزوائد ٦ : ١٨٧) وكذا ورد في (سيرة ابن هشام. ٤ : ٩٢٨).

(٥) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي- عن أبي هريرة بطوله. (الترغيب والترهيب٢ : ٣٠٩). وأخرجه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أيضا. (الدار المنثور ٢ : ٩٢)، كما أخرجه الدار ورَدْي عن ثور. (شرح الزرقاني على الموطأ (٣ : ٣١).

(٦) مدعم الأسود كان مولى لرفاعة الجذامي، فأهداه للنبي ﷺ، ثبت ذكره في الموطأ، والصحيحين، وهو الذي أغل الشملة يوم خيبر، أصيب بسهم غرب فمات عام خيبر. (الإصابة (٣ :٣٩٤).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الفضيحة التي يوقع الله بالغالّ هي نظيرةُ الفضيحة التي توقَعُ بالغادر، في أن يُنْصَبَ له لواء بغدرته حسب قوله عليه السلام[١]، وجعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحادرة[٢].

أسميَّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ   رُفِعَ اللواءُ لنا بها في المجمع

وكانت العرب ترفع للغادر لواءً، وكذلك يطاف بالجاني مع جنايته. وقد تقدم القول في نظير: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كلُّ نفْسٍ ما كسبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمون﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ الله كمَنْ باء﴾... الآية، توقيفٌ على تباين المنزلتين وافتراق الحالتين، والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم -فيما روي عنه- بضم الراء، وقرأ جميعهم بكسرها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم - عن أنس، والإمام أحمد، ومسلم - عن ابن مسعود، ومسلم- عن ابن عمر بلفظ: (لكل غادر لواءٌ يعرف به يوم القيامة). وأخرجه مسلم- عن أبي سعيد بلفظ: (لكل غادر لواءٌ عند استه يوم القيامة) (الجامع الصغير ٣٥٦٧/٢). وفي «مجمع الزوائد» بروايات وأسانيد متعددة عن الطبراني (١: ٢٣٠) كما أخرجه المنذري والدرامي.

(٢) الحادرة: لقب غلب عليه، واسمه قطبة بن أوس، وهو شاعر جاهلي مُقِلٌّ، ذكر أنه خرج هو وزبان الفزاري يصطادان، فاصطادا جميعاً فخرج زبان يشوي ويأكل وحده في الليل فقال فيه شعراً، فوقع هجاءٌ بينهما (الأغاني ٣: ٢٦٥. والحيوان للجاحظ ٦: ٣٥٨).

(٣) عند تفسير قوله تعالى: [واتَّقوا يوماً تُرْجعونَ فيه إلى الله، ثمَّ تُوفىَّ كلُّ نفْسٍ ما كسَبتْ وهمْ لا يُظلمونَ]. وهي الآية (٢٨١) من سورة (البقرة).

وحكى أبو عمر الداني عن الأعمش أنه قرأها بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى. والمعنى: اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف(١).

و ﴿باء بِسَخَطٍ﴾ معناه: مضى متحملاً له، والسخط: صفة فعل، وقد تتردد متى لحظ فيها معنى الإرادة. وقال الضحاك: إن هذه الآية مشيرةٌ إلى أَن من لم يغلّ واتقى فله الرضوان، وإلى أن مَنْ غلَّ وعصى فله السخط. وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد بأُحُدٍ فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي ﷺ فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرجاتٌ﴾ ـ من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحق وغيره: المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي:لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباقِ النارِ أيضاً. وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله: ﴿هُمْ﴾ إنما هو لمتبعي الرضوان، أي:لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: هم ذوو درجات، والدرجات: المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو

---

(١) هذا والاستفهام في الآية معناه: النفي، أي: ليس من اتبع رضا الله فامتثل أوامره واجتنب نواهيه كمن عصاه فباءَ بسخطه، وهو من الاستعارة البديعة، إذ أن ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من اهتدى به، والعاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع فرجع مصحوباً بما يخالف الاتباع.

في التكرمة، أو في العذاب. وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿هُمْ دَرَجَةٌ﴾ بالإفراد. وباقي الآية وعيد ووعد.

قوله عز وجل:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿مَنَّ﴾ في هذه الآية معناه تطوَّل وتفضل، وقد يقال: مَنّ بمعنى كدَّر معروفه بالذكر، فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ معناه: في الجنس واللسان والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه، وكونُه بلسانهم يوجبُ حسنَ التفهيم وقربَ الفهم، وكونه جاراً وربياً يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، فبعث رسول الله ﷺ في نفس قومه، وكذلك الرسل. قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسولَ الله ﷺ من قبل أمهاته إلا بني تغلب لنصرانيتهم. والآيات في هذه الآية تحتمل أن يُرادَ بها القرآن وتحتمل أن يراد بها العلامات، والأول أظهر. و﴿يُزَكِّيهِم﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي. قال بعض المفسرين: معناه: يأخذ منهم الزكاة، وهذا ضعيف.

و﴿الكتاب﴾: القرآن، و﴿الحكمة﴾: السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام. ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرقَ بتجاور الضدين، و ﴿قَبْلُ﴾: لفظةٌ مبنية لما تضمنت الإضافة، فأشبهت الحروفَ في تضمُّنِ المعاني فبنيت.

ثم وقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمعصيبة التي نزلت بهم، وإعراضهم عما نزل بالكفار، وعرَّفهم أن ذلك لسبب أنفسهم.

والواو في قوله، ﴿أَوَلَمَّا﴾ عطف جملة على جملة دخلت عليها ألف التقرير على معنى إلزام المؤمنين هذه المقالة في هذه الحال. والمصيبة التي نالت المؤمنين هي قصة أحد وقتل سبعين منهم. واختلف في المِثْلَين اللذين أصاب المؤمنون ـفقال قتادة والربيع وابن عباس وجمهور المتأولين: ذلك في يوم بدر، قتل المؤمنون من كفار قريش سبعين وأسروا سبعين، وقال الزجاج: أحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر، والثاني: هو قتل اثنين وعشرين من الكفار يوم أحد، فهو قتل بقتل. ولا مدخلَ للأسرى في هذه الآية، هذا معنى كلامه، لأن أسارى بدر أسروا ثم فدوا، فلا مماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين. و﴿أنَّى﴾ معناها: كيف؟ ومن أين؟ ثم أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم: هو من عند أنفسكم.

واختلف الناس كيف هو من عند أنفسهم ولأي سبب؟ فقال الجمهور من المفسرين: لأنهم خالفوا رسول الله ﷺ في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة ويترك كفار قريش بشرِّ المحبس، فأبوا إلا

الخروج حتى جرت القصة. وقالت طائفة: قوله تعالى: ﴿مِنْ عِند أَنْفُسِكم﴾ إشارةٌ إلى عصيانِ الرماة وتسبيبهم الهزيمةَ على المؤمنين. وقال الحسن وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: بل ذلك لما قبلوا الفداءَ يومَ بدر، وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما فرغتْ هزيمةُ المشركين ببدر جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد كره ما يصنع قومك في أخذِ الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: أن يقدّموا الأسارى فتضرب أعناقهم، أو يأخذوا الفداءَ على أن يقتل من أصحابك عدة هؤلاء الأسارى. فدعا رسول الله ﷺ الناسَ فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، بل نأخذ فداءَهُمْ فنتقوّى به على قتال عدونا ويستشهدُ منّا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يومَ أُحُدٍ سبعون رجلاً(١).

قوله عز وجل:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنّه، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه- عن عليٍّ، الحديث بطوله، ورواه الترمذي، والنسائي من طريق أبي داود الحفري عن عليٍّ، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة، ورُوي عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلاً. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٦٣». و«ابن كثير ١: ٤٢٤» و «الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٣».

يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم﴾ للمؤمنين، والجمعان هما عسكر النبي ﷺ وعسكر قريش يوم أحد، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ رابطة مشددة، وذلك للإبهام الذي في ﴿ما﴾ فأشبه الكلام الشرط، وهذا كما قال سيبويه: الذي قام فله درهمان، فيحسن دخول الفاء إذا كان القيامُ سببَ الإعطاء، وكذلك ترتيب هذه الآية، فالمعنى إنما هو: وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب، لكن قَدَّمَ الأهمَّ في نفوسهم والأقربَ إلى حسهم. والإذن: التمكين من الشيء مع العلم به(١).

وقوله تعالى: ﴿وِلِيَعْلَمَ﴾ معناه: ليكون العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين، أي مساوقين للعلم الذي لم يزل ولا يزال(٢). واللام في قوله: ﴿ليعْلَمَ﴾ معلقة بفعل مقدر في آخر الكلام، والإشارة بقوله:

(١) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقَّب عليه بقوله: «لما كان من حيث المعنى أن الإصابة مترتبة على تمكين الله من ذلك حمل الآية على ذلك وادعى تقديماً وتأخيرا ـ ولا تحتاج الآية إلى ذلك، لأنه ليس شرطاً وجزاءً فيحتاج فيه إلى ذلك، بل هذا من باب الإخبار عن شيء ماض، والإخبار صحيح، أخبر تعالى أن الذي أصابهم يوم أحد كان لا محالة بإذن الله، فهذا إخبارٌ صحيح، ومعنى صحيح، فلا نتكلَّف تقديماً ولا تأخيراً ونجعله من باب الشرط والجزاء» (١٠٩/٣).

(٢) وقيل: هو على حذف مضاف، أي: وليعلم إيمان المؤمنين، وليعلم نفاق الذين نافقوا، وقيل: المعنى: وليميز أعيان المؤمنين من أعيان المنافقين، وقيل: ليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. راجع تفسير قوله تعالى: [لنَعْلَم مَن يتَّبع الرسول ممَّن ينْقلب على عَقِبَيْه].

﴿نافَقوا وقِيلَ لَهُمْ﴾ هي إلى عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي ﷺ يوم أحد ـ وذلك أنه كان من رأى عبد الله بن أبي ألَّا يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله ﷺ بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فانخزل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري[١] أبو جابر بن عبد الله بن حرام فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتالٌ لكنا معكم. فلما يئس منهم عبد الله قال: اذهبوا أعداءَ الله، فسيُغني الله رسولَهُ عنكم، ومضى مع النبي ﷺ فاستشهد.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أو ادْفعوا﴾ ـ فقال السدي وابن جريج وغيرهم: معناه: كثروا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكثرتكم، وقال أبو عون الأنصاري[٢]: معناه: رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثّر للسواد مدافع. وقال أنس بن مالك:

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي الصحابي المشهور، يكنى أبا جابر، شهد العقبة وبدراً، وكان من النقباءِ، ثبت ذكره في الصحيحين من حديث ولده، وهو أول قتيل قُتل من المسلمين من شهداءِ أُحد، (الإصابة ٢: ٣٥ وكذا الاستيعاب).

(٢) هو أبو عون الأنصاري الشامي الأعور، اسمه عبد الله بن أبي عبد الله، قال الحاكم أبو أحمد: أبو عون اسمه أحمد بن عمير، ذكره ابن حبان في الثقات. (تهذيب التهذيب ١٢: ١٩١).

رأيت يومَ القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى[١]، وعليه درع يجرّ أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكني أكثّر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله. وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو: ﴿أو ادْفعوا﴾ إنما هو استدعاء للقتال حميةً، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهلَ ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعثُ الأنفة، أي: أو قاتلوا دفاعاً عن الحوزة، ألا ترى أن قزمان[٢] قال: «والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي»، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد، لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر في زروع قناة قال: «أَتُرْعَى زروعُ بني قيلة ولما نضارب»؟ وكان النبي ﷺ قد أمر ألَّا يقاتل أحدٌ حتى يأمره بالقتال، وكأن عبد الله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا الأمر العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القرب

(١) ابن أم مكتوم هو عبد الله بن عمرو بن شريح- هكذا في الإصابة (٢: ٣٥١) وفي الاستيعاب: عبد الله بن زائدة بن الأصم، هو ابن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى، لم يختلفوا أنه من بني عامر، وقيل: اسمه عمرو، واسم أمه أم مكتوم عاتكة، كان يؤَذن مع بلال، شهد القادسية. قال الزرقاني على الموطأ: قيل: استشهد بالقادسية، وقيل: مات بالمدينة.

(٢) هو قزمان بن الحارث حليف بني ظفر أبو الغيداق صاحب القصة يوم أُحد، قيل: ماتَ كافراً فإن في بعض قصته أنه صرح بالكفر، وهو قاتل نفسه. (الإصابة ٣: ٢٣٥)، وأخرج قصته ابن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة (سيرة ابن هشام ٢: ١٧١).

ضد البعد، وسَدَّت «اللام» في قوله: ﴿لِلْكُفْر﴾ و﴿للإيمان﴾ مسدّ «إلى». وحكى النقاش أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القَرَب ـ بفتح القاف والراء ـ وهو الطلب، والقاربُ طالبُ الماء، وليلة القَرَب ليلةُ الورْدِ، فاللفظة بمعنى الطلب، واللام متمكنة على هذا القول(١). وقوله: ﴿بأَفْواهِهِم﴾ تأكيد، مثل: ﴿يَطيرُ بجَناحَيْه﴾(٢).

وقوله: ﴿ما لَيْسَ في قُلُوبهم﴾ يريد ما يُظهرون من الكلمة الحاقنةِ لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله، ﴿والله أعلَمُ بما يكْتُمون﴾ أي: من الكفر وعداوة الدين، وفي الكلام توعد لهم.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

(١) قال الحسن: إذا قال الله: (أقرب) فهو اليقين بأنهم مشركون، كقوله: [مائة ألف أو يزيدون] فالزيادة لا شك فيها، والمكلف لا ينفك عن الكفر أو الإيمان، فلما دلت على الأقربية من الكفر لزم حصول الكفر.

وقال الواحدي في الوسيط: هذه الآية دليل على من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر لأن الله تعالى لم يطلق القول عليهم بتكفيرهم مع أنهم كانوا كافرين مظهرين لقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقال الماتريدي: أقرب: أي ألزم على الكفر وأقبل له، مع وجود الكفر منهم حقيقة لا على القرب إليه قبل الوقوع والوجود لقوله: (إنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين)، أي هي لهم لا على القرب قبل الوجود.

هذا ـ وأقرب: أفعل تفضيل ـ يُعدى بإلى وباللام، وبمن.

(٢) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

﴿الَّذين﴾ بدل من ﴿الذين﴾ المتقدم، وإخوانهم: المقتولون من الخزرج، وهي أخوة نسب ومجاورة. وقوله: ﴿لإِخْوانِهم﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وفي شأن إخوانهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لإِخْوانِهم﴾ للأحياء من المنافقين، ويكون الضمير في: ﴿أطاعونا﴾ هو للمقتولين. وقوله: ﴿وقَعَدُوا﴾ جملة في موضع الحال وهي حال معترضة أثناء الكلام. وقوله: ﴿لَوْ أَطاعونا﴾ يريد في ألَّا يخرجوا إلى قريش.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿ما قُتّلوا﴾، بشد التاء، وهذا هو القول بالأجلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قلْ فادْرَءُوا﴾... الآية، والدرءُ: الدفع ومنه قول دغفل النسابة(١):

صادف درءُ السيل درءاً يدفعه والعبء لا تعرفه أو تَرْفَعُهْ

ولزوم هذه الحجة هو أنكم القائلون: إن التوقي واستعمالَ النظر يدفعُ الموت، فتوقوا وانظروا في الذي يغشاكم منه حتف أنوفكم، فادفعوه إن كان قولكم صدقاً، أي: إنما هي آجالٌ مضروبة عند الله.

وقرأ جمهور القراء، ﴿ولا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء مخاطبة للنبي عليه

(١) هو دغفل بن حنظلة بن زيد بن عبدة الشيباني الذهلي النسابة، يقال: له صحبة، قال نوح بن حبيب القرمسي: فيمن نزل البصرة من الصحابة دغفل النسابة. وقال في موضع: يقال إنه رأى النبي ﷺ. قيل: إنه غرق في يوم دولات في قتال الخوارج سنة: ٧٠. «الإصابة. ١: ٤٧٥». قال صاحب الفهرست: «قتلته الشراة ولا مصنف له ١٣١».

السلام، وقرأ حميد بن قيس: ﴿ولا يَحْسَبن﴾ بالياء على ذكر الغائب، ورويت عن ابن عامر، وذكرها أبو عمرو وكأن الفاعل مقدر: ولا يحسبنَّ أَحد أو حاسب. وأرى هذه القراءة بضم الباء فالمعنى: ولا يحسبُ الناس، ويحسبُنّ معناه: يظنّ. وقرأ الحسن: ﴿الَّذين قُتِّلوا﴾، بشدّ التاء، وابن عامر من السبعة. وروي عن عاصم أنه قرأ: ﴿الَّذين قاتَلُوا﴾ بألف بين القاف والتاء.

وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون، هذا موضع الفائدة، ولا محالـة أنهم ماتوا وأَن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأنَّ حياة الدنيا دائمة لهم. قال الحسن بن أبي الحسن: ما زال ابنُ آدم يتحمَّد حتى صار حياً لا يموت بالشهادة في سبيل الله. فقوله: ﴿بلْ أحياءُ﴾ مقدّمة لقوله: ﴿يُرْزَقون﴾ إذ لا يُرْزَقُ إلا حيٌّ وهذا كما تقول لمن ذمَّ رجلاً: بل هو رجل فاضل، فتجيء باسم الجنس الذي تركَّبَ عليه الوصف بالفضل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بل أحياءُ﴾ بالرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: هم أحياء، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿بل أحياءً﴾ بالنصب؛ قال الزجاج: ويجوز النصب على معنى بل أحسبهم أحياء، قال أبو علي في الأغفال(١): ذلك لا يجوز لأن الأمر يقين فلا يجوز أن يؤمر فيه

(١) الأغفال: كتاب لأبي علي الفارسي فيما أغفله الزجاج من المعاني. «كشف الظنون» ١: ١٢٧».

بمحسبة، ولا يصحُّ أن يضمر له فعل المحسبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فوجه قراءة ابن أبي عبلة أن تضمرَ فعلاً غير المحسبة: أعْتَقِدُهُم أو أَجْعَلُهُم، وذلك ضعيفٌ إذ لا دلالةَ في الكلام على ما يضمر.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِم﴾ فيه حذفُ مضافٍ تقديره: عند كرامة ربهم، لأن (عند) تقتضي غاية القرب، ولذلك لم تصغر، قاله سيبويه، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: (أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)[١]. وروي عنه عليه السلام أنه قال: (أرواح الشهداء في جواف طيرٍ خضرٍ تردُ أنهارَ الجنةِ وتأكل من ثمارها)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه طبقاتٌ وأحوال مختلفة، يجمعها أَنهم يرزقون. وقال عليه السلام: (إنما نسمة المؤمن من طير تعلق في ثمار الجنة)[٣] ويروى

(١) أخرجه الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس (الدر المنثور ٢ : ٩٦ وكذا «مجمع الزوائد» ٥ : ٢٩٨. والمنذري في «الترغيب والترهيب» ٢ : ٢٣٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وهناد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ : ٩٥. وفتح القدير للشوكاني ١ : ٣٦٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بإسناد فيه الأئمة الثلاثة. عن كعب بن مالك الأنصاري. (ابن كثير ١ : ٢٤٧. والقسطلاني في المواهب ٢ : ٥٥).

«يَعْلَق» بفتح اللام وبالياء. والحديث معناه في الشهداء خاصة، لأن أرواح المؤمنين غير الشهداء إنما ترى مقاعدها من الجنة دون أن تدخلها، وأيضاً فإنها لا ترزق. وتعلق معناه: تصيب العُلْقَةَ من الطعام، وفتح اللام هو من التعلّق، وقد رواه الفراء في إصابة العلقة، وروى أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى يطلع إلى الشهداء فيقول: يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون يا ربنا لا فوق ما أعطيتنا، هذه الجنة نأكل منها حيث نشاء، لكنا نريد أن تردّنا إلى الدنيا فنقاتل في سبيلك فنقتل مرة أخرى، فيقول تعالى: قد سبق أنكم لا تردون)[١]. وروي أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله: (ألا أبشرك يا جابر؟ قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله، قال: إن أباك حيث أصيب بأحد، أحياه الله، ثم قال: ما تحب يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى)[٢] وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ليتنا نعلم ما فعل إخواننا الذين

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، والفريابي وابن أبي حاتم، والطبراني، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» - عن مسروق (الدر المنثور ٢ : ٩٦، وابن اسحق في «السيرة» ٣ : ١٢٧. وابن كثير ١ : ٢٤٦) قال: وروى نحوه أنس، وأبو سعيد.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجة، وابن أبي عاصم في «السنة»، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن جابر، وأخرجه أيضا الحاكم عن عائشة. (الدر المنثور للسيوطي ٢ : ٩٥. وفتح القدير ١ : ٣٦٧. وابن كثير ١/٤٢٧ وابن إسحق في السيرة ٣ : ١٢٧. والقسطلاني في المواهب ٢ : ٥٣).

أصيبوا بأُحد، فنزلت هذه الآية[(١)]. وقال محمد بن قيس بن مخرمة[(٢)] في حديث: (إن الشهداء قالوا: يا ربنا، ألا رسول يخبر نبينا عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله تعالى: أنا رسولكم، فنزل جبريل بهذه الآيات)[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكثرت هذه الأحاديث في هذا المعنى واختلفت الروايات، وجميع ذلك جائز على ما اقتضبته من هذه المعاني[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ﴾ نصب في موضع الحال، وهو من الفرح بمعنى السرور. والفضل في هذه الآية: التنعيم المذكور.

قوله عز وجل:

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره بلفظه. (٤ : ١٧٢. والدر المنثور للسيوطي ٢ : ٩٥).

(٢) هو محمد بن قيس بن مخرمة بن عبدالمطلب القرشي المطلبي، ذكره العسكري: وقال: لحق النبي ﷺ، وذكره ابن أبي داود، والباوردي في الصحابة، وجزم البغوي وابن منده وغيرهما أن حديثه مرسل، ذكره ابن حبان، وأبو داود في الثقات، روى عن النبي ﷺ، وعن أمه، وعن إسحق، وابن جريج، وغيرهم، (الإصابة ٣ : ٤٧٦. وتهذيب التهذيب).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر ـ عن محمد بن قيس بن مخرمة. (الدر المنثور ٢ : ٩٥).

(٤) من أراد استيفاء هذه الأحاديث فليراجع في هذا الموضوع تفسير «ابن كثير»، و«ابن جرير» و«الدر المنثور» للسيوطي.

﴿يستبشرون﴾ معناه: يسرون ويفرحون، وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة، بل هي بمعنى: استغنى الله، واستمجد المرخ والعفار[1]، وذهب قتادة والربيع وابن جريج وغيرهم إلى أن هذا الاستبشار إنما هو بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركناهم خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه فيسرّون لهم بذلك، إذ يُحْصلون[2] لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. وذهب فريق من العلماء ـ وأشار إليه الزجاج وابن فورك ـ إلى أن الإشارة في قوله: ﴿بالَّذين لم يَلْحَقوا﴾ إلى جميع المؤمنين، أي: لم يلحقوا بهم في فضل الشهادة، لكن الشهداء لما عاينوا ثواب الله وقع اليقينُ بأن دينَ الإسلام هو الحق الذي يثيبُ الله عليه، فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون للمؤمنين بأنهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. و﴿أَلَّا﴾ مفعول من أجله، التقدير: بأن لا خوف، ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل اشتمال.

ثم أكد تعالى اشتبشارهم بقوله: ﴿يَسْتَبْشِرونَ بِنِعْمَةٍ﴾، ثم بين

(١) في بعض النسخ استحمد، والصواب ما أثبتناه. وفي «مجمع الأمثال» للميداني (٢ : ٤٧) : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. أي استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما ـ واستمجد: استفضل، وقيل: معناه: اقتدح. والمرخ: شجر كثير الورق سريعه. والعفار: شجر يتخذ منه الزناد.

(٢) في اللسان في مادة: حَصَل. «أحْصَل القوم إذا أحْصَل نخلهم، أي: استبان البُسْرُ وتدحرج. وعلى ذلك يكون في هذه الكلمة مجاز، والمراد: إذ يثمر جهادهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والله أعلم.

تعالى بقوله: ﴿وفَضْلٍ﴾ فوقع إدخاله إياهم الجنة الذي هو فضل منه لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمال.

وقرأ الكسائي وجماعة من أهل العلم: ﴿وإنّ الله﴾ بكسر الألف من (إن)، وقرأ باقي السبعة وجمهور العلماء: ﴿وأَنَّ الله﴾ بفتح الألف، فمن قرأ بالفتح فذلك داخلٌ فيما يُسْتَبشر به، المعنى: بنعمة وبأن الله، ومن قرأ بالكسر فهو إخبار مستأنف. وقرأ عبد الله: ﴿وفَضْلٍ واللهُ لاَ يُضيعُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذينَ اسْتَجابوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿الَّذين﴾ صفة للمؤمنين على قراءة من كسر الألف من (إنَّ)، والأَظْهَر أن ﴿الذين﴾ ابتداء وخبره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذين أحْسَنوا﴾... الآية. فهذه الجملة هي خبر الابتداء الأول.

والمستجيبون لله والرسول هم الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد[١] في طلب قريش والتظاهر لهم؛ وذلك أنه لما كان في يوم الأَحد وهو الثاني من يوم أُحد نادى رسول الله ﷺ في الناس باتباع المشركين، وقال: (لا يخرجن معنا إلا من شاهدنا بالأمس)[٢]

---

(١) حمراءُ الأسد: إحدى غزواته ﷺ، والموضع على بعد ثمانية أميال من المدينة عن يسار طريق ذي الحليفة، وكانت يوم الأحد لست عشرة مضت أو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة، (القسطلاني في المواهب بشرح الزرقاني ٢: ٥٩).

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢: ١٠٢) وابن مردويه. وكذا في ابن كثير من عدة طرق (١: ٤٢٨) وأخرجه البغوي أيضا. وابن إسحق في السيرة.

وكانت بالناس جراحة وقرحٌ عظيم، ولكن تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتى بلغ حمراءَ الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام، وجرت قصة معبد بن أبي معبد التي ذكرناها، ومرت قريش، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله تعالى في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية، ومدحهم لصبرهم.

وروي أنه خرج في الناس أخوان[١] وبهما جراحة شديدة وكان أحدهما قد ضعف، فكان أخوه يحمله عُقْبة ويمشي هو عُقبةً. ورغب جابر بن عبد الله إلى النبي ﷺ في الخروج معه فأذن له، وأخبرهم تعالى أن الأَجر العظيم قد تحصَّلَ لهم بهذه الفعلة، وقال رسول الله ﷺ: (إنها غزوة)[٢].

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

---

(١) الرجلان الأخوان هما: عبدالله ورافع ابنا سهل بن رافع كما في السيرة الحلبية (٢: ٣٣٩). وكذا ذكرهما وذكر خروجهما لحمراءِ الأسد ابن قدامة في الاستبصار: ٢٣٠ ط. دار الفكر سنة ١٣٩٢).

(٢) أخرجه النسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني ـ بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس: (إنها تعد غزوة). (الدر المنثور ٢: ١٠١).

﴿الَّذين﴾ صفة للمحسنين المذكورين. وهذا القول هو الذي قاله الركب من عبد القيس لرسول الله ﷺ وأصحابه حين حملهم أبو سفيان ذلك، وقد ذكرته قبل(١)، فالناس الأول ركب عبد القيس والناس الثاني عسكر قريش.

وقوله تعالى: ﴿فزادَهُمْ إيماناً﴾، أي: ثبوتاً واستعداداً، فزيادة الإيمان في هذا هي في الأعمال.

وأطلق العلماء عبارة: إن الإيمان يزيد وينقص، والعقيدة في هذا أن نفس الإيمان الذي هو تصديقٌ واحدٌ بشيءٍما، إنما هو معنى فردٌ لا تدخله زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيءٌ إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته، فذهب بعض العلماء إلى أنه يقال: يزيد وينقص من حيث تزيد الأعمال الصادرة عنه وتنقص، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ وذهب قوم إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفروض والأخبار في مدة النبي ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر، وهذا إنما هو زيادة إيمان إلى إيمان، فالقول فيه أن الإيمان يزيد وينقص قولٌ مجازيّ ولا يتصوَّرُ النقصُ فيه على هذا الحدّ، وإنما يتصور الأنقص بالإضافة إلى من علم. وذهب قوم من العلماء إلى

(١) أخرجه ابن إسحق وابن جرير، والبيهقي في «الدلائل» عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد. (الدر المنثور للسيوطي ٢ : ١٠١). وقد ذكره آنفا عند قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، الآية: ١٥١ من سورة آل عمران حيث سرد القصة بتمامها وفي ضمنها الركب.

أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هي من طريقِ الأَدلة، فتزيدُ الأدلة عند واحد، فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان، وهذا كما يقال في الكسوة، إنها زيادة في الإنسان. وذهب أبو المعالي في «الإرشاد»: إلى أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هو بسبب ثبوت المعتقد وتعاوره دائباً، قال: وذلك أن الإيمان عرض وهو لا يثبت زمانين فهو للنبي ﷺ وللصلحاء متعاقبٌ متوالٍ، وللفاسق والغافل غير متوالٍ، يصحبه حيناً ويفارقه حيناً في الفترة، فذلك الآخر أكثر إيماناً، فهذه هي الزيادة والنقص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول نظر[1].

وقوله تعالى: ﴿فزادَهُم إيماناً﴾ لا يتصور أن يكون من جهة الأدلة، ويتصور في الآية الجهات الأخر الثلاث. وروي أنه لما أخبر الوفد من عبد القيس رسول الله ﷺ بما حملهم أبو سفيان، وأنه ينصرف إليهم بالناس ليستأصلهم، وأخبر بذلك أيضاً أعرابي، شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: (قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)[2] فقالوها، واستمرت عزائمهم على الصبر، ودفع الله

---

(١) زاد بعض العلماء تفسيرات أخرى، منها: أن الإيمان يزيد وينقص من جهة أعمال القلوب: كالنية والإخلاص والخوف والنصيحة، ومنها: أن التقيد بظاهر النص، وهو أن الإيمان يزيد فقط. وهذا هو قول المعتزلة.

(٢) أخرجه ابن جرير عن السدي. ولهذه الكلمة فضائل كثيرة. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٦٧». «والدر المنثور للسيوطي ٢: ١٠٢». و«ابن كثير ١: ٤٣٠».

عنهم كل سوء، وألقى الرعب في قلوب الكفار فمروا(١).

وقوله تعالى: ﴿فانْقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ﴾ يريد في السلامة والظهور في اتباع العدو وحماية الحوزة، وبفضلٍ في الأجر الذي حازوه والفخر الذي تجللوه. وباقي الآية بين قد مضت نظائره.

هذا هو تفسير الجمهور لهذه الآية، وأنها في غزوة أُحد في الخرجة إلى حمراء الأسد، وشذ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿الَّذين قالَ لَهُمُ الناسُ﴾ إلى قوله: ﴿فضْلٌ عَظيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى، وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحد إذ قال: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال النبي عليه السلام: (قولوا نعم)(٢) فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دارهم، وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الاشجعي(٣) فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللّهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾، وصمموا حتى أتوا بدراً

(١) وقوله تعالى: [حَسْبنا الله ونعم الوكيل] حسب بمعنى: المحسب، أي: الكافي، ويراد به معنى اسم الفاعل، والوكيل: الكفيل ـ فَعِيل بمعنى مفعول ـ أي: الموكول إليه الأُمور.

(٢) أخرجه الحاكم في «الإكليل» عن الواقدي بهذه الصيغة، والخطاب موجه إلى عمر رضي الله عنه كما في (المواهب للقسطلاني بشرح الزرقاني ٢: ٩٣).

(٣) هو نعيم بن مسعود بن عامر، يكنى أبا سلمة الأشجعي صحابي مشهور، وله رواية عن النبي ﷺ، وهو الذي خذَّل المشركين وبني قريظة يوم الخندق، توفي في خلافة عثمان، وقيل: في وقعة الجمل. (الإصابة ٢: ٥٦٨. والاستيعاب).

فلم يجدوا عدواً، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدماً وتجارة، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا في تجارتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[1] أي فضل في تلك التجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب ما قاله الجمهور: إن الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد، وما قال ابن قتيبة وغيره من أن لفظة ﴿الناس﴾ تقع على رجل واحد من هذه الآية، فقولٌ ضعيف.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

مقتضى ﴿إِنَّمَا﴾ في اللغة الحصر، هذا منزع المتكلم بها من العرب. ثم إذا نظر عقلاً ـ وهذا هو نظر الأُصوليين ـ فهي تصلح للحصر وللتأكيد الذي يستعار له لفظ الحصر، وهي في هذه الآية حاصرة، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى جميع ما جرى من أخبار الركب العبديين عن رسالة أبي سفيان، ومن تحميل أبي سفيان ذلك

(١) أخرجه ابن جرير عن السدي (الدر المنثور ٢ : ١٠٤).

الكلام، ومن جزَع من جَزِع من ذلك الخبر من مؤمن أو متردد.

و﴿ذَلِكُمُ﴾ في الإعراب ابتداء، و﴿الشَّيطانُ﴾ مبتدأ آخر، و﴿يُخَوِّفُ أَوْلياءَهُ﴾ خبر عن الشيطان، والجملة خبر الابتداء الأول، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون ﴿الشَّيْطانُ﴾ خبرَ ﴿ذِلكُم﴾ لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة. و ﴿يُخَوِّفُ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، لكن يجوز الاقتصار على أحدهما إذ الآخر مفهوم من بنية هذا الفعل، لأنك إذا قلت: خوفتُ زيداً، فمعلومٌ ضرورةً أنك خوفته شيئاً حَقُّهُ أن يخاف.

وقرأ جمهور الناس ﴿يخوِّفُ أولياءَهُ﴾ فقال قومٌ: المعنى: يخوفكم أيها المؤمنون أولياءَه الذين هم كفارُ قريش، فحذف المفعول الأول، وقال قوم: المعنى يخوِّفُ المنافقين ومَنْ في قلبه مرضٌ، وهم أولياؤه، فإذًا لا يعمل فيكم أيها المؤمنون تخويفه، إذ لستم بأوليائه، والمعنى: يخوّفهم كفارَ قريش، فحذف هنا المفعول الثاني واقتصر على الأول. وقرأ ابن عباس فيما حكى أبو عمر والداني: ﴿يُخَوفكُم أَوْلياؤُه﴾ المعنى: يخوفكم قُرَيشٌ ومن معهم، وذلك بإضلال الشيطان لهم، وذلك كله مضمحل، وبذلك قرأ النخعي. وحكى أبو الفتح ابن جنى[1] عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يخوّفكم أولياءَهُ﴾ فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان، وفسرت قراءة الجماعة: ﴿يخوّف أولياءَه﴾

(١) المحتسب ١: ١٧٧

وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿يخوفكم بأوليائه﴾.

والضمير في قوله: ﴿فلا تَخافوهُم﴾ لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان، حقر الله شأنهم وقوّى نفوسَ المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى وامتثالِ أمره من الصبر والجلد، ثم قرر بقوله تعالى: ﴿إنْ كُنْتُم مُؤْمنين﴾ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وقرأ نافع وحده ﴿يُحزِنك﴾ بضم الياء من أحزن، وكذلك قرأ في جميع القرآن، إلا في سورة الأنبياء: ﴿لا يَحْزُنُهم الفزَعُ الأكبر﴾ فإنه فتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿يَحْزُنْك﴾ بفتح الياء، من قولك: حزنتُ الرجلَ. قال سيبويه: يقال: حزن الرجل وفتن إذا أصابه الحزن والفتنة. وحزنته وفتنته، إذا جعلتُ فيه وعنده حزناً وفتنة، كما تقول: دهنت وكحلت، إذا جعلت دهناً وكحلاً، وأحزنته وأفتنته إذا جعلته حزيناً وفاتناً، كما تقول: أدخلته وأسمعته، هذا معنى قول سيبويه.

والمسارعة في الكفر هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والجدّ في ذلك. وقرأ الحرّ النحوي[1] ﴿يُسْرعون﴾ في كلِّ القرآن، وقراءة الجماعة أبلغ، لأن من يسارِعُ غيرَهُ أشدُّ اجتهاداً من الذي يسرع وحده،

---

(١) هو الحرّ بن عبد الله النحوي القارىء، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة، (بغية الوعاة ١: ٤٩٣) وهذه القراءة قد ذكرها ابن جني في المحتسب (١: ١٧٧).

ولذلك قالوا: «كل مجرٍ بالخلاء يُسَر»[١]. وسلى الله نبيه بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهدين إذ كلهم مسارع.

وقوله تعالى: ﴿إنَّهُم لَنْ يضُرُّوا الله شيئاً﴾ خبر في ضمنه وعيد لهم، أي: إنما يضرون أنفسهم. والحظ إذا لم يقيد فإنما يستعمل في الخير، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وما يُلقَاها إلا ذو حظٍّ عظيم﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذين اشْتَرَوا﴾ أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا متمكنين من قبول هذا فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أُخذ وحُصِّل، إذ كانوا ممكنين منه، ولمالك رحمه الله مُتَعَلَّقٌ بهذه الآية في مسألة شراء ما تختلف آحاد جنسه مما لا يجوز التفاضل فيه، في أن منع الشراء على أن يختار المبتاع، وباقي الآية وعيد كالمتقدم.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

---

(١) هذا مثل، يضرب للرجل يسرّ بفضيلة في نفسه دون أن يقيسها بفضائل غيره، كراكب الفرس في الخلاء، يظن نفسه فارساً لانعدام المتبارين؛ (انظر جمهرة العسكري ٢: ١٤٢، والميداني ٢: ٥٤، والمستقصى: ٢٦٩، وفصل المقال: ٢٠٣) وللمثل صور أخرى.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة فصلت.

﴿نملي﴾ معناه: نمهل ونمدّ في العمر، والملاوة: المدة من الدهر، والملوان الليل والنهار، وتقول: مَلاَّكَ الله النعمةَ أي: منحكها عمراً طويلاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿يَحْسِبَن﴾ بالياء من أسفل وكسر السين وفتح الباء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في السين فإنه فتحها، وقرأ حمزة - ﴿تَحْسَبنَّ﴾ بالتاء من فوق وفتح السين، وقرأ عاصم والكسائي كل ما في هذه السورة بالتاء من فوق إلا حرفين: قوله: ﴿ولا يَحْسَبنَّ الَّذين كفروا﴾ في هذه الآية، وبعدها ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون﴾. فأما من قرأ ﴿وَلاَ يَحْسبن﴾ بالياء من أسفل فإن ﴿الَّذين﴾ فاعل، وقوله: ﴿أَنَّما نُمْلي لَهُم خيرٌ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنما﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولي «حسب»، وذلك أن «حسب» وما جرى مجراها تتعدى إلى مفعولين أو إلى مفعول يسدّ مسدَّ مفعولين، وذلك إذا جرى في صلة ما تتعدى إليه ذكر الحديث والمحدث عنه. قال أبو علي: وكسر «إن» في قول من قرأ: ﴿يَحسبن﴾ بالياء لا ينبغي، وقد قرئ فيما حكاه غير أحمد بن موسى[1] وفي غير السبع، ووجه ذلك أَن «إنّ» يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء، ويدخلان على

(١) المقصود به: ابن مجاهد كما في إبراز المعاني شرح الشاطبية: ٢٨٠ (ط. البابي الحلبي، مصر).

الابتداء والخبر، أعني «اللام» و«إن» فعلق عن ﴿إنما﴾ عمل الحسبان كما تعلق عن اللام في قولك: حسبت لزيدٌ قائمٌ، فيعلق الفعل عن العمل لفظاً، وأما بالمعنى فما بعد «إن» أو «اللام» ففي موضع مفعولي حسب، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي، ففي ﴿نُمْلي﴾ عائد مستكن، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى تقدير عائد. وأما من قرأ ﴿ولا تحسبنَّ﴾ بالتاء من فوق فـ﴿الَّذين﴾ مفعولٌ أول للحسبان. قال أبو علي: وينبغي أن تكون الألف من ﴿إنما﴾ مكسورة في هذه القراءة، وتكون «إن» وما دخلت عليه في موضع المفعول الثاني لـ﴿تَحْسبن﴾، ولا يجوز فتح الأَلف من ﴿إنما﴾ لأَنها تكون المفعول الثاني، والمفعول الثاني في هذا الباب هو المفعول الأول بالمعنى، والاملاءُ لا يكون إياهم. قال مكي في مشكله[١]: ماعلمت أحداً قرأ: ﴿ تَحسبن﴾ بالتاء من فوق وكسر الألف من ﴿إنما﴾. وجوز الزجاج هذه القراءة ﴿تَحْسبن﴾ بالتاء و﴿أنما﴾ بفتح الألف، وظاهر كلامه أنها تنصب ﴿خيراً﴾ قال: وقد قرأ بها خلق كثير وساق عليها مثالاً قول الشاعر:

فما كان قيْسٌ هُلكُه هُلْكَ واحدٍ[٢] . . . .

بنصب هُلْكَ الثاني على أن الأول بدل.

---

(١) هو كتاب «مشكل غريب القرآن»، ذكر ابن خلكان (٥: ٢٧٦) أنه في ثلاثة أجزاء.

(٢) البيت من قصيدة لعبدة بن الطبيب يرثي بها قيس بن عاصم، وعجز البيت:

. . . . ولكنه بنيان قوم تهدَّما (الإصابة ٣: ٢٥٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكذلك يكون ﴿أَنما نُمْلي﴾ بدلاً من ﴿الَّـذين كَفَروا﴾ كقوله تعالى: ﴿وما أَنْسانِيهُ إلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[١] وقوله: ﴿وإِذْ يعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتين أَنَّها لَكُم﴾[٢] ويكون ﴿خيراً﴾ المفعول الثاني.

قال أبو علي: لم يقرأ هذه القراءة أحد، وقد سألت أحمد بن موسى عنها فزعم أنه لم يقرأ بها أحد. ويظهر من كلام أبي علي أن أبا إسحق إنما جوز المسألة مع قراءة ﴿خيرٌ﴾ بالرفع، وأبو علي أعلم لمشاهدته أبا إسحق. وذكر قوم أن هذه القراءة تجوز على حذف مضاف تقديره: ولا تحسبن شأن الذين كفروا أَنما نملي لهم، فهذا كقوله تعالى: ﴿واسألِ القَرْيَةَ﴾[٣] وغير ذلك. ويذهب الأُستاذ أبو الحسن بن البادش[٤]: إلى أنها تجوز على بدل ﴿أن﴾ من ﴿الّذين﴾ وحذف المفعول الثاني لحسب، إذ الكلام يدل عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمسألة جائزة إذ المعنى: لا تحسبنَّ إملاءَنا للذين كفروا خيراً لهم، أو نحو هذا.

---

(١) من الآية (٦٤) من سورة الكهف.
(٢) من الآية (٧) من سورة الأنفال.
(٣) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.
(٤) هو علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي (٥٢٨) نحوي، له شرح على سيبويه وشرح على الإيضاح (إنباه الرواة ٢: ٢٢٧).

ومعنى هذه الآية: الرد على الكفار في قولهم: إن كوننا ظاهرين مُولين أصحة دليلٌ على رضى الله بحالنا واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر الله أن ذلك التأخيرَ والإمهالَ إنما هو إملاء واستدراج، ليكتسبوا الآثام،وقال عبد الله بن مسعود: ما من نفسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرة إلا والموت خير لها، أما البرة فلتسرعَ إلى رحمة الله، وقرأ ﴿وما عِنْدَ اللهِ خيْرٌ للأَبْرار﴾، وأما الفاجرة فلئلا تزداد إثماً، وقرأ هذه الآية[1]. ووصف العذاب بالمهين معناه: التخسيس لهم، فقد يعذب من لا يهان، وذلك إذا اعتقدت إقالةَ عثرته يوماً ما.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤْمنين﴾ . . . الآية ـ فقال مجاهد وابن جريج وابن إسحق وغيرهم: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكن ميز بعضهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أُحُدٍ من الأفعال والأقوال. وقال قتادة والسدي: الخطاب للكفار، والمعنى: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة. وقال السدي وغيره: قال الكفار في بعض جدلهم: أنت يا محمد تزعم في الرجل منا أنه من أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والمنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه ـعن ابن مسعود. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧١». وفي «الدر المنثور ٢: ١٠٤». أخرجه من ذكره الشوكاني بزيادة: عبد بن حميد وأبو بكر المروزي في «الجنائز». و[ما عند الله خير للأبرار] من الآية (١٩٨) من سورة آل عمران.

أخبرنا بمن يؤمن منا وبمن يبقى على كفره، فنزلت الآية[١]، فقيل لهم: لا بد من التمييز، وما كان الله ليطلعكم على الغيب فيمن يؤمن ولا فيمن يبقى كافراً، ولكن هذا رسول مجتبىً فآمنوا به. فإن آمنتم نجوتم وكان لكم أجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول الأول، فقولهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وما كان الله لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ﴾ إنه في أمر أُحُد، أي: ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكيف تكعون[٢] ونحو هذا. وأيضاً فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسميةً لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن.

و ﴿حتى﴾ في قوله: ﴿حتَّى يَميز﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانه حتى يميز.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿حتَّى يَميز﴾ بفتح الياء وكسر الميم وتخفيف الياء، وكذلك ﴿لِيَميز﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿حتى يُمَيِّز﴾ و﴿ليميّز الله﴾[٣] بضم الياء والتشديد.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم- عن السدي (فتح القدير ١: ٣٧١. والدر المنثور. ٢: ١٠٤).

(٢) معناه: تتأخرون وتحجمون وتجبُنون.

(٣) من الآية (٣٧) من سورة (الأنفال).

قال يعقوب بن السكيت(١): مِزْتُ ومَيَّزْتُ لغتان بمعنى واحد. قال أبو علي: وليس ميّزت بمنقول من مِزت، بدليل أن ميّزت لا يتعدى إلى مفعولين وإنما يتعدى إلى مفعول واحد كمِزت، كما أن «ألقيت» ليس بمنقول من «لقي» إنما هو بمعنى أسقطت.

والغيب هنا: ما غاب عن البشر مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس. قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية. و ﴿يَجْتَبِى﴾ معناه: يختار ويصطفى، وهي من جبيت الماء والمال، وباقي الآية بين والله المستعان.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

القراءات في قوله تعالى: ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ﴾ كالتي

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق، عرف بابن السكّيت، نديم المتوكل، وقد استشار في ذلك أحمد بن عبيد فنهاه عنها فحمل قوله على الحسد، وأجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة، وكان ذات يوم جالساً مع المتوكل فجاء المعتز والمؤيد إبناه فسأله: أيهما أحب أليك: ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ فذكر ابنيه بسوءٍ وأثنى على الحسن والحسين، فأمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره فمات من غده سنة ٢٤٤. «وفيات الأعيان» لابن خلكان٢: ٤٠٨.

تقدمت آنفاً في قوله: ﴿ولا يحسبَنَّ الذين كفروا﴾ سواء.

قال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك. قالوا: ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا﴾ هو الذي ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاعٌ أقرعُ من النار يتلمَّظُ حتى يطوقه)(١). والأحاديث في مثل هذا من منع الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة(٢). قال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم الله من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير.

وقوله تعالى: ﴿سَيُطوَّقونَ﴾ على هذا التأويل معناه: سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وعلى الذين يُطيقُونَهُ﴾(٣) وليس من التطويق. قال إبراهيم النخعي: ﴿سيُطَوَّقون﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوق من نار.

---

(١) أخرجه ابن جرير -عن حجر بن بيان، وابن أبي شيبة في مسنده، كما أخرجه الطبراني- عن جرير بن عبد الله (الدر المنثور للسيوطي ٢: ١٠٥).

(٢) منها ما أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، والنسائي، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود (الدر المنثور٢: ١٠٥) وغيره من الكتب الصحاح، والمسانيد، والمنذري، ومجمع الزوائد.

(٣) انظر الآية: ١٨٤ من سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يجري مع التأويل الأول الذي ذكرته للسدي وغيره.

وقال مجاهد: معنى ﴿سيُطَوَّقون﴾: سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يضطرب مع قوله: إن البخل هو بالعلم الذي تفضل الله عليهم بأن علمهم إياه.

وإعراب قوله تعالى: ﴿الَّذين يَبْخلون﴾ رفع في قراءة من قرأ: ﴿يَحْسَبن﴾ بالياء من أسفل، والمفعول الأول مقدر بعد الصلة تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم من فضله بخلهم هو خيراً، والمفعول الثاني ﴿خيراً﴾، و﴿هو﴾ فاصلة وهي العماد عند الكوفيين، ودلَّ قوله: ﴿يَبْخَلُون﴾ على هذا البخل المقدر كما دل السفيه على السفه في قول الشاعر:

إذا نُهِيَ السفيهُ جرى إليه وخالفَ، والسفيهُ إلى خلافِ[(١)]

فالمعنى جرى إلى السفه[(٢)]، وأما من قرأ ﴿تَحْسبن﴾ بالتاء من فوق

(١) ذكره الفراء في تفسيره ولم ينسبه (الخزانة ٢: ٣٨٣).

(٢) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية في الاستشهاد بالبيت: «وليست الدلالة فيهما سواء لوجهين: أحدهما: أن الدالَّ في الآية هو الفعل، وفي البيت هو اسم الفاعل، ودلالة الفعل على المصدر أقوى من دلالة اسم الفاعل، ولذلك كثر إضمار المصدر لدلالة الفعل عليه في القرآن وكلام العرب، ولم تكثر دلالة اسم الفاعل على المصدر، إنما جاء في هذا البيت أو في غيره إن وُجد=

ففي الكلام حذف مضاف هو المفعول الأول، تقديره: ولا تحسبن يا محمد بخلَ الذين يبخلون خيراً لهم. قال الزجاج: وهي مثل ﴿واسأَل القَرْيَةَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ولِلهِ ميراثُ السمواتِ﴾ خطاب على ما يفعله البشر دال على فناء الجميع، وأنه لا يبقى مالك إلا الله تعالى، وإن كان ملكه تعالى على كل شيء لم يزل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿والله بما يَعْملون﴾ بالياء من أسفل على ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، وذلك على الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه قد تقدم: ﴿وإن تُؤْمنوا وَتتَّقوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ﴾. . . الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب فنحاص اليهودي[2] وذلك أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى بيت المدراس ليدعوهم فوجد فيه جماعة من اليهود قد اجتمعوا على فنحاص ـ وهو حبرهم ـ فقال أبو بكر له: يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد

=والثاني: أن في الآية حذفاً لظاهر، إذ قدروا المحذوف: بُخْلهم، وأما في البيت فهو إضمار لا حذف». (البحر المحيط ١٢٨/٣).

(١) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.

(٢) هو فنحاص بن عازوراء، أحد أحبار يهود بني قينقاع الذين ناصبوا النبي ﷺ العداوة والحقد. «سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٩».

جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، في كلام طويل غضب أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه فنحاص وسبه وهم بقتله، ثم منعه من ذلك أن رسول الله ﷺ قال له: لا تُحْدِثْ شيئاً حتى تنصرف إليّ، ثم ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكا فعل أبي بكر، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فنزلت الآية في ذلك[(١)].

وقال قتادة: نزلت الآية في حيي بن أخطب، وذلك أنه لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسناً﴾[(٢)] قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما يستقرض الفقيرُ الغنيَّ. وقال الحسن بن أبي الحسن ومعمر وقتادة أيضاً وغيرهم: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِض الله قَرْضاً حَسناً﴾... الآية، قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أن هذا قول صدر أولا عن فنحاص وحيي وأشباههما من الأحبار ثم تقاولها اليهود، وهو قول يغلط به الأتباع ومن لا علم عنده

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. (الدر المنثور: ٢: ١٠٥. وفتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٢)، وذكر الشوكاني أن هذه القصة أخرجها ابن جرير، وابن المنذر ـ عن عكرمة، وأخرجها ابن جرير ـ عن السدي بأخصر من ذلك.

(٢) تكررت في موضعين ـ في الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة) ـ وفي الآية (١١) من سورة (الحديد).

بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود للتأويل على نحو ما صنعوا في توراتهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ الذينَ قالوا﴾ دالّ على أنهم جماعة[١].

قوله عز وجل:

﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾

قرأ حمزة وحده: ﴿سَيُكْتَبُ﴾ بالياء من أسفل على بناء الفعل للمفعول: ﴿وقتْلُهم﴾ برفع اللام عطفاً على المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، و: ﴿يَقولُ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ الباقون بنون الجمع، فإما أنها نون العظمة، وإما هي للملائكة، و﴿ما﴾ على هذه القراءة مفعولة بها، و﴿قتلَهم﴾ بنصب اللام عطفاً على ﴿ما﴾،﴿ونَقُول﴾ بالنون على نحو ﴿سَنَكْتُب﴾.والمعنى في هاتين القراءتين قريب بعضه من بعض، قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿ويُقال ذوقُوا﴾. وقال أبو معاذ النحوي[٢] في حرف ابن مسعود: ﴿سَنَكْتُب

(١) قال المفسرون: جاءت الجملة مؤكدة باللام مؤْذنة بعلمه بمقالتهم ومؤكدة له. وحيث نسبوا إلى الله ما نسبوا أكدوا الجملة (بإنَّ) على سبيل المبالغة، وحيث نسبوا إلى أنفسهم ما نسبوا لم يؤكدوا، بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد، (ونحن أغنياء) كأن الغنى وصف لهم ولا نزاع فيه فلا يحتاج إلى تأكيد.

(٢) هو الفضل بن خالد أبو معاذ النحوي المروزي مولى باهلة، روَى عن عبد الله بن المبارك، وداود بن أبي هند، وخارجة بن مصعب، وروى عنه محمد بن شقيق، والأزهري، ومحمد بن هرون النيسابوري، وغيرهم، ذكره ابن حبان في الثقات، وصنف كتاباً في القرآن، توفي سنة: ٢٢١. (طبقات القرآء لابن الجزري ٢: ٩. وبغية الوعاة: ٣٧٣).

ما يقُولونَ﴾ ﴿ويُقَالُ لَهُمْ ذوقوا﴾. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿ سنَكْتب ما يقولون﴾، وحكى أبو عمرو عنه أيضاً أنه قرأ: ﴿سَتُكْتَب﴾ بتاء مرفوعة ﴿ما قالُوا﴾ بمعنى: ستكتب مقالتهم.

وهذه الآية وعيد لهم، أي:سيحصي عليهم قولهم. والكتب فيما حكى كثير من العلماء هو في صحف تقيده الملائكة فيها، وتلك الصحف المكتوبة هي التي توزن، وفيها يخلق الله الثقل والخفة بحسب العمل المكتوب فيها. وذهب قوم إلى أن الكتب عبارة عن الإحصاء وعدم الإهمال، فعبر عن ذلك بما تفهم العرب منه غايةَ الضبط والتقييد. فمعنى الآية: إن أقوال هؤلاء تكتب وأعمالهم، ويتصل ذلك بأفعال آبائهم من قتل الأنبياء بغير حق ونحوه، ثم يقال لجميعهم: ﴿ذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق﴾. وخلطت الآية الآباء مع الأبناء في الضمائر، إذ الآباء هم الذين طرَّقوا لأبنائهم الكفر وإذ الأبناء راضون بأفعال الآباء متبعون لهم.

والدوق مع العذاب مستعار، عبارة عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ أنواعها وحاسته مميزة جداً، والحريق معناه: المُحْرِق فعيل بمعنى مُفْعِل، وقيل: الحريق طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكمْ﴾ توبيخٌ وتوقيف داخل فيما يقال لهم يوم القيامة، ويحتمل أن يكون خطاباً لمعاصري النبي ﷺ يوم نزول الآية، ونسب هذا التقديم إلى اليد إذ هي الكاسبة للأعمال في غالب أمر الإنسان، فأضيفَ كلُّ كسبٍ إليها، ثم بين تعالى أنه

يفعل هذا بعدل منه فيهم ووضع الشيء موضعه، والتقدير: وبـ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعبيدِ﴾، وجمع «عبداً» في هذه الآية على عبيد، لأنه مكان تشفيق وتنجية من ظلم(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلَيْنا﴾ صفة راجعة إلى قوله: ﴿الَّذين قالُوا إنَّ الله فَقيرٌ﴾. وقال الزجاج: ﴿الَّذين﴾ صفة للعبيد، وهذا مفسد للمعنى والرصف، وهذه المقالة قالتها أحبارُ يهود مدافعةً لأمر النبي ﷺ، أي أنك لا تأتي بنار فنحن قد عهد إلينا ألَّا نؤمن لك. و﴿عَهِدَ﴾ معناه: أمر، والعهد: أخصّ من الأمر، وذلك أنه في كل ما يتطاول أمره ويبقى في غابر الزمان، وتعدى (أمن) في هذه الآية باللام والباء في ضمن ذلك. و﴿قُرْبان﴾ مصدر سمى به الشيء الذي يقرَّبُ كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو صدق قوله، قرَّبَ قرباناً: شاةً أو بقرة ذبيحة أو بعضَ ذلك، وجعله في مكان للهواء وانتظر

---

(١) صيغة (ظلَّام) تفيد الكثرة- وقد قيل: أنّه تكثير بسبب المتعلق- وذهب بعضهم إلى أن (فعَّالا) قد يجيء ولا يراد به الكثرة كقول طرفة:

ولسْتُ بِحَلَّال التلاع مخافة ... ولكن متى يَسْتَرفد القوم أرفد

فهو لا يريد أنه قد يحل التلاع قليلاً، لأن عجز البيت يدفعه، فدَلَّ على نفي البخل في كل حال، وتمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة- وقيل: إذا نفي الظلم الكثير اتبع القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم- فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان للظلم القليل المنفعة أترك، وهذا ما يليق بعدل الله تعالى.

به ساعة، فتنزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامةُ القبول، وإذا لم تنزل النارُ فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل. وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أُحِلَّتِ الغنائمُ لمحمدٍ ﷺ حسب الحديث(١).

وروي عن عيسى بن عمر أنه كان يقرأ: ﴿بقُرُبان﴾ بضم الراء، وذلك على الإتباع لِضَمة القاف وليست بلغة، لأنه ليس في الكلام فُعُلان بضم الفاء والعين، وقد حكى سيبويه: السُّلُطان بضم اللام، وقال: إن ذلك على الإتباع.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

هذا ردٌّ عليهم في مقالتهم وتبيين لإبطالهم، أي: قد جاءكم رسل بالآيات الباهرة البينة، وفي جملتها ما قلتم من أمر القربان فلم قتلتموهم يا بني إسرائيل؟ المعنى: بل هذا منكم تعلل وتعنت، ولو أتيتكم بالقربان لتعللتم بغير ذلك، والاقتراح لا غاية له، ولا يجاب كل مقترح، ولم يجب الله مقترحاً إلا وقد أراد تعذيبه وألَّا

(١) أخرجه الشيخان، والنسائي عن جابر. (الجامع الصغير٢ : ١٥٢).

يمهله، كقوم صالح وغيرهم، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قريش فأبى، وقال: (بل أدعوهم وأعالجهم)[١] ثم أنس تعالى نبيه بالأسوة والقدوة فيمن تقدم من الأنبياء أي: فلا يعظم عليك ذلك.

وقرأ ابن عامر: ﴿وبالزُّبُر﴾ بإعادة باء الجر، وسقوطُها على قراءة الجمهور متجهه، لأن الواو شركت ﴿الزّبر﴾ في الباء الأولى فاستغنى عن إعادة الباء، وإعادتها أيضاً مُتَّجهةٌ لأجْل التأْكيد، وكذلك ثبتت في مصاحف أهل الشام، وروي أيضاً عن ابن عامر إعادة الباء في قوله: ﴿وَبِالكِتابِ المُنِير﴾.

﴿والزُّبُر﴾: الكتاب المكتوب يقال: زبرت الكتاب إذا كتبته، وزبرته إذا قرأته[٢]، والشاهد لأنه الكتاب قول امرىء القيس:

لمن طللٌ أبصرتُهُ فشجاني كخط زَبورٍ في عَسيب يمانِ؟[٣]

وقال الزجاج: زبرتُ: كتبت، وذبرت بالذال: قرأت، و﴿المنير﴾: وزنه مُفعل من النور، أي سطع نوره:

قوله عز وجل:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

(١) أخرجه مسلم، والنسائي بلفظ (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم مَنْ يعبد الله)، الحديث. «حياة الصحابة» ١: ٤٠٤.

(٢) الزُّبر: جمع زبور، وهو: الكتاب ـ فهو بمعنى مفعول، كالركوب بمعنى مركوب.
وقيل: اشتقاق الزبور من: الزبرة، وهي القطعة من الحديد التي تركت بحالها، ولكن المتعارف عليه هو من الزَّبْر بمعنى الكتب.

(٣) شبه الطلل بخط الكتاب المرقوم في عسيب يماني. والعسيب: سعف النخل الذي جرد من خوصه.

ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

هذا خبر واعظ فيه تسلية للنبي عليه السلام ولأمته عن أمر الدنيا وأهلها، ووعد في الآخرة، فبالفكرة في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم، والمعنى: كل نفس مخلوقة حية، والذوق هنا: استعارة، ﴿وإنَّما﴾ حاصرة على التوفية التي هي على الكمال، لأن من قُضِيَ له بالجنة فهو ما لم يدخلها غير مُوَفَّى. وخصَّ تعالى ذكر الأجور لشرفها وإشارةً إلى معرفته لمحمد ﷺ وأمته، ولا محالة أن المعنى: إن يوم القيامة تقع فيه الأجور وتوفية العقاب. و﴿زُحْـزِحَ﴾ معناه: أُبعد، والمكان الزحزح: البعيد. و﴿فازَ﴾ معناه: نجا من خطره وخوفه، و﴿الغُرُور﴾ الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل.

وعلى هذا فسر الآية جمهور من المفسرين: قال عبدالرحمن بن سابط: متاع الغرور كزاد الراعي يزوَّدُ الكفَّ من التمر أوالشيءَمن الدقيق يشربُ عليه اللبن، قال الطبري: ذهب إلى أن متاع الدنيا قليل لا يكفي من تمتع به ولا يبلّغه سفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والغرورفي هذاالمعنى مستعمل في كلام العرب، ومنه قولهم في المثل: «عَشِّ ولا تغترَّ»(١)، أي: لا تجتزئ بما لا يكفيك.

(١) هذا مثل يضرب للاحتياط؛ والأخذ بالثقة في الأمور، وكأنما يقال للراعي: عش إبلك من =

وقال عكرمة: (مَتاعُ الغُرورِ): القوارير، أي: لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الحياة الدنيا كله.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

وهذا تشبيه من عكرمة.

وقرأ عبدالله بن عمير[1] ﴿الغَرور﴾ بفتح الغين، وقرأ أبو حيوة والأعمش: ﴿ذائقةٌ﴾، بالتنوين ﴿الموتَ﴾ بالنصب، وقال النبي ﷺ: (لموضعُ سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها)[2] ثم تلا هذه الآية؟

قوله عز وجل:

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

=هذا العشب الحاضر ولا تغترَّ بالغائب فيفوتك، (جمهرة العسكري ٢: ٤٦، والميداني ١: ٣١١، والمستقصى: ٢٤٢، واللسان: عشا).

(١) الذي في القرطبي، والبحر، والنهاية لابن الجزري هو عبدالله بن عُمَر، ولعله هو عبدالله بن عمر بن أحمد بن شوْذَب الواسطي مقرىء متصدر. «النهاية لابن الجزري ٤٣٧/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيْبة، وهناد، وعبدبن حميد، والترمذي وصححه، وابن حبان، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه - عن أبي هريرة، كما أخرجه ابن مردويه - عن سهل بن سعد مرفوعاً. «فتح القدير للشوكاني ٢: ٣٧٤». و«الدر المنثور ٢: ١٠٧». وذكر له ابن كثير عدة طرق غير هذه ١: ٤٣٥.

هذا الخطاب للنبي عليه السلام وأمته، والمعنى: لتُختبرن ولتُمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإنفاق في سبيل الله، وفي سائر تكاليف الشرع، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض، وفقد الأحبة بالموت.

واختلف المفسرون في سبب قوله تعالى: ﴿ولَتَسْمَعنَّ مِنَ الَّذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكم﴾ ـ فقال عكرمة وغيره: السبب في ذلك أقوال فنحاص: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقوله: ﴿يدُ اللَّهِ مَغْلولَةٌ﴾ إلى غير ذلك. وقال الزهري وغيره: نزلت هذه الآية بسبب كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويشبب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله ﷺ من قتله القتلة المشهورة في السير(١).

والأذى: اسم جامع في معنى الضرر، وهو هنا يشمل أقوالهم فيما يخص النبي ﷺ وأصحابه من سبهم وأقوالهم في جهة الله تعالى وأنبيائه. وندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي من أشدها وأحسنها. والعزمُ: إمضاء الأمرِ المروَّى المنقّح، وليس ركوبُ الأمر دون روية عزماً إلا على مقطع

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الزهري، كما أخرجه ابن المنذر من طريق الزهري ـ عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٥) ورواه عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك. (لباب النقول في أسباب النزول: ١٧، وابن جرير في تفسيره، وسيرة ابن هشام ٣: ٥٤).

المشيحين[١] من فتّاك العرب كما قال[٢]:

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمَه ونكَّب عن ذكر الحوادث جانبا

وقال النقاش: العزم والحزم بمعنى واحد، الحاء مبدلة من العين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأ. والحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَشاوِرْهُمْ في الأمرِ، فإذا عزمتَ﴾[٣] فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم، والعرب تقول: قد أحزِم ولو أعزِم[٤].

وقوله تعالى: ﴿وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذين أُوتوا الكتابَ﴾ . . . الآية، توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم. والعامل في ﴿إذْ﴾ فعل مقدر تقديره: اذكر، وأخذ هذا الميثاق هو على ألسنة الأنبياء أمة بعد أمة. وقال ابن عباس والسدي

---

(١) قال ابن الأثير: المشيح: الحذر والجاد في الأمر، وقيل: المقبل إليك المانع لما وراءَ ظهره، فيجوز أن يكون أشاح أحد هذه المعاني ٢: ٢٦٦.

(٢) البيت لسعد بن ناشب المازني. (خزانة الأدب والكامل للمبرد).

(٣) من الآية (١٥٩) من سورة الشورى.

(٤) هذا مثل، معناه: إن عزمتُ الرأي فأمضيته فأنا حازم، وإن تركتُ الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعني حزمي (الميادني ٢: ٣٤).

وابن جريج: الآية في اليهود خاصة، أخذ الله عليهم الميثاق في أمر محمد فكتموه ونبذوه[١].

قال مسلم البطين[٢]: سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن تفسير هذه الآية فقام رجل إلى سعيد بن جبير فسأله فقال له: نزلت في يهود، أُخِذَ الميثاق عليهم في أمر محمد فكتموه. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيين لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ فيجيءُ قوله: ﴿فَنَبذُوه﴾ عائداً على الناس الذين بيَّن الأنبياءُ لهم. وقال قوم من المفسرين: الآية في اليهود والنصارى. وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال رسول الله ﷺ: (من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يومَ القيامة بلجام من نار)[٣] وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثاً،

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ من طريق علقمة، عن ابن عباس، كما أخرجه ابن جرير عن السدي. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٥. والدر المنثور ٢: ١٠٨. وابن جرير هنا وعند تفسير قوله: [إنَّ الذين يكتُمونَ ما أنْزلنا]، وقوله: [إنَّ الذين يكْتمونَ ما أنْزَل الله] بسورة البقرة).

(٢) هو مسلم بن عمران ،ويقال: ابن أبي عمران البطين، أبو عبدالله الكوفي، روى عن عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم، وروى عنه ابنه شبة بن مسلم، وسلمة بن كهيل، وأبو إسحق السبيعي، وثَّقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، والنسائي، وابن حبان (تهذيب التهذيب ١٠: ١٣٤) وقصة سؤال الحجاج أخرجها ابن جرير ٤: ٢٠٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والحاكم ـ عن أبي هريرة. (الجامع الصغير ٢: ٥٢٥).

ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذين يَكْتُمونَ ما أنزلَ الله من الكتابِ﴾[١].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس ولا يكْتُمونَه﴾ بالياء من أسفل فيهما، وقرأ الباقون عن حفص وعاصم بالتاء من فوق فيهما، وكلا القراءتين متجه، والضمير في الفعلين عائد على الكتاب. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَتُبيِّنونه﴾ دون النون الثقيلة، وقد لا تلزم هذه النون لامَ القسم، قاله سيبويه. والنبذ: الطرح. وقوله تعالى: ﴿وَراءَ ظُهورِكُم﴾ استعارة لما يبالغ في اطراحه، ومنه: ﴿واتَّخَذْتُموهُ وراءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[٢]، ومنه قول الفرزدق:

تَميمَ بنَ مرٍّ لا تكونَنَّ حاجتي بظهرٍ فلا يعيا عليَّ جوابها[٣]

ومنه بالمعنى قول النبي ﷺ: (لا تجعلوني كقدح الراكب)[٤] أراد

(١) أخرجه ابن جرير عند تفسير قوله: [إنَّ الذين يَكتمونَ ما أنْزَلْنا] ٢: ٥٣، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤: ١٢٢) وأخرجه البخاري، ومسلم بلفظ: (لولا آيتانِ).

(٢) من الآية (٩٢) من سورة (هود).

(٣) رواية البيت في ديوانه (١: ٩٥):

تَميمَ بنَ زيد لا تهونَنَّ حاجتي لديْكَ ولا يَعْيا عليَّ جوابُها

أي لا تجبني بجواب لا أدري ما هو، أي: لا تعتلَّ عليَّ. ورواه الأغاني: بظهر فلا يخفى عليَّ.

(٤) أخرجه رزين بن معاوية (ابن كثير ٣: ٥١٤)، وأخرجه الترمذي موقوفاً على عمر. (تيسير الوصول إلى جامع الأصول ٢: ٥٦) كما أخرجه البزار عن جابر. قال صاحب مجمع الزوائد (١٠: ١٥٥): وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

عليه السلام: لا تجعلوا ذكري وطاعتي خلف أظهركم، وهو موضع القدح، ومنه قول حسان:

. . . . كما نيط خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفردُ(١)

والتشبيه بالقدح إنما هو في هيئته لا في معناه، لأن الراكب يحتاجه، ومحله من محلات الراكب جليل. والثمن القليل: هو مكسب الدنيا. وباقي الآية بين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المعنيون ثم إن كلَّ كاتم من هذه الأمة يأخذُ بحظه من هذه المذمة ويتصف بها.

قوله عز وجل:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يفْرَحُون﴾ -

---

(١) البيت من قصيدة له يهجو بها أبا سفيان بن الحارث، وصدره:
وأنتَ زنيمٌ نيطَ في آلِ هاشمٍ . . . .
والزنيم: الدعيُّ الملحق بقوم. ونيط: عُلِّق. والقدحَ بالتحريك: آنية تَرْوي الرجلين (ديوان ص: ٨٩. ط. دار بيروت للطباعة والنشر).

فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وابن زيد وجماعة: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا خرج النبي ﷺ للغزو تخلفوا عنه، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبولَ ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين، لكن العذر حبسهم(١).

وقالت جماعة كثيرة من المفسرين: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحبار اليهود، ثم اختلفوا فيما هو الذي أتوه وكيف أحبوا المحمدة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه: أتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد، وفرحوا بذلك لدوام رياستهم الدنيوية، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم علماء بكتاب الله ومتقدم رسالاته(٢). وقال ابن عباس أيضاً والضحاك والسدي: أتوا أنهم تعاقدوا وتكاتبوا من كل قطر بالارتباط إلى تكذيب محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم أهل صلاة وصيام وعبادة، وقالوا هم ذلك عن

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد، كما أخرجه عبد بن حميد ـ عن زيد بن أسلم. (الدر المنثور. ٢ : ١٠٨. وفتح القدير للشوكاني ١ : ٣٧٥. وابن كثير ١ : ٤٣٦).
(٢) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم ـ من طريق عكرمة ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ : ١٠٩).

أنفسهم[١]. وقال مجاهد: فرحوا بإعجاب أتباعهم بتبديلهم تأويل التوراة، وأحبوا حمدهم إياهم على ذلك، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً بل الحق أبلج[٢].

وقال سعيد بن جبير: الآية في اليهود، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوءة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبون أن يحمدوا بذلك وهم ليسوا على طريقتهم. وقراءة سعيد بن جبير: ﴿أُوتوا﴾ بمعنى أعطوا بضم الهمزة والتاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال.

وقال ابن عباس أيضاً: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكتموه الحق وقالوا له غير ذلك، ففرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمدوا بما أجابوا، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته[٣].

وقال قتادة: إن الآية في يهود خيبر، نافقوا على النبي ﷺ والمؤمنين مرة، وقالوا: نحن معكم وعلى رأيكم ورده لكم، وهم

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن الضحاك، كما أخرجه ابن جرير عن السدي. (الدر المنثور ٢: ١٠٩).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن مجاهد. «الدر المنثور» ٢: ١٠٩. ومن أمثال العرب: «الحق أبلج، والباطل لجلج». الحق أبلج: واضح مشرق. والباطل لجلج: يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجاً، (الكامل للمبرد ١: ١٣. والأمثال للميداني ١: ٢٠٧).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن سعيد، كما أخرجه ابن جرير ـ عن سعيد أيضاً (الدر المنثور ٢: ١٠٩).

يعتقدون خلاف ذلك، فأحبوا الحمد على ما أظهروا وفرحوا بذلك[١].

وقال الزجاج: نزلت الآية في قوم من اليهود، دخلوا على النبي ﷺ وكلموه في أشياء ثم خرجوا، فقالوا لمن لقوا من المسلمين: إن النبي أخبرهم بأشياء قد عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وطمعوا بإسلامهم، وكانوا قد أبطنوا خلاف ما أظهروا للمسلمين وتمادوا على كفرهم، فنزلت الآية فيهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَتَوْا﴾ بمعنى فعلوا، كما تقول أتيتُ أمر كذا، وقرأ مروان بن الحكم وإبراهيم النخعي: ﴿آتوا﴾ بالمد، بمعنى: أعطَوا بفتح الهمزة والطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي قراءة تستقيم على بعض المعاني التي تقدمت.

وقرأ سعيد بن جبير وأبو عبدالرحمن السلمي: ﴿أُوتُوا﴾ بمعنى أُعطُوا، وقد تقدمت مع معناها. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿لا يَحْسِبَنَّ الذين يَفْرحون﴾ ﴿فلا يَحْسِبُنّهم﴾ بالياء من تحت فيهما وبكسر السين وبرفع الباء في (يحسبُنّهم) قال أبو علي: ﴿الَّذين﴾ رفع بأنه

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي، من طريق حميد بن عبدالرحمن: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، الحديث بطوله في «الدر المنثور ٢: ١٠٨». و«فتح القدير ١: ٢٨٥».

فاعل (يحسب)، ولم تقع (يحسبن) على شيء، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر:

وما خلتُ أبقى بيننا من مودَّةٍ عراض المَذَاكي المُسْنِفَات القَلاَئِصا[1]

وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيته يقول ذاك إلا زيد، وما ظننته يقول ذلك إلا زيد،فتتجه القراءة بكون قوله: ﴿فَلا يَحْسَبَنَّهم﴾ بدلاً من الأول، وقد عدي إلى مفعوليه وهما: الضمير وقوله: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ فاستغنى بذلك عن تعدية الأول إليهما كما استغنى في قول الشاعر[2]:

بأيِّ كتابٍ أو بأية سنةٍ ترى حبهم عاراً علي وتحسب؟

فاستغني بتعدية أحد الفعلين عن تعدية الآخر. والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَحْسَبَنَّهم﴾ زائدة، ولذلك حسن البدل، إذ لا يتمكن أن تكون فاء عطف ولا فاء جزاء، فلم يبق إلا أن تكون زائدة لا يقبح وجودها بين البدل والمبدل منه، وقوله على هذه القراءة: ﴿فلا يَحْسَبَنَّهم﴾ فيه تعدى فعلُ الفاعل إلى ضمير نفسه، نحو: ظننتني أخاه، ورأيتني الليلة عند الكعبة، ووجدتني وجعتُ من

---

(١) البيت للأعشى من قصيدة له يهجو بها علقمة. والمذاكي: الجياد. والمسنف: المتقدم الذي تكفه بالزمام، والقلائص: النوق. «ديوانه: ١٠١».
(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي من قصيدة له يمدح بها أهل البيت. «خزانة الأدب».

الإصغاء[1]، وذلك أن هذه الأفعال وما كان في معناها لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت إنّ وأخواتها، فكما تقول: إني ذاهب، فكذلك تقول: ظننتني ذاهباً، ولو قلت: أظن نفسي أفعل كذا لم يحسن كما يحسن: أظنني فاعلاً.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾ بالياء من تحت وفتح الباء، وكسر نافع السين وفتحها ابن عامر ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بالتاء من فوق وفتح الباء، والمفعولان اللذان يقتضيهما قوله: ﴿لا يَحْسَبَنَّ الَّذين﴾ محذوفان لدلالة ما ذكر بعده، والكلام في ذلك كما تقدم في قراءة ابن كثير، إلا أنه لا يجوز في هذا البدل الذي ذكر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو لاختلاف الفعلين واختلاف فعليهما. وقرأ حمزة: ﴿لا تَحْسِبن﴾ بالتاء من فوق وكسر السين، ﴿فلا تَحْسِبَنهم﴾ بالتاء من فوق وكسر السين وفتح الباء، ﴿فالَّذين﴾ على هذه القراءة ـ مفعول أول لـ ﴿تَحْسِبَنَّ﴾، والمفعول الثاني محذوف لدلالة ما يجيء بعد عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين. وحسن تكرار الفعل في قوله: ﴿فلا تَحْسِبَنَّهم﴾ لطول الكلام، وهي عادة العرب وذلك تقريب لذهن المخاطب. وقرأ الضحاك بن مزاحم: ﴿فلا تَحْسَبُنَّهم﴾ بالتاء من فوق وفتح السين وضم الباء.

---

(١) هو من قول الصمة القشيري:

تلفت نحو الحيّ حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

والمفازة: مَفْعَلةٌ من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاؤل، قاله الأصمعي، وقيل: لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات، قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قولَ الأصمعي فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز، وقال الأصمعي: سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، قال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه.

وبعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذاباً، ثم استفتح القول بذكر قدرة الله تعالى وملكه فقال: ﴿ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمواتِ والْأَرضِ﴾ . . . الآية، قال بعض المفسرين: الآية ردّ على الذين قالوا: : ﴿إِنَّ اللَّهُ فقيرٌ ونحنُ أَغنياءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿واللَّهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قديرٌ﴾، قال القاضي ابن الطيب وغيره: ظاهره العموم ومعناه الخصوص؛ لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات، و (شيء) هو الموجود في مقتضى كلام العرب.

ثم دل تعالى على مواضع النظر والعبرة، حيث يقع الاستدلال على الصانع بوجود السموات والأرضين، والمخلوقات دال على العلم، ومحال أن يكون موجود عالم مريد غير حي، فثبت بالنظر في هذه الآية عظم الصفات[1].

(١) كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآيات العشر من آخر (آل عمران) إذا قام يتهجد في الليل، =

﴿واخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ﴾: هو تعاقبهما، إذ جعلهما الله خلفة، ويدخل تحت لفظة الاختلاف: كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنور والظلام. والآيات: العلامات. و﴿الألْباب﴾ في هذه الآية: هي ألباب التكليف لا ألباب التجربة، لأن كل من له علوم ضرورية يدركها فإنه يعلم ضرورة ما قلناه من صفات الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

﴿الَّذينَ﴾ في موضع خفض صفة ﴿لأُولي الألْبَاب﴾، وهذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصر القَلب اللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة[(١)]. وابن آدم منتقل في هذه الثلاث الهيئات لا يخلو في

=وهي قوله تعالى [إنَّ في خلْق السمواتِ والأرض]. فقد روى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة ـ عن ابن عباس قال: (بتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء فقال: [إنَّ في خلق السمواتِ والأرض واختلافِ اللَّيل والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب] ـ ثم قام فتوضأ واستنَّ فصلَّ إحدى عشرة ركعة، ثم أذَّن بلال فصلَّ ركعتين، ثم خرج فصلَّ بالناس الصبح).

(١) منها ما خرج في الصحيحين، ومسند الإمام أحمد والترمذي، وقد بوب لها المنذري في «الترغيب والترهيب»، والنووي في «الأذكار»، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ومنها ما ذكره في «تيسير الوصول إلى جامع الأصول».

غالب أمره منها فكأنها تحصر زمنه، وكذلك جرت عائشة رضي الله عنها إلى حصر الزمن في قولها: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه(١)، فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك.

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿الَّذينَ يَذْكرونَ اللَّهَ﴾ إنما هو عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم، قال بعضهم: وهي كقوله تعالى: ﴿فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فاذْكُروا اللَّهَ﴾(٢)... الآية، هذا على تأويل من تأول هنالك: ﴿قَضَيْتُم﴾ بمعنى: أَدَّيْتُم، لأن بعض الناس يقول: ﴿قَضَيْتم﴾ هنالك بمعنى: فرغتم منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإذا كانت هذه الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، ظاهر المدونة متربعاً. وروي عن مالك وبعض أصحابه أنه يصلي كما يجلس بين السجدتين، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير، هذا مذهب المدونة. وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم: يصلي على ظهره فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن، ثم على الأيسر. وفي كتاب ابن المواز: يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر. وقال سحنون:

---

(١) أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها. «الجامع الصغير ٣٢٣/٢».

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة النساء.

يصلي على الأيمن كما يجعل في لحده، وإلا فعلى ظهره، وإلا فعلى الأيسر.

وحسن عطف قوله: ﴿وعَلَى جُنوبِهم﴾ على قوله: ﴿قِياماً وقُعوداً﴾ لأنه في معنى مضطجعين. ثم عطف على هذه العبادة التي هي ذكر الله باللسان أو الصلاة فرضها ومندوبها بعبادة أخرى عظيمة، وهي الفكرة في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبر التي بثَّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أَنه واحد[1]

ومر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره)[2] وهذا هو قصد الآية ﴿وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْق السَّمواتِ والأَرْضِ﴾.وقد قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى ليس كمثله شيء،وإنما التفكير وانبساط الذهن في المخلوقات، وفي مخاوف الآخرة. قال رسول الله ﷺ: (لا عبادة كتفكر)[3] وقال الحسن بن أبي الحسن، الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته.

(١) البيت لأبي العتاهية، ديوانه (تحقيق د. شكري فيصل): ١٠٤.
(٢) أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس (الجامع الصغير ١: ٤٥١).
(٣) أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من رواية أبي رجاءٍ محمد بن عبد الله الخرطي عن عليٍّ أنه قال لابنه الحسن: يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا مال) الحديث بطوله. تفسير «الكشاف» ١: ٤٥٤.

وقال ابن عباس وأبو الدرداء: «فكرة ساعة خير من قيام ليلة»[١]. وقال سري السقطي[٢]. «فكرة ساعة خير من عبادة سنة»[٣]، ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتجعلها في الآخرة. وأخذ أبو سليمان الداراني[٤] قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل إصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت إصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله جل وتعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ في أَعْناقِهِم والسَّلاسِلُ﴾[٥] ففكرت في حالي، وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها[٦]. وليس علماء الأمة

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس، وأخرج ابن سعد عن أبي الدرداءِ مثله، كما أخرج الديلمي عن أنس مرفوعا مثله. «الدر المنثور» ٢: ١١١. و «روح المعاني» ٤: ١٥٩.

(٢) هو أبو الحسن بن المغلس السقطي، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة، كان أوحد أهل زمانه في الورع، وهو خال أبي القاسم الجُنيد وأستاذه، توفي سنة: ٢٥٧. «الوفيات» لابن خلكان ١: ٢٥٠. و «حلية الأولياءِ» ١٠: ١١٦.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة بلفظ: (ستين سنة). وأخرجه الديلمي مرفوعاً عن أنس بلفظ: (تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خيرٌ من عبادة ثمانين سنة). «الدر المنثور» ٢: ١١١.

(٤) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنْسي الداراني الزاهد المشهور، أحد رجال الطريقة، ومن كبار الصوفية وأهل الجدِّ في المجاهدات النفسية، من غرر كلامه: «من أحسن في نهاره كفي في ليله». توفي سنة: ٢٠٥ هـ «حلية الأولياءِ» ٩: ٢٥٤. و «الوفيات» لابن خلكان ١: ٣٤٧.

(٥) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

(٦) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً] في سورة البقرة.

الذين هم الحجة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسول الله ﷺ لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا، لكنه يحسن ألا تخلو البلاد من مثل هذا.

وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائتاً في مسجد الإقدام بمصر، فصليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجىً بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة فصلى مع الناس، فاستعظمتُ جرأته في الصلاةِ بغير وضوء، فلما فرغتِ الصلاةُ خرج فتبعته لأَعظه، فلما دنوت منه سمعته ينشد:

منسحق الجسم غائب حاضرْ منتبهُ القلب صامتٌ ذاكرْ
منقبضٌ في الغيوب منبسطٌ كذاك من كان عارفاً ذاكر
يبيتُ في ليله أخا فكر فهو مدى الليل قائمٌ ساهر

قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة وانصرفت عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنا﴾ معناه: يقولون: ربنا على النداء.﴿ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً﴾، يريد لغير غاية منصوبة بل خلقته وخلقت البشر لينظر فيه فَتُوَحِّدَ وتعبد، فمن فعل ذلك نَعَّمته ومن ضلَّ عن ذلك عذَّبته لكفره وقولِهِ عليك ما لا يليق بك. ولهذا المعنى الذي تعطيه قوةُ اللفظ حسُن قولهم: ﴿سُبْحانَكَ﴾، أي تنزيهاً لك عما يقول المبطلون. وحسُن قولهم: ﴿فَقِنا عذابَ النّارِ﴾ إذ نحن المسبحون المنزهون لك الموحدون.

وقولهم: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه) استجارة واستعاذة، أي: فلا تفعل بنا ذلك، ولا تجعلنا ممن يعمل عملها. والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، خَزِيَ الرجل يخزى خزياً إذا افتضح، وخزاية إذا استحيى، الفعل واحد والمصدر مختلف.

وقال أنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وابن جريج وغيرهم: وهذه إشارة إلى من يخلد في النار[1]، ومن يخرج منها بالشفاعة والإيمان فليس بمخزيٍّ. وقال جابر بن عبد الله وغيره: كل من دخل النار فهو مخزي وإن خرج منها، وإن في دون ذلك لخزيا[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أما إنه خزي دون خزي، وليس خزي من يخرج منها بفضيحة هادمة لقدره، وإنما الخزي التام للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصار﴾ هو من قول الداعين، وبذلك يتسق وصف الآية.

قوله عز وجل:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن أنس. (فتح القدير للشوكاني ١ : ٣٧٨. والدر المنثور للسيوطي ٢ : ١١١).

(٢) أخرجه ابن جرير، والحاكم ـ عن عمرو بن دينار ـ عن جابر بلفظ: (وما أخزاه حين أحرقه بالنار، وإن دون ذلك خزيا). (الدر المنثور ٢ : ١١١. وفتح القدير للشوكاني ١ : ٣٧٨).

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

هذه الآيات حكاية عن أولي الألباب أنهم يقولون: ربنا ربنا. قال أبو الدرداء: يرحم الله المؤمنين ما زالوا يقولون: ربنا ربنا حتى استجيب لهم(١).

واختلف المتأولون في المنادي ـ فقال ابن جريج وابن زيد وغيرهما: المنادي محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي كتاب الله وليس كلهم رأى النبي ﷺ وسمعه، ولما كانت ﴿يُنادي﴾ بمنزلة يدعو، حسن وصولها باللام بمعنى إلى الإيمان.

وقوله: ﴿أنْ آمِنوا﴾ ـ ﴿أنْ﴾ ـ مفسرة لا موضع لها من الإعراب. وغفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرر للتأكيد، ولأنها مناحٍ من الستر، وإزالة حكم الذنب بعد حصوله، و﴿الأَبْرار﴾ جمع بَرّ، أصله: برر على وزن فعل، أدغمت الراء في الراء، وقيل: هو جمع بارّ كصاحب وأصحاب، والمعنى: توفنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم.

وقوله: ﴿ربَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ﴾ معناه: على ألسنةِ

(١) الفعل (سمع) إن دخل على مسموع تعدى لواحد، نحو: سمعت كلام زيد، وإن دخل على ذات وجاء بعدها فعل أو اسم في معناها نحو: سمعت زيداً يتكلم، وسمعت زيداً يقول كذا ففي هذه المسألة خلاف ـ ذهب بعضهم إلى أنه إذا كان قبل الفعل نكرة كان صفة لها نحو[سمعنا مناديا ينادي للإيمان]، وإن كان ما قبله معرفة كان الفعل حالاً ـ وذهب بعضهم إلى أن الفعل أو الاسم في موضع المفعول الثاني لسمع ـ وجعل (سمع) مما يتعدى إلى مفعول واحد إن دخل على مسموع، ويتعدى إلى اثنين إن دخل على ذات ـ وهذا هو مذهب الفارسي.

رسلك، وقرأ الأعمش: ﴿رُسْلك﴾ بسكون السين. وطلبوا من الله تعالى إنجاز الوعد، وهو تعالى من لا يجوز عليه خلفه من حيث في طلبه الرغبة أن يكونوا ممن يستحقه، فالطِّلْبَة والتخوف إنما هو في جهتهم لا في جهة الله تعالى، لأن هذا الدعاء إنما هو في الدنيا، فمعنى قول المرء: اللهم أنجزْ لي وعدك، إنما معناه: اجعلني ممن يستحقُّ إنجازَ الوعد، وقيل: معنى دعائهم الاستعجال مع ثقتهم بأن الوعد منجز. وقال الطبري وغيره: معنى الآية ما وعدتنا على ألسنة رسلك من النصر على الأعداء فكأن الدعوة إنما هي في حكم الدنيا.

وقولهم: ﴿ولا تُخْزِنَا يومَ القيامةِ إنّك لا تُخلفُ الميعادَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزي اللّهُ النبيَّ والّذين آمَنوا مَعَه﴾(١)، فهذا وعده تعالى وهو دال على ان الخزي إنما هو مع الخلود(٢).

قوله عز وجل:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ

(١) من الآية (٨) من سورة التحريم.

(٢) قال أبو حيان: «وانظر إلى حسن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكرين ـ فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة: (ربنا) فهي إشارة إلى أنه أصلحهم وهيأهم للعبادة ـ وقد أخبروا أولاً بنتيجة الفكر [ما خلقْتَ هذا باطلاً] ـ ثم نزهوه، ثم سألوه أن يقيهم النار ـ ثم ذكروا ما أنتجه لهم الفكر من إجابة الداعي للإيمان لأن ذلك مترتب على أنه سبحانه لم يخلق ذلك باطلا، ثم سألوه المغفرة والوفاة على الإيمان، ثم سألوه الجنة، وألا يفضحهم يوم القيامة ـ وتكرر لفظ [ربنا] خمس مرات للاستعطاف ـ وفي التكرار دليل على جواز الإلحاح في المسألة من الله]. بتصرف.

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

﴿اسْتَجاب﴾ استفعل بمعنى أجاب، فليس استفعل على بابه من طلب الشيء بل هو كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيبُ إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب(١)

أي لم يجبه. وقوله: ﴿أَنِّي﴾ يجوز أن تكون «أن» مفسرة، ويمكن أن تكون بمعنى (أيْ)، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿إني﴾ بكسر الهمزة. وهذه آية وعدٍ من الله تعالى، أي: هذا فعله مع الذين يتصفون بما ذكر. وروي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى الرجالَ في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت الآية(٢)، ونزلت آيات في معناها فيها ذكر النساء.

وقوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾ تبيين لجنس العامل، وقال قوم: ﴿مِنْ﴾ زائدة لتقدم النفي من الكلام(٣).

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي يَرْثي أخاه هَرِماً أو شبيباً، ويكنى أبا لمغوار. والداعي هنا: السائل. ويجيب: يرد الجواب. واستجاب: بمعنى أجاب. والمعنى: ربَّ داعٍ دعا: هل من أحد يمنح المستمنحين؟ فلم يجبه أحد. (خزانة الأدب ٤ : ٣٨٥).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، والترمذي، وابن أبي حاتم، والحاكم. وصححه ـ عن أمِّ سلمة. كما أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني. (الشوكاني ١ : ٣٧٩). و «الدر المنثور» ٢ : ١١٢. و «ابن كثير».

(٣) وقيل (مِن) في موضع الحال من الضمير الذي في العامل في (منكم) ـ أي: عامل كائن منكم كائنا من ذكر أو أنثى. وقال أبو البقاء: [من ذكر أو أنثى] بدل من [منكُمْ] بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، فيكون قد أعاد العامل وهو حرف الجرِّ، ويكون بدلا تفصيليا من مخاطب ـ ويرد على أنه تفصيلي أنه عطف بأوْ ـ والبدل التفصيلي لا يكون إلا بالواو كقول الشاعر:

وكنتُ كذي رجلين رجْلٍ صحيحةٍ ورجْلٍ رمى فيها الزَّمانُ فشلَّتِ

وقوله تعالى: ﴿بعْضُكُم مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني في الأجر وتقبل العمل، أي: أن الرجال والنساء في ذلك على حد واحد. وبيَّن تعالى حالَ المهاجرين، ثم الآية بعد تنسحب على كل من أُوذيَ في الله تعالى، وهاجر أيضاً إلى الله تعالى، وإن كان اسم الهجرة وفضلها الخاص بها قد انقطع بعد الفتح فالمعنى باق إلى يوم القيامة، وذلك أن الذي يهجر وطنه وقرابته في الله كأن الوطن والقرابة يهجرونه أيضاً فهي مهاجرة.

وقوله تعالى: ﴿وأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ عبارة إلزام ذنبٍ للكفار، وذلك أن المهاجرين إنما أخرجهم سوءُ العشرة وقبيحُ الأفعال فخرجوا باختيارهم، فإذا جاء الكلام في مضمار إلزام الذنب للكفار قيل: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِم﴾ ﴿وإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[1] إلى غير ذلك من الأمثلة. وإذا جاء الكلام في مضمار الفخر والقوة على الأعداء تمسك بالوجه الآخر من أنهم خرجوا برأيهم، فمن ذلك إنكار النبي ﷺ على أبي سفيان بن الحارث حين أنشده:

. . . . وردَّني إلى اللّهِ مَن طَرَّدتُ كلَّ مُطَرَّدِ[2]

---

(١) من الآية (٢١٧) من سورة البقرة.

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة لأبي سفيان بن الحارث يعتذر للنبي ﷺ مما كان مضى منه، وصدره:

هَداني هادٍ غير نفْسي وردَّني إلى الله مَنْ طَرَّدْتُ كلَّ مطَّرد

قال معلق السيرة: الذي في سائر الأصول هو: ودَلَّني إلى الله. قال ابن هشام: ويروى: ودلني على الحق من طردت كل مطرد (القصة في سيرة ابن هشام ٤: ٤٣).

فقال له رسول الله ﷺ: (أنت طرَّدتني كلَّ مطرد)؟ إنكاراً عليه.
ومن ذلك قول كعب بن زهير:

في عصبةٍ مِن قريش قال قائلُهم ببطن مكةَ لما أُسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللقاءِ ولا مِيلٌ معازيلُ(١)

وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو: ﴿وقاتَلُوا وقُتِلوا﴾ بتخفيف التاء وضم القاف، ومعنى هذه القراءة بين، وقرأ ابن كثير: ﴿وقاتَلُوا وقُتِّلوا﴾ بتشديد التاء وهي في المعنى كالأولى في المبالغة في القتل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وقُتِلوا وقاتَلُوا﴾ يبدآن بالفعل المبني للمفعول به، وكذلك اختلافهم في سورة التوبة، غير أن ابن كثير وابن عامر يشدّدان في التوبة.

ومعنى قراءة حمزة هذه: ألَّا تعطي الواوَ رتبةً لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى، وليس كذلك العطف بالفاء، ويجوز أن يكون المعنى: وقُتلوا وقاتلَ باقيهم، فتشبه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنوا لِمَا أَصَابَهُم﴾ على تأويل من رأى أن القتل وقع بالربيين.

وقرأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ﴿وقَتَلوا﴾ بفتح القاف والتاء من غير ألف، ﴿وقُتِلوا﴾ بضم القاف وكسر التاء خفيفة، وهي قراءة

(١) الأنكاس: جمع نكس وهو الرذل المقصر عن غاية النجدة والكرم؛ الكشُف: جمع أكشف وهو من لا يحمي رأسه بالبيضة، والأميل: الذي لا سلاح معه، وكذلك المعزال والأعزل.

حسنة المعنى مستوفية للفضلين على الترتيب المتعارف. وقرأ محارب بن دثار: ﴿وقَتَلوا﴾ بفتح القاف ﴿وقاتَلُوا﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قُتِّلوا﴾ بضم القاف وشد التاء ﴿وقاتَلُوا﴾، وهذه يدخلها إما رفض رتبة الواو، وإما أنه قاتل من بقي. واللام في قوله: ﴿لأُكفِّرَنَّ﴾ لام القسم. و﴿ثواباً﴾ مصدر مؤكد مثل قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ و﴿كتَابَ اللَّهِ علَيْكُم﴾. وباقي الآية بين[1].

قوله عز وجل:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

نزلت ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ في هذه الآية منزلة: لا تظنّ أن حال الكفار حسنة فتهتمّ لذلك، وذلك أن المغتر فارحٌ بالشيء الذي يغترُّ به،

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط:
بدأ أولا بالخاص وهو الهجرة، وكانت تطلق على الهجرة إلى المدينة، وثنّى بما ينشأ عنه ما هو أعم من الهجرة وهو الإخراج من الديار، وأتى ثالثا بالأذاية في سبيل الله، وهي أعمّ من أن تكون بالإخراج أو بغيره ـ ثم ارتقى بعد هذه الأوصاف السيئة إلى رتبة الجهاد والمقاومة والاستشهاد في دين الله، وبهذا جمع الله لهم بين رتب هذه الأعمال ـ والظاهر الإخبار عمّن جمع هذه الأوصاف كلها بالخبر الذي جاء بعد ـ [لأكفرن عنهم سيئاتهم].. الخ.

فالكفار مغترون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخيرٍ لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت ﴿لا يَغُرَّنَّكَ﴾. ونظيره قول عمر لحفصة: «لا يغرنك أنْ كانت جارتك أوضأ منك وأحبَّ إلى رسول الله ﷺ[1]»، المعنى: لا تغتري بما يتمُّ لتلك من الإدلالِ فتقعي فيه فيطلقك النبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته[2]، وللكفار في ذلك حظ، أي: لا يغرنهم تقلبهم.

وقرأ ابن أبي إسحق[3] ويعقوب[4]: ﴿لا يَغُرَّنْك﴾ بسكون النون خفيفة، وكذلك ـ ﴿لا يُصدّنْك﴾ و ﴿لا يصُدّنْكم﴾ و ﴿لا يضُرَّنْكم﴾، وشبهه.

والتقلب: التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من طرق عن الزهري بسند عن ابن عباس. وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد، عن سعيد بن جبير، وعن ابن عباس. «ابن كثير» ٤ : ٣٨٨.

(٢) قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يغْتر الرسول ﷺ بذلك حتى ينهى عنه؟ ـ قلت: الخطاب له والمراد أمته. (وإلى هذا أشار ابن عطية). وقد يكون المراد التأكيد والتنبيه وإن كان معصوماً من الوقوع فيه، وذلك كقوله تعالى: [ولا تكُنْ من الكافرين]. [ولاَ تكونَنَّ من المشركينَ]، [وَلاَ تُطع المكذِّبين].

(٣) هو عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي البصري النحوي.

(٤) هو يعقوب بن إسحق بن زيد أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري أحد القراءِ العشرة، وإمام البصرة ومقرئها، كانت إليه رئاسة القراءة بعد أبي عمرو. توفي سنة: ٢٠٥. «الطبقات» لابن الجزري ٢ : ٣٨٦. و «النشر» ١ : ١٨٦. ط: مصطفى محمد بمصر.

الآمال. ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع، لأنه منقضٍ صائر إلى ذلٍّ وقلٍّ وعذاب.

وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: ﴿لَكِنَّ الَّذين﴾ بشد النون، وعلى أن (الذين) في موضوع نصب اسماً لـ(لكِنّ). و﴿نزلاً﴾: معناه تكرمة ونصبه على المصدر المؤكد. وقرأ الحسن ﴿نُزْلا﴾ ساكنة الزاي.

وقوله تعالى: ﴿وما عِنْدَ لله خيرٌ للأبرار﴾ يحتمل أن يريد: خير مما هؤلاء فيه من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خير مما هم فيه في الدنيا. وإلى هذا ذهب ابن مسعود، فإنه قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، أما الكافر فلئلا يزدادَ إثماً، وأما المؤمن فلأنَّ ما عند الله خير للأبرار[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[2]. فقال القاضي ابن الطيب: هذا إنما هو بالإضافة إلى ما يصير إليه كلّ واحدٍ منهما في الآخرة، فالدنيا على المؤمن المنعّم سجن بالإضافة إلى الجنة، والدنيا للكافر الفقير المضيّق عليه في حاله

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو بكر المروزي في الجنائز، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه ـ عن ابن مسعود بلفظ: (ما من نفس برة..)، وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي الدرداءِ بلفظ: (ما من مؤمن...)

(٢) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه ـعن أبي هريرة، والطبراني، والحاكمـ عن سليمان، والبزارـ عن ابن عمر (الجامع الصغير ١: ٥٧٦).

وصحته جنة بالإضافة إلى جهنم. وقيل: المعنى أنها سجن المؤمن لأنها موضع تعبه في الطاعات وصومه وقيامه، فهو فيها كالمعنت المنكل، وينتظر الثواب في الأخرى التي هي جنته؛ والدنيا جنة الكافر لأنها موضع ثوابه على ما عسى أن يعمل من خير، وليس ينتظر في الآخرة ثواباً، فهذه جنته، وهذا القول عندي كالتفسير والشرح للأول.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية ـ فقال جابر بن عبد الله وابن جريج وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحمة النجاشّي سلطان الحبشة[١]، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ، فلما مات عرف بذلك رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أخرجوا فصلوا على أخ لكم) فصلى عليه رسول الله ﷺ بالناس،

(١) هو أصحمة بن أبجر ملك الحبشة، هاجر إليه المسلمون في الهجرة الأولى، وكان من قصة إسلامه المشهورة أنه قال للقسيسين: أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، لولا ما أنا فيه من الملك أتيته، وكنت أحمل نعليه، وكان من أعلم أهل عصره بالإنجيل، يقرأ صفة رسول الله ﷺ ويبكي حتى يبل لحيته، توفي في السنة التاسعة من الهجرة في شهر رجب وصلى عليه ﷺ صلاة الغائب. «الشهاب على الشفاء» ٣: ٢٦٧.

فكبر أربعاً(١). وفي بعض الحديث: أنه كشف لرسول الله ﷺ عن نعشه في الساعة التي قرب منها للدفن، فكان يراه من موضعه بالمدينة، فلما صلى عليه النبي ﷺ قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط، فنزلت هذه الآية(٢). وكان أصحمة النجاشي نصرانياً، وأصحمة تفسيره بالعربية: عطية، قاله سفيان بن عيينة وغيره. وروي أن المنافقين قالوا بعد ذلك: فإنه لم يصل للقبلة فنزلت: ﴿ولِلهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فأَيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾(٣). وقال قوم: نزلت في عبد الله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد: نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب.

و ﴿خاشِعينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُؤْمن﴾، وورد ﴿خاشِعِينَ﴾ على المعنى في ﴿مِنْ﴾ لأنه جمعٌ، لا على لفظ ﴿مِنْ﴾ لأنه إفراد.

وقوله تعالى: ﴿لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ مدحٌ لهم وذمٌ لسائر كفار أهل الكتاب لتبديلهم وإيثارهم كسبَ الدنيا الذي هو ثَمَنٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز عن مسدد، والترمذي فيه عن أحمد بن منيع، والنسائي فيه عن قتيبة وسويد بن نصر، وابن ماجة عن أبي بكر بن شيبة، ومسلم فيه عن يحيى بن يحيى، وأبو داود فيه عن القعنبي، والنسائي فيه عن محمد بن رافع، ستتهم عن مالك «العيني ٨ : ١٩» و«تيسير الوصول ٢٩٠» أخرجه البزار، والطبراني، في «الأوسط» عن ابن عمر وعن أنس. والطبراني أيضا فيه عن أبي سعيد الخدري. كما أخرجه الطبراني في الكبير عن جرير، وعن ابن خارجة (مجمع الزوائد ٣: ٣٨-٣٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن حذيفة بن أسيد وإسناده حسن، (مجمع الزوائد ٣ : ٣٩).

(٣) من سورة البقرة: الآية (١١٥).

قليل على آخرتهم وعلى آيات الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الله سريعُ الحِسابِ﴾ قيل:معناه: سريع الإتيان بيوم القيامة، وهو يوم الحساب، فالحساب إذاً سريع،إذ كلُّ آتٍ قريب. وقال قوم: سريع الحساب أي: إحصاءُ أعمالِ العباد وأجورهم وآثامهم، إذ ذلك كله في عمله لا يحتاج فيه إلى عدّ وروية ونظر، كما يحتاج البشر.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه الوصاةِ التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة، فحضَّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، وأمر بالمصابرة فقيل: معناه: مصابرة الأعداء، قاله زيد بن أسلم. وقيل: معناه: مصابرة وعد الله في النصر، قاله محمد بن كعب القرظي، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: (انتظار الفرج بالصبر عبادة)(١)

وكذلك اختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَرابِطُوا﴾ـ فقال جمهور الأمة: معناه: رابطوا أعداءَكم الخيلَ، أي: ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم، ومنه قوله عز وجلّ: ﴿ومِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾(٢) . . . الآية.

(١) أخرجه القضاعي عن ابن عمر وعن ابن عباس، «وهو ضعيف»، «الجامع الصغير» ١: ٣٦٦.

(٢) من الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة[١]، وقد كتب إليه يذكر جموع الروم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن شدةٌ، جعل الله بعدها فرجاً، ولن يغلبَ عسرٌ يسرين[٢]، وإن الله تعالى يقول في كتابه، ﴿ يأَيُّهــا الَّذين آمَنوا اصْبِروا وصابِروا وَرابِطوا﴾. . . الآية.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن[٣]: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه، واحتج بحديث علي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله وأبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أدلكم على ما يحطّ الله به الخطايا ويرفعُ به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد،

---

(١) هو أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، مشهور بكنيته، أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وما بعدها، أرسله ﷺ مع وفد اليمن ليعلمهم دينهم، وكان فتح أكثر الشام على يده، آخى ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، وكان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وقال فيه: (لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة). توفي سنة: ١٨. (الإصابة ٢:٢٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه عن الحسن مرسلاً، وهو حسن، (الجامع الصغير ٢: ٣٦٤).

(٣) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني الحافظ، اسمه كنيته، وقيل: اسمه عبد الله، من كبار أئمة التابعين، غزير العلم، ثقة، كان يتفقه ويناظر ابن عباس ويراجعه، روى عن أبيه يسيراً وعن عثمان، وأبي قتادة، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم، وروى عنه سالم أبو النضر، وأبو الزناد، والزهري، ويحيى بن سعيد، وغيرهم، توفي سنة: ٩٤، وقيل: ١٠٤

وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمّي كلّ ملازم لثغرٍ من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي ﷺ: (فذلكم الرباط)، إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله: (ليس الشديد بالصُّرعة)[٢] وكقوله: (ليس المسكين بهذا الطواف)[٣] إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يشخص إلى ثغر من

---

(١) أخرجه ابن المبارك، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق داود قال: قال أبو سلمة. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي أيوب وعن أبي سلمة. وأخرجه ابن جرير وابن حبان عن جابر. وأخرجه ابن جرير كذلك عن عليٍّ. وأخرجه مالك والشافعي وعبد الرزاق وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة، (الدر المنثور ٢ : ١١٤. وابن كثير ١ : ٤٤٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة، وهو صحيح. (الجامع الصغير ٢ : ٣٨٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، وهو صحيح، (الجامع الصغير ٢ : ٣٨٩).

الثغور ليرابط مدةً ما، قاله ابن المواز ورواه. فأما سكان الثغور دائماً بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماةً فليسوا بمرابطين[1].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ ترجّ في حقِّ البشر.

كمل تفسير سورة آل عمران
والحمد لله على ذلك كثيراً

(١) وردت أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ في فضل المرابطة في ثغور المسلمين، وحمايتها من الكفار- فقد روى البخاري (٦٣/٦) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها). وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: (كل ميِّت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر). ورواه أبو داود والترمذي- وقال الترمذي: حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

هذه السورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة[1] وهي قوله: ﴿إنَّ الله يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أهْلِها﴾ قال النقاش: وقيل: نزلت السورة عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿يأَيُّها النَّاسُ﴾ حيث وقع إنما هو مكي، فيشبه أن يكون صدر هذه السورة مكياً، وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدني وإن نزل في مكة أو في سفر من أسفار النبي عليه السلام، وقال النحاس: هذه السورة مكية.

(١) عثمان بن طلحة: هاجر في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد، وشهد فتح مكة، ودفع إليه الرسول مفاتيح الكعبة، وكانت وفاته في أول خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ (الاستيعاب: ١٠٣٤).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف أن فيها ما نزل بالمدينة، وفي البخاري[١]: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتيكم في الكَلَالَةِ﴾، ذكرها في تفسير سورة «براءة» من رواية البراء بن عازب. وفي البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعني قد بنى بها.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

﴿يا﴾ حرف نداء، و ﴿أيْ﴾ منادى مفرد، و﴿هَا﴾ تنبيه، و﴿النَّاسُ﴾ نعت لأيّ، أَوْ صلة على مذهب أبي الحسن الأخفش. والرَّبُّ: المالك. وفي الآية تنبيه على الصانع وعلى افتتاح الوجود، وفيها حض على التواصل لحرمة هذا النسب وإن بعد، وقال: (واحِدَةٍ) ـعلى تأنيث لفظ النفس، وهذا كقول الشاعر:

أبوك خليفةٌ ولدته أخرى   وأنت خليفةٌ ذاك الكمالُ[٢]

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مِنْ نَفْس ٍ واحِدٍ﴾ بغير هاء، وهذا على مراعاة

(١) انظر إرشاد الساري ٧: ١٤١

(٢) ـ راجع صفحة (٩٦) من هذا الجزء.

المعنى، إذ المراد بالنفس: آدم ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

والخلق في الآية: بمعنى الاختراع، ويعني بقوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء، والزوج في كلام العرب: امرأة الرجل، ويقال زوجة، ومنه بيت أبي فراس[(١)]:

وإنَّ الـذي يَسْعى لِيُفْسِـد زوجتي

كساعٍ إلى أُسْدِ الشرى يَسْتَبيلها

وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم وحشاً في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه القُصَيْرى من شماله، وقيل: من يمينه فخلق منه حواء، ويعضد هذا القول الحديث الصحيح في قوله عليه السلام: (إن المرأة خلقت من ضلع، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها)[(٢)] وقال بعضهم: معنى ﴿مِنْها﴾: مِنْ جنسها، واللفظ يتناول المعنيين، أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعه، ونفسها من جنس نفسه.

---

(١) أبو فراس كنية الفرزدق الشاعر، والبيت في ديوانه (٢: ٦١ط. صادر، بيروت)، من قصيدة في شأن زواجه بالنوار واستعدائها عليه عبد الله بن الزبير ليطلقها، وفي البيت شاهد على استعمال «زوجة»، وكان الأصمعي يخطىء ذلك، فإذا احتج عليه ببيت ذي الرمة «أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة» ردّ قائلاً: إن ذا الرمة قد أكل الملح والباقل في حوانيت البصرة حتى بشم، كناية عن فساد لغته بتردده إلى الحاضرة.

(٢) أخرجه البخاري (في باب النكاح)، ومسلم (في الرضاع)، وانظر مسند أحمد ٥: ١٥١، ٢: ٤٢٨، ٤٤٩.

﴿وَبَثَّ﴾ معناه: نشر، كقوله تعالى: ﴿كالفَراشِ المَبْثوثِ﴾[1] أي: المنتشر.

وحصره ذريتها إلى نوعين: الرجال والنساء مقتض أن الخنثى ليس بنوع، وأنه وإن فرضناه مشكل الظاهر عندنا، فله حقيقة ترده إلى أحد هذين النوعين. وفي تكرار الأمر بالاتقاء تأكيد وتنبيه لنفوس المأمورين.

و﴿الَّذي﴾ في موضع نصب على النعت، و﴿تسَّاءلون﴾ معناه: تتعاطفون به، فيقول أحدكم: أسألك بالله أن تفعل كذا، وما أشبهه؛ وقالت طائفة: معناه: تساءلون به حقوقكم وتجعلونه مقطعاً لها، وأصله: تتساءلون، فأبدلت التاء الثانية سيناً وأدغمت في السين، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وابن عمرو، بخلاف عنه. وقرأ الباقون: ﴿تَسَاءلون﴾ بسين مخففة، وذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفاً، فهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى لاجتماع حروف متقاربة. قال أبو عليّ: وإذا اجتمعت المتقاربة خففت بالحذف والإدغام والإبدال كما قالوا: طَسْتٌ، فأبدلوا من السين الواحدة تاء، إذ الأصلُ طس، قال العجاج[2]:

لَوْ عَرَضَتْ لأَيْبُلِيٍّ قَسِّ أشعثَ في هيكلِهِ مُندسِّ
حنَّ إليها كحنين الطَّس

(١) من الآية (٤) من سورة القارعة. ومنه قوله تعالى: ﴿وزرابيُّ مبثوثة﴾.
(٢) ليس الرجز في ديوانه؛ ونسبه له في البحر المحيط (٣:١٥٦)، وورد في اللسان (طسس) لِأعرابي فصيح، والأيبلي: الراهب، والطست: فارسي الأصل فلما عربته العرب جعلته طساً.

وقرأ ابن مسعود: ﴿تَسَلُون﴾ خفيفة بغير ألف، ﴿والأَرْحامَ﴾ نصب على العطف على موضع ﴿به﴾ لأنَّ موضعه نصب، والأظهر أنه نُصِبَ بإضمار فعلٍ تقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهذه قراءة السبعة إلا حمزة، وعليها فسَّر ابن عباس وغيره. وقرأ عبد الله ابن يزيد ﴿والأرحامُ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر مقدر، تقديره: والأرحامُ أهل أن توصل، وقرأ حمزة وجماعة من العلماء: ﴿والأرحامِ﴾ بالخفض عطفاً على الضمير، والمعنى عندهم: إنها يتساءل بها كما يقول الرجل: أسألك بالله وبالرحم، هكذا فسرها الحسن وإبراهيم النخعي ومجاهد. وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطفَ ظاهرٌ على مضمر مخفوض، قال الزجاج عن المازني: لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحلُّ كلٌّ منهما محلَّ صاحبه، فكما لا يجوز: مررت بزيدٍوك، فكذلك لا يجوز مرتت بكَ وزيدٍ. وأما سيبويه فهي عنده قبيحة لا تجوز إلا في الشعر، كما قال:

فاليومَ قد بتَّ تهجونا وتشتمنا
فاذهب فما بك والأيام من عجب[1]

---

(١) هو شاهد على أن حرف الجرّ قد يترك ضرورة عند البصريين، أي: ما بك وبالأيام عجب، وهو من شواهد سيبويه ١: ٣٩٢، وانظر الخزانة ٢: ٣٣٨، وتفسير القرطبي ٥: ٣، والبحر المحيط ٣: ١٥٨.

وكما قال:

نُعلِّقُ في مثلِ السواري سيوفَنا ومابينها والكعبِ غَوْطٌ نفانِفُ(١)

واستسهلها بعض النحويين، قال أبو علي: ذلك ضعيف في القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المضمر المخفوض لا ينفصل فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، ويردُّ عندي هذه القراءة من المعنى وجهان: أحدهما أن ذكر (الأرْحامِ) فيما يتساءل به لا معنى له في الحض على تقوى الله، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفرق في معنى الكلام وغضٌ من فصاحته، وإنما الفصاحة في أن يكون لِذِكْرِ الأرحام فائدة مستقلة. والوجه الثاني أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله عليه السلام: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)(٢)، وقالت طائفة: إنما خفض ﴿وَالأَرْحامِ﴾ على جهة القسم من الله على ما اختص به لا إله إلا هو من القسم بمخلوقاته، ويكون المقسم عليه فيما بعد من قوله: ﴿إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً﴾، وهذا كلام يأباه نظمُ

---

(١) ورد غير منسوب في الخزانة ٢ : ٣٣٨، والبحر المحيط ٣ : ١٥٨، وتفسير القرطبي ٥ : ٣؛ وفي رواية القرطبي «مهوى نفانف» والغوط: المطمئن من الأرض، والنفنف: المهوى.

(٢) حديث صحيح ورد في الستة وفي مسند أحمد ٢ : ٧، ١١.

الكلام وسرده، وإن كان المعنى يخرجه[١].

و ﴿كان﴾ في هذه الآية ليست لتحديد الماضي فقط، بل المعنى: كان وهو يكون. والرقيب: بناء لاسم الفاعل من رقب يرقب إذا أحدَّ النظر بالبصر أو بالبصيرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هو عليه، ويقترن بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل عن الرقبة. وفي قوله: ﴿عَلَيْكُم﴾ ضرب من الوعيد، ولم يقل: «لكم» للاشتراك الذي كان يدخل من أنه يرقب لهم ما يصنع غيرهم. ومما ذكرناه قيل للذي يرقب خروج السهم من ربابة الضريب في القداح: رقيب، لأنه يرتقب ذلك، ومنه قول أبي داود[٢]:

كمقاعِد الرقباءِ للضُّـ ـرباء أيديهمْ نواهدْ

قوله عز وجل:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾

اليتامى: جمع يتيم ويتيمة، واليتيم في كلام العرب: من فقد الأب

(١) لمعرفة مزيد من الآراء حول إعراب (والأرحام) انظر القرطبي ٥: ٤، والمحتسب ١: ١٧٩، والبحر المحيط ٣: ١٥٩، وقد مال أبو حيان إلى تصويب مذهب الكوفيين في هذا الموقف.

(٢) ديوان أبي داود: ٣٠٧ (دراسات)، والأغاني ١٥: ٩٨ (بولاق)، والميسر: ١٣٣، والمعاني الكبير ٢: ١١٤٨، ومجاز القرآن ١: ١١٣.

قبل البلوغ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يُتْمَ بعد بلوغ[١])، وهو في البهيمة فقدُ الأُمّ في حال الصغر، وحُكي: اليتيم في الإنسان من جهة الأم.

وقال ابن زيد: هذه المخاطبة هي لمن كانت عادته من العرب ألاَّ يورث الصغير من الأولاد مع الكبير، فقيل لهم: ورثوهم أموالهم، ولا تتركوا أيها الكبار حظوظكم حلالاً طيباً وتأخذوا الكلّ ظلماً حراماً خبيثاً، فيجيء فعلكم ذلك تبدلاً. وقالت طائفة: هذه المخاطبة هي لأوصياء الأيتام، والمعنى: إذا بلغوا وأُونس منهم الرشد. وسماهم يتامى وهم قد بلغوا استصحاباً للحالة الأولى التي قد ثبتت لهم من اليتم.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾ قيل: المراد: ما كان بعضهم يفعل من أن يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهمَ الطيب بالزائف من ماله، قاله سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك. وقيل: المراد بذلك: لا تأكلوا أموالهم خبيثاً، وتدعوا أموالكم طيبا. وقيل: معناه: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، قاله مجاهد وأبو صالح. والخبيث والطيب: إنما هو هنا بالتحليل والتحريم.

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ: ﴿تَّبَدَّلُوا﴾ بإدغام التاء، وجاز في

(١) أخرجه أبو داود في سننه (الجامع الصغير ١: ٧٠).

ذلك الجمع بين ساكنين، لأن أحدهما حرف مدٍّ ولين يشبه الحركة.

وقوله: ﴿وَلا تأْكُلُوا أمْوالَهم إلى أَمْوالِكم﴾ استوى الأيتام في النهي عن أكل أموالهم، كانوا ورثة ممنوعين من الميراث أو مَحْجوبين، والآية نص في قصد مال اليتيم بالأكل والتمول على جميع وجوهه. وروي عن مجاهد أنه قال: الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ منه النهي بقوله: ﴿وإنْ تُخالِطوهُم فإخوانُكُم﴾(١) وقد تقدم ذكر هذا في سورة البقرة، وقال ابن فورك عن الحسن: إنه تأول الناس من هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم، فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: ﴿إلى﴾ بمعنى «مع»، وهذا غير جيد. وروي عن مجاهد أن معنى الآية: ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تقريب للمعنى، لأنه أراد أن الحرف بمعنى الآخر.

وقال الحذاق: ﴿إلى﴾ هي على بابها وهي تتضمن الإضافة، التقدير: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ﴾(٢) أي: من ينضاف إلى الله في نصرتي؟

---

(١) من الآية (٢٢٠) من سورة البقرة.

(٢) تكررت في الآية (٥٢) من سورة آل عمران، والآية (١٤) من سورة الصف.

والضمير في: ﴿إنَّه﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل الظاهر، والحُوب: الإثم، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، تقول: حاب الرجل يحوب حوباً وحاباً إذا أثم، قال أمية بن الأسكر[1].

وإن مهاجرين تكنَّفاه غداةَ إذٍ لقد خطئا وحابا

وقرأ الحسن: ﴿حَوْبا﴾ بفتح الحاء، وهي لغة بني تميم، وقيل: هو بفتح الحاء المصدر وبضمها الاسم. وتحوَّب الرجل إذا ألقى الحوب عن نفسه، وكذلك تحَّنث وتأثم وتحرج، فإن هذه الأربعة بخلاف «تفعَّل» كله، لأن تفعَّل معناه: الدخول في الشيء، كتعبَّد وتكسَّب وما أشبهه، ويلحق بهذه الأربعة ـ تَفَكَّهون، في قوله تعالى: ﴿لَوْ نشاءُ لَجَعلْناهُ حُطاماً فظَلْتُمْ تَفَكَّهون﴾[2] أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿إنَّا لَمُغْرمون بل نَحْنُ محرومون﴾ أي: يقولون ذلك. وقوله: ﴿كبيراً﴾ نص على أن أكل مال اليتيم من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وَإنْ خِفْتُم أَلَّا تُقْسِطوا في الْيَتامى﴾ قال أبو عبيدة[3]: خفتم هنا بمعنى: أيقنتم، واستشهد بقول الشاعر:

---

(١) أمية بن الأسكر شاعر مخضرم، هاجر ابنه كلاب في الفتوح وكان أمية شيخاً، فلما طالت غيبته قال هذه القصيدة البائية يرجو ردّه فردّه عمر رضي الله عنه، (الإصابة ١: ٦٥، وانظر أيضا أخباره في الاستيعاب والأغاني وطبقات ابن سلام.)

(٢) الآية (٦٥) من سورة الواقعة.

(٣) مجازات القرآن ١: ١١٦، والبحر المحيط ٣: ١٦٢.

فقلْتُ لهم خافوا بأَلفَيْ مُدَجَّجٍ (١) . . . .

وما قاله غير صحيح، ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجه وإنما هو من أفعال التوقع، إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين. وأما أن يصلَ إلى حدّ اليقين فلا. و﴿تُقْسِطوا﴾ معناه: تعدلوا، يقال: أَقسط الرجل إذا عدل، وقَسَطَ إذا جار، وقرأ ابن وثاب والنخعي: ﴿ألّا تَقْسِطوا﴾ بفتح التاء من «قسط» على تقدير زيادة «لا» كأنه قال: وإن خفتم أن تجوروا.

واختلف في تأويل الآية ـ فقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولياتهم، فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولا يتهم عليهن، فقيل لهم: أقسطوا في مهورهنّ، فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن(٢) في حقوقهن، وقاله ربيعة.

وقال عكرمة: نزلت في قريش، وذلك أن الرجلَ منهم كان يتزوج العشر وأكثر وأقل، فإذا ضاق ماله مالَ على مالِ يتيمه فتزوج منه، فقيل لهم: إن خفتم عجز أموالكم حتى تجوروا في اليتامى فاقتصروا.

---

(١) الرواية المشهورة للبيت (وهو من شعر دريد بن الصمة):

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج   سراتهم في الفارسيّ المسرّد

ومارواه أبو عبيدة مختلف عن هذا البيت إذ هو هنالك رجز، وهو منسوب لليلى بنت الحمارس:

قلت لكم خافوا بألف فارس   مقنعين في الحديد اليابس

(٢) المكايسة في البيع: تنقيص الثمن.

وقال سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس: إن العرب كانت تتحرج في أموال اليتامى، ولا تتحرج في العدل بين النساء، كانوا يتزوجون العشر وأكثر، فنزلت الآية في ذلك، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فتحرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعد الجور عنه.

وقال مجاهد: إنما الآية تحذير من الزنى وزجر عنه، أي: كما تتحرجون في مال اليتامى فكذلك فتحرجوا من الزنى، وانكحوا على ما حُدَّ لكم. قال الحسن أبو مالك وسعيد بن جبير: ما طاب معناه: ما حل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن المحرمات من النساء كثير.

وقرأ ابن أبي عبلة، ﴿مَنْ طابَ﴾ على ذكر من يعقل، وحكى بعض الناس أن ﴿ما﴾ في هذه الآية ظرفية، أي ما دمتم تستحسنون النكاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المنزع ضعف: وقال: ﴿ما﴾ ولم يقل: ﴿مَن﴾ لأنه لم يرد تعيينَ من يعقل، وإنما أراد النوع الذي هو الطيّبُ من جهة التحليل، فكأنه قال: فانكحوا الطيّبَ. وهذا الأمر هو ندب لقوم وإباحةٌ لآخرين بحسب قرائن المرء، والنكاح في الجملةِ والأغلب

مندوبٌ إليه، قال عليه السلام: (من استطاع منكم الباءةَ فليتزوج)[١].

و﴿مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع﴾: موضعها من الإعراب نصب على البدل مما طاب، وهي نكرات لا تنصرف لأنها معدولة وصفة، كذا قال أبو علي، وقال غيره: هي معدولة في اللفظ وفي المعنى، وأيضاً فإنها معدولة وجمع، وأيضاً فإنها معدولة مؤنثة، قال الطبري: هي معارف لأنها لا تدخلها الألفُ واللام، وخطأ الزجاج هذا القول، وهي معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، إلا أنها مضمنة تكرار العدد إلى غاية المعدود، وأنشد الزجاج لشاعر[٢]:

ولَكنَّما أهلي بوادٍ أنيسُه ذئابٌ تبغَّى الناسَ مثنى وَمَوْحَدُ

فإنما معناه: اثنين اثنين، وواحد واحد، وكذلك قولك: جاء الرجال مثنى وثلاث، فإنما معناه: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة.

وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿وَرُبَع﴾ ساقطة الألف، وتلك لغة مقصدها التخفيف كما قال الشاعر: على لسان الضب[٣]:

لا أشتهي أن أردا إلا عَرادا عَرِدَا
وصِلِيَّاناً بَرِدا وعنْكثا مُلْتَبِدا

يريد: بارداً.

(١) ورد هذا الحديث في البخاري (في باب الصوم وباب النكاح).

(٢) البيت لساعدة بن جؤية (انظر ديوان الهذليين ٣: ١١٦٦)، يقول: أهلي بواد ليس به أنيس، وإنما هم مع السباع والوحش في بلد قفر؛ وانظر مجاز القرآن ١: ١١٤.

(٣) قد مرَّ هذا في ما تقدم من هذا الجزء ص: ٣٥٧.

وقوله تعالى: ﴿فإنْ خفْتُم ألا تعْدِلوا فواحِدَةً أوْ ما ملكَتْ أيْمانُكُم﴾ قال الضحاك وغيره: المعنى: ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة بين الأربع أو الثلاث أو الاثنين، ويتوجه على قول من قال: إنها نزلت فيمن يخاف أن ينفقَ مالَ اليتامى في نكاحاته أن يكون المعنى: ألا تعدلوا في نكاح الأربع والثلاث حتى تنفقوا فيه أموال يتاماكم، أي: فتزوجوا واحدةً بأموالكم، أو تَسرَّوْا منها.

ونصب ﴿واحدةً﴾ بإضمار فعل تقديره: فانكحوا واحدة. وقرأ عبد الرحمن بن هرمز والحسن: ﴿فواحدةٌ﴾ بالرفع على الابتداء، وتقدير الخبر: فواحدة كافية أو ما أشبَه، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو.

و﴿ما مَلَكَتْ أيْمانُكُم﴾ يريد به الإماء، والمعنى: إن خاف ألاّ يعدلَ في عِشْرةِ واحدةٍ فما ملكت يمينه. وأسند الملْك إلى اليمين إذ هي صفة مدح، واليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكنها، ألا ترى أنها المنفقة، كما قال عليه السلام: (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[١] وهي المعاهدة المبايعة، وبها سميت الأليَّة[٢] يميناً، وهي الملتقية لكتاب النجاة ولرايات المجد[٣] وقد نهى عليه السلام عن

(١) ورد في البخاري (أذان: ٣٦، زكاة ١٦، ١٣، حدود: ١٩)-ومسلم (زكاة: ٩١)-والترمذي (زهد: ٥٣)- والنسائي (قضاة: ٢).

(٢) الألية: القسم أو اليمين.

(٣) لعله يشير إلى قول الشماخ في مدح عرابة الأوسي:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

استعمالها في الاستنجاء وأمر المرء بالأكل بها.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝﴾

﴿أدنى﴾ أقرب، وهو من الدنو، وموضع ﴿أَن﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والناصب أريحية الفعل الذي في ﴿أدنى﴾، التقدير: ذلك أدنى إلى أَلَّا تعولوا. و﴿تَعولُوا﴾ معناه: تميلوا، قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك والسدي وغيرهم، يقال: عال الرجل يعول: إذا مال وجار، ومنه قول أبي طالب في شعره في النبي ﷺ[1]:

بميزان قِسْطٍ لا يخسّ شعيرةً ووازن صدقٍ وزنه غيرُ عائلِ

يريد غير مائل. ومنه قول عثمان لأهل الكوفة حين كتب إليهم: إني لستُ بميزان لا أعول. ويروى بيت أَبي طالب: «له شاهد من نفسه غير عائل»، وعال يعيل، معناه: افتقر فصار عالةً. وقالت فرقة منهم زيد بن أسلم وابن زيد والشافعي: معناه: ذلك أدنى ألا يكثر عيالكم. وحكى ابن الأعرابي أَن العرب تقول: عال الرجل

(١) انظر سيرة ابن هشام ١:٢٤٢ وتفسير القرطبي ٥:٢١.

يعول إذا كثر عياله ، وقدح في هذا الزجاج وغيره ، بأن الله قد أباح كثرة السراري ، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقربَ إلى ألّا يكثر؟!

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القدح غير صحيح ، لأن السراري إنما هن مالٌ يُتَصَرَّفُ فيه بالبيع، وإنما العيالُ الفادح الحرائرُ ذوات الحقوق الواجبة.

وقوله: ﴿وآتوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: إن الخطاب في هذه الآية للأزواج، أمرهم الله أن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. وقال أبو صالح: الخطابُ لأولياء النساء، لأن عادة بعض العرب كانت أن يأكلَ وليُّ المرأةِ مهرها، فرفع الله ذلك بالإسلام وأمر بأن يدفع ذلك إليهن. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: زعم حضرميّ أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأة بأخرى، فأمروا أن يضربوا المهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والآية تتناول هذه الفرق الثلاث .

وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿صَدُقاتهن﴾ بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ موسى بن الزبير وابن أبي عبلة وفياض بن غزوان وغيرهم: ﴿صُدُقاتهن﴾ بضم الصاد والدال، وقرأ قتادة وغيره:

﴿صُدْقاتهن﴾ بضم الصاد وسكون الدال، وقرأ ابن وثاب والنخعي ﴿صُدُقَتهنّ﴾ بالإفراد وضم الصاد وضم الدال. والإفراد من هذا كله: صَدُقة، وَصُدُقة.

و (نِحْلَة): معناه: نحلة منكم لهن، أي: عطية، وقيل: التقدير: من الله عز وجل لهن، وذلك لأنّ الله جعل الصداقَ[١] على الرجال ولم يجعل على النساءِ شيئاً، وقيل: نحلة معناه: شرعة، مأخوذ من النحل تقول: فلان ينتحلُ دينَ كذا، وهذا يحسن مع كون الخطاب للأولياء، ويتجه مع سواه، ونصبها على أنها من الأزواج بإضمار فعلٍ من لفظها، تقديره: انحلوهن نحلة، ويجوز أن يعمل الفعل الظاهر وإن كان من غير اللفظ لأنه مناسب للنحلة في المعنى، ونصبها على أنها من الله عز وجل بإضمار فعل مقدر من اللفظ، لا يصح غير ذلك، وعلى أنها شريعة هي أيضاً من الله.

وقوله: ﴿فإن طِبْنَ لكُمْ عنْ شيء منه نفْساً فكلُوه هنيئاً مريئاً﴾ الخطاب حسبما تقدم من الاختلاف في الأزواج والأولياء، والمعنى: إن وهبن غيرَ مُكْرَهاتٍ طيّبة نفوسهن. والضمير في: ﴿منه﴾ راجع على الصداق، وكذلك قال عكرمة وغيره، أو على الإيتاء. وقال حضرمي: سبب الآية أن قوماً تحرجوا أن يرجع إليهم شيء مما دفعوا إلى الزوجات. ﴿نَفْساً﴾ نصب على التمييز، ولا يجوز تقدمه على

(١) صداق عند المازني بكسر الصاد قال: ولا يقال بالفتح، وروي عن النّحَّاس بالفتح.

العامل عند سيبويه إلا في ضرورة شعرٍ مع تصرّف العامل، وأجازه غيره في الكلام. ومنه قول الشاعر(١):

. . . . وما كان نَفْساً بالفراق تطيب

و(مِنْ): تتضمن الجنس ها هنا، ولذلك يجوز أن تهب المهر كله، ولو وقفت (من) على التبعيض لما جاز ذلك. وقرئ (هنِيّا مَرِيّا) دون همز، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن والزهري. قال الطبري: ومن هناء البعير أن يعطي الشفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف؛ وإنما قال اللغويون: الطعام الهنيء هو السائغ المستحسن الحميد المغبة، وكذلك المريء، قال اللغويون: يقولون: هنأني الطعام ومرأني على الإتباع، فإذا أفردوا قالوا: أمرأني على وزن أفعل. قال أبو علي: وهذا كما جاء في الحديث: (ارجعن مأزورات غير مأجورات)(٢)، فإنما اعتلت الواو من موزورات إتباعاً للفظ مأجورات، فكذلك مَرأَني إتباعاً لهنأني. ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئاً مما وهبته امرأته من مهرها، فقال له: كلْ من الهنيء المريء، قال سيبويه: هنيئاً مريئاً صفتان نصبوهما نَصْبَ المصادر المدعو بالفعل غير المستعمل إظهاره، المختزل للدلالة

(١) هو المخبل السعدي، واسمه ربيعة بن مالك (الشعر والشعراء: ٣٣٣، والخزانة ٢: ٥٣٦- والإصابة ٢: ٢١٨)- وصدر البيت: اتهجر ليلى بالفراق حبيبها؟

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه (عن علي)، انظر الجامع الصغير ١: ٣٧.

التي في الكلام عليه، كأنهم قالوا: ثبت ذلك هنيئاً مريئاً.

وقوله: ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفهاء﴾... الآية، اختلف المتأولون في المراد بالسفهاء. فقال ابن مسعود والسدي والضحاك والحسن وغيرهم: نزلت في ولد الرجل الصغار وامرأته، وقال سعيد بن جبير: نزلت في الْمَحْجورين السفهاء، وقال مجاهد: نزلت في النساء خاصة، وروي عن عبد الله بن عمر أنه مرت به امرأة لها شارة فقال لها: ﴿ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكُم﴾... الآية. وقال أبو موسى الأشعري والطبري وغيرهما: نزلت في كل من اقتضى الصفةَ التي شرط الله من السفه كان من كان، وقول من خصَّها بالنساء يضعف من جهة الجمع، فإن العرب إنما تجمع فعيلَة على فعائل أو فعيلات.

وقوله: ﴿أَمْوالَكُم﴾ يريد أموال المخاطبين، هذا قول أبي موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة. وقال سعيد بن جبير: يريد أموالَ السفهاء، وأضافها إلى المخاطبين تغبيطاً بالأموال، أي: هي لهم إذا احتاجوا، كأموالكم التي تقي أعراضكم، وتصونكم وتعظم أقداركم، ومن مثل هذا: ﴿ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُم﴾[1] وما جرى مجراه.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن والنخعي: ﴿الَّلاتي﴾،والأموال جمعٌ لما لا يعقل، فالأصوب فيه قراءة الجماعة.

(١) من الآية (٢٩) من سورة النساء.

و﴿قِيَماً﴾ جمع قيمة كديمة ودِيَم، ولكن شَذَّتْ في الرد إلى الياء كما شذ قولهم: جياد في جمع جواد، وكما قالت بنو ضبة: طويل وطيال، ونحو هذا، وقِوَما وقِواما وقِياما معناه: ثباتاً في صلاح الحال ودواما في ذلك، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿قِيَماً﴾ بغير ألف، وروي أن أَبا عمرو فتح القاف من قوله: (قَواماً و قياماً) كان أصله قِواما، فردت كسرة القاف الواو ياءً للتناسب. ذكرها ابن مجاهد ولم ينسبها، وهي قراءة أبي عمرو والحسن، وقرأ الباقون: ﴿قياماً﴾ وقرأت طائفة: ﴿قواما﴾.

وقوله: ﴿وارْزقوهُمْ فيها واكْسوهُم﴾ قيل: معناه: فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجه وبنيه الأصاغر، وقيل: في المحجورين من أموالهم، و: ﴿مَعْروفاً﴾ قيل: معناه: ادعوا لهم: بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم، وقيل: معناه: عِدوهم وعداً حسناً، أي: إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم، ومعنى اللفظة: كلُّ كلام تعرفه النفوس وتأنس إليه ويقتضيه الشرع.

قوله عز وجل:

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

هذه مخاطبة للجميع، والمعنى يخلص التلبس بهذا الأمر

للأوصياء، والابتلاء: الاختبار، و﴿بَلغوا النِّكاحَ﴾ معناه: بلغوا مبلغ الرجال بحلم وحيض أو ما يوازيه، ومعناه: جربوا عقولهم وقرائحهم وتصرفهم، و﴿آنَسْتم﴾، معناه: علمتم وشعرتم وخبرتم، كما قال الشاعر:

آنَستْ نبأةً وأفزعها القنَّا صُ عصراً وقد دنا الإمساءُ

وقرأ ابن مسعود: ﴿أَحَسْتم﴾ بالحاء وسكون السين على مثال فعلتم، وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو السمال وابن مسعود وعيسى الثقفي: ﴿رَشَدا﴾ بفتح الراء والشين، والمعنى واحد. ومالك رحمه الله يرى الشرطين: البلوغ والرشد المختبر، وحينئذٍ يدفع المال؛ وأبو حنيفة يرى أن يدفع المال بالشرط الواحد ما لم يحتفظ له سلفة كما أبيحت التسرية بالشرط الواحد، وكتاب الله قد قيدها بعدم الطول وخوف العنت، إلى غير ذلك من الأمثلة، كاليمين والحنث اللذين بعدهما تجب الكفارة، ولكنها تجوز قبل الحنث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتمثيل عندي في دفع المال بنوازل الشرطين غير صحيح، وذلك أن البلوغَ لم تسقه الآية سياقَ الشرط، ولكنها حالة الغالب على بني آدم أن تلتئم عقولهم فيها، فهو الوقت الذي لا يعتبر شرط الرشد الا فيه، فقال: إذ بلغ ذلك الوقت فلينظر إلى الشرط وهو الرشد حينئذٍ، وفصاحة الكلام تدلُّ على ذلك، لأن التوقيفَ بالبلوغ جاء «بإذا» والمشروط جاء «بإن» التي هي قاعدة حروف الشرط،

و«إذا» ليست بحرف شرط لحصول ما بعدها، وأجاز سيبويه أن يجازى بها في الشعر، وقال: فعلوا ذلك مضطرين، وإنما جوزي بها لأنها تحتاج إلى جواب، ولأنها يليها الفعل مظهراً أو مضمراً. واحتج الخليل على منع شرطيتها بحصول ما بعدها، ألا ترى أنك تقول: أجيئك إذا احمر البسر، ولا تقول: إن احمرَّ البسر. وقال الحسن وقتادة: الرشد في العقل والدين، وقال ابن عباس: بل في العقل وتدبير المال لا غير، وهو قول ابن القاسم في مذهبنا. والرواية الأخرى: «إنه في العقل والدين» ـ مروية عن مالك. وقالت فرقة: دفع الوصي المال إلى المحجور يفتقر إلى أن يرفعه إلى السلطان ويثبت عنده رشده، أو يكون ممن يأمنه الحاكم في مثل ذلك. وقالت فرقة: ذلك موكول إلى اجتهاد الوصي دون أن يحتاج إلى رفعه إلى السلطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب في أوصياء زمننا ألَّا يتسغنى عن رفعه إلى السلطان وثبوت الرشد عنده، لما خفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الوصي ويبرأ المحجور لسفهه وقلة تحصيله في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿ولا تَأْكُلوها﴾ . . . الآية، نهي من الله تعالى للأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم؛ والإسراف: الإفراط في الفعل، والسرف: الخطأ في مواضع الإنفاق، ومنه قول الشاعر:

. . . . ما في عطائهمُ مَنٌّ ولا سرَفُ(١)

(١) شطر بيت لجرير (ديوانه: ١٧٤) وصدره: اعطوا هنيدة يحدوها ثمانية. والهنيدة: مائة من الإبل، يحدوها: أي يسوقها ثمانية من العبيد. والمنُّ: الفخر بالإحسان واستكثاره.

أي: لا يخطئون مواضع العطاء. ﴿وبِدَاراً﴾: معناه: مبادرة كِبَرِهِمْ، أي: أن الوصيّ يستغنم مال محجوره فيأكل ويقول: أبادرُ كِبَره لئلا يرشد ويأخذ ماله، قاله ابن عباس وغيره. و﴿أَن يكبروا﴾ نصب بـ﴿بِدَاراً﴾، ويجوز أن يكون التقدير: مخافة أن.

وقوله: ﴿ومنْ كان غنيّاً فلْيَسْتَعْفِفْ﴾... الآية، يقال: عفَّ الرجل عن الشيء واستعفَّ: إذا أمسك، فأمر الغنيَّ بالإمساك عن مال اليتيم، وأباح الله للوصي الفقير أن يأكلَ من مال يتيمه بالمعروف.

واختلف العلماء في حدِّ المعروف. فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية: إن ذلك القرضُ، أن يتسلفَ من مال يتيمه ويقضي إذا أيسر، ولا يتسلف أكثرَ من حاجته.

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة والسدي وعطاء: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال[١]: «إني نزلتُ من مال الله منزلةَ والي اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن احتجتُ أَكلتُ بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت».

وروي عن إبراهيم وعطاء وغيرهما أنه لا قضاء على الوصي الفقير فيما أكل بالمعروف، قال الحسن: هي طعمة من الله له، وذلك أن يأكل ما يقيمه أكلا بأطراف الأصابع، ولا يكتسي منه بوجه، وقال

(١) انظر طبقات ابن سعد ٣: ٢٧٦.

إبراهيم النخعي ومكحول: «يأكل ما يقيمه ويكتسي ما يستر عورته، ولا يلبس الكتانَ والحلل».

وقال ابن عباس وأبو العالية والحسن والشعبي: «إنما يأكل الوصي بالمعروف إذا شرب من اللبن وأكل من الثمر، بما يهنأ الجربى، ويليط الحوض، ويجدّ الثمر، وما شابهه».

وقالت فرقة: المعروف أن يكون له أجر بقدر عمله وخدمته.

وقال الحسن بن حي: إن كان وصيٌّ أب فله الأكل بالمعروف، وإن كان وصيٌّ حاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه.

وقال ابن عباس والنخعي: المراد أن يأكل الوصي بالمعروف من ماله حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: المراد اليتامى في الحالين، أي: من كان منهم غنياً فليعف بماله، ومن كان فقيراً فليتقتر عليه بالمعروف والاقتصاد.

وقوله: ﴿فإذا دَفَعْتُم﴾ . . . الآية أمرٌ من الله بالتحرز والحزم، وهذا هو الأصل في الإشهاد في المدفوعات كلها، إذا كان حبسها أولا معروفاً. وقالت فرقة: الإشهاد ها هنا فرض، وقالت فرقة: هو ندب إلى الحزم، وروى عمر بن الخطاب وابن جبيرة أن هذا دفع ما يستقرضه الوصّي الفقير إذا أيسر، واللفظ يعم هذا وسواه. والحسيبُ هنا: المحسب، أي: هو كافٍ من الشهود، هكذا قال الطبري، والأظهر أن ﴿حَسيباً﴾ معناه: حاسباً أعمالكم ومجازياً بها، ففي هذا وعيد لكلّ جاحِد حقٍّ.

قوله عز وجل:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

سمى الله عز وجل الأب والداً لأن الولد منه ومن الوالدة، كما قال الشاعر:

بحيث يعتش الغراب البائض

لأن البيض من الأنثى والذكر(١). قال قتادة وعكرمة وابن زيد: وسبب هذه الآية أَن العرب كان منها من لا يورث النساء ويقول: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وقاتل بالسيف، فنزلت هذه الآية.

قال عكرمة: سببها خبر أم كحْلة(٢)، مات زوجها وهو أوس بن سويد وترك لها بنتاً فذهب عم بنيها إلى ألَّا ترث، فذهبت إلى النبي ﷺ، فقال العم: هي يا رسول الله لا تقاتلُ، ولا تحمل كَلاًّ، ويكسب عليها، ولا تكسب، واسم العم ثعلبة فيما ذكر.

(١) قال أبو حيان «لا يتعين أن يراد بالغراب هنا الذكر لأن لفظ الغراب يطلق على الذكر والأنثى، وليس مما فرق بينه وبين مؤنثه بالتاء، أما وصفه بالبائض فهو حمل على اللفظ. البحر المحيط ٣: ١٧٥.

(٢) كذا ورد الاسم هنا، وهذه رواية أبي موسى عن المستغفري (كحْلة) بسكون المهملة بعدها لام؛ والمشهور أنها أم (كجة)، وأن زوجها مات وترك لها ثلاث بنات، وتختلف الروايات في أمرها اختلافاً بيناً، فهي زوج أوس بن ثات، أو ثابت بن قيس، أو سعد بن الربيع، أو أوس بن مالك... إلخ. (انظر الإصابة ٨: ٢٧٠).

و ﴿نصيباً مفْروضاً﴾ نصب على الحال، كذا قال مكي، وإنما هو اسم نصب كما ينصب المصدر في موضع الحال، تقديره: فرضا، ولذلك جاز نصبه، كما تقول: لك علي كذا وكذا حقاً واجبا، ولولا معنى المصدر الذي فيه ما جاز في الاسم الذي ليس بمصدر هذا النصب، ولكان حقه الرفع.

وقوله: ﴿وإذا حضر الْقِسْمة﴾ . . . الآية، اختلف المتأولون فيمن خوطب بهذه الآية على قولين: أحدهما أنها مخاطبة للوارثين، والمعنى: إذا حضر قسمتكم لمال موروثكم هذه الأصناف الثلاثة، فارزقوهم منه، ثم اختلف قائلو هذا القول ـ فقال سعيد بن المسيب وأبو مالك والضحاك وابن عباس فيما حكى عنه المهدوي: نسخ ذلك بآية المواريث. وكانت هذه قسمة قبل المواريث، فأعطى الله بعد ذلك كل ذي حق حقه، وجعلت الوصية للذين يحزنون ولا يرثون. وقال ابن عباس والشعبي ومجاهد وابن جبير: ذلك محكم لم ينسخ. وقال ابن جبير: وقد ضيع الناس هذه الآية، قال الحسن: ولكن الناس شحوا، وامتثل ذلك جماعة من التابعين: عروة بن الزبير وغيره، وأمر به أبو موسى الأشعري.

واختلف القائلون بإحكامها ـ فقالت فرقة: ذلك على جهة الفرض والوجوب أن يعطي الورثة لهذه الأصناف ما تفُه وطابت به نفوسهم كالماعون والثوب الخَلَق، وما خفَّ كالتابوت، وما تعذر قسمه. وقال ابن جبير والحسن: ذلك على جهة الندب، فمن تركه

فلا حرج عليه. واختلف في هذا القول إذا كان الوارث صغيراً لا يتصرف في ماله ـ فقال سعيد بن جبير وغيره: هذا على وجه المعروف فقط، يقوله ولي الوارث دون عطاء ينفذ، وقالت فرقة: بل يعطي وليُّ الوارثِ الصغير من مال محجوره بقدر ما يرى.

والقول الثاني ـ فيمن خوطب بها ـ أن الخطاب للمحتضرين الذين يقسمون أموالهم بالوصية، فالمعنى: إذا حضركم الموت أيها المؤمنون، وقسمتم أموالكم بالوصية، وحضركم من لا يرث من ذي القرابة واليتامى فارزقوهم منه، قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن زيد: كانوا يقولون للوصي: فلان يقسم ماله، ومعنى ﴿حَضَر﴾: شهد، إلا أن الصفة بالضعف واليتم والمسكنة تقضي أن ذلك هو علة الرزق، فحيث وجدت رزقوا وإن لم يحضروا القسمة، و ﴿أُولوا﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ولا يكون إلا مضافاً للإبهام الذي فيه، وربما كان واحده من غير لفظه «ذو».

واليتم: الانفراد، واليتيم: الفرد، وكذلك سمي من فقد أباه يتيما لانفراده، ورأى عبيدة ومحمد بن سيرين أنَّ الرزق في هذه الآية أنْ يُصنع لهم طعام يأكلونه، وفعلا ذلك: ذبحا شاة من التركة.

والضمير في قوله: ﴿ فارْزقوهُم ﴾ وفي قوله: ﴿لهُمْ﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، وغير ذلك من تفريق عود الضميرين ـ كما ذهب إليه الطبري ـ تحكُّم؛ والقول المعروف كل ما يؤنس به من دعاء أو عدةٍ أو غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ جزم بلام الأمر، ولا يجوز إضمار هذه اللام عند سيبويه قياساً على حروف الجر إلا في ضرورة شعر، ومنه قول الشاعر:

محمدُ تفدِ نفسك كلُّ نفس إذا ما خفتَ من أمرٍ تبالا(١)

وقرأ أبو حيوة وعيسى بن عمر والحسن والزهري: بكسر لامات الأمر في هذه الآية.

وقد تقدم الكلام على لفظ ﴿ذرِّيَّة﴾ في سورة آل عمران. ومفعول (يخشى) محذوف لدلالة الكلام عليه، وَحَسُنَ حذفه من حيث يتقدر فيه التخويف بالله تعالى، والتخويف بالعاقبة في الدنيا، فينظر كل متأول بحسب الأهم في نفسه.

وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو حيوة والزهري وابن محيصن وعائشة: ﴿ضُعَفاءَ﴾ بالمد وضم الضاد، وروي عن ابن محيصن: ﴿ضُعُفاً﴾ بضم الضاد والعين وتنوين الفاء، وأمال حمزة ﴿ضعافاً﴾، وأمال ﴿خافوا﴾، والداعي إلى إمالة ﴿خافوا﴾ الكسرة التي في الماضي في قولك: خِفت، ليدل عليها. و ﴿خافوا﴾ جواب ﴿لو﴾ تقديره: لو تركوا لخافوا، ويجوز حذف اللام في جواب ﴿لو﴾، تقول: لو قام زيد لقام عمرو، ولو قام زيد قام عمرو.

---

(١) البيت من شواهد سيبويه (١: ٤٠٨)، وانظر الخزانة ٣: ٦٢٩، ٦٦٦، والعيني ٤: ٤١٨، ٢٨، ٨٥، وشرح شواهد المغني: ٢٠٤، وينسب لحسان أو لأبي طالب. والتبال: سوء العاقبة، أصله وبال أبدلت الواو تاء ـ والشاهد حذف اللام من (تفْد).

واختُلف ـ من المراد بهذه الآية؟ فقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد: المراد مَن حضر ميتاً حين يوصي فيقول له: قدّم لنفسك وأَعط لفلان وفلانة، ويؤذي الورثة بذلك، فكأن الآية تقول لهم: كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بعْدكم، فكذلك فاخْشَوْا على ورثةِ غيركم وذريته، ولا تحملوه على تبذير مالُه وتركهم عالة. وقال مقسم وحضرمي: نزلت في عكس ذلك، وهو أن يقول للمحتضر: أمسك على ورثتك، وأبق لِولدك، وينهاه عن الوصية فيضرّ بذلك ذوي القربى وكلَّ من يستحق أن يوصى له، فقيل لهم: كما كنتم تخشون على ذريتكم وتسرون بأن يحسن إليهم، فكذلك فسددوا القول في جهة المساكين واليتامى، واتقوا الله في ضرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان لا يطّردُ واحدٌ منهما في كلِّ الناس، بل الناس صنفان: يصلح لأحدهما القول الواحد، وللآخر القول الثاني، وذلك أَن الرجل إذا ترك ورثةً مستقلين بأنفسهم أَغنياءَ حَسُنَ أن يُنْدَبَ إلى الوصية، ويحملَ على أن يُقَدِّمَ لنفسه، وإذا ترك ورثةً ضعفاء مقلّين حسن أَن يندبَ إلى الترك لهم والاحتياط، فإن أجره في قَصْدِ ذلك كأجره في المساكين، فالمراعى إنما هو الضعف، فيجب أَن يمال معه.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد بالآية ولاة الأَيتام، فالمعنى:

أحسنوا إليهم، وسدّدوا القولَ لهم، واتقوا الله في أَكْل أموالهم كما تخافون على ذريتكم أن يفعل بهم خلاف ذلك.

وقالت فرقة: بل المراد جميع الناس، فالمعنى: أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا لهم القولَ كما يريد كل أحد أن يفعل بولده بعده.

ومن هذا ما حكاه الشيباني قال(١): كنا على قسْطنْطينيَّة في عسكر مسْلَمة بن عبد الملك، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل العلم فيهم الدَّيْلميُّ، فتذاكروا ما يكونُ من أهوال آخر الزمان، فقلت له: يا أبا بسر(٢)، ودِّي ألَّا يكون لي ولد، فقال لي: ما عليك، ما من نسمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت أحبَّ أو كره، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فاتّقِ الله في غيرهم، ثم تلا هذه الآية.
والسَّديد: معناه: المصيب للحق، ومنه قول الشاعر:

أُعَلِّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ ... فلما استدَّ ساعدُهُ رماني(٣)

معناه، لما وافق الأغراض التي يرمي إليها.

---

(١) القصة مفصلة في تفسير الطبري، وانظر القرطبي أيضاً ٥: ٥١.
(٢) في بعض الروايات: (بِشْر) بالشين المعجمة.
(٣) ورد البيت في الأغاني ٥: ١٥٩، ٦: ٢٨١ (ط. دار الثقافة) على جهة التمثل به؛ وورد في اللسان (سدد) دون نسبة، ونقل عن الأصمعي: اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾

قال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يُورِّثون النساء والصغار، ويأكلون أموالهم. وقال أكثر الناس: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لم يُبَحْ لهم من مال اليتيم. وهي تتناول كلَّ آكل وإن لم يكن وصياً. وسمي آخذ المال على كل وجوهه آكلا لما كان المقصود هو الأكل، وبه أكثر الإتلاف للأشياء. وفي نصه على البطون من الفصاحة تبيين نقصهم، والتشنيع عليهم بضدّ مكارم الأَخلاق، من التهافت بسبب البطن، وهو أنقص الأسباب وألأمها حتى يدخلوا تحت الوعيد بالنار.

و ﴿ظُلْماً﴾ معناه: ما جاوز المعروف مع فقر الوصي، وقال بعض الناس: المعنى: إنه لما يؤول أكلهم للأموال إلى دخولهم النار قيل: يأكلون النار. وقالت طائفة: بل هي حقيقة أَنهم يَطْعَمُونَ النار، وفي ذلك أحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به قال: (رأيت أقواما لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكِّل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال هم

الَّذين يأْكُلون أَموالَ الْيتامى ظُلماً)(١).

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَسَيَصْلون﴾ على إسناد الفعل إليهم، وقرأ ابن عامر بضمّ الياء، واختلف عن عاصم، وقرأ أَبو حيوة: ﴿وسيُصَلّون﴾ على بناء الفعل للمفعول، بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام على التكثير، وقرأ ابن أَبي عبلة: ﴿وسيُصْلُون﴾ بضم الياء واللام، وهي ضعيفة، والأول أصوب، لأنه كذلك جاء في القرآن في قوله: ﴿لا يصْلاها إلَّا الأَشْقَى﴾(٢) وفي قوله: ﴿صالِ الْجَحيم﴾(٣)، والصَّلا هو التسخن بقرب النار أو بمباشرتها، ومنه قول الحارث بن عباد(٤):

لم أكنْ من جناتها علم اللّـ ـهُ، وإني بِحَرِّها اليوم صالِ

والمحترق الذي يُذهبه الحرق ليس بصال إلا في بدء أَمره، وأهل جهنم لا تذهبهم فهم فيها صالون؛ والسعير: الجمر المشتعل.

وهذه آية من آيات الوعيد، والذي يعتقده أهل السنة أن ذلك نافذٌ على بعض العصاة، لئلا يقع الخبر بخلاف مخبره، ساقط بالمشيئة عن بعضهم، وتلخيص الكلام في المسألة: إن الوعد في الخير، والوعيد

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم،انظر فتح القدير ١ : ٤٣٠ ط دار الفكر . بيروت .

(٢) من الآية (١٦) من سورة الليل .

(٣) من الآية (١٦٣) من سورة الصافات .

(٤) زعيم بني بكر ، لم يشترك أول الأمر في حرب البسوس ، إلا بعد أن قتل ابنه بجير ، وعدّ بواءً بشسع نعل كليب ؛وعندئذ قال الحارث :« قربا مربط النعامة مني »- والنعامة فرسه، وهو في هذا البيت يبرىء نفسه من أن يكون أحد جناة تلك الحرب ، ولكنه لم يملك إلا أن يصلى بحرها ، (انظر الأغاني ٥ : ٤٠ ط . دار الثقافة) .

في الشر، هذا عرفهما إذا أُطلقا، وقد يستعمل الوعد في الشر مقيداً به، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ وعدَها اللَّهُ الَّذين كَفَروا﴾(١). فقالت المعتزلة: آيات الوعد كلها في التائبين والطائعين، وآيات الوعيد في المشركين والعصاة بالكبائر ـ وقال بعضهم: وبالصغائر ـ. وقالت المرجئة: آيات الوعد كلها فيمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق، كان من كان من عاص أو طائع. وقلنا أهلَ السنة والجماعة: آيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازه الإنفاذ من العصاة، والآية الحاكمة بما قلناه قوله تعالى: ﴿إنّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ به ويغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ﴾(٢)، فإن قالت المعتزلة: لمن يشاء يعني التائبين، رد عليهم بأن الفائدة في التفضيل كانت تنفسد، إذ الشرك أيضاً يُغْفَر للتائب، وهذا قاطع بحكم قوله: ﴿لِمَنْ يشاءُ﴾ بأنّ ثم مغفوراً له وغير مغفور، واستقام المذهب السني.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكم﴾ يتضمن الفرض والوجوب، كما تتضمنه لفظة «أمر» كيف تصرفت، وأما صيغة الأمر من غير اللفظة ففيها الخلاف الذي سيأتي موضعه إن شاء الله، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا النّفْس الَّتي حرَّمَ اللَّهُ إلَّا بالْحقِّ، ذلِكُمْ وصَّاكمْ بِهِ﴾(٣).

(١) من الآية (٧٢) من سورة الحج.
(٢) من الآية (٤٨) من سورة النساء.
(٣) من الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

وقيل: نزلت هذه الآية بسبب بنات سعد بن الربيع، وقال السدي: نزلت بسبب بنات عبد الرحمن بن ثابت أخي حسان بن ثابت، وقيل: بسبب جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ في مرضه، قال جابر بن عبد الله: وذكر أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو، فنزلت الآيات تبييناً أن لكلّ أنثى وصغير حظّه. وروي عن ابن عباس أن نزول ذلك كان من أجل أن المال كان للولد، والوصية للوالدين، فنسخ ذلك بهذه الآيات.

و ﴿مِثْلُ﴾ مرتفع بالابتداء أو بالصفة، تقديره: حظٌّ مثل حظ.

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿في أولادكم أنّ للذّكر﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإن كنَّ نساءً﴾... الآية. الأولاد لفظ يجمع الذكران والإناث، فلما أراد بهذه الآية أن يخصَّ الإناث بذكر حكمهن أنَّثَ الفعلَ للمعنى، ولو اتبع لفظ الأولاد لقال: كانوا، واسم كان مضمر، وقال بعض نحويي البصرة: تقديره: وإن كن المتروكات نساء.

وقوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنْ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تقتضي ذلك قوة الكلام، وأما الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النص على الاثنتين، ويثبت الثلثان لهما بالإجماع الذي مرت عليه الأمصار والأعصار، ولم يحفظ فيه خلاف، إلا ما روي عن عبد الله بن عباس أنه يرى لهما النصف. ويثبت أيضا ذلك لهما بالقياس على الأختين المنصوص،

عليهما، ويثبت ذلك لهما بالحديث الذي ذكره الترمذي أن رسول الله ﷺ قضى للابنتين بالثلثين، ومن قال: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة واحتج بقوله تعالى: ﴿فَوْق الأَعناق﴾ يريد: اضربوا منهم الأعناق ـ فقوله خطأٌ لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى، ولأن قوله: ﴿فوْقَ الأعْناقِ﴾ هو الفصيح، وليست ﴿فَوْقَ﴾ زائدة بل هي محكمة المعنى لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، كما قال دريد بن الصمة: «اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم، فهكذا كنت أَضرب أعناق الأَبطال».

وقد احتج لأخذهما الثلثين بغير هذا، وكله معارض، قال إسماعيل القاضي: إذا كانت البنت تأخذ مع أَخيها الثلث إذا انفرد، فأحرى أن تأخذ ذلك مع أُختها؛ قال غيره: وكما كان حكم الاثنين فما فوقهما من الإخوة للأم واحداً، فكذلك البنات.

وقال النحاس: لغة أهل الحجاز وبني أسد: الثُّلُث والربُعُ إلى العشر، وقد قرأ الحسن ذلك كله بإسكان الأَوسط، وقرأه الأعرج. ومذهب الزجاج أَنها لغة واحدة، وأَن سكون العين تخفيف.

وإذا أخذ بنات الصلب الثلثين، فلا شيء بعد ذلك لبنات الابن، إلا أَن يكون معهن أخ لهن، أو ابن أخ، فيرد عليهن، وعبد الله بن مسعود لا يرى لهنّ شيئاً وإن كان الأخ أو ابن الأخ،

ويرى المال كله للذكر وحده دونهن.

قوله عز وجل:

﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾

قرأ السبعة سوى نافع: ﴿واحِدَةً﴾ بالنصب على خبر «كان»؛ وقرأ نافع: ﴿واحِدَةٌ﴾ بالرفع على أن كان بمعنى وقع وحضر؛ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿النُّصْف﴾ بضم النون، وكذلك قرأه علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت في جميع القرآن.

وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ يريد ذكراً أو أنثى، واحداً أو جماعة، للصلب أو لولدِ ذَكَر، فإن ذلك كيف وقع يجعل فرض الأب السدس، وإن أخذ النصف في ميراثه فإنما يأخذه بالتعصيب.

وقوله تعالى: ﴿فإن لمْ يكُن لهُ ولدٌ﴾... الآية، المعنى: فإن لم يكن له ولدٌ، ولا ولَدُ ولَدٍ، ذكراً كان أو أنثى. وقوله: ﴿وَوَرِثَه أبواه﴾ تقتضي قوة الكلام أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ووَرِثَهُ﴾ حكماً لهما بالمال، فإذا ذكر وحده بعد ذلك نصيب أحدهما أخذ النصيب الآخر، كما تقول لرجلين: هذا المال بينكما، ثم تقول لأحدهما، أنت يا فلان لك منه الثلث، فقد حددت للآخر منه الثلثين بنصِّ كلامك.

وعلى أن فريضتهما خلت من الولد وغيره يجيء قول أكثر الناس:

إن للأمّ مع الانفراد الثلث من المال كله، فإن كان معهما زوج كان للأم السدس، وهو الثلث بالإضافة إلى الأب. وعلى أن الفريضة خلت من الولد فقط يجيء قول شريح وابن عباس: إن الفريضة إذا خلت من الولد أخذت الأم الثلثَ من المال كله مع الزوج، وكان ما بقي للأب، ويجيء على هذا قوله: ﴿وَوَرِثَه أَبَوَاهُ﴾ منفردين أو مع غيرهما.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَلإمِّهِ﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة حكاها سيبويه، وكذلك كسر الهمزة من قوله: ﴿في بُطُون إمَّهاتِكُم﴾[1]، و ﴿في إمِّها﴾[2] و ﴿في إمِّ الكتاب﴾[3]، وهذا كلُّه إذا وصلا إتباعاً للكسرة أو الياء التي قبل الهمزة. وقرأ الباقون كل هذا بضمٍّ للهمزة، وكسر همزة[4] الميم من ﴿إمِّهاتكم﴾ إتباعاً لكسر الهمزة، ومتى لم يكن وصل وياء أو كسرة فالضم باتفاق.

وقوله تعالى: ﴿فإن كانَ لهُ إخوةٌ فلأمّه السدس﴾ الإخوةُ يَحطّون الأم إلى السدس ولا يأخذونه، أشقاء كانوا أو للأب أو للأم، وقال من لا يعَد قوله إلا في الشذوذ: إنهم يحطون ويأخذون ما يحطون لأنفسهم مع الأب، روي عن ابن عباس، وروي عنه خلافه مثل قول السدس الذي يحجبون الأم عنه، قال قتادة: وإنما أخذ الأب دونهم، لأنه يمونهم، ويلي نكاحهم، والنفقةَ عليهم، هذا في

(١) من الآية (٦) من سورة الزُّمر.
(٢) من الآية (٥٩) من سورة القصص.
(٣) من الآية (٤) من سورة الزخرف.
(٤) هكذا في الأصل. والعبارة بهذا قلقة. ولعلها (حمزة) بدلا من (همزة).

الأغلب، ومجمعون على أن أخوين فصاعداً يحجبون الأمّ عنه، إلا ما روي عن عبد الله بن عباس: أنّ الأخوين في حكم الواحد، ولا يحجب الأمّ أقل من ثلاثة. واستدلّ الجميعُ بأن أقلَّ الجمع اثنان، لأن التثنية جمع شيء إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنها جمع، وذكر المفسرون أن العرب قد تأتي بلفظ الجمع وهي تريدُ التثنية، كما قال تعالى: ﴿وداودَ وسليْمانَ إذ يَحْكُمان في الحرْث إذْ نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم وكنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدينَ﴾[1]، وكقوله في آية الخصم: ﴿إذ تسَوَّروا المحْرابَ إذْ دخلوا﴾[2] وكقوله: ﴿وأَطراف النَّهارِ﴾[3] واحتجوا بهذا كله في أن الإخوةَ يدخل تحته الأَخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآيات كلها لا حجة فيها عندي على هذه الآية، لأنه قد تبين في كلِّ آية منها بالنص أَن المراد اثنان، فساغ التجوز بأن يؤتى بلفظ الجمع بعد ذلك، إذ معك في الأُولى ﴿يَحْكُمان﴾، وفي الثانية ﴿إنَّ هذا أخي﴾، وأيضاً فالحكم قد يضاف إلى الحاكم والخصوم، وقد يتسور مع الخصم غيرهما فهم جماعة، وأما ﴿النَّهار﴾ في الآية الثالثة فالألف واللام فيه للجنس فإنما أراد طرفي كل يوم، وأما إذا ورد لفظ الجمع ولم يقترن به ما يبين المراد فإنما يحمل على الجمع، ولا يحمل

(١) الآية (٧٨) من سورة الأنبياء.
(٢) من الآيتين (٢١، ٢٢) من سورة ص.
(٣) من الآية (١٣٠) من سورة طه.

على التثنية، لأن اللفظ مالك للمعنى، وللبنية حقّ. وذكر بعض من احتج لقول عبد الله بن عباس: إنَّ بناء التثنية يدلّ على الجنس والعدد كبناء الإفراد، وبناء الجمع يدل على الجنس ولا يدلّ على العدد، فلا يصح أن يدخل هذا على هذا.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُوصِي﴾ بإسناد الفعل إلى الموروث، إذ قد تقدم له ذكر، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يُوصَى﴾ بفتح الصاد ببنية الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يُوَصَّى﴾ بفتح الصاد وتشديدها، وكل هذا في الموضعين، وقرأ حفص عن عاصم في الأولى بالفتح، وفي الثانية بالكسر.

وهذه الآية إنما قصد بها تقديم هذين الفعلين على الميراث، ولم يقصد بها ترتيبهما في أنفسهما، ولذلك تقدمت الوصية في اللفظ، والدَّيْن مقدم على الوصية بإجماع، والذي أقول في هذا: إنه قدَّم الوصية إذ هي أقل لزوماً من الديْن، اهتماماً بها وندباً إليها، كما قال تعالى: ﴿لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً﴾(١)، وأيضاً قدَّمها من جهة أنها مضمنها الوصية التي هي كاللازم يكونُ لكلِّ ميت، إذ قد حضَّ الشرع عليها، وأخَّر الدَّيْنَ لشذوذه، وأنه قد يكون ولا يكون، فبدأ بذكر الذي لا بد منه، ثم عطف بالذي قد يقع أحياناً، ويقوي هذا كونُ العطف بأو، ولو كان الديْن راتبا لكان العطف بالواو، وقُدِّمت

(١) من الآية (٤٩) من سورة الكهف.

الوصية أيضاً إذ هي حظّ مساكين وضعاف،وأُخِّرَ الدَّيْن إذ هو حظُّ غريمٍ يطلبه بقوة، وهو صاحبُ حقّ له فيه، كما قال عليه السلام: (إن لصاحب الحق مقالاً)(١). وأجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث، واستحبَّ كثيرٍ منهم ألَّا يبلغَ الثلث، وأن يغضَّ(٢) الناس إلى الربع.

قوله عز وجل:

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾

﴿آباؤُكُم وأبناؤُكم﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمر تقديره: هم المقسوم عليهم وهم المعطون، وهذا عرض للحكمة في ذلك، وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصفة، و ﴿لاَ تدْرونَ﴾ عامل في الجملة بالمعنى ومعلّق عن العمل في اللفظ بحسب المعمول فيه، إذ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و ﴿نفْعاً﴾ قال مجاهد والسدي وابن سيرين: معناه: في الدنيا، أي:إذا اضطر إلى

(١) في قصة هذا الحديث أن رجلاً كان له على رسول الله حق، فأغلظ في اقتضائه، فهم به أصحاب الرسول فقال لهم: (دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً)... الحديث؛ انظر البخاري (هبة ٢٣، ٢٥، استعراض: ٤، ١٣، وكالة: ٦)، ومسلم (مساقاة: ١٢)، والترمذي (بيوع: ٧٣)، وابن ماجه (صدقات: ١٥، ١٧)، ومسند أحمد ٢: ٤١٦، ٤٥٦، ٦: ٢٢٨.

(٢) يغض: ينقص.

إنفاقهم للحاجة، نحا إليه الزجاج، وقد ينفقون دون اضطرار، وقال ابن عباس والحسن: في الآخرة، أي: بشفاعة الفاضل للمفضول، وقال ابن زيد فيهما: واللفظ يقتضي ذلك، و ﴿فَريضةً﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى ﴿يُوصيكمُ﴾ يفرض عليكم. وقال مكي وغيره: هي حال مؤكدة، وذلك ضعيف. والعامل ﴿يُوصيكمُ﴾، و ﴿كان﴾ هي الناقصة، قال سيبويه: لما رأوا علماً وحكمة قيل لهم: إن الله لم يزل هكذا، وصيغة ﴿كان﴾ لا تعطي إلا المضي، ومن المعنى بعد يعلم أن الله تعالى كان كذلك، وهو يكون، لا من لفظ الآية، وقال قوم: ﴿كان﴾ بمعنى وجد ووقع، و ﴿عليماً﴾ حال، وفي هذا ضعف، ومن قال: ﴿كان﴾ زائدة فقوله خطأ.

وقوله تعالى: ﴿ولكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُم﴾... الآية، الخطاب للرجال، والولد ها هنا: بنو الصلب وبنو ذكورهم وإن سفلوا، ذكرانا وإناثا، واحداً فما زاد، هذا بإجماعٍ من العلماء.

قوله عز وجل:

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾

والولد في هذه الآية كما تقدم في الآية التي قبلها، و﴿الثُّمُنُ﴾ للزوجة أو للزوجات هن فيه مشتركات بإجماع، ويلحق العول[١] فرضَ الزوج والزوجة، كما يلحق سائر الفرائض المسماة، إلا عند ابن عباس، فإنه قال: يعطيان فرضهما بغير عول. والكلالة: مأخوذة من تكلل النسب، أي: أحاط، لأن الرجل إذا لم يترك والداً ولا ولداً فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أُحاط بالشيء، ومنه: روض مُكَلّلٌ بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب، ومن الكلالة قول الشاعر:

فإن أبا المرءِ أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب[٢]

فالأب والابن هما عمودا النسب وسائر القرابة يكلِّلون. وقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وسليم بن عبيد وقتادة والحكم وابن زيد والزهري وأبو إسحق السَّبيعي: الكلالةُ: خلوُّ الميت عن الولد والوالد، وهذا هو الصحيح. وقالت طائفة: هي خلو الميت من الولد فقط، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعن عمر، ثم رجعا عنه، وروي عن ابن عباس، وذلك مستقرأ من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحطون الأم ويأخذون ما يحطونها.

---

(١) العول: ارتفاع أو انخفاض نسبة الفريضة.

(٢) يريد أن أبا المرء أغضب له عند ظلمه، أما موالي القرابة كالأعمام وسائر الأقارب فهم أقل غضباً من الأب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هكذا حكى الطبري، ويلزم على قول ابن عباس إذ ورثهم بأن الفريضة كلالة أن يعطيهم الثلث بالنصّ. وقالت طائفة منهم الحكم بن عتيبة: الكلالة: الخلو من الوالد، وهذان القولان ضعيفان، لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بجزم نسب لا بتكلل. وأجمعت الآن الأمة على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا مع أب، وعلى هذا مضت الأمصار والأعصار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُورَث﴾ بفتح الراء، وقرأ الأعمش وأبو رجاء: ﴿يورِّث﴾ بكسر الراء وتشديدها. قال أبو الفتح بن جني[1]: وقرأ الحسن: ﴿يُورِثُ﴾ من أورث، وعيسى[2]: ﴿يُورِّث﴾ بشدّ الراء من ورَّث، والمفعولان على كلتا القراءتين محذوفان، التقدير: يورث وارثه ماله ﴿كلالةً﴾، ونصب ﴿كلالةً﴾ على الحال.

واختلفوا في الكلالة فيما وقعت عليه في هذه الآية، فقال عمر وابن عباس: الكلالة: الميت الموروث إذا لم يكن له أب، ونصبها على خبر كان، وقال ابن زيد: الكلالة: الوارثة بجملتها، الميت والأحياء كلهم كلالة، ونصبها على الحال أو على النعت لمصدر محذوف تقديره: وراثة كلالة، ويصح على هذا أن تكون ﴿كان﴾ تامة بمعنى وقع،

(١) المحتسب ١: ١٨٢.
(٢) يريد عيسى بن عمر الثقفي.

ويصح أن تكون ناقصة وخبرها ﴿يُورَثُ﴾، وقال عطاء: الكلالة: المال، ونصب على المفعول الثاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاشتقاق في معنى الكلالة يفسد تسميةَ المال بها.

وقالت طائفة: الكلالة: الورثة، وهذا يستقيم على قراءة ﴿يورِث﴾ بكسر الراء، فينصب كلالةً على المفعول. واحتج هؤلاء بحديث جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنما يرثني كلالةٌ أفأوصي بمالي كله؟ وحكى بعضهم أن تكون (الكلالة) الورثة، ونصبها على خبر كان، وذلك بحذف مضاف، تقديره: ذا كلالة، ويستقيم سائر التأويلات على كسر الراء.

وقوله تعالى: ﴿ولهُ أخٌ أو أُخت﴾.. الآية، الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على الرجل، واكتفى بإعادته عليه دون المرأة، إذ المعنى فيهما واحد، والحكم قد ضبطه العطف الأول، وأصل أخت: أُخوة، كما أصل بنت: بنية، فضم أول أخت إذ المحذوف منها واو، وكسر أول بنت إذ المحذوف ياء، وهذا الحذف والتعليل على غير قياس.

وأجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية الإخوة لأم، لأن حكمهم منصوص في هذه الآية على صفة، وحكم سائر الإخوة مخالفٌ له، وهو الذي في كلالة آخر السورة.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: ﴿وله أخٌ أو أُخْتٌ لأُمه﴾. والأنثى والذكر في هذه النازلة سواء، وشركتهم في الثلث متساوية وإن كثروا، هذا إجماع، فإن ماتت امرأة وتركت زوجاً وأماً وإخوة أشقاء، فللزوج: النصف، وللأم: السدس،وما بقي: فللإخوة، فإن كانوا لأم فقط، فلهم الثلث، فإن تركت الميتة زوجاً وأما وأخوين لأم وإخوة لأب وأم، فهذه الحمارية، قال قوم فيها: للإخوة للأم: الثلث، ولا شيء للإخوة الأشقاء، كما لو مات رجل وخلف أخوين لأم، وخلف مائةَ أخٍ لأب وأم، فإنه يعطى الأَخوان الثلث، والمائة الثلثين، فيفضلون بالثلث عليهم، وقال قوم: الأمّ واحدةٌ وهب أباهم كان حمارا، وأشركوا بينهم في الثلث، وسموها أيضاً: المشتركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا تستقيم هذه المسألة أن لو كان الميت رجلا، لأنه يبقى للأشقاء، ومتى بقي لهم شيء فليس لهم إلا ما بقي، والثلث للإخوة للأم.

قوله عز وجل:

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿غيْرَ مُضَارٍّ﴾ نصب على الحال، والعامل ﴿يُوصي﴾، و ﴿وَصِيةً﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، والعامل ﴿يُوصيكم﴾، وقيل: هو نصب على الخروج من قوله: ﴿فلُكِلِّ واحدٍ منهما السُّدُس﴾ أومن قوله: ﴿فَهُمْ شُركاءُ في الثُّلُثِ﴾، ويصح أن يعمل ﴿مُضَار﴾ في ﴿وَصِيَّة﴾، والمعنى أن يقع الضرر بها وبسببها فأوقع عليها تجوزاً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿غيْر مُضَارِّ وصيةٍ﴾ بالإضافة، كما تقول: شجاعُ حربٍ، وَمِدْرَهُ حَرْبٍ، وبضةُ المتجرّدِ، في قول طرفة بن العبد[١]، والمعنى على ما ذكرناه من التجوز في اللفظ لصحة المعنى.

وقال ابن عباس: الضرار في الوصية من الكبائر، رواه عن النبي ﷺ، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من ضارَّ في وصية ألقاه الله تعالى في وادٍ في جهنم)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووجوه المضارة كثيرة لا تنحصر، وكلها ممنوعة: يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلثه، أولوارثه، أو بالثلث فراراً عن وارث محتاج، وغير ذلك. ومشهور مذهب مالك وابن القاسم أن الموصي

---

(١) يشير إلى قوله في المعلقة:

رحيبٌ قطاب الجيب منها رفيقةٌ بجسّ الندامى بضّة المتجرد

(٢) انظر الترمذي (باب الوصايا: ٢).

لا يعد فعله مضارة ما دام في الثلث، فإن ضار الورثة في ثلثه مضى ذلك، وفي المذهب قول: إن المضارةَ تُرَدّ وإن كانت في الثلث، إذا عُلِمَتْ بإقرار أو قرينة، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأَصْلَحَ بَيْنَهُم﴾(١)... الآية.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدودُ اللَّهِ﴾... الآية. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة المتقدمة في المواريث، والحد: الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره، ومن هذا قولهم للبواب: حدّاد لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة وهو امتناعها عن الزينة، هذا هو الحد في هذه الآية.

وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ يريد من تحت بنائها وأشجارها الذي من أجله سميت جنة، لأن أنهار الجنة إنما هي على وجه أرضها في غير أخاديد.

وحكى الطبري: إن الحدود عند السدي هنا شروط الله، وعند ابن عباس: طاعة الله، وعند بعضهم: سنة الله، وعند بعضهم: فرائض الله، وهذا كله معنى واحد وعبارة مختلفة، و ﴿خالدينَ﴾ قال الزجاج: هي حالة على التقدير، أي: مقدرين خالدين فيها، وجمع ﴿خالدين﴾ على معنى «مَنْ» بعد أن تقدم الإفراد مراعاة للفظ «مَن»، وعكس هذا لا يجوز.

(١) من الآية (١٨٢) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿ومَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورَسولَه﴾ . . . الآية، قرأ نافع وابن عامر: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الباقون: ﴿يُدْخله﴾ بالياء فيهما جميعا، وهذه آيتا وعد ووعيد، وتقدم الإيجاز في ذلك، ورجى الله تعالى على التزام هذه الحدود في قسمة الميراث، وتوعد على العصيان فيها بحسب إنكار العرب لهذه القسمة، وقد كلم فيها النبي ﷺ عيينةَ ابن حصن وغيره.

قوله عز وجل:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله: ﴿وَالَّلاتي﴾: اسم جمع «الَّتي»، وتجمع أيضاً على اللواتي، ويقال: اللائي بالياء، و ﴿الفاحِشَة﴾ في هذا الموضع: الزنى وكل معصية فاحشة، لكن الألف واللام هنا للعهد، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِالفاحِشَةِ﴾ ببناء الجر، وقوله: ﴿مِنْ نِسائِكم﴾ إضافةٌ في معنى الإسلام، لأن الكافرة قد تكون من نساء المسلمين بنسب، ولا يلحقها هذا الحكم، وجعل الله الشهادة على الزنى خاصة لا تتم إلا بأربعة شهداء تغليظاً على المدعي وستراً على العباد، وقال قوم: ذلك ليترتب شاهدان على كلِّ واحدٍ من الزانيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وكانت هذه أول عقوبات الزناة: الإمساك في البيوت. قال عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد: حتى نُسِخَ بالأذى الذي بعده، ثم نُسِخَ ذلك بآية النور وبالرجم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الأذى هو الأول، ثم نسخ بالإمساك، ولكن التلاوة أخرت وقدمت، ذكره ابن فُورك. و ﴿سَبيلًا﴾ معناه: مخرجا بأمر من أوامر الشرع، وروى حطان بن عبد الله الرقاشي عن عمران بن حصين أنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنزل عليه الوحي، ثم أقلع عنه ووجهه محمر، فقال: (قد جعل الله لهنَّ سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[(١)].

﴿واللَّذانِ﴾ تثنية «الَّذي»، وكان القياس أن يقال: اللذيان كرحيان قال سيبويه: حذفت الياء ليفرق بين الأسماء المتمكنة وبين الأسماء المُبْهَمات. قال أبو علي: حذفت الياء تخفيفا إذ قد أُمِنَ من اللبس في ﴿اللَّذان﴾؛ لأن النون لا تنحذف، ونون التثنيه في الأسماء المتمكنة قد تنحذف مع الإضافة في رحياك ومصطفيا القوم، فلو حذفت الياء لاشتبه المفرد بالاثنين، وقرأ ابن كثير: ﴿اللَّذانّ﴾ بشد النون، وتلك عوض من الياء المحذوفة، وكذلك قرأ: ﴿هذانّ﴾ و ﴿فذانّك﴾، و ﴿هاتينّ﴾، بالتشديد في جميعها،

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (باب الحدود ٤ : ٣٣ ط/ ١٢٩٠) والإمام أحمد في مسنده ٣ : ٤٧٦، وانظر الجامع الصغير ٢ : ٢.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: بتخفيف جميع ذلك، وشدد أبو عمرو ﴿فذانّك﴾ وحدها ولم يشدد غيرها. ﴿واللّذان﴾ رفع بالابتداء، وقيل: على معنى: فيما يتلى عليكم اللّذان. واختلف في الأذى، فقال عبادة والسدي: هو التعيير والتوبيخ، وقالت فرقة: هو السب والجفاء دون تعيير، وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال وما أشبهه.

قال مجاهد وغيره: الآية الأُولى في النساء عامة لهن، محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال، وبين بلفظ التثنية صنفي الرجال ممن أحصن وممن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصّ الكلام أصنافَ الزناة عليه، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأُولى: ﴿مِنْ نسائِكم﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنْكُم﴾، وقال السدي وقتادة وغيرهما: الآية الأُولى في النساء المحصنات، يريد: ويدخل معهن مَن أحصن من الرجال بالمعنى، والآية الثانية هي في الرجل والمرأة البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا القول تام، إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقد رجحه الطبري.

وقرأ ابن مسعود: ﴿والَّذين يفْعَلُونه مِنْكُمْ﴾.

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة

النور، قاله الحسن ومجاهد وغيرهما، إلا من قال: إن الأذى والتعيير باقٍ مع الجلد لأنهما لا يتعارضان بل يتحملان على شخص واحد. وأما الحبس فمنسوخ بإجماع. وآية الجلد عامة في الزناة محصنهم وغير محصنهم، وكذلك عممه رسول الله ﷺ في حديث حطان بن عبدالله الرقاشي الذي ذكرته آنفاً، وإن كان في صحيح مسلم فهو خبر آحاد. ثم ورد بالخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ رجم ولم يجلد، فمن قال: إن السنة المتواترة تنسخ القرآن، جعل رجم الرسول دون جلدٍ ناسخاً لجلد الثيّب، وهذا الذي عليه الأئمة؛ أن السنة المتواترة تنسخ القرآن، إذ هما جميعا وحيٌ من الله، ويوجبان جميعاً العلم والعمل، وإنما اختلفا في أن السنة نَقَصَ منها الإعجاز، وصحَّ ذلك عن النبي ﷺ في خبر ماعز، وفي حديث الغامدية، وفي حديث المرأة التي بعث إليها أنَيْس[1]. ومن قال:إن السنة المتواترة لا تنسخ القرآن قال: إنما يكون حكم القرآن موقنا، ثم تأتي السنة مستأنفة من غير أن تتناول نسخاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تخيل لا يستقيم لأنا نجد السنة ترفع بحكمها ما استقر من حكم القرآن على حدّ النسخ، ولا يرد ذلك نظر، ولا ينخرم منه أصل. أما إن هذه النازلة بعينها يتوجه عندي أن يقال فيها: إن

(١) ماعز والغامدية والمرأة التي بعث إليها أُنَيْس: قضايا يستند عليها في حدّ الزنى عند الفقهاء (انظر مثلاً صحيح مسلم ٢: ٣٤ ـ ٣٥ ط/ ١٢٩٠).

والغامدية: نسبة إلى غامد بالغين المعجمة، وقد قال ﷺ لأنيس: (اغد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) ولم يذكر الجلد.

الناسخ لحكم الجلد هو القرآن المتَّفق على رفع لفظه وبقاء حكمه، في قوله تعالى: ﴿الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إذا زنيا فارْجموهما البَتَّةَ﴾[١]، وهذا نص في الرجم، وقد قرره عمر على المنبر بمحضر الصحابة، وذكر أنهم قرؤوه على عهد النبي ﷺ، والحديث بكماله في مسلم[٢]. وأيضاً فيعضد أن ذلك من القرآن قول رسول الله ﷺ للذي قال له: فاقض بيننا يا رسول الله بكتاب الله، فقال له النبي ﷺ: لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، ثم أمر أُنَيْسا برجم المرأة إن هي اعترفت، فدلَّ هذا الظاهر على أن الرجم كان في القرآن، وأجمعت الأمة على رفع لفظه.

وهاتان الآيتان أعني الجلد والرجم لو لم يقع بيان من الرسول لم يجب أن تنسخ إحداهما الأخرى، إذ يسوغ اجتماعهما على شخص واحد، وحديث عبادة المتقدم يقوي جمعهما، وقد أخذ به علي رضي الله عنه في شُرَاحة: جلدها ثم رجمها، وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنّةِ رسول الله ﷺ، وبه قال الحسن وإسحق بن راهويه، ولكن لما بين الرسول برجمه دون جلد كان فعله بمثابة قوله مع هذه الآية: انفوا ولا تجلدوا، فيكون القرآن هو الناسخ والسنة هي المبينة؛ ويصح أن نعترض من ينسخ بالسنة في هذه النازلة فنقول: الناسخ من شروطه أن يستقلّ في البيان بنفسه، وإذا لم يستقل فليس بناسخ، وآيةُ

(١) قال القرطبي: أخرجه النسائي عن زيد، والصواب أن الذي خرجه البخاري، ولم يثبت عند جمع المصاحف، وكان في حفظ عمر.

(٢) لم أجده في مسلم، ولكنه في باب الحدود عند كل من أبي داود وابن ماجة والموطأ، وأورده الإمام أحمد في مسنده ٥: ١٨٢.

الرجم بعد أن يُسَلِّم ثبوتها لا تستقل في النسخ بنفسها، بل تنبني مع الجلد وتجتمع، كما تضمن حديث عبادة بن الصامت، لكن إسقاط الرسول الجلد هو الناسخ، لأن فعله في ذلك هو بمنزلة قوله: لا تجلدوا الثيب، وأما البكر فلا خلاف أنه يجلد، واختلف في نفيه ـ فقال الخلفاء الأربعة وابن عمر ومالك والشافعي وجماعة: لا نفي اليوم، وقالت جماعة: ينفى، وقيل: نفيه سجنه، ولا تنفى المرأة ولا العبد، هذا مذهب مالك وجماعة من العلماء.

وقوله ﴿فأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ كانت هذه العقوبة من الإمساك والأذى إرادة أن يتوب الزناة، وهو الرجوع عن الزنى والإصرار عليه، فأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وأصلحا في سائر أعمالهما أن يُكَفَّ عنهما الأذى، وجاء الأمر بهذا الكف الذي هو ﴿أَعْرِضُوا﴾. وفي قوة اللفظ غض من الزناة وإن تابوا، لأن تركهم إنما هو إعراض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾[1] وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجرة، ولكنها متاركة مُعْرِض، وفي ذلك احتقارٌ لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي: راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة.

---

(١) من الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

﴿إنَّما﴾ حاصرة، وهو مقصد المتكلم بها أبداً، فقد تصادف من المعنى ما يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله تعالى: ﴿إنَّما اللَّهُ إلهٌ واحدٌ﴾[١]،وقد تصادف من المعنى ما لا يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله: إنما الشجاع عنترة، فيبقى الحصر في مقصد المادح، ويتحصل من ذلك لكل سامع تحقيق هذه الصفة للموصوف بمبالغة.

وهذه الآية مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة للتوبة[٢]، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وحدّ التوبة: الندم على فارط فعل، من حيث هو معصية الله عز وجل، وإن كان الندم من حيث أضرَّ ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة، فإن كان ذلك الفعل مما يمكن هذا النادم فعله في المستأنف فمن شروط التوبة العزمُ على ترك ذلك الفعل في المستأنف، وإلا فثمَّ إصرارٌ لا توبةَ معه، وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنى فيجب بأثر ذلك

(١) من الآية (١٧١) من سورة النساء.
(٢) جاءت العبارة في بعض النسخ هكذا «مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة، إذ ليست التوبة إلا هذا الصنف المذكور، والتوبة في كلام العرب وفي عرف الشرع..».

ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك. والتوبة فرض على المؤمنين بإجماع الأمة، والإجماع هي القرينة التي حمل بها قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً﴾[١] على الوجوب، وتصحُّ التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب، وتصح التوبة وإن نقضها التائبُ في ثاني حال بمعاودة الذنب، فإن التوبةَ الأُولى طاعة قد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب إلى توبة أُخرى مستأنفة، والإيمان للكافر ليس نفس توبته، وإنما توبته ندمه على سالف كفره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: على فضل الله ورحمته لعباده، وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سكت قليلاً، ثم قال: يا معاذ أتدري ما حقُّ العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يدخلهم الجنة)[٢] فهذا كله إنما معناه: ما حقهم على فضل الله ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلا، لكن إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً، فمن ذلك تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان

(١) من الآية (٣١) من سورة النور.
(٢) أخرجه البخاري (عن أنس) في كتاب العلم.

الكافر، والتوبة لا يجب قبولها على الله تعالى عقلا، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب؛ قال أبو المعالي وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله بقبوله التوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى. فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامةَ الشروط، فقولُ أبي المعالي: يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أبي رحمة الله عليه يميل إلى هذا القول ويرجّحه، وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله تعالى: ﴿وهُو الَّذي يقْبَلُ التوبةَ عَنْ عِبادِهِ﴾(١) وقوله: ﴿وإنِّي لَغفَّارٌ لِمَنْ تابَ وآمنَ﴾(٢). والسوء في هذه الآية يعمُّ الكفرَ والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهالَةٍ﴾ معناه: بسفاهةٍ وقلةِ تحصيلٍ أدّى إلى المعصية، وليس المعنى أن تكونَ الجهالة أن ذلك الفعل معصية، لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا فاسدٌ إجماعاً. وبما ذكرته في الجهالة قال أصحاب رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عنهم

(١) من الآية (٢٥) من سورة الشورى.
(٢) من الآية (٨٢) من سورة طه.

أبو العالية، وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبي ﷺ على أنَّ كلَّ معصيةٍ فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً، وقال به ابن عباس ومجاهد والسدي، وروي عن مجاهد والضحاك أنهما قالا: الجهالةُ هنا العمْد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد الخاصةَ بها الخارجةَ عن طاعة الله. وهذا المعنى عندي جار مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الحياةُ الدُّنيا لعِبٌ ولَهْوٌ﴾[1] وقد تأول قوم قول عكرمة بأنه للذين يعملون السوءَ في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن الجهالة اسم للحياة الدنيا، وهذا عندي ضعيف، وقيل: ﴿بِجَهالَةٍ﴾، أي: لا يعلم كنه العقوبة، وهذا أيضاً ضعيف، ذكره ابن فُورك وَرُدَّ عليه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ ـ فقال ابن عباس والسدي: معنى ذلك: قبل المرض والموت، وقال أبو مجلز ومحمد بن قيس والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعايَنَةِ للملائكة والسَّوق[2]، وأن يُغْلَبَ المرء على نفسه. وروى أبو قلابة: (إن الله تعالى لما خلق آدم فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولُعِنَ وأُنظِر، قال: وَعِزَّتِكَ لا برحتُ من قبله ما دام فيه

(١) من الآية (٣٦) من سورة محمد، والآية (٢٠) من سورة الحديد.
(٢) السوق: حالة النزع وسكرات الموت، كأن الروح تساق لتخرج من البدن.

الروح، فقال الله تعالى: وعزتي لا أحجبُ عنه التوبة ما دام فيه الروح)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فابن عباس رضي الله عنه ذكر أحسنَ أوقات التوبة، والجمهور حدّوا آخر وقتها. وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه. وروى بشير بن كعب والحسن أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غُلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قريبٍ﴾ إنما معناه: من قريب إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضلُ وأحقُ لأملِهِ من العمل الصالح، والبعدُ كلُّ البعدِ الموت، ومنه قول مالك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣: ٢٩، ٤١، ٧٦) عن أبي سعيد الخدري؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني.

(٢) راجع الحديث في مسند أحمد ٢: ١٣٢، ١٥٣، ٣: ٤٢٥ وفي الترمذي (دعوات: ٩٨ وابن ماجة) (الزهد: ٣٠).

ابن الريب[١]:

. . . . وأينَ مكانُ البُعْدِ إلَّا مكانيا؟

وقوله تعالى: ﴿وكان اللَّهُ عليماً حكيماً﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، حكيماً فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾... الآية أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجماعة المفسرين.

وقال الربيع: الآية الأولى قوله: ﴿إنما التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ هي في المؤمنين، والآية الثانية قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾... الآية نزلت في المسلمين ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء﴾[٢] فحتم ألَّا يغفر للكافر وأرجأ المؤمنين إلى مشيئته، لم ييئسهم من المغفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وطعن بعض الناس في هذا القول بأن الآية خبر، والأخبار لا تنسخ. وهذا غير لازم، لأن الآية لفظها الخبر، ومعناها تقرير حكم شرعي، فهي نحو قوله تعالى: ﴿وإنْ تُبْدُو ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفوه

---

(١) مالك بن الريب التميمي من شعراء الإسلام في أول بني أمية، كان في مبتدأ أمره قاطع طريق ثم تاب، وغزا مع سعيد بن عثمان خراسان، وعند قفوله من الغزو مرض فرثى نفسه بقصيدة طويلة يائية، منها هذا البيت، والصدر فيه: يقولون لا تبعد وهم يدفنونني (أنظر أخباره في الأغاني ٢٢: ٣٠٥ ط. دار الثقافة).

(٢) من الآية (٤٨) من سورة النساء.

يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾[1] ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يغْلِبُوا مائَتَين﴾[2] وإنما يضعف القول بالنسخ من حيث تنبني الآيتان ولا يحتاج إلى تقرير نسخ، لأن هذه الآية لم تنف أن يغفر للعاصي الذي لم يتب من قريب، فنحتاج أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَغْفِر ما دُونَ ذلكَ﴾ نسخها، وإنما نفت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت. فالعقيدة عندي في هذه الآيات: أن من تاب من قريب فله حكم التائب فيغلب الظن عليه أنه ينعم ولا يعذب، هذا مذهب أبي المعالي وغيره، وقال غيرهم: بل هو مغفور له قطعاً لإخبار الله تعالى بذلك، وأبو المعالي يجعل تلك الأخبار ظواهر مشروطة بالمشيئة، ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين، فإن كان كافراً فهو يخلد، وإن كان مؤمناً فهو عاص في المشيئة، لكن يغلب الخوف عليه، ويقوى الظن في تعذيبه، ويقطع من جهة السمع أن من هذه الصنيفة من يغفر الله تعالى له تفضلاً منه ولا يعذبه. وأعلم الله تعالى أيضاً أن الذين يموتون وهم كفار فلا مستعتب لهم ولا توبة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُولئكَ أَعْتَدْنَا لَهُم عذاباً أَليماً﴾ ـ إن كان الإشارة إلى الذين يموتون وهم كفار فقط، فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد، ممن لا يتوب إلا مع حضور

(١) من الآية (٢٨٤) من سورة البقرة.
(٢) من الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

الموت من العصاة فهو في جهة هؤلاء عذاب ولا خلود معه، و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يسرناه وأحضرناه، وظاهر هذه الآية أن النار مخلوقة بعد.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

اختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً﴾ ـ فقال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته من أهلها، إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها من غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج، فنزلت الآية في ذلك، قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف(١): لما توفي أبو قيس بن الأسلت(٢)، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك، ذكر النقاش أن اسم ولد أبي قيس: محصن.

---

(١) أبو أمامة بن سهل بن حنيف اسمه أسعد، سمّاه رسول الله وكناه (باسم جده لأمه وكنيته)، توفي سنة ١٠٠ هـ، وهو ابن نيف وتسعين (الاستيعاب: ١٦٠/٢).

(٢) أبو قيس صيفي بن الأسلت الأنصاري، وقيل في اسمه: الحارث وقيل: عبدالله، وكان من الحنفاء في الجاهلية، ولكنه لم يسلم ـ في الأرجح ـ (انظر تهذيب ابن عساكر ٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٨).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي، ألا ترى أن أبا عمرو بن أمية خلَفَ على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافراً وأبا معيط وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما. وقال بمثل هذا القول الذي حكيت عن ابن عباس: عكرمة والحسن البصري وأبو مجلز، قال عكرمة: نزلت في كبيشة بنت معن الأنصارية، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت، وقال مجاهد: كان الابن الأكبر أحق بامرأة أبيه إذا لم يكن ولدَها، وقال السدي: كان ولي الميت إذا سبق فألقى على امرأة الميت ثوبه فهو أحق بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحقَّ بنفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والروايات في هذا كثيرة بحسب السير الجاهلية، ولا منفعة في ذكر جميع ذلك، إذ قد أذهبه الله بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُم﴾، ومعنى الآية على هذا القول: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمال، يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال، والمتلبس بالخطاب أولياء الموتى، وقال بعض المتأولين: معنى الآية: لا يحلّ لكم عَضْلُ النساء اللواتي أنتم أولياءُ لهنّ وإمساكهن دون تزويج حتى يمتن فتورثَ أموالهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول فالموروث مالها لا هي، وروي نحو هذا عن ابن عباس وغيره. والمتلبس بالخطاب أولياء النساء وأزواجهن إذا

حبسوهن مع سوء العشرة طماعية أنْ يَرِثُوهُنَّ(١).

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: ﴿كَرْهًا﴾ بفتح الكاف حيث وقع في النساء وسورة التوبة وفي الأحقاف، وقرأ حمزة والكسائي جميع ذلك بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في النساء والتوبة بفتح الكاف، وفي الأحقاف في الموضعين بضمها، والكَرْه والكُرْه لغتان كالضَّعف والضُّعف، والفَقْر والفُقْر، قاله أبو علي. وقال الفراء: هو بضم الكاف: المشقة وبفتحها: إكراهُ غير، وقاله ابن قتيبة.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ولا تعْضُلوهنَّ﴾ . . . الآية ـ فقال ابن عباس وغيره: هي أيضاً في أولئك الأولياء الذين كانوا يرثون المرأة لأنهم كانوا يتزوجونها إذا كانت جميلة، ويمسكونها حتى تموت إذا كانت دميمة، وقال نحوه الحسن وعكرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجيء في قوله﴿آتَيْتُموهُنَّ﴾ خلط، أي: ما آتاها الرجال قبل، فهي كقوله: ﴿فاقْتُلوا أَنفسَكُم﴾ وغير ذلك، وقال ابن عباس أيضاً: هي في الأزواج: في الرجل يمسك المرأة ويسيء عشرتها حتى تفتدي منه، فذلك لا يحل له، وقال مثله قتادة، وقال ابن البيلماني: الفصل الأول من الآية هو في أمر الجاهلية، والثاني في العضلِ هو في أهل الإسلام في حبس الزوجة ضراراً للفدية. وقال ابن مسعود: معنى الآية: لا ترثوا النساءَ كفعل الجاهلية، ولا تعضلوهن في الإسلام، وقال نحو هذا القول السدي والضحاك، وقال السدي:

(١) نقلها عن ابن عطية في «فتح القدير»: «طمعاً في إرثهن».

هذه الآية خطاب للأولياء، كالعضل المنهيِّ عنه في سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، إلا أن يكون العضلُ من ولي وارث، فهو يؤمل موتها، وإن كان غيرَ وارث فبأي شيء يذهب؟، وقال ابن زيد: هذا العضلُ المنهي عنه في هذه الآية هو من سير الجاهلية في قريش بمكة، إذا لم يتوافق الزوجان طلقها على ألا تتزوجَ إلا بإذنه، ويُشْهِدُ عليها بذلك، فإذا خطبت فإن أَعطته ورشته وإلا عضل، ففي هذا نزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي أقول: إن العضل في اللغة: الحبس في شدةٍ ومضرّة، والمنعُ من الفرج في ذلك، فمن ذلك قولهم: أعضلت الدجاجة وعضلت إذا صعب عليها وضع البيضة، ومنه أعضل الداء إذا لجَّ ولم يبرأ، ومنه داء عضال، ومشى عرف الفقهاء على أن العضل من الأولياء في حبس النساء عن التزويج، وهو في اللغة أعمّ من هذا حسبما ذكرت، يقع من وليّ ومن زوج، وأقوى ما في هذه الأقوال المتقدمة أَن المراد الأزواج، ودليل ذلك قوله: ﴿إلا أنْ يأتِينَ بفاحِشَةٍ﴾، وإذا أتت بفاحشة فليس للولي حَبْسُهَا حتى يذهبَ بمالها إجماعا من الأمة، وإنما ذلك للزوج على ما سنبين بعد إن شاء الله. وكذلك قوله: ﴿وعَاشِروهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾ إلى آخر الآية يظهر منه تقوية ما ذكرته، وإن كان ذلك يحتمل أن يكون أمراً منقطعاً من الأول

يُخَصّ به الأزواج. وأما العضل فمنهيٌّ عنه كل من يتصور في نازلة عاضلاً، ومتى صح في ولي أنه عاضل نظر القاضي في أمر المرأة وزوَّجَها ولم يلتفت، إلا الأب في بناته، فإنه إن كان في أمره إشكال فلا يُعْتَرَضُ قولا واحداً(١)، وإن صَحَّ عضله ففيه قولان في مذهب مالك: أحدهما أنه كسائر الأولياء، يزوج القاضي من شاء التزويج من بناته وطلبه، والقول الآخر أنه لا يعرض له.

ويحتمل قوله: ﴿ولا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أن يكون جزماً، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأولى، ويحتمل أن يكون ﴿تعْضُلوهُنَّ﴾ نصبا عطفاً على ﴿تَرِثُوا﴾ فتكون الواو مشركة عاطفة فعلٍ على فعل.

وقرأ ابن مسعود: ﴿ولا أن تعْضُلوهُنَّ﴾ فهذه القراءة تقوي احتمال النصب، وأن العضل مما لا يحل بالنص، وعلى تأويل الجزم هو نهيٌ معرض لطلب القرائن في التحريم أو الكراهية، واحتمال النصب أقوى.

واختلف الناس في معنى الفاحشة هنا ـ فقال الحسن بن أبي الحسن: هو الزنى، وإذا زنت البكر فإنها تجلد مائة وتنفى سنة، وتردّ إلى زوجها ما أخذت منه، وقال أبو قلابة: إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارّها ويشقَّ عليها حتى تفتديَ منه، وقال السدي: إذا

(١) جاءت هذه العبارة في تفسير القرطبي (٥: ٩٦) وهو ينقل عن ابن عطية: «إلا الأب في بناته فإنه إن كان في عضله صلاح فلا يعترض قولاً واحداً».

فعلن ذلك فخذوا مهورهن، وقال عطاء الخراساني: كان هذا الحكم ثم نُسِخَ بالحدود، وهذا قول ضعيف، وقال ابن عباس رحمه الله: الفاحشةُ في هذه الآية: البغض والنشوز، وقاله الضحاك وغيره، قالوا: فإذا نشزت حلَّ له أن يأخذ مالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو مذهب مالك، إلا أني لا أحفظ له نصاً في معنى الفاحشة في هذه الآية.

وقال قوم: الفاحشة: البذاء باللسان وسوء العشرة قولاً وفعلاً، وهذا في معنى النشوز. ومن أهل العلم من يجيز أخذَ المال من الناشز على جهة الخلع، إلا أنه يرى ألا يتجاوز ما أعطاها ركونا إلى قوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاآتَيْتُمُوهُنَّ﴾. وقال مالك وأصحابه وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والزنى أصعب على الزوج من النشوز والأذى، وكل ذلك فاحشة تُحِلُّ أَخْذَ المال، وقرأ ابن مسعود: ﴿إلا أن يفحشن، وعاشروهن﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف مفرط لمصحف الإمام. وكذلك ذكر أبو عمرو عن ابن عباس وعكرمة وأبيّ بن كعب، وفي هذا نظر. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿مُبَيَّنة﴾ ﴿وآيات مُبَيَّنات﴾ بفتح الياء فيهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص والمفضل عن عاصم: ﴿مبيِّنة﴾ و ﴿مبيِّنات﴾

بكسر الياء فيهما، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿مُبيِّنة﴾ بالكسر، و ﴿مُبَيَّنات﴾ بالفتح، وقرأ ابن عباس: ﴿بفاحشةٍ مُبِينة﴾ بكسر الباء وسكون الياء، من أبان الشيء. وهذه القراءات كلها لغات فصيحة، يقال: بيَّنَ الشيء وأبان: إذا ظهر، وبان الشيء وبينته.

وقوله تعالى: ﴿وعاشِروهُنَّ بالْمَعْروفِ﴾ أمر للجميع، إذ لكلّ أحدٍ عشرة، زوجاً كان أووليا، ولكن المتلبس في الأغلب بهذا الأمر الأزواج، والعشرة: المخالطة والممازجة، ومنه قول طرفة[(١)]:

فلئن شَطَّتْ نواها مرةً لعلى عَهْدِ حبيبٍ مُعْتَشِرْ

جعل «الحبيب» جمعاً كالخليط والفريق. يقال: عاشره معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا، وأرى اللفظة من أعشار الجزور، لأنها مقاسمة ومخالطة ومخالقة جميلة، فأمر الله تعالى الرجال بحسن صحبة النساء، وإلى هذا ينظر قول النبي ﷺ: (فاستمتع بها وفيها عوج)[(٢)]. ثم أدب تعالى عباده بقوله: ﴿فإنْ كرهْتُمُوهُنَّ﴾ إلى آخر الآية. قال السدي: الخير الكثير في المرأة: الولد، وقال نحوه ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن فصاحة القرآن العموم الذي في لفظة «شيء» لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء مما يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر، إذ عاقبته إلى خير، إذا أُريد به وجه الله.

---

(١) البيت في ديوان طرفة (ص: ٥١/ط. باريس) وروايته: معتكر. أي: مُقيمٌ على حبِّها

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة (٦: ٢٧٩): المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وهو يستمتع بها على عوجٍ فيها، وانظر الترمذي (طلاق: ١٢).

قوله عز وجل:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

لما مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة، وأن للزوج أخذَ المال منها، عقب ذلك ذكر الفراق الذي سببه الزوج، والمنع من أخذ مالها مع ذلك، فهذا الذي في هذه الآية هو الذي يختص الزوج بإرادته.

واختلف العلماء: إذا كان الزوجان يريدان الفراق، وكان منهما نشوز وسوء عشرة، فقال مالك رحمه الله: للزوج أن يأخذ منها إذا سببت الفراق، ولا يراعي تسببه هو، وقالت جماعة من العلماء: لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالنشوز وبظلمه في ذلك. وقال بعض الناس: يخرج في هذه الآية جواز المغالاة بالمهور، لأن الله تعالى قد مثل بقنطار، ولا يمثل تعالى إلا بمباح.

وخطب عمر بن الخطاب فقال: ألا لا تغالوا بمهورِ نسائكم، فإن الرجل يُغَالي حتى يكون ذلك في قلبه عداوة للمرأة، يقول، تجشمتُ إليك عَلَقَ القِرْبةِ أو عَرَقَ القربة(١)، فيروى أن امرأة كلَّمته من وراء الناس فقالت: كيف هذا؟ والله تعالى يقول: ﴿وآتيْتُم إحداهُنَّ قِنْطاراً﴾ قال: فأطرق عمر

(١) قال القرطبي: علق القربة: عصامها الذي تعلق به، وعرق القربة هو ماؤها، وقيل هو سيلانها. وقال الأصمعي: معناها الشدة، ولا أدرى ما أصلها.

ثم قال: «كلُّ الناس أفقه منك يا عمر». ويروى أنه قال: «امرأةٌ أصابتْ ورجلٌ أخطأ»، والله المستعان، وتركَ الإنكارَ.

وقال قوم: لا تعطي الآية جواز المغالاة بالمهور لأن التمثيل جاء على جهة المبالغة، كأنه قال: وآتيتم هذا القدر العظيم الذي لا يؤتيه أحد، وهذا كقوله عليه السلام: (من بنى لله مسجداً ولو كمَفْحَص قطاة [لبيضها] بنى الله له بيتا في الجنة)[1] فمعلوم أنه لا يكون مسجد كمَفْحَصٍ، وقد قال النبي عليه السلام لابن أبي حَدْرد - وقد جاء يستعينه في مهره - فسأله عن المهر فقال: مائتين، فغضب رسول الله ﷺ وقال: (كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرَّة أو جبل)[2]. . . الحديث - فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة بالمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يلزم، لأن هذا أَحوجَ نفسه إلى الاستعانة والسؤال، وذلك مكروهٌ باتفاق، وإنما المغالاة المختلف فيها مع الغنى وسعة المال، وقرأ ابن محيصن بوصل ألف ﴿احْداهُنَّ﴾ وهي لغة تحذف على جهة التخفيف. ومنه قول الشاعر:

---

(١) أورده أحمد في مسنده ١: ٢٤١ (عن ابن عباس) وانظر ابن ماجة (مساجد: ١).

(٢) هو عبد الله بن أبي حدْرد ويروي حفيده إسماعيل أن جدّه عبد الله تزوج امرأة على أربع أواق فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (لو كنتم تنحتون من الجبل ما زدتم)؛ أخرجه أحمد من طريق عبد الواحد بن أبي عون عن جدته عن ابن أبي حدرد بمعناه (انظر الإصابة ٤: ٥٤، ٥٥).

. . . . وتَسْمَعُ من تحْتِ العَجَاج لها ازْمِلا[(١)]

وقول الآخر:

*إن لم أقاتل فالْبِسوني بُرْقُعَا[(٢)]

وقد تقدم القول في قدر القنطار في سورة آل عمران، وقرأ أبو السمال: ﴿منه شَيَئاً﴾ بفتح الياء والتنوين، وهي قراءة أبي جعفر. والبهتان: في موضع الحال، ومعناه: مبهتاً محيراً لشنعته وقبح الأحدوثة والفعلة فيه.

ثم وعظ تعالى عباده مذكراً لهم بالمودة التي بين الزوجين الموجبة لحياطة مال المرأة، إذ قد أُخذ منها العوض عما أُعْطِيَتْهُ، ﴿وكيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال؛ وافْضَى معناه: باشر وجاوز أقصى المجاوزة، ومنه قول الشاعر:

بِلًى وثأى أفضى إلى كلِّ كَتْبَةٍ بَدَاسَيْرُهَا من ظاهرٍ بعد باطن[(٣)]

وفي المثل: «الناسُ فَوْضَى فضاً»، أي: مختلطون يباشر أمر بعضهم بعضا[(٤)]، وتقول: أفضت الحال إلى كذا أي: صارت إليه. وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، قال ابن عباس: ولكن

(١) هذا عجز بيت، وصدره: «تضب لثات الخيل في حَجَراتها». أورده ابن جني في الخصائص ٣: ١٥١، والمحتسب ١: ١٢٠، ١٨٤ شاهداً على حذف الهمزة، انظر القرطبي ٥: ١٠١.

(٢) ورد هذا الشطر أيضاً في الخصائص ٣: ١٥١ والمحتسب ١: ١٢٠ والقرطبي ٥: ١٠١ ولم أهتد لقائله أو شطره الآخر.

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في رواية هذا البيت، ولم يستشهد به القرطبي ولا أبو حيان.
بلًى: من قولنا: بلي الثوب رثَّ.
ثأى: من قولنا: ثأى الخرز ثأياً فتقه ـ فالثأى هو: الفساد والقلق.
أفضى: انتهى إلى.
كَتْبةٍ: من قولنا: كتب السقاء ونحوه: خرزه بسيرين، أي خاطه.
وكأنه يصف القربة أو نحوها بأن البلى والفساد انتهى إلى كل خيط في سيرها.

(٤) عبارة القرطبي: أي مختلطون لا أمير عليهم. وهذا ما ذكره اللسان. ولعّل الصواب: (يباشر بعضهم أمر بعض).

الله كريم يكْني.

واختلف الناس في المراد بالميثاق الغليظ ـ فقال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فإمْسَاكٌ بمعروفٍ أو تسريح بإحْسانٍ﴾، وقال مجاهد وابن زيد: الميثاق الغليظُ: عقدة النكاح، وقول الرجل: نكحت وملكت النكاح ونحوه، فهذه التي بها تُسْتَحَلُّ الفروج. وقال عكرمة والربيع، الميثاق الغليظ يفسره قول النبي ﷺ: (استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلام الله)[١] وقال قوم: الميثاق الغليظ: الولد.

ومن شاذ الأقوال في هذه الآية أن بكر بن عبد الله المزني قال: لا يجوز أن يؤخذ من المختلعة قليل ولا كثير، وإن كانت هي المريدةَ للطلاق، ومنها أن ابن زيد قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ولاَ يَحِلُّ لكُمْ أنْ تأْخُذوا مِمَّا آتيتموهُنَّ شيئاً إلَّا أنْ يخافا ألاَّ يُقيما حدودَ اللَّهِ﴾[٢]... الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس في شيء من هذه الآيات ناسخ ولا منسوخ، وكلها ينبني بعضها مع بعض.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ

(١) ورد هذا الحديث في خطبته ﷺ في حجة الوداع. وأخرجه ابن أبي شيبة عن عكرمة ومجاهد (فتح القدير ١: ٤٤٣).

(٢) من الآية (٢٢٩) من سورة البقرة.

سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾

هذه الآية مخاطبة للمؤمنين من العرب في مدة نزول الآية ، ومعنى الآية والتحريم الذي بعدها مستقر على المؤمنين أجمع .وسبب الآية أن العرب كان منهم قبائل قد اعتادت أن يخلف الرجل على امرأة أبيه ، على ما ذكرناه من أمر أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، ومن ذلك خبر أبي قيس بن الأسلت ، ومن ذلك صفوان بن أُمية بن خلف ، تزوج بعد أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد ،وكانت امرأة أبيه ، قتل عنها ،ومن ذلك منظور بن زبّان ، خلف على مُلَيْكَة بنت خارجة ، وكانت عند أبيه زبان بن سيار ، إلى كثير من هذا . وقد كان في العرب من تزوج ابنته ، وهو حاجب بن زرارة ، تمجَّسَ وفعل هذه الفعلة ، ذكر ذلك النضر بن شميل في كتاب المثالب ، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السير. وقال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، فنزلت هذه الآية في ذلك .

واختلف المتأولون في مقتضى ألفاظ الآية ـ فقال فرقة : قوله: ﴿ما نكَحَ﴾ يراد به النساء، أي: لا تنكحوا النساء اللواتي نكح آباؤكم، وقوله : ﴿إلا ما قَدْ سَلَفَ﴾ معناه :لكن ما قد سلف فدعوه ،وقال بعضهم :المعنى : لكن ما قد سلف فهو معفوّ عنكم لمن كان واقعه ، فكأنه قال تعالى : «وَلا تفعلوا حاشا ما قد سلف» ، فـ ﴿ما﴾ على هذا القول واقعة على من يعقل من حيث

هؤلاء النساء صنف من أصناف من يعقل، و ﴿ما﴾ تقع للأصناف والأوصاف ممن يعقل .وقالت فرقة :قوله :﴿مانَكَحَ﴾ يراد به فعل الآباء، أي : لا تنكحوا كما نكح آباؤ كم من عقودهم الفاسدة، وقوله : ﴿إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ﴾ معناه :إلا ماتقدم منكم ووقع من تلك العقود الفاسدة فمباحٌ لكم الإقامة عليه في الإسلام ، إذا كان مما يُقْدَر عليه من جهة القرابة ، ويجوّزه الشرع إن لو ابتدىء نكاحه في الإسلام على سنته، وقيل : معنى ﴿إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ﴾ أي : فهو معفو عنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و ﴿ما﴾ على هذا مصدرية ،وفي قراءة أبي بن كعب :﴿إلاَّما قد سَلفَ إلا مَنْ تابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك حكاه أبو عمرو الداني.

وقال ابن زيد: معنى الآية: النهيُ عن أن يطأ الرجل امرأةً وطئها الآباء، إلا ما قد سلف من الآباء في الجاهلية من الزنى، لا على وجه المناكحة، فذلك جائز لكم زواجهم في الإسلام، لأن ذلك الزنى كان فاحشةً، قال ابن زيد: فزاد في هذه الآية المقت.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية: كل امرأة تزوجها أبوك أو ابنك دخل أو لم يدخل فهي عليك حرام. و ﴿كان﴾ في هذه الآية تقتضي الماضي والمستقبل، وقال المبرد: هي زائدة، وذلك خطأ يردّ عليه وجود الخبر منصوباً؛ والمقت: البغض والاحتقار بسبب رذيلة يفعلها، فسمى تعالى هذا النكاح مقتاً إذ هو ذا مقت يلحق فاعله. وقال أبو عبيدة وغيره :كانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوج الوالد المقتي ،وقوله :

﴿وساء سبيلاً﴾ أي: بئس الطريق والمنهج لمن يسلكه ، إذ عاقبته إلى عذاب الله.

وقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ . . . الآية ، حكم حرم الله به سبعا من النسب ، وستاً من بين رضاع وصهر ، وألحقت السنة المتواترة سابعة ، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها ، ومضى عليه الإجماع ، وروي عن ابن عباس أنه قال: حرم من النسب سبع ، ومن الصهر سبع ، وتلا هذه الآية ، وقال عمرو بن سالم مولى الأنصار: مثل ذلك ، وجعل السابعة قوله تعالى: ﴿والمُحْصَنات مِنَ النساءِ﴾. وتحريم الأُمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه ، ويسميه أهل العلم «المبهم» أي لا باب فيه ، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته ، وكذلك تحريم البنات والأَخوات ، فالأم كلّ من ولدت المرء وإن علت ، والبنت كل من ولدها وإن سفلت ، جمعه وإياها صلبٌ أو بطن ، والعمة أخت الأب ، والخالة أخت الأم ، كذلك فيهما العموم والإبهام ، وكذلك عمة الأب وخالته ، وعمة الأم وخالتها ، وكذلك عمة العمة ، وأما خالة العمة فينظر ، فإن كانت العمة أخت أب لأُمٍّ أو لأب وأم فلا تحل خالة العمة ، لأنها أختُ الجدة ، وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط فخالتها أجنبية من بني أخيها ، تحلّ للرجال ، ويجمع بينها وبين النساء ؛ وكذلك عمة الخالة ينظر ، فإن كانت الخالة أخت أم لأب ، فعمتها حرام ، لأنها أخت جد ، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها ، وكذلك في بنات الأخ وبنات الأخت العموم والإبهام ، سواء كانت الأخوة أَشِقَّــاء ، أو لأب أو لأم .

وقرأ أبو حيوة : ﴿مِنَ الرِّضاعَةِ﴾ بكسر الراء ، والرضاع يحرم ما يحرم النسب ، والمرضعة أم ، وما تقدم من أولادها وتأخر إخوة ، وفحل اللبن

أب، وما تقدم من أولاده وتأخر إخوة. وقرأ ابن مسعود: ﴿اللَّاي﴾ بكسر الياء، وقرأ ابن هرمز: ﴿وأُمَّهاتكم الَّتي﴾ بالإفراد، كأنه من جهة الإبهام مع الواحد والجماعة.

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿وأُمَّهات نِسائِكُم﴾ـ فقال جُمْهورُ أَهْل العلم: هي تامة العموم فيمن دخل بها أو لم يدخل، فبالعقد على الابنة حرمت الأم، وهذا مذهب جملة الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قيل له في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أيتزوج أمها؟ قال: نعم، هي بمنزلة الربيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد أن قوله تعالى: ﴿مِنْ نسائِكم اللَّاتي دخلتمْ بهنَّ﴾ شرط في هذه وفي الربيبة، وروي نحوه عن ابن عباس، وروي عنه كقول الجمهور. وروي عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإن طلقها قبل أن يدخل بها، فإن شاء فعل. وقال مجاهد: الدخول مراد في النازلتين، وقول جمهور الناس مخالف لهذا القول. وروي في ذلك عن زيد بن ثابت أنه قال: ﴿أُمَّهاتُ نِسائِكُم﴾ مبهمة، وإنما الشرط في الربائب. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أكان ابن عباس يقرأ: ﴿وأمهات نِسَائِكم اللَّاتي دخلتمْ بِهِنَّ﴾؟ فقال: لا تترأ، قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترأ؟ قال: كأنه قال: لالا. ويردّ هذا القول من جهة الإعراب أنَّ المجرورَيْن إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحداً، ومعناه: إذا اختلفا في العامل، وهذه الآية قد اختلف فيها جنس العامل.

قوله عز وجل:

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

الرَّبيبة: بنت امرأة الرجل من غيره، سميت بذلك لأنه يربيها في حجره فهي مربوبته. وربيبة: فعيلة بمعنى مفعولة، وقوله تعالى: ﴿اللاَّتي في حُجُوركم﴾ ذكر الأغلب في هذه الأمور، إذ هي حالة الربيبة في الأكثر، وهي محرَّمة وإن كانت في غير الحجر، لأنها في حكم أنها في الحجر، إلا ما روي عن علي أنه قال: تحلُّ إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بالأم، إذا كانت بعيدة عنه، ويقال: حِجر بكسر الحاء وفتحها، وهو مُقَدَّمُ ثوب الإنسان وما بين يديه منه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في الحفظِ والسترِ، لأن اللابسَ إنما يحفظ طفلاً وما أشبه بذلك الموضع من الثوب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿دخلْتُمْ بِهِنَّ﴾ - فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع: الجماع، فإن طلق الرجل بعد البناء وقبل الوطءِ فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك بن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبيل والمضاجعة وجميع أنواع التلذذ يُحَرِّمُ الابنةَ كما يحرمها الوطء؛ والحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحلّ مع الرجل حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محلَّلة. وقوله: ﴿الَّذين منْ أَصْلابِكُم﴾ تخصيصٌ ليخرج عنه كل من كانت العرب تتبناه ممن

ليس للصلب، وكان عندهم أمرا كثيراً قوي الحكم.

قال عطاء بن أبي رباح: يُتَحَدَّث - والله أعلم - أنها نزلت في محمد عليه السلام حين تزوج امرأة زيد بن حارثة، فقال المشركون: قد تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية.

وحرمت حليلة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)(١) وقوله تعالى: ﴿وأَن تَجْمعوا بينْ الأُختين إلا ما قدْ سَلَفَ﴾ لفظ يعم الجمع بنكاح وبملك يمين، وأجمعت الأمة على منع جمعهما بنكاح، وأما بملك يمين فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أحلتهما آية، وحرمتهما آية. فأما أنا في خاصة نَفسي فلا أرى الجمع بينهما حسنا. وروي نحو هذا عن ابن عباس، ذكره ابن المنذر، وذكر أَن إسحق بن راهويه حرم الجمع بينهما بالوطء، وأَن جمهور أهل العلم كرهوا ذلك، وجعل مالكا فيمن كرهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف في جواز جمعهما في الملك، وكذلك الأم وبنتها، ويجيء من قول إسحق أن يرجم الجامع بينهما بالوطء، وتستقرأ الكراهية من قول مالك: إنه إذا وطىء واحدة ثم وطىء أخرى وقف عنهما حتى يحرم إحداهما، فلم يُلزمه حدا.

واختلف العلماء بعد القول بالمنع من الجمع بينهما بالوطء، إذا كان يطأ واحدة ثم أراد أن يطأ الأخرى - فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وابن

(١) ورد في مواضع متعددة من صحيح البخاري، كما أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

عُمَر والحسن البصري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه، ببيع أو عتق أو بأن يزوجها. قال ابن المنذر: وفيها قول ثان لقتادة، وهو أنه إن كان يطأ واحدة وأراد وطء الأخرى فإنه ينوي تحريم الأولى على نفسه وألّا يقربها، ثم يمسك عنها حتى يستبرىء الأولى المحرمة، ثم يغشى الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومذهب مالك رحمه الله: إذا كان أختان عند رجل بملك، فله أن يطأ أيتهما شاء، والكف عن الأخرى موكول إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله، من إخراج عن الملك أو تزويج أو عتق إلى أجل أو إخدام طويل، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى، ولم يبق ذلك إلى أمانته، لأنه متهم فيمن قد وطىء، ولم يكن قبلُ متهماً إذ كان لم يطأ إلا الواحدة. وإن كانت عند رجل أمة يطؤها ثم تزوج أختها، ففيها في المذهب ثلاثة أقوال: في النكاح الثالث من المدونة أنه يوقَفُ عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداهما مع كراهيته لهذا النكاح، إذ هو عقد في موضع لا يجوز فيه الوطء، وذلك مكروه إلا في الحيض، لأنه أمر غالب كثير، وفي الباب بعينه قول آخر: إن النكاح لا ينعقد. وقال أشهب في كتاب الاستبراء: عقد النكاح في الواحدة تحريم لفرج المملوكة؛ وثبت عن النبي ﷺ أنه نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وأجمعت الأمة على ذلك؛ وقد رأى بعض العلماء أن هذا

الحديث ناسخ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لكُمْ ما وراءَ ذلِكُم﴾، وذلك الحديث من المتواتر، وكذلك قوله عليه السلام: (يحرم من الرضاعة ما من النسب) قيل أيضاً: إنه ناسخ.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ ما قدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن ما قد سلف من ذلك ووقع وأزاله الإسلام فإن الله يغفره، والإسلام يجبّه.

انتهى بعون الله الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع، وأوله قوله تعالى:

﴿والمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ﴾

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة آل عمران	٣
السورة مدنية بإجماع	٣
قوله عز وجل : (الـمٓ الله لا إله إلا هو الحي القيوم) إلى آخر الآية ٤	٣
قصة وفد نجران الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥
قوله عز وجل : (إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء) إلى قوله : (وأخر متشابهات) من الاية ٧	١٥
قوله عز وجل : (فأما الذين في قلوبهم زيغ) إلى آخر الآية ٧	٢٢
قوله عز وجل : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) إلى آخر الآية ٩	٢٩
قوله عز وجل : (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم) إلى آخر الآية ١١	٣١
قوله عز وجل : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) إلى آخر الآية ١٣	٣٣
قوله عز وجل : (زين للناس حب الشهوات) إلى آخر الآية ١٤	٣٩
قوله عز وجل : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) إلى آخر الآية ١٥	٤٧
قوله عز وجل : (الذين يقولون ربنا إننا آمنا) إلى آخر الآية ١٧	٤٩
قوله عز وجل : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى آخر الآية ١٨	٥٢
قوله عز وجل : (إن الدين عند الله الإسلام) إلى آخر الآية ١٩	٥٤
قوله عز وجل : (فإن حاجوك) إلى آخر الآية ٢٠	٥٦
قوله عز وجل : (إن الذين يكفرون بآيات الله) إلى آخر الآية ٢٢	٥٩
قوله عز وجل : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) إلى آخر الآية ٢٥ ...	٦٢
قوله عز وجل : (قل اللهم مالك الملك) إلى آخر الآية ٢٧	٦٥
قوله عز وجل : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) إلى آخر الآية ٢٨	٧١
قوله عز وجل : (قل إن تخفوا ما في صدوركم) إلى آخر الآية ٣٠	٧٧
قوله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله) إلى آخر الآية ٣٢	٧٩
قوله عز وجل : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً) إلى آخر الآية ٣٥	٨١

الموضوع	الصفحة
قوله عز وجل : (فلما وضعتها) إلى آخر الآية ٣٧	٨٧
قوله عز وجل : (هنالك دعا زكريا ربه) إلى آخر الآية ٣٩	٩٥
قوله عز وجل : (قال ربِّ أنَّى يكون لي غلام) إلى آخر الآية ٤٠	١٠٥
قوله عز وجل : (قال رب اجعل لي آية) إلى آخر الآية ٤١	١٠٧
قوله عز وجل : (وإذ قالت الملائكة) إلى آخر الآية ٤٣	١١٢
قوله عز وجل : (ذلك من أنباء الغيب) إلى آخر الآية ٤٥...	١١٦
قوله عز وجل : (ويُكَلِّم الناس في المهد) إلى آخر الآية ٤٧	١٢١
قوله عز وجل : (ويعلمه الكتاب والحكمة) إلى قوله (فيكون طيراً بإذن الله) من الآية ٤٩	١٢٤
قوله عز وجل : (وأُبْرِئُ الأكمه والأبرص) إلى آخر الآية ٤٩	١٣٠
قوله عز وجل : (ومُصَدِّقاً لما بين يديَّ) إلى آخر الآية ٥١	١٣٣
قوله عز وجل : (فلما أحس عيسى منهم الكفر) إلى آخر الآية ٥٤	١٣٦
قوله عز وجل : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك) إلى آخر الآية ٥٧	١٤٢
قوله عز وجل : (ذلك نتلوه عليك) إلى آخر الآية ٦١	١٤٦
القول في محاجة نصارى نجران في عيسى عليه السلام	١٥٠
قوله عز وجل : (إن هذا لهو القصص الحق) إلى آخر الآية ٦٤	١٥٣
قوله عز وجل : (يأهل الكتاب لم تُحاجون) إلى آخر الآية ٦٦	١٥٧
قوله عز وجل : (ما كان إبراهيم يهودياً) إلى آخر الآية ٦٨	١٦٠
قوله عز وجل : (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) إلى آخر الآية ٧١ ...	١٦٢
قوله عز وجل : (وقالت طائفة من أهل الكتاب) إلى قوله (أو يحاجوكم عند ربكم) من الآية ٧٣	١٦٦
قوله عز وجل : (قل إنَّ الفضْلَ بيد الله) إلى قوله (إلا ما دمت عليه قائماً) من الآية ٧٥	١٧٦
قوله عز وجل : (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) إلى آخر الآية ٧٧ ...	١٨٠
قوله عز وجل : (وإن منهم لفريقاً يلْوون ألسنتهم) إلى قوله : (كونوا عباداً لي من دون الله) من الآية ٧٩	١٨٤

الموضوع	الصفحة
قوله عز وجل : (ولكن كونوا ربانيين) إلى قوله : (لتؤمنن به ولتنصرنه) من الآية ٨١	١٩٠
قوله عز وجل : (قال أأقررتم) إلى آخر الآية ٨٣	١٩٨
قوله عز وجل : (قل آمنا بالله) إلى آخر الآية ٨٥	٢٠١
قوله عز وجل : (كيف يَهْدي الله قوماً) إلى آخر الآية ٨٩	٢٠٣
قوله عز وجل : (إن الذين كفروا بعد إيمانهم) إلى آخر الآية ٩١	٢٠٧
قوله عز وجل : (لن تنالوا البر حتى تُنْفِقُوا مما تحبون) إلى آخر الآية ٩٣	٢١١
قوله عز وجل : (فمن افترى على الله الكذب) إلى آخر الآية ٩٦	٢١٨
قوله عز وجل : (فيه آياتٌ بيناتٌ) إلى آخر الآية ٩٧	٢٢٣
قوله عز وجل : (قل يأهل الكتاب) إلى آخر الآية ٩٩	٢٣٩
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً) إلى آخر الآية ١٠١	٢٤٣
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله) إلى قوله (ولا تفرقوا) من الآية ١٠٣	٢٤٥
قوله عز وجل : (واذكروا نعمت الله عليكم) إلى آخر الآية ١٠٣	٢٤٩
قوله عز وجل : (ولتكن منكم أمة) إلى آخر الآية ١٠٥	٢٥٣
قوله عز وجل : (يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ) إلى آخر الآية ١٠٧	٢٥٧
قوله عز وجل : (تلك آيات الله) إلى آخر الآية ١١٠...	٢٦١
قوله عز وجل : (لن يضروكم إلا أذى) إلى آخر الآية ١١٢	٢٦٧
قوله عز وجل : (ليسوا سواء) إلى آخر الآية ١١٤	٢٧٢
قوله عز وجل : (وما يفعلوا من خير) إلى آخر الآية ١١٧	٢٧٩
قوله عو وجل : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) إلى آخر الآية ١١٨	٢٨٥
قوله عز وجل : (ها أنتم أولاء تحبونهم) إلى آخر الآية ١١٩	٢٨٨
قوله عز وجل : (إن تَمْسَسْكُم حسنةٌ تسُؤْهم) إلى آخر الآية ١٢٠	٢٩٢
قوله عز وجل : (وإذ غَدَوْتَ من أهلك) إلى آخر الآية ١٢٢	٢٩٦
قوله عز وجل : (ولقد نصركم الله ببدر) إلى آخر الآية ١٢٥	٣٠٢
قوله عز وجل : (وما جعله الله إلا بُشْرى لكم) إلى آخر الآية ١٢٩	٣١٢

الموضوع	الصفحة
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا) إلى آخر الآية ١٣٢	٣١٧
قوله عز وجل : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) إلى آخر الآية ١٣٤	٣١٩
قوله عز وجل : (والذين إذا فعلوا فاحشة) إلى آخر الآية ١٣٦...	٣٢٨
قوله عز وجل : (وقد خلت من قبلكم سنن) إلى قوله : (فقد مسّ القوم قرح مثله) من الآية ١٤٠	٣٣٢
قوله عز وجل : (وتلك الأيام نداولها بين الناس) إلى آخر الآية ١٤١	٣٤٠
قوله عز وجل : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) إلى آخر الآية ١٤٣	٣٤٣
قوله عز وجل : (وما محمد إلا رسول) إلى قوله (كتاباً مؤجلا) من الآية ١٤٥ ...	٣٤٧
قوله عز وجل : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) إلى آخر الآية ١٤٦	٣٥٢
قوله عز وجل : (وما كان قولهم) إلى آخر الآية ١٤٨	٣٦٣
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا) إلى آخر الآية ١٥١	٣٦٥
قوله عز وجل : (ولقد صدقكم الله وعده) إلى آخر الآية ١٥٢	٣٦٩
قوله عز وجل : (إذ تصعدون) إلى قوله : (قد أهمتهم أنفسهم) من الآية ١٥٤ ...	٣٧٣
قوله عز وجل : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) إلى آخر الآية ١٥٤	٣٨١
قوله عز وجل : (إن الذين تولوا منكم) إلى آخر الآية ١٥٥	٣٨٥
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) إلى آخر الآية ١٥٦ ...	٣٨٨
قوله عز وجل : (ولئن قُتلتم في سبيل الله) إلى قوله : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولك) من الآية ١٥٩	٣٩٢
قوله عز وجل : (فاعف عنهم) إلى آخر الآية ١٦٠	٣٩٧
قوله عز وجل : (وما كان لنبي أن يَغُلَّ) إلى آخر الآية ١٦٣	٤٠٠
قوله عز وجل : (لقد منّ الله على المؤمنين) إلى آخر الآية ١٦٥	٤٠٩
قوله عز وجل : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) إلى آخر الآية ١٦٧	٤١١
قوله عز وجل : (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا) إلى قوله : (فرحين بما آتاهم الله من فضله) من الآية ١٧٠	٤١٥
قوله عز وجل : (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) إلى آخر الآية ١٧٢	٤٢٠

الموضوع	الصفحة
قوله عز وجل : (الذين قال لهم الناس) إلى آخر الآية ١٧٤	٤٢٣
هل يزيد الإيمان وينقص ؟ بيان وشرح آراء العلماء في ذلك	٤٢٤
قوله عز وجل : (إنما ذلكم الشيطان) إلى آخر الآية ١٧٧	٤٢٧
قوله عز وجل : (ولا يحسبن الذين كفروا) إلى آخر الآية ١٧٩...	٤٣٠
قوله عز وجل : (ولا يحسبن الذين يبخلون) إلى قوله : (ونحن أغنياء) من الآية ١٨١	٤٣٦
قوله عز وجل : (سنكتب ما قالوا) إلى قوله : (بقربان تأكله النار) من الآية ١٨٣	٤٤١
قوله عز وجل : (قل قد جاءكم رسل) إلى آخر الآية ١٨٤	٤٤٤
قوله عز وجل : (كل نفس ذائقة الموت) إلى آخر الآية ١٨٥	٤٤٥
قوله عز وجل : (لتبلون في أموالكم) إلى آخر الآية ١٨٧...	٤٤٧
قوله عز وجل : (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) إلى آخر الآية ١٩٠	٤٥٢
قوله عز وجل : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً) إلى آخر الآية ١٩٢	٤٥٩
قوله عز وجل : (ربنا إننا سمعنا منادياً) إلى آخر الآية ١٩٤	٤٦٤
قوله عز وجل : (فاستجاب لهم ربهم) إلى آخر الآية ١٩٥	٤٦٦
قوله عز وجل : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا) إلى آخر الآية ١٩٨	٤٧٠
قوله عز وجل : (وإن من أهل الكتاب) إلى آخر الآية ٢٠٠	٤٧٣
تفسير سورة النساء	٤٧٩
القول في أنها مدنية إلا آية واحدة	٤٧٩
قوله عز وجل : (يأيها الناس اتقوا ربكم) إلى آخر الآية ١	٤٨٠
قوله عز وجل : (وآتوا اليتامى أموالهم) إلى قوله : (أو ما ملكت أيمانكم) من الآية ٣	٤٨٥
قوله عز وجل : (ذلك أدنى ألا تعولوا) إلى آخر الآية ٥	٤٩٣
قوله عز وجل : (وابتلوا اليتامى) إلى آخر الآية ٦	٤٩٨
قوله عز وجل : (للرجال نصيب) إلى آخر الآية ٩	٥٠٣
قوله عز وجل : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى) إلى قوله : (فلهن ثلثا ما ترك) من الآية ١١	٥٠٩

الموضوع	الصفحة
قوله عز وجل : (وإن كانت واحدة) إلى قوله : (يوصي بها أو دين) من الآية ١١	٥١٤
قوله عز وجل : (آباؤكم وأبناؤكم) إلى قوله : (يوصين بها أو دين) من الآية ١٢	٥١٨
قوله عز وجل : (ولهن الربع) إلى قوله : (فهم شركاء في الثلث) من الآية ١٢ ...	٥١٩
قوله عز وجل : (من بعد وصية يوصى بها) إلى آخر الآية ١٤	٥٢٣
قوله عز وجل : (واللاتي يأتين بفاحشة) إلى آخر الآية ١٦	٥٢٦
قوله عز وجل : (إنما التوبة) إلى آخر الآية ١٨	٥٣٢
قوله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) إلى آخر الآية ١٩	٥٣٩
قوله عز وجل : (وإن أردتم استبدال زوج) إلى آخر الآية ٢١	٥٤٦
قوله عز وجل : (و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم) إلى قوله : (وأُمهات نسائكم) من الآية ٢٣	٥٤٩
قوله عز وجل : (وربائبكم اللاتي في حجوركم) إلى آخر الآية ٢٣	٥٥٤

العلوم
مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٦٧١ - الدوحة - قطر

[illegible]
[illegible]
ص ب ١٩٧١ - الدوحة - قطر